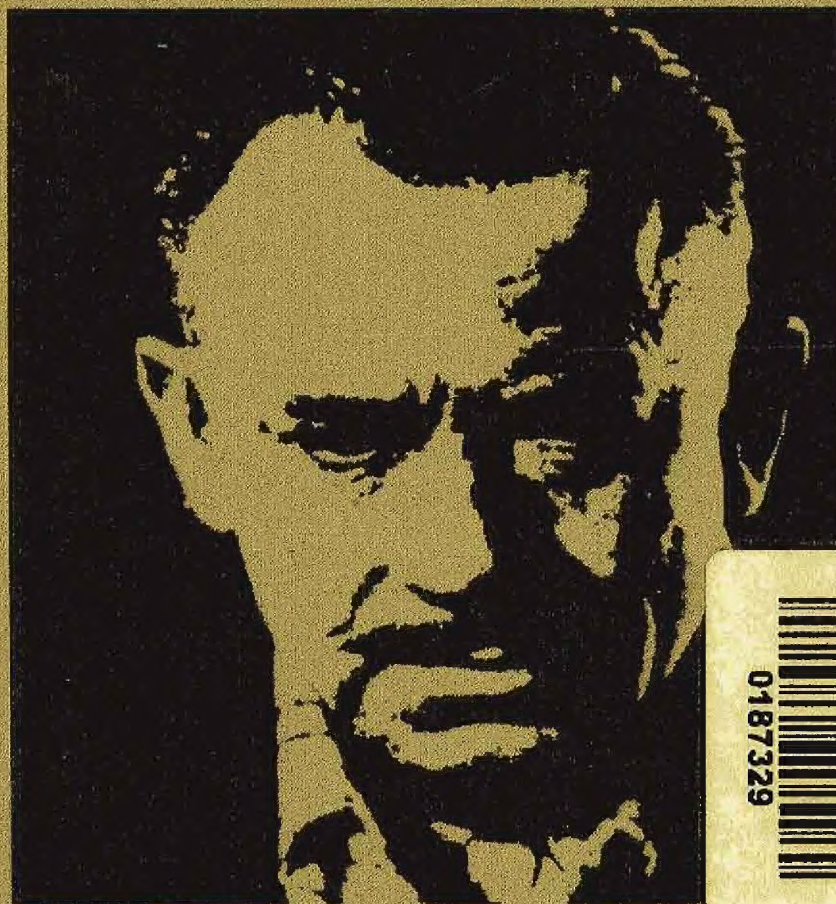
١٩٦٢

مكتبة نوبل

جون شتاينبك

حين فقدنا الرضا







اصدارات المجمع الثقافي

حين فقدنا الرضا

١٩٦٢

مكتبة نوبل

جون شتاينبك

حين فقدنا الرضا

ترجمة: سميرة عزام





مكتبة نوبل



Author: John Steinbeck	اسم المــؤلف : جون شتاينبك
Title : The Winter of Our Discontent	عنوان الكتاب . حين فقدنا الرضا
Translator: Samira Azzam	ترجمــة : سميرة عزام
Al- Mada : P. C.	النـاشـر : دار المدى للثقافة والنشر
Cultural Foundation	المجمع الثقافي/ أبو ظبي
First Edition 1998	الطبـعـة الأولى : ١٩٩٨
Copyright ©	الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون . ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢

بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١

فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

المجمع الثقافي

الامارات العربية المتحدة - أبو ظبي

ص .ب ٢٣٨٠

تلفون : ٢١٥٣٠٠

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or
7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon,
Fax : 9611- 426252

Cultural Foundation
U.A.E. Abu Dhabi
P.O Box: 2380
Tel 215300

إلى أختي «بث» التي يتألق نورها صافياً .

ج .ش .

القسم الأول

١

عندما هز صباح نيسان الذهبي ماري هاولي فأيقظها من نومها استدارت نحو زوجها فوجدته وقد دفع اصبعين إلى فمه ماطاً إياه من الطرفين حتى بدا أشبه بفم ضفدع .

قالت : « انت فكه يا ايتان ، وقد تلبّسك نبوغ المجون » .

« قولي ـ بالله عليك ـ أتتزوجينني أيتها الفأرة ؟ » .

« ماذا ؟ هل استيقظت على هذا السخف ؟ » .

« ان السنة تبدأ بيوم ، واليوم يبدأ بفجر » .

« لا بد أنك استيقظت . فهل نسيت أن اليوم هو يوم الجمعة العظيمة ؟ »

فقال بصوت اجوف : « لقد اصطف الرومان القذرون للصعود إلى الجلجلة » .

« لا تنتهك حرمة الدين . هل سيدعك مارولو تقفل المخزن في الحادية عشرة ؟ »

« يا وردتي الساذجة الحبيبة ان مارولو كاثوليكي وايطالي ، وهو على الأغلب لن يأتي مطلقاً . سأقفل المحل عند الظهر حتى ينتهي تنفيذ حكم الإعدام » .

« دعك من الهزء فالموضوع ديني » .

« هراء! هذا كلام أخذته عن أهل أمي فهو حديث قراصنة . لقد كان بالفعل تنفيذاً لحكم اعدام كما تعرفين » .

« لم يكونوا قراصنة . أنت نفسك قلت انهم كانوا صيّادي حيتان ، وأنت نفسك قد قلت انه كانت لديهم رسائل أو لا أدري ماذا تسميها من المؤتمر الأمريكي الوطني » .

« لقد اعتبرهم أهل السفن التي اطلقوا عليها النار قراصنة . مثلما اعتبر الجنود الرومانيون صلب المسيح على أنه تنفيذ لحكم الإعدام » .

« ها قد أترتك ، ولعلي أوثر أن تظل سخيفاً » .

« انني سخيف حقاً . والجميع يعرف ذلك » .

« أنت دائماً تحيّرني . لك ملء الحق في أن تفخر بأسلافك ـ الحجاج الأول والربابنة من صيادي الحيتان مجتمعين في عائلة واحدة » .

« أو من حقهم هم أن يفخروا ؟ »

« ماذا تعني ؟ »

« هل يحق لأجدادي العظماء أن يفخروا لو هم عرفوا انهم قد أنجبوا موظفاً حقيراً في بقالة ايطالي حقير في بلدة كانوا يمتلكونها ؟ »

« لست موظفاً حقيراً . بل أنت بمثابة مدير للمخزن تمسك دفاتره وتودع نقوده في المصرف وتطلب بضائعه » .

« تماماً ، كما أني أكنس المخزن ، وأنحني وأقدم الخضوع لمارولو ، ولو كنت قطاً لقمت بصيد فئران مارولو أيضاً » .

فطوّقته بذراعيها وقالت له : « لنظل على سخفنا ، وارجوك أن لا تجدّف في يوم الجمعة العظيمة . فأنا أحبك حقاً » .

وبعد برهة قال : « طيّب! هذا ما يقوله الجميع . ولكن لا تظني أن هذا يسمح لك بالنوم عارية بكل بلاهة مع رجل متزوج » .

« كنت موشكة أن أحدثك عن الأولاد » .

« ماذا ؟ أهم في السجن ؟ »

« ها أنت تسخف مرة أخرى . لعله من الأفضل أن يتحدثا إليك نفسيهما » .

« ولم لا تحدثيني أنت ؟ »

« ستقوم مارجي يونج هَنْت بقراءة حظي اليوم » .

« كالكتاب المفتوح ؟ من هي مارجي يونج هنت ؟ ومن تكون هذه حتى ندفع العشاق ـ » .

« أنت أدرى ما إذا كنت غيورة . يقولون انه عندما يتظاهر الرجل بعدم الاكتراث بفتاة جميلة ـ » .

« أهذه فتاة ؟ لقد تزوجت رجلين » .

« لقد مات الثاني » .

« أريد افطاري ، هل تؤمنين بما يشاع ؟ »

« لقد ذكرَت مارجي أخي عندما قرأت حظي في الورق إذ قالت : هناك شخص عزيز وقريب » .

« سينال شخص عزيز عليّ رفسةً مني ان لم يتحرك ويقم ـ »

« ها أنا ذاهبة ، أتريد بيضاً ؟ »

« أظن ذلك . لم يسمّونها بالجمعة العظيمة ؟ ما وجه العظمة فيها ؟ »

فقالت : « اف منك! فأنت تسخر بكل شيء » .

أعدت ماري القهوة ووضعت البيضات في وعاء وإلى جانبها الخبز المحمّص ، وعندها تسلّل إيثان ألِنْ هاولي إلى الزاوية المخصصة للطعام قرب النافذة وقال :

« أشعر بنشاط عظيم . لم يسمّونها بالجمعة العظيمة ؟ »

فأجابت من طرف الوجاق : « إنه الربيع » .

« جمعة الربيع ؟ »

« انها حمى الربيع . هل استيقظ الأولاد ؟ »

« كم أنت متفائلة! ما هم إلا أوغاد كسالى فلنوقظهما ونجلدهما » .

« ما أقطع كلامك إذ تتساخف . هل ستعود للبيت بين الثانية عشرة والثالثة ؟ »

« كلا » .

« لماذا ؟ »

« بسبب النساء اللواتي يتسللن اليك . لعل مارجي هذه ـ »

« والآن يا ايثان ـ إياك والتحدث بهذه اللهجة . فمارجي صديقة مخلصة ، وقد تنزع قميصها عن بدنها لتهبه لك » .

« حقاً ؟ ومن أين جاءت بالقميص ؟ »

« وهذا أيضاً كلام مقدس » .

« اراهنك على أي شيء على أننا قريبان إذ يجري في عروقها دم القراصنة » .

« أوه! ها أنت تعود للسخف! ها هي القائمة » . ودستها في جيب الصدر . « قد تبدو لك طويلة ولكن لا تنس أن عيد الفصح يحل في هذين اليومين ـ دزينتان من البيض ، لا تنس . ستتأخر » .

« أدري ـ قد تفوتني بيعة صغيرة لمارولو . لماذا تطلبين دزينتين ؟ »

« للتلوين . لقد طلب ألِنْ وماري ايلين ذلك خصّيصاً . الأفضل أن تذهب » .

« طيب يا زهرتي ـ ولكن ألا يمكنني أن أصعد وأدق عظام ألن وماري ايلين ؟ »

« أنت تعلم يا ايث انك تدللهما إلى درجة الإفساد » .

فقال : « الوداع أيتها السفينة المجيدة » . وصفق الباب الشبكي وراءه وانطلق في الصباح الأخضر الذهبي .

تطلّع إلى البيت الفاخر العتيق ، بيت ابيه واجداده بطلائه الأبيض وأركانه المتوازية وتلك الطاقة ذات المروحة فوق الباب الأمامي ، والزخارف التي تنطق بفن المهندس الشهير آدم . لقد استقر البيت في حضن حديقة

ريّانة محاطاً بتشجيرات الليلك الجبلي بالبراعم ، والتي بلغ عمرها المائة وثخن جذعها . وقد التقت رؤوس شجرات الدردار متعانقة في الشارع المسمّى باسمها ، واصفرت مبشّرة ببراعم الورق الجديدة . كانت الشمس قد تَنَحّت عن مبنى المصرف وشرعت تلتمع على برج الغاز الفضي بعد أن اطلقت روائح أعشاب البحر وملحه من الميناء القديم .

وفي شارع إلم (الدردار) بكّر شخص آخر في الخروج هو كلب المستر بيكر مدير المصرف ـ رِدْ بيكر ـ الذي كان يتمشى بكثير من الاناة والاعتزاز ، متوقفاً أحياناً ليشتم من جذوعها رائحة الكلاب التي سبقته في المرور ، تاركة آثارها على الجذوع .

« صباح الخير يا سيدي . اسمي ايثان ألِنْ هاولي . لقد تقابلنا قبل الآن أثناء التبول » .

توقف رد بيكر وصادق على التحية بهزة من ذيله .

قال ايثان : « كنت انظر فقط إلى بيتي . لقد كانوا يحسنون البناء في تلك الأيام الخوالي » .

قوّم رد رأسه ومدّ قائمته الخفية ليحكّ ضلوعه برفق .

« ولم لا ؟ فقد كانوا يمتلكون المال اللازم لذلك . زيت الحوت من البحور السبعة ، و« سيرماسيتي » . أتعلم ما تعني هذه الكلمة ؟ »

أطلق رد زفرة معولة .

« أرى انك لا تعرف معناها . انه زيت خفيف بديع له رائحة الورد يستخرج من فجوة في رأس الحيتان الضخمة . اقرأ قصة « موبي ديك » أيها الكلب . هذه نصيحتي لك » .

ورفع الكلب قائمته على مربط الجياد الحديدي قرب القناة .

وعندما استدار إيثان ليتابع طريقه التفت وقال : « ثم اكتب تقريراً عن الكتاب . فلعلك تعلّم ابني الذي لا يمكنه أن يتهجأ كلمة « سيرماسيتي » ، أو أية كلمة أخرى » .

يلتقي شارع إلم بالشارع العام على بعد قليل من بيت إيثان ألن هاولي العتيق . وفي منتصف المسافة تقاتلت جماعة من العصافير الدورية على العشب الجديد في حديقة بيت ايلجر ، لا على سبيل اللهو فحسب ، بل انها كانت تتصارع وتتناقر محاولة فقء عيون بعضها بكل شراسة وضراوة ، وقد ملأت الجو صخباً فلم تلحظ ايثان عندما اقترب منها ووقف مراقباً المعركة .

قال : «الطيور تتسالم في اعشاشها . فلم لا نتّحد نحن أيضاً ؟ أنتم يا صغاري لا يمكنكم الاتفاق حتى في صباح جميل كهذا الصباح . وأنتم ، أنتم الأوغاد الذين رعاهم القديس فرنسيس! كش! » وركض إليهم داقاً بقدمه فطارت العصافير وأجنحتها ترف هادرة وهي تزعق بمرارة زعاقاً شبيهاً بصرير باب . وتابع ايثان قائلاً : «دعوني أقل لكم هذا . ستظلم الشمس لدى الظهيرة وسيحل الظلام على الأرض ويتملككم الذعر» . ثم عاد إلى الرصيف وتابع طريقه .

لقد اصبح بيت فيلبس الواقع على القسم الثاني من الشارع نزلاً ، وقد خرج من بابه الأمامي جو مورفي الصرّاف في مصرف فيرست ناشونال ، وكان يعبث بأسنانه بمسواك ، ثم عدّل من صدريته الأنيقة وقال لإيثان : « أهلاً . كنت على وشك أن أزورك يا مستر هاولي » .

«لِمَ يسمّونها الجمعة العظيمة ؟ »

فقال جوي : « إنها كلمة لاتينية الأصل» .

كان جوي يشبه الحصان ، ويبتسم كالحصان رافعاً شفته العليا الطويلة ليعرض أسنانه الكبيرة المربعة . جوزف باترِكْ مورفي ، أو جوي الحبوب . وكان محبوباً فعلاً ومعروفاً في بلدة نيوبايتاون بالرغم من أنه لم يفد عليها إلا منذ سنين قليلة . وكان مزّاحاً يلقي بنكته كلاعب البوكر دون أن ترفَّ عينه ، إلا أنه كان يصهل ضاحكاً لنكت غيره . سواء سبق له أن سمعها أم لا . كان هذا المورفي حكيماً ـ يعرف خبايا الناس من المافيا إلى مونتباتن ـ إلا أنه كان يعلن هذه الخبايا بتلوين نبرته وكأنه يضعها بصيغة سؤال فينفي

هذا التلوين أي ادعاء في هذه النبرة ، ويجعل من سامعه شريكاً له ، فيصبح بمقدوره أن يعيدها على انها من عندياته . كان جوي قرداً ساحراً ، مقامراً ، إلا أن أحداً لم يره يراهن يوماً ، وكان كاتب حسابات ممتازاً ، وصرافاً مدهشاً يثق به السيد بيكر مدير المصرف ثقة تامة ، فينيط به تصريف أكثر أعمال المصرف . وكان هذا المورفي يعرف الناس معرفة صميمية ولا يستعمل قط اسم أحدهم الشخصي فإيثان هو مستر هاولي . ومارجي يونج هَنْت هي مسزيونج هنت بالنسبة لجوي ، بالرغم من أن الهمسات كانت تقول بأنه يضاجعها . ولم تكن له عائلة أو علاقات ، وكان يسكن بمفرده في غرفتين وحمام خاص في بيت فيلبس القديم ، ويتناول معظم وجبات طعامه في بار ومطعم فورماستر . وقد عرف السيد بيكر والشركة الكفيلة ماضي جو في الاعمال المصرفية ، كما عرفه الشركاء المساهمون . وكان في الحقيقة ذا ماض لا غبار عليه ، إلا أنه كانت لجوي الحبوب طريقة في سرد وقائع يزعم أنها وقعت لغيره تجعلك تشك في أنها وقعت لجوي نفسه ، فإذا كانت هذه هي الحقيقة فلا بد أنه قد مر بكثير من التجارب . وقد زاد من محبة الناس له أنه لم يكن متبجحاً . وكان يعنى بالمحافظة على نظافة أظافره كما يعنى بهندامه وبارتداء قميص نظيف دائماً وحذاء جيد التلميع .

تمشى الرجلان في شارع إلم متجهين إلى الشارع الرئيسي .

« طالما خطر لي أن أسألك عما إذا كانت هناك قرابة بينك وبين الأميرال هاولي ؟ »

فسأل ايثان . « أتقصد الأميرال هالسي ؟ لقد سمعنا عن ربابنة كثر في العائلة ولكنا لم نسمع قط بأميرال » .

« لقد سمعت أن جدك كان ربان سفينة لصيد الحيتان . لعل هذا ما جمع بينه وبين الأميرال في ذهني » .

فقال ايثان : « في بلدة كهذه لا بد من ورود الاساطير . فهم يقولون أيضاً ان أهل أبي قد قاموا ببعض أعمال القرصنة فيما مضى ، وان عائلة أمي

جاءت في الأصل مع المهاجرين الأول على ظهر السفينة مايْ فلَوَرْ» .

قال جوي : «ايثان ألن! باللّه ـ ألك صلة قرابة بايثان ألن أيضاً ؟ »

وردّ ايثان : «قد يكون ، يا له من نهار ، هل رأيت أجمل منه ؟ لم كنت تريد رؤيتي ؟ »

«آه نعم! أظنك ستقفل المخزن بين الثانية عشرة والثالثة . هل لك في أن تهيىء لي بضع شطائر حوالي الحادية عشرة والنصف ؟ سأمر بك لآخذها . وزجاجة حليب أيضاً » .

«ألن يقفل المصرف ؟ »

«سيقفل المصرف أما أنا فلا . سيبقى جوي الصغير هناك مشدوداً إلى دفاتره . ففي عطلة كهذه ترى الجميع يصرفون صكوكاً » .

قال ايثان : «لم افكر قط في ذلك» .

«هذه هي العادة في عيد الفصح ، وفي عيد الذكرى ، وفي الرابع من تموز ، وفي يوم العمل ، وفي أية عطلة آخر أسبوع . لو أنني أردت أن أُغيرَ على مصرف لفعلت ذلك تماماً قبل عطلة آخر الأسبوع ، فعندها ترى المال مكدّساً هناك في الانتظار» .

«ألم يقتحم اللصوص المصرف قط وأنت موجود فيه ؟ »

« كلا . ولكنهم أغاروا على صديق لي مرتين» .

«وماذا قال عن ذلك ؟ »

«قال انه ارتعد خوفاً فلم يملك سوى تنفيذ أوامرهم . لقد انبطح أرضاً وترك المال نهبة لهم . وقال بأن المال مؤمّن عليه أما هو فلا» .

«سأحمل لك الشطائر بعد أن أقفل المحل . سأقرع على الباب الخلفي . أي نوع من الشطائر تريد ؟ »

«لا تزعج نفسك يا سيد هاولي . سأجيئك عبر الزقاق ـ واحدة من الجنبون ، وواحدة من الجبن ، وخس ، ومايونيز ، وزجاجة حليب ، وزجاجة كوكا كولا أشربها فيما بعد» .

«لدينا سلامي جيد ـ فهذا محل مارولو كما تعلم» .

«لا ، اشكرك . كيف حال العضو الأوحد في المافيا ؟» .

«أظنه بخير» .

«على كل ، لا بد لك ولو كنت لا تحب الغرباء الإعجاب بشخص يحوّل عربة اليد المحمّلة بالبضاعة إلى كل هذه الأملاك التي يقتنيها . انه فعلاً حاذق . والناس لا تعرف شيئاً عن حقيقة دخيلته . لعله لا يحسن بي أن أقول هذا فالمفروض في موظف المصرف ألا يذيع شيئاً» .

«إنك لم تفشي سراً» .

كانا قد وصلا إلى الزاوية التي يلتقي فيها شارع إلم بالشارع الرئيسي . وبحركة آلية توقفا واستدارا ليلقيا نظرة على تلك الخرابة من الآجر والجص التي كانت فيما مضى تعرف بفندق الخليج والذي هدم ليفسح مجالاً لمحلات ولورث الجديدة . وقد بدت الجرافة الصفراء والرافعة التي ترفع الانقاض في الصباح الباكر صامتتين كنهّابين مفترسين متربصين .

قال جوي : «طالما اشتهيت أن أفعل هذا . لا بد انها لذة ما بعدها لذة أن يدير الانسان آلة كهذه ثم يرى الحائط يتهدم» .

فقال ايثان : «لقد رأيت في فرنسا ما يكفي من الهدم والتخريب» .

«تماماً! فاسمك منقوش على النصب المقام قرب الميناء» .

«هل تمكنوا من القبض على اللصوص الذين هاجموا صديقك ؟» كان ايثان واثقاً من أن هذا الصديق لم يكن سوى جوي نفسه . ولو سمعه اي شخص آخر لوثق من ذلك أيضاً .

«طبعاً . لقد اصطادوهم كالفئران . من حسن الحظ أن اللصوص ليسوا أذكياء . لو أن جوي يضع كتباً عن كيفية سرقة المصارف لما تمكن الشرطة من القبض على أحد» .

وضحك ايثان : «وما هي طريقتك ؟»

«في رأسي مخ يا مستر هاولي . وانا أقرأ الصحف ، وانني لأميز ما اذا

كان الشخص شرطياً ولو هو لم يرتد الملابس الرسمية . هل تريد الاستماع إلى محاضرتي القيمة ؟ »

« انها قيمة جداً ولكن لا بد لي من فتح المخزن » .

قال جوي : « سيداتي سادتي! أنا هنا في هذا الصباح الباكر ـ والآن اسمعوا كيف يقبضون على لصوص المصارف . اولاً ـ ان كانت لهم سوابق فلا بد أن لهم اضبارات . ثانياً ـ ينشب الشجار عادة بين اللصوص لدى اقتسام الغنائم فيفشي احدهم السر . ثالثاً ـ النساء . فهم لا يتعففون عنهن ، وهذا يؤدي بنا إلى النقطة الرابعة . رابعاً : إنهم يتسرعون في تبذير المال . فاذا راقبت المبذرين الجدد فإنك تكون قد وضعت يدك على اللصوص » .

« إذن ما هي طريقتك يا سيدي الاستاذ ؟ »

« من ابسط ما يكون . أعكس كل ما أسلفت . لا تقم بعملية سرقة مصرف ان كنت من أصحاب السوابق مهما كان نوعها . لا رفاق ولا شركاء ، قم بالعملية منفرداً ولا تطلع احداً على سرك . دعك من النساء . ولا تصرف النقود بل احفظها ، لسنين أن اقتضى الأمر . وعندما تتوفر لديك الظروف التي تبرر أن تكون ذا مال فأخرجه تدريجياً واستثمره ، ولكن لا تبدده » .

« وكيف يكون الأمر لو عرف السارق ؟ »

« ان هو تقنّع ولزم الصمت فكيف يمكن لأحد أن يتعرف عليه ؟ هل سبق لك أن قرأت الأوصاف التي يعطيها شهود العيان ؟ هذر في هذر! خبرني صديق شرطي أن الشهود كثيراً ما أشاروا اليه عندما كان يقف في الصف مع المشبوهين في بعض الحوادث . كانوا يقسمون الأيمان المغلظة على انهم رأوه وهو يقوم بارتكاب الجرم . والآن أعطني أجرتي عن المحاضرة من فضلك » .

دسّ ايثان يده في جيبه قائلاً : « ستكون ديناً لك عليّ » .

قال جوي : « سآخذ التسطائر مقابلها » .

عبر الاثنان الشارع الرئيسي ودخلا الزقاق الذي يشكل زاوية من الجهة الأخرى . فنفذ جوي إلى المصرف من بابه الخلفي في حين فتح ايتان مخزن مارولو للفاكهة والبقالة فصاح : « جنبون وجبن ؟ »

ورد جوي : «مع الخس والمايونيز» .

تسلل إلى غرفة المخزن من الزقاق الضيق نور ضئيل مغبر بسبب النافذة المغبرة ذات القضبان الصدئة . فتوقف إِيتان برهة في هذا المكان الأغبش الذي ارتفعت الرفوف فيه إلى السقف وقد رصت عليها علب وصناديق الفواكه المعلبة ، والخضرة ، والسمك ، واللحوم المحفوظة ، والجبن مشتماً رائحة فضلات الفئران من خلال الطحين والفاصوليا والبازيللا الجافة ، ومن خلال رائحة الحبر والورق المنبعثة من صناديق الحبوب ومن خلال رائحة الجبن الدسم الحادة والمقانق ، ومن خلال روائح لحم الخنزير المقدد ، ومن خلال اختمار نفايات الملفوف والخس ورؤوس البنجر الموجودة في صناديق القمامة قرب الباب الخلفي . ولما لم يحس بأي اثر لرائحة الفأر النتنة فتح باب الزقاق . فاندفعت قطة رمادية تريد الدخول ولكنه طردها بعيداً .

أشار للقطة : «لا ، لن تدخلي . الفئران هي طعام القطط ولكنك تؤثرين قضم المقانق . فانصرفي ، أتسمعينني ؟ انصرفي» . وتكومت القطة تلعق كفها الوردية ولكنها عندما سمعت «انصرفي» للمرة الثانية رفعت ذيلها وقفزت فوق السياج الخشبي خلف المصرف .

قال إِيثان بصوت عال : «لا بد انها كلمة سحرية» . ثم عاد إلى غرفة المخزن ، وأغلق الباب خلفه .

ونفذ من خلال الباب المتحرك خارجاً من الغرفة التَربة إلى الحانوت نفسه ، ولكنه سمع صوت خرير الماء في المرحاض . ففتح باب الخشب الرقيق وأشعل الضوء ثم جر سلسلة الماء وبعد ذلك دفع الباب الواسع ذا الطاقة الزجاجية ، المشبكة ، فاتحاً اياه ، ثم رفس بقوة كتلة الخشب لتسنده .

بدا لون الحانوت مخضراً من الستر المسدلة على الواجهة الأمامية الكبيرة . وكانت هنا ايضاً رفوف ترتفع إلى السقف وقد رصت عليها بترتيب واتقان المعلّبات والأطعمة المحفوظة في أوان زجاجية ، كأنها مكتبة للبطون . وفي جهة واحدة كان هناك العداد ، وآلة تسجيل النقد ، ثم أكياس الورق ، ثم الخيوط ، ومن بعدها خزانة التبريد البيضاء . ولمس ايثان زراً فأغرق قطع اللحم المبردة والمقانق والجبن والسمك بوميض ضوء النيون الأزرق البارد . وانعكس في المخزن ضياء صاف كالذي ينعكس عادة في الكاتدرائيات ـ كاتدرائية شارتر مثلاً . وتوقف ايتان ليتأمله ، انابيب للأرغن من علب البندورة المعلّبة ، معابد صغيرة من الخردل والزيتون ، ومئات من قبور السردين البيضاوية الشكل .

ثم شرع ينغّم صلاة باللاتينية بصوت أخن ، حشر فيها كلمات لا علاقة لها بالصلاة ، كحشرة وفأر ، ثم ختمها « آمين » طويلة . لكأنه يسمع صوت زوجته تعلّق على ما غنى بقولها : «انه لسخف منك ، فضلاً عن انك قد تجرح احساس أحدٍ ما . يجب ألا تفعل ذلك» .

موظف في حانوت! حانوت مارولو! وزوج وأب لولدين حبيبين ، فمتى تتاح له فرصة حلوة ؟ متى يمكنه الانفراد بنفسه ؟ الزبائن أثناء النهار ، وزوجه وطفلاه في المساء ، زوجه خلال الليل ، ثم الزبائن في النهار ، ثم الزوجة والطفلان في المساء . « في الحمام! هذا هو الوقت الوحيد » . قالها بصوت عال ثم أضاف : « والآن ، قبل أن افتح مجرى الماء . آه يا للرائحة الزنخة الطيبة والوقت السخيف البديع الكسول! والآن يا سكّرتي العزيزة ، تراني أخدش بكلامي هذا احساس احد من الناس ؟ ليس في المكان احد سواي وسوى عواطفي . أنا وسخافاتي حتى ـ حتى أفتح هذا الباب الأمامي الملعون » .

تناول مئزراً نظيفاً من الدرج القابع خلف آلة تسجيل النقد وفتحه . وعدّل شرائطه ولفه حول خصره النحيل ، ثم مد يديه إلى ظهره محاولاً عقده .

كان المئزر طويلاً يبلغ منتصف ساقيه . ورفع كفه اليمنى إلى أعلى ثم خطب قائلاً : «اسمعيني ايتها الكمثرى المعلبة ويا أيها المخلل - «ولما كان النهار اجتمعت مِشيخةُ الشعب ، رؤساءُ الكهنةِ والكتبةُ ، وأصعدوه إلى مَجْمعهم» .

هكذا اذن... لقد اجتمعوا باكراً... لقد بدأ الكلاب عملهم مبكرين فلم يضيعوا لحظة واحدة لأي سبب كان . والآن ، «وكان نحو الساعة السادسة...» قد يكون ذلك في الساعة الثانية عشرة ظهراً... «فكانت ظلمة على الارض كلها إلى الساعة التاسعة ، وأظلمت الشمس» .

«والآن كيف أتذكر هذا كله! يا إلهي لقد استغرق كبير وقت حتى يموت - وقت طويل فظيع» . وأنزل يده متسائلاً إلى الرفوف المزدحمة وكأنه ينتظر جواباً منها . «فكلميني الآن يا عزيزتي ماري . هل أنت احدى بنات أورشليم ؟ لا تبكين علي بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن... لأنه ان كان بالعود الرطب يفعلون هذا فماذا يكون باليابس ؟»

«مازالت هذه القصة تحيّرني . لقد تدبرت العمة ديبورا أمرها بأحسن مما كانت تدري . لم تحل الساعة السادسة بعد - لم تحل بعد» .

أزاح الستائر الخضراء عن الواجهة الامامية الكبيرة قائلاً : «أدخل يا نهار!» ثم فتح الأبواب الأمامية قائلاً : «ادخلي يا دنيا!» وفتح الأبواب ذات القضبان الحديدية وثبت درفاتها . ووجد شمس الصباح قد تمددت ناعمة على الرصيف ، فهي تشرق في شهر نيسان عند ملتقى الشارع الرئيسي بالخليج . عاد ايثان إلى الحمام ليجلب مكنسة يكنس بها الممرات .

وكان الرصيف اليوم - وفي أي يوم من الايام كامل رتيب - لا يتكون من شيء واحد فحسب بل من عدة أشياء . فهو ليس مجرد شمول في نور ما يفتأ يتألق حتى يصل الأوج ثم ينحدر إلى زوال ، بل هو تبدل في الحالات والمزاج ، تبدل في اللون والمعنى ، يتخلل حياكته ألف عامل من العوامل الطقسية المؤثرة ، من حر وبرد ، من رياح هادئة أو ثائرة ، ملفلف بعبير

ومذاق ، وأنسجة من جليد أو عشب ، من برعم أو ورق أو أطراف عارية مستوية سوداء . وكما يتبدل اليوم كذلك تتبدّل موضوعاته ، الحشرات والطيور ، القطط ، الكلاب ، الفراشات والبشر .

انتهى يوم إِيثان ألِن هاولي ـ يومه الهادئ المعتم الداخلي . والرجل الذي كنس الرصيف في الصباح بضربات موزونة لم يكن نفس الرجل الذي يسعه أن يعظ البضاعة المعلبة ، وان يرطن صلاة ما باللاتينية ، ولا حتى الرجل السخيف . لقد لمَّ بمكنسته أعقاب السجائر ولفافات العلكة والأزهار الساقطة من الأشجار والتراب ، ودفع بكومة المهملات إلى جانب الممر لتنتظر موظفي التنظيفات بسيارتهم الفضية الكبيرة .

اتخذ مستر بيكر طريقه المنحدر من بيته في شارع ميبل متجهاً إلى البناء ذي الآجرّ الاحمر الذي يشبه في هندسته الكنيسة ـ بناء مصرف فيرست ناشونال .

قال إِيثان : « صباح الخير يا سيد بيكر » واوقف مكنسته ليحفظ على بنطلون مدير المصرف أناقته .

« صباح الخير إِيثان . يوم لطيف » .

قال إِيثان : « انه لطيف فعلاً . حلَّ الربيع يا سيد بيكر . لقد صدق فأر الجبل هذه المرة أيضاً » .

« أجل لقد صدق ، » ثم تريّث السيد بيكر قبل أن يقول : « منذ مدة وأنا أودّ التحدث اليك يا إِيثان . هذه النقود التي ورثتها زوجتك عن أخيها ـ أكثر من خمسة آلاف ، أليس كذلك ؟ »

قال إِيثان : « ستة آلاف وخمسمائة بعد الضرائب » .

« ومع ذلك فهي نائمة في المصرف . يجبْ أن تُستثمَر . أود التحدث اليك بشأنها . يجب أن تَستثمر نقودك » .

« ستة آلاف وخمسمائة دولار لا تصلح لشيء ياسيدي . ولا يمكن الا تركها جانباً للطوارئ » .

«انني لا أومن بترك النقود معطلة يا إيثان» .

«تركها تنتظر ـ يفيد أيضاً» .

أصبح صوت مدير المصرف شديد البرودة :« انني لا أفهم» . الا أن نغمة صوته كانت تقول انه يفهم ويستسخف ما يفهم . وقد حركت تلك النغمة مرارة في نفس إيثان وفرّخت المرارة كذبة .

تركت المكنسة أثر انحناءة رقيقة على الرصيف . «القصة يا سيدي هي أن هذه النقود تخص ماري وهي نوع من ضمان وقتي فيما اذا وقع لي شيء» .

«اذن ، يجب أن تستعمل جزءاً منها لتؤمّن على حياتك» .

«ولكنها عرضية يا سيدي . هذه النقود هي من عقار شقيق ماري . وأمها ما تزال حية ترزق وقد تعيش لعدة سنين» .

«نعم ، افهم . اذ يثقل حمل العجائز أحياناً ،»

«واحياناً يقعدون على مالهم ولا يتزحزحون» . نظر ايتان إلى وجه السيد بيكر وهو يسرد كذبته فرأى الاحمرار يصعد إلى وجهه من تحت ياقته . «لعلك فهمت الآن يا سيدي انني ان استثمرت نقود ماري فقد أخسرها كما خسرت مالي ، وكما خسر ابي ثروته» .

«الماء يجري تحت الجسر يا ايثان ـ يجري تحت الجسر . أعلم انك قد احترقت ولكن الزمن يتبدّل ، وفرص جديدة تنفتح دائماً» .

«لقد واتتني فرصة يا سيد بيكر ــ ولم يكن من منطق فيها . لا تنس انني كنت املك هذا الحانوت بعد الحرب مباشرة . واضطررت لبيع نصف عقاري لأجهزه وكان هذا آخر ما نمتلك من وسائل التجارة» .

«أعلم يا ايثان . فأنا مدير المصرف واعرف كيف تسير أعمالك كما يعرف طبيبك نبضك» .

«انت تعلم انني ظللت طيلة عامين موشكاً على الافلاس حتى اضطررت لبيع كل ما املك باستثناء بيتي لأوفي ديوني» .

«ليس بوسعك أن تلوم نفسك من اجل ذلك فقد كنت مسرّحاً من الجيش ولا خبرة لك في التجارة . ولا تنس انك اصطدمت رأساً بركود السوق ـ غير اننا نسميه ارتداداً . وقد تحطّم فيه عدة تجار مجربين» .

«وقد تحطّمت أنا الآخر . فلأول مرة في التاريخ يعمل فرد من عائلة هاولي موظفاً في بقالة» .

«وهذا ما لا أفهمه يا ايثان . اذ من الحكمة لأي شخص أن يفلس ، ولكن الذي لا استطيع تفسيره هو بقاؤك مفلساً ـ وانت رجل مثقف وابن عائلة وذو اصل . لا ضرورة لبقائك على هذه الحال دائماً ـ اللهم الا اذا فقد دمك عنفوانه . ما الذي اوقعك يا ايتان ؟ ما الذي جعلك تستمر في هذه الكبوة ؟»

همّ ايثان بأن يردّ غاضباً فيقول : «انت لا تفهم ذلك بالطبع لأنك لم تجربه» . ثم كنس دائرة صغيرة من لفائف العلكة واعقاب السجائر وكوّمها في هرم دفعه صوب القناة . «ان الرجال لا يعثرون اذ بوسعهم ان يكافحوا الامور الكبيرة . انما يقتلهم الانحراف المستمر الذي يؤدي بهم في النهاية الى الفشل . فيستولي عليهم الفزع بالتدريج . وانني فزع . فقد تقطع شركة الكهرباء عنا التيار ، وزوجتي تحتاج الي ملابس ، كما يحتاج أولادي إلى احذية ولهو ومتع . تخيل أنه لن تتاح لهما فرصة الدراسة ؟ فكّر في تسديد قوائم الحساب الشهرية وفاتورة الطبيب ، ورسوم معالجة الاسنان ، وعملية استئصال اللوزتين ؟ ولنفرض اكثر من ذلك انني مرضت فلم اعد اقوى على كنس هذا الرصيف الملعون ؟ انت طبعاً لا تدرك هذه الأمور فهي سموم بطيئة تبلى بها أحشاؤك . لا استطيع أن افكر في شيء ابعد من قسط الثلاجة للشهر القادم . اكره عملي وأخشى أن اخسره في آن واحد . فأنّى لك أن تفهم هذا كله ؟»

«وام ماري ؟»

«قلت لك ـ انها جاثمة فوق المال وستموت وهي جاثمة عليه» .

«لم اكن اعرف كل هذا . ظننت أن ماري تنحدر من عائلة فقيرة ، ولكني اعلم انك تحتاج إلى الدواء خين تمرض ، أو قد تحتاج عملية أو هزّة كهربائية . كان رجالنا اصحاب جرأة وأنت تعلم ذلك . فلم يسمحوا لأحد أو لسبب أن يفتتهم حتى الموت . وها قد تبدّل الزمن ، وأمامنا فرص لم يحلم بها اسلافنا ، ولكنها نهبة للغرباء ، فالغرباء يأكلوننا . انتبه واستفق يا ايثان » .

« والثلاجة ؟ »

«اتركها ان اضطررت لذلك» .

« وماري والأولاد ؟ »

«انسهم لفترة . سيكنون اكثر تقديراً ان انت خرجت من هذا الجحر . لن تساعدهم بشيء بمجرد قلقك عليهم » .

« ونقود ماري ؟ »

«اخسرها ان اضطررت لذلك ، ولكن جازف بها . ولا اظنك تخسرها ان أتيحت لك النصيحة الطيبة . فالمجازفة ليست خسارة . ورجالنا كانوا رجال مجازفة مدروسة فلم يخسروا . سأصدمك يا ايثان . انك تحقّر ذكرى كابتن هاولي العجوز ، وانك لمدين لذكراه . لقد امتلك هو وأبي سفينة « بل أدير» احدى أواخر سفن صيد الحيتان وأحسنها . فانهض بنفسك يا ايثان . انك مدين لذكرى « بل أدير » بأمرٍ لم تقم بسداده لها بشيء من قوة واقدام » .

دفع ايثان بطرف مكنسته ورقة سيلوفان متمنعة إلى حافة القناة . ثم تمتم : «لقد احترقت « بل أدير » حتى طرفها الذي يساوي الماء » .

« كانت مؤمَّنة » .

«أجل كانت مؤمنة» .

«الا انني لم أكن مؤمّنا . فلم أفز بغير بيتي ولا شيء عداه» .

« يجب أن تنسى هذه الأمور . انك تفكر في شيء مضى . يجب أن تلملم لنفسك بعضاً من شجاعة وبعضاً من جسارة . ولهذا السبب نصحتك أن تستثمر نقود ماري . انني أحاول أن أساعدك يا ايثان » .

« أشكرك يا سيدي » .

« سننزع هذا المئزر عنك . عليك أن تفعل هذا من أجل كابتن هاولي . لو رآك لما صدق عينيه » .

« لا أظنه يصدق » .

« هكذا أريدك أن تتكلم . سننزع هذا المئزر » .

« لو لم يكن من أجل ماري والأولاد ـ »

« قلت لك انسهم ، انسهم من أجل مصلحتهم . ستحدث هنا في نيوبايتون بعض الامور الهامة . ويمكنك أن تصبح جزءا منها » .

« أشكرك يا سيدي » .

« يقول السيد مورفي إنه سيستمر في العمل بعد أن تقفلوا المصرف ظهراً . وسأحضّر له بعض الشطائر . أتريدني أن أهيء لك بعضاً منها أيضاً ؟ »

« لا ، أشكرك . سأدع جوي يتم العمل بمفرده . انه رجل طيب . أريد أن أعاين بعض العقارات ـ أعني في مكتب كاتب البلدية . محل هادئ وخاص وسأبقى من الثانية عشرة حتى الثالثة بعد الظهر . قد أجد لك شيئاً هناك . على كل سنتحدث في ذلك قريباً . فالى اللقاء » . لقد قصد أن تكون خطوته الاولى طويلة المدى حتى يجتاز حفرة في الارض ، ثم عبر مدخل الزقاق إلى الباب الامامي لمصرف فيرست ناشونال ، فابتسم إيثان لظهره المتواري .

وأنهى كناسته بسرعة فقد بدأ سيل من الناس بالانتشار متجهين إلى أعمالهم . ثم وضع حمّالات الفاكهة الطازجة في مدخل الحانوت . ولما تأكد من خلو الطريق من المارة رفع ثلاث علب مرصوصة من علب طعام الكلاب ثم مدّ يده خلفها وأخرج كيس العملة الصغير الكالح وأرجع طعام الكلاب . ثم دق على آلة تسجيل النقد استعداداً لقيد جديد ، وزع العشرينات والعشرات والخمسات وورقات الدولار الواحد كلاً في محلها . ثم فرز العملات الصغيرة من فئة الانصاف والارباع والقطع الأصغر قيمة ، ثم صفق

الدرج مقفلاً إِياه . لم يظهر من الزبائن سوى القليل ، بينهم اطفال أرسلوا لجلب رغيف خبز ، أو زجاجة حليب ، أو بعض القهوة التي فات أهلهم أن يشتروها ، بنات صغيرات بشعر ما يزال مشعثاً من أثر النوم .

دخلت مارجي يونج هَنْت بصدرها الوقح وبلوزتها الوردية وقد التصقت تنورة الجوخ التي ترتديها بحنان على وركيها ، الا أن إيثان رأى في عينيها ـ عينيها العسليتين قصيرتي النظر ـ نظرة لا يمكن لامرأته أن تراها ، اذ هي تختفي عادة بحضور الزوجات . هذه قناصة ، صيادة ، عشتروت تتصيد الذكور . لو كان كابتن هاولي العجوز موجوداً لوصفها بالعين الهائمة . كان في صوتها أيضاً نوع من بحة مخملية تتحول إلى نجوى رفيعة رخيمة اذ تتحدث إلى الزوجات .

قالت مارجي : « صباح الخير يا أيث ، يا له من يوم للنزهة! »

« صباح النور . أراهنك على أن القهوة قد نفدت من بيتك! »

« اذا استطعت أن تحزر بأن اقراص الملح الفوار قد نفدت من عندي فسأتجنبك بعد الآن » .

« ليلة ليلاء ، أليس كذلك ؟ »

« نوعاً ما ، قصة مع بائع متجول . ان امثاله يعتبرون كنزاً للمرأة المطلقة . حقيبة ملأى بالعينات المجانية . أظنك تسميه دلالا متجولا . لعلك تعرفه . اسمه بيجر أو بوجر يمثل شركة ب . ب . د . والدافع لذكري له قوله بأنه سيمر بك » .

« انا نشتري معظم حاجتنا من محل ويلاندز » .

« طيب . لعل مستر بوجر يبغي تنشيط تجارته ، هذا ان كانت حالته تفضل حالتي في هذا الصباح . باللّه عليك هل تستطيع أن تعطيني كوباً من الماء ؟ أريد أن أبلع بعض الاقراص » .

دخل ايتان المستودع وعاد بكوب من الكرتون ملأه من ماء الحنفية . فأسقطت فيه ثلاثة أقراص وتركتها تفور ثم قالت : « في صحتك » . وقذفت بها إلى جوفها ثم قالت : « والآن انشطي يا عفاريت » .

« سمعت انك ستقرئين طالع ماري اليوم » .

« يا الهي! كدت أنسى ذلك . يجب أن أمارس المهنة فقد أوفق في جمع ثروة » .

« ان ماري تهوى ذلك . أتبرعين فيه ؟ »

« المسألة لا تحتاج إلى براعة . اترك المجال للناس ـ أعني النساء ـ ليتحدثن عن أنفسهن ثم عد والق بالكلام اليهن فيخلن انك وهبت العلم بالغيب » .

« وماذا عن الغرباء السمر طوال القامة ؟ »

« وهذا الموضوع أيضاً . لو استطعت أن أقرأ طوالع الرجال لما علقت بالمشعوذَيْن اللذيْن كانا من نصيبي . يا لطيف! لكم أسأت قراءة بعض التشخصيات » .

« ألم يمت زوجك الأول ؟ »

« كلا . لقد مات الثاني . ألف رحمة عليه . ابن الـ ... لا . دعنا من ذلك ، ما فات مات . رحمة الله عليه » .

واذ ذاك دخلت الحانوت السيدة ازيزنسكي المسنّة فحيّاها ايثان متودداً وتلكأ وهو يقطع لها قطعة الزبدة التي طلبتها حتى انه علّق بكلمة أو كلمتين مثنياً على الطقس ، الا أن مارجي يونج هنت بدت متكاسلة مبتسمة وهي تتفحص علب معجون كبد البط ذات الغلاف الذهبي ، وعلب الكافيار الصغيرة التي تشبه علب المجوهرات والتي تقبع خلف العدّاد المجاور لآلة تسجيل النقد .

« والآن... » قالت مارجي عندما خرجت السيدةالمسنّة متمايلة وهي تتمتم لنفسها بالبولندية .

« والآن ـ ماذا ؟ »

« كنت افكر فقط ، لو كنت اعرف عن الرجال ما اعرفه عن النساء لرفعت يافطة ببابي . لم لا تعلمني يا ايثان شيئاً عن الرجال ؟ »

« انك تعرفين ما فيه الكفاية . بل اكثر من الكفاية » .

« دعك من ذلك ، أليس في مزاجك مجال لنزوة ؟ »

« هل تريدين أن نشرع الآن ؟ »

« دع ذلك لليلة ما » .

قال : « عظيم! ونجتمع ـ ماري وأنت والصغيران . الموضوع : الرجال ـ ضعفهم وغباؤهم وكيف يمكن استغلالهم » .

وتجاهلت مارجي لهجته : « الا يحدث أن تتأخر في عملك ، حسابات رأس الشهر أو شيء من هذا القبيل ؟ »

« كثيراً . ولكنني احمل عملي إلى البيت » .

رفعت مارجي ذراعيها فوق رأسها وامرّت اصابعها في شعرها . وسألت : « لماذا ؟ »

« لو سألتِ قطة لأجابت لأصنع سراويل لقطيطاتي » .

« أرأيت ما يمكنك أن تعلمني لو أردت ؟ »

فقال إيثان : « وبعد ما استهزأوا به نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه ومضوا به للصلب ، وفيما هم خارجون وجدوا انساناً قيروانياً اسمه سمعان ، فسخروه ليحمل صليبه ولما أتوا إلى موضع يقال له جلجلة ـ وهو المسمى موضع الجمجمة ـ »

« أف! أرحني من هذا الكلام » .

« نعم ، نعم . فهذه هي الحقيقة » .

« أتدري أي ابن كلب أنت ؟ »

« أجل ، يا ابنة أورشليم! »

وفجأة ابتسمت وسألت : « أتعلم ما الذي سأفعله ؟ سأقرأ طالعاً جهنمياً في هذا الصباح . ستصبح شخصية عظيمة ، أتدري ذلكِ ؟ كل شيء تلمسه سيتحول إلى ذهب . ستغدو زعيماً للرجال » . ومشت بسرعة إلى الباب ثم استدارت وقالت مبتسمة : « أتحداك في أن تحقق النبوءة وأتحداك في أن لا

تحققها . إلى اللقاء يا مخلّص »! . ما أغرب نقرات كعوب النساء عندما تدق على الرصيف محنقة .

وفي الساعة العاشرة تبدل كل شيء . انفتحت ابواب المصرف الزجاجية وغطّ نهر من الناس داخلين اليه ليجلبوا نقوداً ما لبثوا أن حملوها إلى حانوت مارولو واشتروا بها الاطعمة الترفة التي تتطلبها مناسبة الفصح . شغل إيثان بالحانوت انشغال المتزلج على الماء حتى دقت الساعة السادسة[1] .

رن جرس الحريق الغاضب في قبته فوق قاعة البلدية معلناً الساعة السادسة . فاندفع الزبائن خارجين وقد حملوا أكياس اللحم . فأدخل إيثان حمالات الفاكهة وأغلق الأبواب الأمامية وبعد ذلك ، وبدون ما سبب سوى أن الظلام قد حل على العالم وعليه ، أنزل الستر الخضراء فحلّ الظلام في الحانوت . لم يكن من ضوء سوى وهج النيون الأزرق الذي بدا وكأنه ينبعث من عالم الاشباح في البراد .

ووقف ايثان خلف العداد فقطع أربع قطع ثخينة من خبز الشعير ثم دهنها بالزبد بسخاء . ففتح باب البراد وتناول قطعتين من الجبن السويسري وثلاث شرائح من الجنبون . « خس وجبن » قال لنفسه : « خس وجبن . عندما يتزوج الرجل يقع في فخ » ودهن قطع الخبز بالمايونيز ثم شذّب قطع الخس ودهن شرائح اللحم وقال : « والآن زجاجة حليب وقطعة من الورق المشمع لنلفها » . كان يثني أطراف الورق بعناية عندما خشخش المفتاح في الباب الأمامي ودخل مارولو عريضاً كالدب ، وصدره منتفخ كالكيس ، مما جعل ذراعيه تبدوان وكأنهما ركبتا تركيبا . وكانت عينا مارولو نديتين ماكرتين ناعستين الا أن أسنانه الذهبية كانت تلتمع في الضوء المنبعث من البراد . وانفك زران علويان من ازرار بنطاله فكشفا عن ملابسه الداخلية الثقيلة رمادية اللون . ووقف شابكاً ابهامين صغيرين سمينين في حزامه وقد طرفت عيناه في الظلمة الخفيفة .

---

(١) الساعة السادسة حسب رواية الانجيل هي الساعه التى اسلم فيها المسيح الروح وتعادل الظهيرة بتوقيتنا .

«صباح الخير يا مستر مارولو . أظن أن الوقت قد بات أصيلاً » .

«مرحبا يا فتى ، لقد سارعت في اغلاق الابواب» .

«كل البلدة أغلقت محلاتها . ظننتك في القداس» .

«لا قداس اليوم . انه اليوم الوحيد في السنة الذي لا يقام فيه قداس» .

«صحيح ؟ لم أكن أعرف ذلك . أهناك ما استطيع عمله لك ؟ »

انمطّت الذراعان القصيرتان السمينتان وتأرجحتا إلى الوراء ثم إلى الامام على مرفقيه . «ذراعاي تؤلمانني يا فتى . وداء المفاصل يزداد سوءا» .

«ألا يوجد ما تداويه به ؟ »

«لقد فعلت كل شيء . كمادات حارة ، وزيت الحوت ، وحبوب ، وما زال يؤلمني . الجو ملائم والمحل مقفل فبوسعنا أن نتحدث اذن ، فما قولك يا فتى ؟ » وبرقت أسنانه

«أهناك مشكلة ؟ »

«مشكلة ؟ أية مشكلة ؟ »

«اذن ، انتظرني دقيقة . سآخذ هذه الشطائر إلى المصرف فقد طلبها مني السيد مورفي» .

«انك فتى ذكي . خدمة وتؤديها . هذا حسن» .

نفذ إيثان من خلال المستودع وعبر الزقاق وطرق الباب الخلفي للمصرف ثم ناول جوي الحليب والشطائر .

«أشكرك . لم يكن ثمة داع لإزعاج نفسك» .

«انها خدمة . هكذا يقول مارولو» .

«أرجوك . احفظ لي زجاجتي كوكا باردة . أشعر أن فمي قد امتلأ بأصفار يابسة» .

عندما عاد إيتان وجد مارولو يتفحص محتويات صفيحة القمامة .

«أين تريد أن تتحدث يا مستر مارولو ؟ »

«سأبدأ من هنا يا فتى» . ثم التقط أوراق قرنبيطة من الصفيحة قائلاً : «انك تقطع منها اكثر من اللازم» .

«ذلك لأجعلها مرتبة» .

«القرنبيط بالوزن . فكأنك تلقي بالنقود إلى القمامة . أعرف رجلاً يونانياً ذكياً يملك عشرين مطعماً تقريباً . يقول ان سر نجاحه يكمن في مراقبة القمامة فما تلقي به اليها لا يمكن بيعه . انه رجل ذكي» .

«نعم ، يا سيد مارولو» . وتحرك إيتان متململاً باتجاه مقدمة الحانوت ومارولو وراءه يثني كوعيه إلى الوراء والى الأمام .

«هل تقوم برش الخضرة كما طلبت اليك ؟»

«بالتأكيد» .

رفع صاحب المحل خسة وقال : «أشعر أنها جافة» .

«يا للجحيم يا مارولو! أتريدني أن أنقعها بالماء ؟ أن الماء يتشكل ثلث وزنها الآن» .

«ان الماء يجعلها تبدو ريانة حلوة وطازجة . أتظنني لا أعرف ؟ لقد بدأت حياتي بعربة بائع متجول ، عربة واحدة . وأعرف ما أقول . يجب أن تتعلم الصنعة يا فتى أو تصبح مفلساً . أما اللحم فأنت تدفع فيه أكثر من اللازم» .

«اننا نعلن عن لحم بقري من صنف ممتاز» .

«ممتاز أو غير ممتاز ، من من الزبائن يعرف الفرق ؟ والآن سنتحدث حديثاً ودياً . لدي الكثير من المدفوعات المعطلة في حساباتنا . ومن لا يدفع حتى الخامس عشر من الشهر فسنمحو اسمه من سجلاتنا» .

«ليس بوسعنا أن نفعل ذلك . فبعض هؤلاء الناس يتعامل معنا منذ عشرين عاما» .

«اسمعني يا فتى . حتى جون د . روكفلر لم يعد بوسعه أن يشتري أتفه شيء بالنسيئة» .

«أجل . ولكن هؤلاء الناس يوفون ما عليهم فيما بعد ، أعني معظمهم» .

«ما معنى يوفون فيما بعد ؟ ان هذا يجمد النقود . المخازن الكبيرة تشتري حمولة سيارات ، أما نحن فلا نستطيع ذلك . يجب أن تتعلم يا فتى . أناس طيبون! فليكن ، والمال طيب أيضا . لقد رميت بالكثير من فتات اللحم في القمامة» .

«انه دهن وقشر» .

«لابأس ، ان كنت تزنها قبل أن تقطعها . يجب أن تهتم بأي رقم يتلو الصفر فإن انت لم تفعل ذلك فمن يا ترى يفعله ؟ يجب أن تتعلم يا فتى» . ولم تتألق اسنان مارولو الذهبية فقد أصبحت شفتاه مغلقتين بإحكام كفخ صغير .

وقبل أن يدرك ايثان ما حدث هاج وتصاعد الغضب إلى رأسه وقال بحدة : «لست مخادعاً يا مارولو» .

«من يقول انك مخادع ؟ هذه هي التجارة المضبوطة ، والتجارة المضبوطة ، هي النوع الوحيد الذي يدوم . أتظن أن السيد بيكر يوزع عينات مجانية في مصرفه ؟»

هنا احتد ايثان وثار . فصاح : «والآن اسمعني . لقد عاش آل هاولي في هذه البلدة منذ منتصف القرن الثامن عشر . وأنت غريب ولن تدرك هذه الامور . ومنذ ذلك الحين ونحن نتعايش مع جيراننا ونحسن معاملتهم . وان كنت تظن انك تستطيع أن تأتي من صقلية وتقحم نفسك وتبدّل من هذا النميط فأنت مخطئ . وان كنت راغباً في فصلي فالامر لك ــ الآن وفي هذه الدقيقة ، ولا تقل لي يا «فتى «والا بعجت أنفك ــ »

التمعت الآن كل اسنان مارولو وقال : «حسناً حسناً ، لاتغضب . كنت احاول نصحك» .

«لاتدعُني بيا فتى . فعائلتي تسكن هذا المكان منذ مائتي سنة» .

وبدت العبارة في اذنه صبيانية فخفّ حنقه .

«انا لا اتكلم الانكليزية بطلاقة . انك تظن أن اسم مارولو اسم دخيل .

اسم دنيء ، اسم لاتيني . وأسلافي واسمي يرجعان إلى ما قبل ألفي أو ثلاثة آلاف عام . مارلوس من روما ، فاليريوس ماكسيموس يذكر ذلك . فما هي قيمة مائتي عام ؟ »

« انك لست من هنا » .

« وانت ايضاً لم تكن هنا قبل مائتين من الاعوام » .

والآن ، بعد أن تسرّب كل حنقه ، وجد ايثان نفسه امام احد هذه الامور التي تجعل الانسان يتشكك في متانة تلك الحقائق الخارجة عن نفسه . وجد المهاجر بائع الفاكهة المتجوّل ينحوّل امام عينيه ، رأى قبة الجبين والأنف القوي المدبَّب والعينين العميقتين الحادتين الجريئتين ، رأى الرأس مرتكزاً على اعمدة من العضلات ، رأى العزة عميقة واثقة حتى انها لا تستنكف من التظاهر بالضعة . انه اكتشاف يهز الانسان ويجعله يتساءل : ان فاتني أن ألحظ هذا فكم من أمور أخرى فاتتني ؟

فقال برقة : « لا حاجة بك إلى التحدث بهذه الطريقة » .

« تجارة مضبوطة . أنا اعلمك التجارة . عمري ثمانية وستون عاماً . لقد ماتت زوجتي . وداء المفاصل يؤلمني! وأنا أحاول أن اعلّمك التجارة . لعلك لا تريد أن تتعلم . فمعظم الناس لا يتعلمون من غيرهم فيفلسون » .

« لا حاجة بك لإعادة وتكرار تلك العبارة لا لسبب الا لأني افلست فيما مضى » .

« لا . لقد أسأت فهمي ، فأنا أحاول تعليمك التجارة المضبوطة حتى لاتفلس مرة أخرى » .

« وأي فائدة في ذلك فأنا لست صاحب تجارة » .

« ولكنك ما تزال شاباً » .

قال ايثان : « انظر الي يا مارولو . انني ادير لك هذا الحانوت وأمسك الدفاتر وأودع النقود في المصرف وأوصي على البضاعة واخدم الزبائن ـ فيعودون . أليس هذا كله تجارة مضبوطة ؟ »

«صحيح ـ لقد تعلمت شيئاً . لست ولدا . انت تتور عندما اسمّيك بفتى . فماذا أسميك ؟ هكذا اسمّي الجميع» .

«حاول أن تستعمل اسمي» .

«لا يبدو ذلك ودياً للسمع . فكلمة فتى ودية للغاية» .

«لكنها ليست وجيهة» .

«الوجاهة ليست مودة» .

فضحك ايثان . «لو كنت موظفاً في حانوت لكان عليك أن تحافظ على وجاهتك من اجل زوجتك وأولادك . أتفهم ؟»

«انها وجاهة مزيّفة» .

« مزيفة طبعاً . لو كانت لي كرامة حقيقية لما فكرت بها . كدت انسى شيئاً قاله لي ابي العجوز قبل أن يموت بمدة قصيرة . قال : ان المدخل للإهانة يتصل رأساً بالذكاء والطمأنينة . فمثلاً كلمة «ابن الـ ...» هي اهانة للرجل الذي يشك في امه فقط . ولكن كيف يمكنك أن تهين رجلاً كألبرت أينشتين ؟ كان حياً حين قال لي ابي هذا . ولذلك استمِرْ في تسميتي بيا فتى اذا كنت ترغب في ذلك»

«أرأيت يا فتى ؟ هذا اكثر وداً» .

«حسناً . ماذا كنت موشكاً أن تقوله لي عن أعمال ترى انني لا أقوم بها ؟»

«التجارة هي المال . والمال ليس ودوداً ، ولعلك يا فتى ودود في معاملاتك اكثر من اللازم . والمال ليس طيباً . لا اصدقاء للمال سوى المزيد من المال» .

«هذا هراء يا مارولو . اني اعرف كثيراً من اصحاب الأعمال ، وهم طيبون ودودون وشرفاء»

«نعم ، ولكن خارج العمل . ستكتشف ذلك بنفسك . وعندما تكتشف ذلك يكون الوقت قد فات . أنت تحسن ادارة الحانوت يا فتى ولكنه لو كان

لك لأفلست ـ بطريقة ودية ايضاً . اني لن ألقي عليك درساً حقيقياً كالمدرسة . أستودعك الله يا فتى » . وطوى مارولو ذراعيه وخرج مسرعاً من الباب الامامي وصفقه خلفه فأحس ايثان بالظلام ينطبق على العالم .

سمع ايثان دقات معدنية الصوت على الباب الأمامي ، فدفع الستارة جانباً وصاح : «ان المحل مغلق حتى التالثة» .

دخل الغريب ـ رجل نحيل دائم الشباب ولكنه لم يكن شاباً في يوم من أيام عمره ، أنيق الهندام ، شعره يلتمع خفيفاً على جلدة رأسه ، والعينان مرحتان حركتان .

«آسف لإزعاجك . فلا بد من أن انتهي من عملي . اردت أن اراك على انفراد . خيّل اليّ أن العجوز لن يتحرك من هنا » .

« من ؟ مارولو ؟ »

«نعم . كنت واقفاً على الجانب الآخر من الشارع » .

نظر ايثان إلى اليدين النظيفتين ورأى في الاصبع الثالث حجراً شبه كريم ركب على خاتم ذهبي .

لحظ الغريب نظرة ايثان فقال : «لم آت بقصد السرقة . لقد قابلت ليلة البارحة صديقة لك» .

« أجل ؟ »

« مسز يونج هنت . مارجي يونج هنت » .

« حقاً ؟ »

أحسّ ايثان بذهن الغريب المتململ وهو يتشمم مفتشاً عن مناسبة أو ارتباط مشترك يبني عليه صلة ما .

«فتاة طيبة . مدحتك كثيراً . ولذا فكرت... اسمي بوجرز وانا أمثّل في هذه المنطقة شركة ب .ب .د » .

«نحن نبتاع حاجياتنا من ويلاندز» .

«اعرف ذلك . ولهذا السبب جئتك . فكرت انك فد تحب أن تتوسع

قليلاً . نحن جدد في هذه المنطقة ولكننا نتوسع بسرعة . يجب أن نمنح بعض التسهيلات حتى نثبت أقدامنا . ومن صالحك أن تنتهز هذه الفرصة » .

« يجب أن تبحث مع مارولو في ذلك . فقد درج على التعامل مع ويلاندز » .

لم ينخفض الصوت ، الا أن اللهجة اختلفت بحيت باتت تحمل جواً من السرية وهو يسأل : « أأنت الذي توصي على البضاعة ؟ »

« أجل ، ذلك لأن مارولو مصاب بداء المفاصل والى جانب ذلك فان لديه مهام اخرى » .

« نستطيع أن نشذّب الاسعار قليلاً » .

« اظن أن مارولو قد شذبها إلى اقصى ما يمكن التشذيب . يحسن بك أن تراه » .

« هذا ما لا اريد . اريد الرجل الذي يوصي على البضاعة ، وهذا الرجل هو أنت » .

« لست أكثر من موظف » .

« انت الذي يوصي يا مستر هاولي . وبامكاني أن امنحك خمسة بالمائة كعمولة » .

« قد يرضى مارولو بمثل هذه العمولة اذا كان الصنف مماثلاً » .

« انت لا تفهمني . لا اريد التعامل مع مارولو . هذه الخمسة بالمائة ستكون نقداً ـ لا صكوك ولا سجلات ولا متاعب مع أهل الضرائب ، نقداً نظيفاً ظريفاً من يدي ليدك ومن يدك لجيبك » .

« ولماذا لا يحصل مارولو على هذا التخفيض ؟ »

« اتفاقيات الاسعار » .

« طيب . افرض انني أخذت هذه الخمسة بالمائة واعطيتها لمارولو ؟ »

« أظنك لا تعرفهم كما أعرفهم أنا . إن أعطيتها له فسيشرع في التساؤل عن المزيد من المبالغ التي لا تعطيها له . وهذا طبيعي تماماً » .

خفض ايثان من صوته وقال : « أتريدني أن اخون الرجل الذي أعمل عنده ؟ »

« من قال ان في الامر خيانة ؟ انه لن يخسر شيئاً ، وسيتاح لك أن توفر شيئاً لنفسك . وكل واحد له الحق في أن يوفّر شيئاً لنفسه . وقد قالت مارجي انك شاب حاذق ذكي » .

قال ايتان : « حقا انه يوم مظلم » .

« كلا . هذا لأنك أسدلت الستائر » . واشتم الذهن المتوقد رائحة الخطر . فبدا كفأر يحار بين رائحة المصيدة ورائحة الجبن الزكية . قال بوجرز : « فكر بالامر وحاول أن تلقي في طريقنا ببعض الاعمال . سأمر بك حين أفد على المنطقة . وانا امر عادة مرة كل اسبوعين . وهذه بطاقتي » .

بقيت يد ايثان مدلاة . ووضع بوجرز البطاقة على سطح البراد ، وتابع هذا كلامه : « وهاك تذكاراً صغيراً نهديه لأصدقائنا الجدد » . ثم اطلع من جيبه الجانبي محفظة من جلد الفقمة ـ محفظة جميلة ترفة قدّمها لإيثان قائلاً : « انها شيء صغير ظريف يتسع لحفظ اجازة السواقة والبطاقات » .

ولم يجب ايثان بشيء .

وقال بوجرز : « سأمر بك بعد اسبوعين . فكر في الأمر . سأجيئك بالتأكيد فلدي موعد مع مارجي ، انها فتاة عظيمة » . ولما لم يسمع جوابا قال : « سأخرج الآن وأراك قريبا » . وفجأة اقترب من ايثان وقال : « لا تكن أحمق . فكل الناس يفعلون ذلك . كل الناس ؟ » ثم خرج بسرعة من الباب وأغلقه بهدوء وراءه .

وفي سكون الظلمة سمع ايتان طنين المحول الكهربائي للبراد . ثم استدار متمهلاً إلى المستمعين الذين انتظموا رفوفاً .

« ظننتكم اصدقائي! لم ترفعوا يداً للدفاع عني . وداعاً يا علب المحار ، وداعاً يا مخلل ، وداعاً يا دقيق الفطائر . لن أصلي من اجلكم بعد اليوم . عجباً! ترى ماذا كان يفعل القديس فرنسيس لو أن كلباً عضه أو عصفوراً

تغوط عليه ؟ أكان يقول : «اشكرك ايها الاستاذ الكلب . شكراً جزيلاً ، سيدتي العصفورة ؟ » ثم أدار رأسه اذ سمع جلبة وقرعاً ودقاً على باب الممر فنفذ مسرعاً من خلال المستودع وهو يدمدم : «زبائن اكتر مما لو كان الحانوت مفتوحاً » .

ودخل جوي مورفي وهو يترنح وقد أمسك بعنقه : «النجدة! » قالها متأوها . «ببسي كولا على الاقل . فاني أموت من الظمأ . لم كل هذا الظلام ؟ ام أن عينيَ قد ضعفتا ايضا ؟ »

«لقد اسدلت الستائر محاولا عدم تشجيع الصيارفة العطاش » .

ومشى امامه إلى البراد ونبش زجاجة مكسوة بالثلج وفتحها ومد يده ليستخرج الثانية . «وسأتناول واحدة أنا ايضا » .

استند جوي إلى البراد وسكب في حلقه نصف الزجاجة دفعة واحدة تم قال : «ها! لقد فقد احدهم كنزا » . والتقط المحفظة الجلدية .

«هذه هدية صغيرة من ممتل شركة ب .ب .د . المتجول . انه يحاول أن يجعلنا من زبائنه » .

«يبدو انه طامع في الكتير . فهذه يا بني من صنف ممتاز وقد حفرت عليها حروف اسمك وبالذهب » .

«صحيح ؟ »

«اتعني انك لا تدري ؟ »

«لقد تركها قبل دقيقة... وخرج » .

نقف جوي الجلد المطوي فاتحا اياه وخشخش جيوب البلاستيك الشفافة الخاصة بوضع بطاقات الهوية . وقال : «يحسن بك بعد اليوم أن تنتسب إلى احد النوادي » . ثم فتح الجزء الخلفي وقال : «ها! هذا ما ادعوه بالادراك والحذاقة » . واخرج من المحفظةورقة جديدة من فئة العشرين دولاراً ممسكا بها باصبعيه الاول والثاني . «لقد عرفت انهم فد شرعوا في الهجوم ولكني لم اكن اعرف انهم هجموا بالدبابات . وهذا تذكار يسنحق التذكر » .

«هل وجدتها في المحفظة ؟»

«أو تظن انني وضعتها بنفسي فيها ؟»

«جوي ، اريد أن اقول شيئاً . هذا الرجل عرض عليّ عمولة تبلغ خمسة بالمائة على أية مشتروات اطلبها منهم» .

«يا سلام! يا سلام! لقد وافتك الثروة أخيراً . وهي في هذه المرة ليست مجرد وعد عقيم . يجب أن نشرب الكولا على حسابك . فاليوم يومك» .

«اتقصد انه يجب أن اقبل العرض ؟»

«ولم لا ؟ اذا لم يضيفوه إلى سعر الكلفة ؟ من سيخسر ؟»

«لقد قال لي بأن لا أذكر شيئاً لمارولو ، والا ظن انني احصل على اكثر من ذلك» .

«طبعاً سيظن ذلك . ماذا حدث لك يا هاولي ، أمجنون أنت ؟ لعلك ما تزال جاهلاً ؟ أكنت تفكر في رفض العرض ؟»

«امسكت نفسي بالقوة عن رفسه» .

«ها! هكذا اذن ؟»

«قال ان كل الناس تفعل ذلك» .

«هذه فرصة لا تسنح لكل انسان . وانت احد هؤلاء المحظوظين الذين سنحت لهم» .

«لا اراها عملية مستقيمة» .

«ولم لا ؟ من الذي يتضرر من هذه العملية ؟ هل هي ضد القانون ؟»

«أتعني انك تقبل بها ؟»

«اقبلها ؟ لو صحت لي لفتحت عيني الثنتين لها . أما في عملي فكل الكوى مسدودة . ان كل شيء بامكانك فعله في المصرف يعتبر ضد القانون ـ اللهم الا اذا كنت المدير . اني لا أفهمك . لم كل هذا التردد ؟ لو انت سلبتها من صاحبنا ألفيو لقلت إنها ليست مستقيمة تماماً . ولكن الأمر ليس كذلك . أنت تؤدي لهم خدمة وهم يؤدون لك خدمة ، خدمة هشة ظريفة

خضراء . لا تكن مجنوناً . فكر في زوجتك وأطفالك . وتربية الأطفال تزداد تكاليفها يوماً بعد يوم » .

« والآن اود لو ترحل » .

وضع جوي مورفي زجاجته بحدة على الطاولة وهي لما تفرغ بعد وقال ببرود :« مسترهاولي ، بل مستر ايثان الن هاولي ، إن كنت تظن أنني قد اقدم على عمل مشين أو انني اقترح عليك أو اشجعك على مثله ، فاذهب وادفن نفسك » .

ومشى جوي متبختراً صوب المستودع .

« لم اقصد هذا . لم اقصده . واللّه لم اقصد يا جوي . لقد تلقيت اليوم صدمتين وبالاضافة الى ذلك فان هذه العطلة مريعة وفظيعة » .

توقف مورفي وسأل : « ماذا تقصد ؟ أوه ، نعم... لقد عرفت . عرفت تماماً . أتعتقد بأني اعرف ؟ »

« في كل عام ، ومنذ كنت طفلاً كان يرافقني هذا الشعور الا انه يزداد سوءاً ، ربما لأن ادراكي لمعناه قد ازداد ، انني اسمع الآن تلك الكلمات الكئيبة . « إلهي ، إلهي لماذا تركتني » .

« أعرف يا ايثان . اعرف . انها على وشك الانتهاء ، لقد انتهت تقريباً يا ايثان . ارجوك ، انس أني كنت على وشك أن اتركك » .

وقرع جرس مصلحة الحريق مرة واحدة . قال جوي : « لقد قضي الامر ، وانتهى كل شيء ولن يعود قبل عام » . وانسل بهدوء خارجاً من المستودع وأقفل الباب وراءه وابتلعه الزقاق .

رفع ايثان الستائر ، وفتح الحانوت من جديد ، الا أن حركة البيع لم تكن ناشطة ـ بضعة صغار يطلبون زجاجات الحليب وأرغفة الخبز وفلذات اللحم وعلب البازلاء . وخلت الطريق من السابلة . وفي خلال نصف الساعة التي تسبق الساعة السادسة مساء وبينما كان إيثان يتهيأ لإقفال الحانوت ، لم يفد احد عليه . ولم يتذكر الحاجيات التي أوصت بها ماري الا بعد أن

اقفل الحانوت وتوجه للبيت ـ فاضطر أن يعود ويضعها في كيسين كبيرين ثم يقفل الحانوت من جديد . كان يريد أن يتمشى إلى جانب الخليج ويراقب الامواج الرمادية تضرب أعمدة المرفأ ، ويشم رائحة البحر ويتحدث إلى طائر نورس يقف على طوافة المرسى غامساً منقاره في الريح . وتذكر شعراً كتبته شاعرة قبل زمن بعيد وقد اهتاجت مشاعرها لدى رؤيتها طير النورس محوماً . تبدأ القصيدة هكذا : «أيها الطائر السعيد ـ ما سر نشوتك ؟» الا انها لم تكتشف سر نشوة الطائر ، ولعلها ـ على الارجح ـ لم تشأ أن تعرف .

لم تشجعه الأكياس المثقلة بأغراض العيد على هذه النزهة . فمشى إيتان بسآمة عبر الشارع الرئيسي متخذاً طريقه في شارع إلم ، متباطئاً وهو يتجه صوب بيت آل هاولي العتيق .

٢

أقبلت عليه ماري وتناولت احد الكيسين منه .

«لدي الكثير مما يقال وليس بوسعي أن اصبر» .

قبّلها ، فأحسّت بجفاف شفتيه فسألت : «ما بك ؟»

«تعب قليلاً» .

«ولكنك اغلقت المحل لثلاث ساعات» .

«العمل كثير» .

«ارجو أن لا تكون مكتئباً» .

«انه يوم كئيب» .

«لقد كان يوماً عظيماً . انتظر واسمع» .

«أين الصغار ؟»

«في الطابق العلوي مع الراديو . لديهم ما يقولونه لك» .

«مشكلة ؟»

«لم تسميها مشكلة ؟»

«لا ادري» .

«انك لست على ما يرام» .

«اللعنة ، أشعر بذلك» .

«اخبار بديعة ولكني سأنتظر إلى ما بعد العشاء حتى يحين دورنا» .

هبط الن وماري ايلين الدرج وهما فائران ودخلا المطبخ وقالا : «لقد عاد إلى البيت» .

«بابا ، ألديكم (بيكس) في الحانوت ؟»

«لا بد انك تقصد تلك الحبوب يا الن» .

«اجل لدينا منها» .

«ليتك تجلب لنا بعضاً منها . فعلى غطائها صورة وجه فأر يمكن قطعها واتخاذها قناعاً» .

«ألست كبيراً على مثل هذه السخافات ؟»

قالت ايلين : «اذا انت ارسلت الغطاء مع مبلغ عشرة سنتات فستحصل على وسيلة للتكلم الباطني مع التعليمات . لقد سمعنا ذلك الآن في الراديو» .

قالت ماري : «قولا لأبيكما ما الذي تريدان عمله» .

«لقد انتوينا أن نشترك في المسابقة الوطنية «احب اميركا» . الجائزة الأولى رحلة إلى واشنطن ولقاء الرئيس ـ مع الوالدين ـ كما أن هناك الكثير من الجوائز الأخرى» .

قال ايتان : «عظيم . وما يترتّب عليكما أن تفعلا ؟»

فصاحت ايلين : «لقد نشرت صحف هيرست ذلك في طول البلاد وعرضها . كل ما في الأمر أن تكتب مقالة عن سبب حبك لأميركا . وسيظهر جميع الفائزين في التلفزيون» .

قال الن : «فرصة عظيمة» . « ما رأيك في رحلة إلى واشنطن ، والنزول في فندق ، ومشاهدة الاستعراضات ، ومقابلة الرئيس ، والتمتع بالنزهات ؟ أليست هذه فرصة عظيمة ؟»

«ودروسكما ؟»

«ستكون الرحلة في الصيف وسيعلنون عن الفائزين في الرابع من تموز» .

«اذا لابأس من اشتراككما بها . هل أنتما فعلاً تحبان اميركا ام انكما تحبان الجوائز ؟ »

فقالت ماري : « بالله لا تفسدها عليهما » .

«اردت فقط أن افصل بين الحبوب وقناع الفأر ، اذ انها يختلط بعضها ببعض احياناً » .

« بابا ، أين يمكننا أن نفتش عن مصادر للمقالة ؟ »

« مصادر ؟ »

« طبعاً ، فقد قال الرفاق ان هناك مصادر » .

« جدك الاكبر كان يقتني بعض الكتب القيّمة . وهي ما تزال في العلّية » .

« اي نوع من الكتب ؟ »

« خطب لنكولن ، ودانيل وبستر ، وهنري كلاي . ويمكنك أن تلقي نظرة على كتب تورو أو والت ويتمان أو امرسون ـ ومارك توين أيضاً . وكلها موجودة في العلية » .

« هل قرأتها يا بابا ؟ »

«لقد كانت تخص جدي وكثيرا ما كان يقرأ لي فيها » .

«لعلك تستطيع أن تساعدنا في اعداد المقال » .

«عندئذ لن يكون من انشائكما » .

قال ألن : « حسنا ، هل ستتذكر أن تجلب لنا بضع علب من البيكس ؟ انها ملأى بالحديد والمغذيات» .

« سأحاول » .

«هل يمكننا أن نذهب إلى السينما ؟ »

قالت ماري : « ظننتكما ستشغلان بصبغ بيض عيد الفصح فقد وضعته على النار ليُسلق . بوسعكما بعد العشاء أن تحملاه إلى الشرفة » .

«هل يمكننا أن نصعد إلى العلية لنلقي نظرة على الكتب ؟ »

« هذا أن تذكرتما أن تطفئا الضوء بعد أن تنتهيا . فقد ظل مضاء لمدة اسبوع . انت الذي نسيته يا ايثان » .

ولما ذهب الولدان قالت ماري : « ألم يفرحك اشتراكهما في المسابقة ؟ »

« سأفرح بالطبع لو هما احسنا اعدادها » .

« لقد نفد صبري ويجب أن اخبرك . لقد قرأت لي مارجي طالعي في الورق اليوم ثلاث مرات لأنها ـ على حد قولها ـ لم تقرأ في حياتها طالعاً مثله . ثلاث مرات ! لقد رأيت الاوراق المحظوظة بنفسي » .

« يا للّه!! »

« ستزول ريبتك عندما تسمع ما لدي . انت دائما تسخر من الأغراب الطوال السمر . وليس بوسعك أن تخمن من الذي كانت تعنيه . اتريد أن تحزر ؟ »

قال : « ماري ، اريد أن احذّرك » .

« تحذرني ؟ ولكنك لا تعرف شيئا . ان حظي هو انت » .

تمتم إيثان بكلمة مرة قاسية بصوت خافت .

فقالت : « ماذا قلت ؟ »

« قلت : حظ اكشر » .

« هذا ما تفكر به انت لا ما يفكر به الورق . لقد قرأت لي حظي ثلاث مرات» .

« وهل يفكر الورق ؟ »

وقالت ماري : « ان الورق لا يخطئ . لقد قرأت لي طالعي وكان كله عنك . ستصبح من أهم الشخصيات في هذه البلدة ـ نعم ، هذا ما اقوله ، من اهم الشخصيات . وليس ذلك اليوم ببعيد . بل هو قريب . فكل ورقة قلبتها تنبأت بالمال ، وبمزيد من المال . ستصبح رجلاً ثرياً » .

فقال : « يا حبيبتي ارجوك ، اود أن احذرك . ارجوك! »

«وستقوم بعملية استثمار مالية» .

«بأي مال ؟»

«لقد فكرتُ في نقود أخي» .

فصاح : «لا .لن امسها . انها تخصك وستبقى لكِ . هل فكرت بهذا من تلقاء نفسك أم ـ»

«انها لم تذكر ذلك ابداً . ولا الورق تحدث عنها . ستستثمر مالاً في تموز ، ومن بعد ذلك ستتوالى الامور واحداً تلو الآخر . ألا يحلو لك سماع هذه التنبؤات ؟ هذا ما قالته «ان إيتان هو حظك . وسيغدو رجلاً واسع التراء ، أكثر تراء من اي رجل آخر في البلدة كلها» .

«لعنة اللّه عليها! لا يحق لها أن تتكلم بهذه الطريقة» .

«إيثان!»

«أتعلمين ماذا تحاول مارجي أن تفعل ؟ اتعلمين ما الذي تفعلينه انت نفسك ؟»

«اعلم انني زوجة مخلصة وانها صديقة مخلصة .ولا اريد أن نتشاجر على مسمع من الصغيرين . مارجي يونج هنت احسن صديقاتي .اعلم انك لا تحبها . واراك قد بدأت تغار من صديقاتي ،هذا رأيي .لقد امضيت معها فترة طيبة في الاصيل وانت تريد أن تفسدها علي .وهذا ليس بجميل منك» .

وتجهّم وجه ماري بخيبة غضبى . وتابعت حديثها :

«انت تجلس في مكانك ايها الذكي وتستغيب الناس . فتتصور أن مارجي اخترعت كل هذا الكلام . ولكنها لم تفعل ذلك ، فقد (قطعتُ) الورق بنفسي ثلاث مرات ـ وحتى على فرض انها اخترعته فعلا فما ذلك الا من قبيل اخلاصها ولطفها في محاولة لإسداء بعض المساعدة . قل لي ايها الذكي هل يمكن تفسير الامر بغير ذلك ؟ ام انك مصر على أن تجد سببا قذرا» .

قال :«وددت لو اعرف دوافع مارجي . قد يكون ذلك لمجرد الشقاوة اذ لا زوج لديها أو عمل . اجل قد يكون مجرد شقاوة» .

خفضت ماري صوتها وتكلمت بازدراء : «أأنت الذي يتحدث عن الشقاوة ؟ لو أن الشقاوة صفعتك على وجهك لما عَرفْتَها . انت تجهل ما تعانيه مارجي . فهي هدف لملاحقة رجال هذه البلدة ، رجال كبار متزوجون يهمسون في اذنها ويلحون ، رجال شريرون . وهي لا تدري أين تولّي وجهها منهم . ولهذا تراها بحاجة الي ، إلى صديقة من جنسها تفهمها . أوه! لقد أطلعتني على اشياء ، رجال لا يمكن أن نظن ذلك بهم . حتى ان بعضهم يتظاهر بالنفور منها امام الناس ثم ينسل إلى بيتها أو يخابرها تلفونيا ليقنعها بمقابلته ، رجال يتظاهرون بالتقوى ثم يأتون اموراً كهذه ، وانت تتحدث عن الشقاوة» .

«هل أطلعتك على اسمائهم ؟»

«لا ، لم تقل . وهذا دليل آخر . فمارجي لا تريد أن تؤذي احداً حتى لو هو نالها بأذى . ولكنها قالت ان هناك واحداً منهم لا يمكن أن اظن به شيئا كهذا . وانني لو عرفت اسمه لاشتعل رأسي شيبا» .

سحب ايثان نفساً عميقاً واستبقاه ثم اخرجه في زفرة طويلة .

قالت ماري : «ترى من يكون هذا ؟ يبدو من طريقة كلامها انه شخص نعرفه جيداً ولا يمكن أن نصدق ذلك عنه» .

فهمس ايثان : «ولكنها قد تشي به في حالات خاصة» .

«هذا اذا اضطرت لذلك اضطرارا . وقد أكدت لي ذلك بنفسها . اذا اضطرت فقط ، لو مُسّ شرفها أو لاك الناسُ اسمها العطر ، انت تفهمني طبعا... من تتصور أن يكون هذا الشخص ؟»

«إخالني أعرف» .

«تعرفه ؟ من هو ؟»

«أنا» .

وفغرت ماري فمها ثم قالت : «أوه!ايها الاحمق! انت توقعني في فخاخك لو أنا لم انتبه . على كل ان هذا احسن من كآبتك» .

« ما أظرف ذلك . يعترف الرجل باثمه مع اعزّ صديقة للزوجة فيُسخر منه ويزدرى به » .

« ليس هذا الكلام جميلاً » .

« لعله من الافضل أن ينكر الرجل فعلته ليترك لزوجه مجالاً للظنون على الاقل . يا حبيبتي أقسم لك بكل ما هو مقدس انني لم أتحرّش مرة في حياتي بمارجي يونج هنت لا بكلمة ولا بفعلة .والآن هل تعتقدين انني مذنب ؟ »

« أنت ؟ »

« تظنين اني لست أهلاً ، أو انني شخص لا يُرغب فيه ، أو ، بعبارة أخرى ، تظنين اني غير جدير بالنجاح ؟ »

« اني احب المزاح ، وانت تعرف ذلك . ولكن هذا ليس موضوع مزاح . أرجو أن لا يكون الصغيران قد وصلا إلى الصناديق فهما لا يعيدان شيئاً إلى مكانه » .

« سأحاول مرة اخرى يا زوجتي الجميلة . هناك امرأة يبدأ اسمها بميم وياء وهاء قد أحاطتني بالفخاخ لأسباب تعرفها هي . وانا في خطر الوقوع في واحد أو أكثر من هذه الفخاخ » .

« لم لا تفكر في حظك ؟ لقد تنبأ به الورق ثلاث مرات ورأيت بعيني ذلك . ستحصل على المال والمزيد من المال . فكر في هذا » .

« أتحبين المال إلى هذا احد يا أرنبتي ؟ »

« أحب المال ؟ ماذا تقصد بهذا السؤال ؟ »

« أتحبين المال إلى الحد الذي يسوّغ لك ممارسة استحضار الارواح والشعوذة والسحر وما إلى ذلك من الشعوذات ؟ »

« طالما انك قلتها فلن ادعك تتستر وراء كلماتك . هل أحب المال ؟ لا ، لا أحب المال ولكني لا أحب العوز أيضاً . أود لو استطيع أن أرفع رأسي في هذه البلدة . ولا أحب أن يُذَل أولادي لأنهم لا يستطيعون أن يلبسوا كغيرهم من الأولاد . لكم أتوق إلى أن أرفع رأسي » .

« وهل يتيح لك المال أن ترفعي رأسك ؟ »

« ان المال يمحو ضحكات السخرية والاستهزاء من وجوه أهل بلدتك المتعاظمين » .

« ما من احد يجرؤ على السخرية من أحد أفراد عائلة هاولي » .

« هذا ما تعتقده أنت! لأنك لا تلحظه! »

« ربما لأنني لا اتقصد أن ألحظه » .

« هل تحاول (جنابك) أن تلقي علي درساً عن عائلتك المقدسة ؟ »

« لا يا حبيبتي . فقد بات ذلك سلاحاً عديم الجدوى » .

« الحمد للّه انك اكتشفت ذلك . فموظف حانوت من آل هاولي سيظل موظف حانوت في هذه البلدة أو سواها » .

« هل تلومينني لفشلي ؟ »

« كلا . طبعاً لا . ولكنني ألومك لأنك ظللت تتمرّغ منغمساً في فشلك . وبوسعك أن ترتفع عنه لو انك تخليت عن أفكارك المستهلكة ومُثُلك الخيالية . فكل الناس يسخرون منك . فالسيد الكبير الذي لا يملك مالاً ليس الا مجرد صعلوك » . وانفجرت الكلمة في رأسها فسكتت وشعرت بخجل .

قال إيثان :« آسف . لقد علمتني شيئاً ـ أو لعلها ثلاثة اشياء يا أرنبتي العزيزة ـ ثلاثة أشياء يصعب تصديقها ، الشيء الحقيقي ، والشيء المحتمل ، والشيء المنطقي . لقد عرفت الآن من أين آتي بالمال لأشرع في جمع ثروة . »

« من أين ؟ »

« سأسرق المصرف » .

أز جرس ساعة الفرن أزيزاً متقطعاً بطيئاً فقالت ماري :« اذهب وادع الصغيرين فقد نضجت الطبخة . قل لهم أن يطفئوا النور » . ثم راحت تنصت إلى وقع خطاه .

٣

تنام زوجتي ماري بسهولة فتغلق عينيها كما لو انها تغلق باب خزانة ، وكثيراً ما حسدتها وأنا أرقبها وجسمها البديع يتلوى للحظة كأنها قد أدخلت نفسها في شرنقة . ثم تتنهد مرة واحدة وتنطبق عيناها وتنغلق شفتاها على شبه ابتسامة حكيمة نائية كابتسامة آلهة الاغريق القدماء . وتظل طوال الليل تبتسم في نومها ، ونفسها يخرّ دون شخير كخرير القطة الصغيرة ، وترتفع حرارتها طفرة واحدة حتى اني أحس بتوهجها وهي إلى جانبي في الفراش ، ثم تعود وتنخفض حرارتها وتبتعد عني لا أدري إلى أين . تقول انها لا تحلم ولكن لا بد انها تحلم الا أن احلامها لا تزعجها ، أو انها تزعجها إلى حد انها تنساها قبيل اليقظة . انها تحب النوم وكأن النوم يرحّب بها . ليتني مثلها ، اذ اني أكافح النوم وأشتهيه في عين الوقت .

لقد فكّرت في هذا الاختلاف بيننا ، وتوصلت إلى أن سره يكمن في أن ماري تعرف انها ستعيش إلى الابد ، وأنها ستخطو من هذه الحياة إلى حياة اخرى بسهولة تشبه سهولة انتقالها من النوم إلى اليقظة . انها تدرك هذا بكل وجودها وبشمول تام يجعلها لا تفكر فيه ، تماما كعدم تفكيرها في تنفسها . وهكذا تجد وقتاً للنوم ، ووقتاً للراحة ، ووقتاً للكف عن البقاء .

أما أنا فأدرك في صميم عظامي وأنسجتي انني سأتوقف عن الحياة في يوم قريب أو بعيد ، ولذا تراني أكافح ضد النوم وأتوسل اليه ، وأحاول حتى

أن أحتال عليه لأجلبه . ولحظة النوم عندي لهي لحظة احتضار . أدرك هذا لأني استفقت الآن في هذه الثانية وما زلت استشعر الضربة الساحقة . ان فترة النوم عندي لهي فترة مرهقة ، فأحلامي هي مشاكل يومي ، وقد تدرّجت إلى ضرب من العبث يشبه قليلاً رجالا يرقصون وقد لبسوا قرون وأقنعة الحيوانات .

وفترة نومي عادة هي أقصر بكثير من فترة نوم ماري . تقول انها تحتاج إلى مقدار كبير من النوم ، وأوافقها على أن حاجتي أقل ولكني لا أعتقد بذلك . فكل جسم يختزن كمية معيّنة من الطاقة يستمدها طبعاً من الاطعمة التي يستهلكها بعض الناس بسرعة كما يلتهم الصغار الحلوى ، أو يقشّرونها على مهل . فكثيراً ما نجد فتاة صغيرة تدّخر جزءاً من نصيبها في الحلوى وعندما ينتهي الجشعون من نصيبهم تكون حصتها ما تزال بين يديها . اعتقد أن ماري ستعيش اكثر مني . ستكون قد وفّرت جزءاً من حياتها لما بعد . والآن وقد خطرت لي هذه الفكرة أجد أن معظم النساء يعشن أكثر من الرجال .

ويوم الجمعة العظيمة هو مصدر ازعاج لي . وحتى عندما كنت طفلاً كانت نفسي تمتلئ حزناً لا على عذاب الصلب بل لأني أشعر بالوحدة القاتلة التي عاناها المصلوب . ولم أفقد قط هذا الحزن الذي زرعه في نفسي (متّى) وانجيله عندما كانت تقرؤه لي عمة أبي ديبورا بلهجتها الصارمة السريعة التي هي من خصائص سكان نيوانجلند .

ولعلني تأثرت في هذا العام أكثر من تأثري في أية سنة مضت . فالانسان عادة يحمل القصة ويطابقها على نفسه . لقد سمعت من مارولو ارشاداً فهمت مغزاه من وجهة العمل لأول مرة . ثم عُرضت علي رشوة ، لأول مرة ، بعد ذلك مباشرة . غريب لرجل في مثل سني أن يتفوه بمثل هذه الامور ولكني لا أذكر أن عرضا سابقا قد عرض علي . يجب أن أفكر في مارجي يونج هنت . هل هي شريرة ؟ ما هي بغيتها ؟ أعرف انها قد وعدتني

بشيء ثم هددتني أن لم أقبل به . هل يمكن للانسان أن يفكر تم يرتّب حياته ام يتوَجب عليه أن يسير بغير هدى ؟

لطالما أرقت في ليال كثيرة فجلست أتسمّع إلى تنفس ماري الناعم إلى جانبي . ان انت حملقت في الظلام سبحت على عينيك بقع حمراء ويطول الوقت . ان ماري تحب نومتها ، فأحاول أن أوفر لها الهدوء ، فلا أغادر فراشي لأن هذا كفيل بأن يقلق ماري اذ تعتقد انني مريض ، ذلك لأنها لا تأرق الا اذا مرضت .

وفي هذه الليلة شعرت بحاجة للنهوض والخروج من البيت . وخرّ نفسها متندا واستطعت أن أرى ابتسامتها العتيقة على فمها . ربما كانت تحلم بالطالع الحسن ، بالمال الذي كنت على وشك أن أجمعه . ان ماري تريد أن ترفع رأسها وتفخر .

غريب كيف يعتقد الانسان بأنه لا يستطيع أن يفكر بصفاء الا اذا جلس في موضع خاص . وقد كان لدي مثل هذا الموضع ، ولكني أعلم جيداً انني لا أتعمق في التفكير كثيراً هناك ، وانما أحس وأختبر وأتذكر . انه محل أمين ، ولا بد أن يكون لكل شخص مثل هذا المكان الا أني لم أسمع أحداً بعد يصرّح بوجوده . ان الحركة الهادئة الخفية توقظ النائم عادة أكثر مما توقظه الحركة الطبيعية المقصودة . واني قانع أيضاً بأن الأذهان النائمة تشرد عند أفكار الآخرين . لقد أوجدت لنفسي حاجة للذهاب إلى الحمام وعندما ألحّت الحاجة نهضت وذهبت . نزلت بهدوء بعد ذلك إلى الطابق السفلي وقد حملت ملابسي تم ارتديتها في المطبخ .

تقول ماري اني أشارك الناس في مشاكل لا وجود لها . ربما كان هذا صحيحاً ، ولكني تصورت مشهداً محتمل الوقوع يجري في ضوء المطبخ الخافت ، ماري تستيقظ وتفتّش عني في ارجاء البيت وقد بدا الانزعاج على وجهها . كتبت لها رسالة مختصرة على دفتر طلبات البقالة قلت فيها : «حبيبتي اني ضجر . خرجت أتمشى . سأعود بعد قليل» . أظن اني تركتها

في وسط طاولة المطبخ تماماً حتى اذا ما أضيء النور بواسطة الزر الذي على الحائط أمكن رؤيتها قبل أي شيء آخر .

تم فتحت الباب الخلفي بيسر وتنسّمت الهواء . كان قارساً يحمل رائحة من غشاء جليدي رقيق أبيض . وكنت قد التففت بمعطف ثقيل ولبست على رأسي طاقية ثخينة الحياكة كالتي يرتديها البحارة وأرخيتها فوق أذني . زمجرت ساعة المطبخ الكهربائية معلنة الثالثة الا الربع . لقد كنت ممدداً أرقب البقع الحمراء في الظلام منذ الحادية عشرة .

ان بلدتنا نيوبايتاون بلدة وسيمة وقديمة ، وهي من البلدات الأُول المحددة الرائقة في أميركا . ولقد كانت أول هدف لموجات المستوطنين فيها ، وكان أسلافي ـ على ما أعتقد ـ ابناء هؤلاء الملاحين المتبرّمين الشرسين الطامعين الذين دوّخوا أوربا تحت حكم اليزابيث ثم احتفظوا بجزر الهند الغربية لأنفسهم تحت حكم كرومويل ، ثم جاؤوا واستقروا اخيراً على الساحل الشمالي بعد أن حصلوا على براءات من تشارلز ستيوارت بعد أن استرد عرشه . وقد استطاع أسلافي أن يجمعوا بين القرصنة وبين التزمت الديني بكل نجاح ، وان انت محّصت الامور فستجد تشابهاً كبيراً بين الطرفين . فكلاهما يكره معارضة أحد له ، ولكليهما عين تزوغ على ممتلكات الغير ، وهما كيف اتحدا أنتجا مجموعة من القدود الصلبة الحية . أعرف كل هذا عنهم لأن أبي جعلني أعرف . فقد كان مفتناً بسيرة الاسلاف ، وقد لاحظت أن معظم الذين يستهويهم تقديس السلف يفتقرون عادة إلى صفات السلف الذي يُجلّون . كان أبي رجلاً لطيفاً مطّلعاً غير سديد الرأي ، وكان أيضاً على شيء من حمق ، وقد أمكنه بلا مساعدة من أحد أن يبدد أراضيه وثروته وكرامته ومستقبله ، والحقيقة انه ضيّع تقريباً كل ما جمعه آل ألن وهاولي في بضع مئات من السنين ، ضيع كل شيء عدا الاسم والنسب ـ وهذا كل ما يهمه من الحياة على أي حال . كان يعطيني ما يسميه « دروس في الإرث » . وهكذا عرفت الكتير عن الأولين . ولعله لهذا السبب

نفسه أجدني موظفاً في بقالة يملكها صقلي في بناء كان ملكاً لآل هاولي . ليتني لا أشمئز من عملي إلى هذا الحد . لم يكن الركود أو الكساد سبب نكبتنا .

حضرني كل هذا حين شرعت في قولي ان نيوبايتاون بلدة جميلة . وقد استدرت إلى اليمين من شارع إلم بدلاً من اليسار ومشيت بسرعة إلى بورلك الذي يوازي بقليل اعوجاج الشارع الرئيسي . لا بد اني سأجد شرطينا السمين وي ويللي غافياً في سيارة الشرطة القابعة في الشارع الرئيسي ، ولم أشأ أن أقضي الليل معه استمع اليه وهو يسألني : «ما تفعل يا إيث في هذا الوقت المتأخر ؟ هل أوقعت نفسك في مشكلة صغيرة ؟» ذلك لأن ويللي يشعر بوحدته ولذا يحب الثرثرة فلا يفتأ يلوك الأسئلة نفسها . وقد انتشرت عدة فضائح صغيرة وبشعة من وراء وحدة وي ويللي . أما شرطي نوبة النهار فهو ستونوال جاكسون . ولم يكن هذا الاسم لقباً ـ فقد عُمد الرجل بهذا الاسم : ستونوال جاكسون ، وفي الحقيقة ان هذه التسمية تميّزه عن كل حَمَلةِ اسم سميث . لا أدري لم يختلف عادة شرطة البلدان الصغيرة كل هذا الاختلاف ، ولكن هذه هي الحقيقة . فستوني سميث رجل صلب كفيل بألا يجيبك ان أنت سألته عن تاريخ اليوم الا اذا هو وقف على منصة الشهادة . لقد كان الرئيس سميث يدير شؤون الشرطة في البلدة . وهو رجل كرّس نفسه لعمله ، وانكب على دراسة أحسن الأساليب وقد تدرّب في مؤسسة الـ «أف .ب .أي» في واشنطن . لعله من أحسن رجال الشرطة الذين يتاح لك أن تقابلهم في حياتك . طويل هادئ وله عينان تلتمعان كالتماع المعدن . والافضل لك أن تتجنب الرئيس ان انت أردت أن تمارس الجريمة .

لقد قلت هذا كله خلال محاولتي الذهاب إلى شارع بورلك لأتجنب محادثة وي ويللي . في هذا الشارع تقع بيوت نيوبايتاون الجميلة . ففي أوائل القرن الثامن عشر كان لدينا اكتر من مائة مركب لصيد الحيتان .

وكانت تلك المراكب تصل إلى القطب الجنوبي أو إلى بحر الصين ثم تعود بعد عام أو اثنين محمّلة بالثروة والزيت . كانت ترسو في موانئ أجنبية غريبة ، وكانت اذ تعود تأتي محمّلة بالبضائع والآراء والمعرفة أيضاً . ولهذا السبب تجد قطع أثاث صينية في هذه البيوت الواقعة على شارع بورلك والتي كان أصحابها من الربابنة أصحاب الذوق الرفيع . لقد استدعوا المهندسين الانكليز ليشيدوا لهم بيوتهم . ولهذا السبب تجد تأثير المهندس آدم في هندسة البيوت على شارع بورلك مع مسحة من الفن الاغريقي . فقد كانت تلك المسحة هي السائدة في انكلترا في ذلك العصر . وبالرغم من كل الكوى والاعمدة المخططة والاقواس اليونانية فانهم لم يهملوا وضع ذلك الممر على السطح أبدا . والفكرة من وراء ذلك هي إتاحة المجال للزوجات الوفيات القاعدات في بيوتهن لمراقبة السفن العائدة . وقد كانت عائلتي ـ آل هاولي ـ وآل فيلبس آل الكار وآل بيكر من أقدم سكان شارع بورلك . فقد ظلوا يسكنون شارع الم وظلت بيوتهم على طرازها ذي السطح المروّس والجوانب المتوازية والمسمّى بالطراز الاميركي القديم . وكان هذا نفس طراز بيتي ـ بيت آل هاولي العتيق ـ وكان لشجرات الدردار في ذلك الشارع مثل عمر البيوت .

احتفظ شارع بورلك بفوانيس الغاز الا أن اكثرها بات يحمل الآن لمبات كهربائية . وفي الصيف يفد السواح علينا للتفرج على هندسة بيوتنا وعلى ما يسمّونه بـ «سحر العالم القديم» في بلدتنا . ولا أدري لماذا يترتّب على «السحر» أن يكون قديماً ليؤثر ؟

لقد نسيت كيف اختلط آل ألن من فرمونت بآل هاولي . فقد حدث هذا عقب الثورة مباشرة . بوسعي أن أتأكد من ذلك طبعا ـ فلا بد أن يوجد سجل بذلك في العلية . وعندما توفي والدي كانت ماري قد سئمت أمجاد تاريخ اسرة هاولي ولذا فهمت سر شعورها عندما اقترحت أن نخزن كل هذه الاغراض في العلّية . فالمرء يضجر بالفعل من سيرة عائلة ليست عائلته .

وماري لم تولد في نيوبايتون فهي من اسرة ارلندية الاصل ولكنها ليست كاثوليكية . وماري تصر دائما على تثبيت هذه النقطة . تقول ان العائلة من اكستر في ارلندة . أما هي فمن بوسطن .

لا ، لم تكن من بوسطن لكنني قابلتها هناك . أستطيع أن أرى كلينا وبوضوح تام : الملازم هاولي الخائف المتهيّب في اجازة عطلة آخر الاسبوع ، والصبية الحبيبة الناعمة ذات الخدود الزهرية والشذى الحلو ، أرى كل هذه الصفات وبدرجة مضاعفة بسبب الحرب وكتب الدراسة . لكم كنا رزينين - رزينين إلى درجة فظيعة! كنت معرّضاً للقتل وكانت هي قد هيأت نفسها لتكرس حياتها لذكراي الباسلة . كان حلمنا هذا واحداً من ملايين الاحلام المتشابهة لملايين البدلات العسكرية الزيتونية ، والفساتين القطنية المشجّرة . وكان يمكن للأمر أن ينتهي بإحدى رسائل الوداع التقليدية التي تبدأ بعبارة : «عزيزي جون» ، لولا انها كانت قد كرّست حياتها لبطلها . فتبعتني رسائلها الحلوة بثباتها إلى كل مكان ـ رسائل بخط مدوّر واضح مسطورة بحبر أزرق داكن على ورق أزرق فاتح ـ حتى أن فرقتي بأكملها باتت تتعرّف على رسائلها ، وأصبح كل رجل فيها يغبطني عليها . وحتى لو أنا لم أشأ الزواج بماري لاضطرني إلى ذلك وفاؤها وواجبي في أن أخلّد هذا الوهم العالمي عن النسوة الجميلات الوفيات .

لم تتردد ماري حتى عندما اقتلعتها من تربة حياتها في بوسطن ونقلتها إلى بيت آل هاولي العتيق في شارع الم . ولم تتردد عندما اجتاحني ذاك اليأس البطيء يوم خسرت تجارتي ، وحين ولد طفلانا ونحن على تلك الحال ، أو حتى حين تقيدت بوظيفتي في الحانوت لمدة طويلة . فهي من النوع الذي يسعه أن ينتظر ، وانني لأرى ذلك بوضوح الآن ، وأظنها قد ملّت الانتظار أخيراً . كان من عادة ماري ألا تكشف عن حدّة الأماني التي تراودها بالاستهزاء من أوضاعها ، ذلك أن السخرية لم تكن من وسائلها . كانت من قبل مشغولة بتمتية الأمور على وجه أحسن ، والعجيب أن يظهر هذا السم

الآن ، في حين انه لم يظهر قبل . وعجيب كيف تتوالى الصور على صوت وقع الخطوات وهي تسحق الجليد بقدمي عابر ليلي .

لا ضرورة للشعور بالغموض والسرية أن انت سرت في ساعات الصباح الاولى في نيوبايتاون وقد يلقي وي ويللي بنكات صغيرة حول ذلك . ولكن على فرض أن احداً رآني وأنا أسير صوب الخليج في الثالثة صباحاً فان ذلك لا يثير شكاً ما إذ قد يتصوّرني ذاهباً لصيد السمك . ولدى أهل بلدتنا صنوف من النظريات في صيد السمك ، وكان بعضها بمثابة وصفات سرية خاصة كوصفات الطبخ التي تتوارثها العائلات ، وهذه امور لها احترامها في بلدتنا .

امتدت أضواء الشارع على الجليد الأبيض الصلب الذي كسا حشيش الحدائق وممراتها وجعله يتألق كملايين الماسات الدقيقة . وجليد كهذا الجليد حريٌ بأن تنطبع عليه آثار الاقدام ولكني لم أجد آثاراً امامي . انني اشعر دائماً ـ ومنذ طفولتي ـ بتهيّج غريب عندما أمشي على ثلج أو جليد جديد لم يسبق لقدم أن داسته فكأنني انسان أول في عالم جديد ، يراوده احساس عميق مُرْض باكتشاف شيء جديد نقي لم يستعمل بعد ولم يتسخ . ولم يكن أهل الليل ـ أعني القطط ـ يحبون السير على الجليد . أذكر مرة انني خطوت حافياً استجابة لتحدي احدهم ومشيت في طريق جليدية فأحسست بقدمي تحترقان . ولقد شرعت في حفر الندبة الأولى على الجِدّة المتألقة بقدمي المكسوتين بالجوارب الثخينة وأخفاف المطر .

عند تعارض شارع بورلك بشارع توركي وبالقرب من شارع هيكس يقوم مصنع للدراجات . كان الجليد هناك مرقطاً بآثار أقدام كبيرة متثاقلة . انه داني تايلور ـ شبح متململ مقلقل يريد أن يجد لنفسه مكاناً آخر فيجرجر قدميه ويود لو يكون في مكان آخر . وكان داني سكير البلدة . اذ لا بد لكل بلدة من سكير . وكان أهل البلدة لدى ذكرهم داني تايلور يهزّون رؤوسهم ببطء من طرف لآخر ـ فعائلة داني كانت من الأسر العريقة القديمة ، وكان هو آخر أفرادها ، وقد اتيحت له في شبابه ثقافة طيبة . فلم

لا يستعدل ؟ ألم يتلق درساً من مشكلته في الاكاديمية ؟ انه يقتل نفسه بالسكر وهذا خطأ ، فداني أصيل نبيل . أو ليس عيباً أن يستجدي المال ليسكر ؟ من لطف الله وستره أن والديه ليسا بين الاحياء فيرياه على هذه الحال ، اذن لقتلهما هذا المنظر ، ولكنهما قد ماتا على كل حال . وكان هذا نمطاً من ثرثرة أهل نيوبايتاون .

ولقد كان داني بمثابة جرح عميق في نفسي ينبع منه احساس بالاثم . وكان متوجباً عليّ أن اساعده ـ وقد حاولت ولكنه لا يتركني أفعل . وهو أقرب ما يمكن لأن يكون أخاً بالنسبة لي ـ فكلانا في سن واحدة ولنا نفس النشأة والوزن والقوة . ربما كان احساسي بالاثم ينبع من جراء كوني ولياً لأخي دون أن انجح في انقاذه . ولم تكن الأعذار بمستطيعة أن تخفف من وطأة هذا الاحساس في أعماقي مهما بلغت درجة الاقناع فيها . وكان آل تايلور يضاهون آل هاولي وآل بيكر أو أية عائلة اخرى في العراقة . لا اذكر نزهة في طفولتي أو حفلاً في سيرك أو مسابقة أو عيداً دون أن يكون داني إلى جانبي لاصقاً بي لصوق ذراعي اليمنى بجسمي . لعلنا لو ذهبنا معاً إلى كلية واحدة لما حدث كل هذا . فقد ذهبت أنا إلى هارفارد ونعمت باللغات ، واغتسلت بالادب ، وآويت إلى كل قديم جميل غامض ، وانغمست في كل علم لا يجدي اطلاقاً في إدارة حانوت للبقالة ـ كما تبيّن لي فيما بعد . وكنت طوال الوقت اتمنى لو أن داني كان رفيقي في هذه الرحلة المتألقة المثيرة . ولكن داني كان رجل بحر . فقد رُسم له مستقبله في الاكاديمية البحرية وثُبّت وحُقّق منذ كنا صغيرين . وكلما حل علينا نائب جديد من الكونجرس دبّر له أبوه مسألة تعيينه مع النائب وأحكم تثبيتها .

لقد تفوق داني في السنين الثلاث الاولى ثم ما لبث أن طرد ويقال بأن هذا الطرد قد قضى على والديه كما قضى على شخص داني فلم يبق منه الا هذا الأسى الطريد ، هذا الأسى الليلي الشديد يدفعه لاستجداء الدراهم يشتري بها شيئاً من خمر . أظن أن الانكليز يعبّرون عن ذلك بقولهم : «لقد

اخزى السلف » وهي عبارة تؤلم المقصود اكثر مما تؤلم السلف . لقد اصبح داني يهيم على وجهه طوال الليل ، ولذا تراه في الصباح الباكر ـ تراه حطاماً وحيداً يجرجر نفسه وهو يستجديك شيئاً لخمره فتتوسل اليك عيناه لتغتفر له انت ذلك ، لانه لا يغتفره لنفسه . وكان ينام في كوخ يقوم خلف مصنع المراكب حيث كان آل تايلور يبنون سفنهم . وقد توقفت عند آثار قدميه لأرى ان كان قد توجه إلى بيته أم إلى جهة اخرى . ومن آثار قدميه على الجليد عرفت انه قد خرج من بيته وانني قد ألاقيه في اي مكان . ولم يكن الشرطي ـ يحرر له ضبطاً لحبسه ـ اذ ما جدوى ذلك ؟

لم أتردد في اتخاذ وجهتي . فقد رأيت المكان واحسسته وشممته حتى قبل أن اقوم من فراشي . لقد امحت معالم المرفأ القديم الآن . فبعد أن انشئ الحاجز ورصيف البلدية الجديد تسرّب الرمل والغرين إلى المرفأ الذي كان عظيماً في غابر ايامه وقد حمته اسنان صخور ويتسن المدببة . توجهت إلى حيث كانت تقوم احواض السفن فيما مضى من الزمن ، إلى حيث كانت تسكن عائلات بأكملها لا عمل لها سوى صنع واصلاح البراميل التي يعبأ فيها زيت الحوت ، أحواض تطفو عليها مقدمات سفن صيد الحوت مرتفعة شامخة وقد ظهرت على جانبيها حاملات السلاسل وقام على رأسها التمثال أو الزخرفة التي تزوّقها عادة . كانت لسفن من ذوات الصواري الثلاثة والاشرعة المربعة ، سفناً ضخمة بنيت لتتحمل وقع السنين في البحر وتقلّب الطقس .

كانت في حوزتي صورة للمرفأ القديم المزدحم بالسفن محفورة على حديد صلب ، وكانت لديّ صور فوتوغرافية على التنك ، ولكنني في الحقيقة لم أكن بحاجة اليها لانني كنت اعرف المرفأ والسفن . فقد خطط جدي لي بعصاه المنحوتة من ناب الحوت ودرّبني على تسميات ومصطلحات المهنة وهو يدق بعصاه على جذع ابتر كشفه المد والجزر من ركام كان فيما مضى حوض سفن آل هاولي . كان رجلاً مسناً عنيفاً بشارب متهدل أبيض ، ولقد

اوجعني حب هذا الرجل .

كان يقول بصوته الذي لم يعوزه مكبر صوت حين كان يلعلع به على ظهر السفينة «طيب ، أنشدني نشيد نشر القلوع ، وأنشده بصوت عال . فاني اكره الهمس » .

فأنشد ، ويضرب هو بعصاه على الجذع في الكومة حسب نقرة الايقاع .

«ارفع صوتك! انك تهمس » .

فأنشد ، ويضرب ضربة على كل نقرة ايقاع .

«والآن نشيد الشراع الاكبر! أنشد وارفع صوتك» .

فأنشد ، وتهوي ضرباته متناسقة موقعة . وعندما تقدمت به السن أصبح سريع التعب ، فكان يصيح : «لف الشراع الاكبر وأنشد شراع المؤخرة الآن» .

فأشرع في الانشاد ، ويسألني واجيبه حسب الاصول وعصاه المنحوتة من ناب الحوت تضرب على الجذع النابت في الماء .

وكلما تشوش سمعه اشتد اتهامه للناس بالهمس . فكان يصيح : «ان كنت تعني ما تقول ـ كذبا كان ام صدقا ـ فأنشده بصوت عال» .

يجوز أن حاسة السمع عند القبطان العجوز قد ضعفت لدى اقتراب حياته من نهايتها . الا أن الضعف لم ينل من ذاكرته . كان بامكانه أن يذكر لك حمولة وسيرة كل سفينة أبحرت من ذاك الخليج ، وما جلبته لدى عودتها من بضائع ، وكيف وزّعت تلك البضائع ، والغريب في الامر أن مهنة صيد الحوت كانت تتدرّج إلى زوال قبل أن يصبح هو رئيسا لسفينة . كان يسمّي النفط «الزيت النّتِن ،» ويسمي فوانيس النفط «طاسات النّتَن» . ولم يهتم كثيراً بانتشار الانارة الكهربائية ، أو لعلّه قنع واكتفى بذكرياته عن الماضي . ولما مات لم يصدمني موته . فقد هيأني ودرّبني على موته ، تماماً كما درّبني على السفن والملاحة . فعرفت كيف اتصرّف بوحي من داخل نفسي وخارجها .

لا يزال الاساس الحجري لحوض سفن آل هاولي قائما على طرف المرفأ القديم الذي غمره الرمل والغرين . وكان عمقه يصل إلى مستوى الجزر فتتلاطم المياه في المدّ على بنيانه المرتع . وعلى بعد عشرة أقدام من نهاية البناء كان هناك ممر صغير يبلغ عرضه اربعة اقدام ويبلغ ارتفاعه اربعة اقدام ، وعمقه خمسة . وكان له سقف مقبّب ، ولعله كان خندقا لترشيح المياه فيما مضى ، الا أن الرمال قد تراكمت في طرفه من جهة اليابسة والصخور المكسّرة . هذا هو مكاني ، المكان الذي يحتاجه كل فرد ليختفي فيه عن الانظار فلا يمكن رؤيته الا من صوب الماء . لم يكن ثمة شيء الآن في المرفأ القديم سوى اكواخ صيّادي المحار المخلّعة وهم غالبا ما يهجرونها في الشتاء ، وعلى اي حال فان صيادي المحار كانوا من ذوي الطباع الساكنة ، وهم لا يكادون يتلفظون بكلمة واحدة في يوم كامل ، كما كانوا برؤوس خفيضة واكتاف مقوّسة .

هذا هو المكان الذي كنت اقصد . قضيت فيه فترات الجزر الليلية قبل أن انخرط في الخدمة العسكرية ، وكذلك قبل أن اتزوج ماري ، وقد قضيت فيه جزءا من الليلة التي ولدت فيها ايلين والتي اشتدّ ألمي فيها كثيراً . كنت مكرهاً على الذهاب اليه والقعود بداخله اتسمّع إلى الموجات الصغيرات وهي تصفع الحجر واتأمل صخور ويتسن المحدّدة الاسنان كالمنشار . رأيت مكاني هذا وانا ممدّد في فراشي ارقب تراقص البقع الحمراء في عيني وادركت وجوب ذهابي اليه وقعودي فيه . تسحبني التغيّرات الكبيرة في حياتي إلى هناك ـ نعم ، التغيّرات الكبيرة .

يمتد ديقن الجنوبي على طول الشاطئ وقد سلطت اضواؤه على الشارع ، سلطها أناس طيّبون أرادوا منع العشاق من الوقوع في المشاكل ، فاذا كانوا حريصين على التلاقي فان عليهم أن يجدوا مكاناً آخر لذلك ، هذا وكان أحد قوانين البلدة يفرض على وي ويللي أن يطوف في البلدة مرة كل ساعة . ولقد خلا الشاطئ من البشر إذ لم أجد شخصاً واحداً ، وهذا غريب

إذ قلما كان الشاطئ يخلو من شخص يمرّ ذاهباً لصيد السمك ، أو من شخص يصيد ، أو من شخص يعود من الصيد . لقد دلّيت نفسي من الحافة ووجدت الحجر البارز ثم انثنيت ودخلت الكهف الصغير . فلم أكد استقر حتى سمعت سيارة وي ويللي تمرّ من هناك . هذه هي المرة الثانية التي تجنبت فيها قضاء الليل معه .

قد يبدو قعودي هناك سخيفاً وغير مريح وأنا متربّع في كوة كالإله بوذا وهو يطرف في جلسته ؛ الا أن الحجر هناك كان يطابقني بشكل ما ، أو بالأحرى لقد واءمت نفسي والكوة فباتت الاحجار تلائمني لكثرة ترددي على المكان . أما كون الأمر سخيفاً أو لا فهذا ليس من شأني ، فاني اجد في الأمر متعة ما بعدها متعة ، ومن بواعث التسلية أن يسخف المرء في بعض الأحيان ، كالاطفال عندما يلعبون لعبة التماثيل وهم يضجّون بالضحك . فقد يتيح لك السخف أن تلوّن من رتابة خطاك المنتظمة في الحياة ، ويساعدك على أن تبدأ بداية جديدة . ومن عادتي عندما تركبني الهموم أن ألعب لعبة (السخف) هذه حتى لا تصل عدواها إلى حبيبتي فيأكلها الهم . انها لم تكشف أمري بعد ، وحتى لو هي استطاعت فانها لن تدعني اعرف ذلك . كثيرة هي الامور التي اجهلها عن ماري ، ومن بينها مقدار ما تعرف عنّي . كما لا أظن انها تعرف شيئاً عن المكان ، وأنّى لها أن تعرف ؟ فأنا لم أخبر أحداً عنه . كما اني لا اجد له اسماً في ذهني سوى «المكان» ـ لا طقوس ولا اوصاف ولا شيء . فهذه بقعة يحلو فيها تمحيص الامور . والانسان في الحقيقة لا يعرف شيئاً عن غيره من البشر . واقصى ما يمكن أن يبلغه هو افتراضه انهم مثله . والآن ، وانا جالس في مكاني محمياً من الريح ، أرى المدّ يتسلل تحت اضواء الحراسة وقد اسودّت مياهه لانعكاس قتام السماء عليه ، تساءلت في نفسي ان كان لغيري من الناس مثل هذا (المكان) أو ان كانت لديهم الحاجة لمثله ، أو إن كان أحدهم يرغب في واحد ولم يجده . كنت اجد احياناً اذ أنظر الى عيون الناس انني اقرأ فيها نظرة حيوان غاضب

تنّم عن حاجة لمكان هادئ خفي ، تخمد فيه رجفات الروح الثائرة ، ويتكاسل الانسان فيه فيتمكن من التدقيق في الامور .لقد سمعت طبعاً بالنظريات التي تقول عن العودة إلى الرحم والرغبة في الموت ويجوز أن تنطبق هذه النظريات على بعض الناس ولكني اظنها لا تنطبق علي إلا في كونها طريقة سهلة للتعبير عن شيء معقد . وأنا اسمّي كل ما يحدث لي هنا تمحيصاً في الامور . قد يسمّيها بعضهم صلاة ، وقد تكون كذلك في النهاية . الا اني لا اعتقد انها كذلك . لو اردت أن ارسم لنفسي صورة لها لصوّرتها كملاءة سرير مبلّلة تتقلّب وترفرف في ريح بديعة تجففها وتزيد من نصوع بياضها . كل ما يحدث لي هو حق ـ خيراً كان ام شراً .

وجدت لدي كثيراً من المسائل التي تستوجب التأمل . كانت تتزاحم وتقفز ملوحة بأيديها لتجلب انتباهي كما يفعل الأطفال في مدرسة . ثم سمعت هديراً بطيئاً لمحرك من ذوات القلع الواحد ـ مركب صيد . اختفى ضوء الصاري إلى الجنوب وراء صخور ويتسن . فاضطررت أن أطرح كل شيء جانباً إلى أن استدار بضوئه الأحمر والأخضر وعبر القناة بأمان . لا ريب انه مركب محلّي حتى شق طريقه إلى مدخل القناة بهذه السهولة . رسا المركب في الماء الضحل ، وجاء رجلان إلى الشاطئ في زورق المركب الصغير ، وتمسحت مويجات صغيرة برمل الشاطئ وتماهلت النوارس المنزعجة في عودتها للاستقرار على طوّافات المرسى .

حاشية : يجب أن افكر في ماري ، عزيزتي التي تركتها نائمة وعلى شفتيها ابتسامة الغموض . عسى أن لا تكون قد استفاقت فهل تراها تطلعني على ذلك ؟ أشك في الأمر ؟ أظن أن ماري نادراً ما تفصح عن حقيقتها بالرغم من مظهرها الذي يبدي خلاف ذلك . يجب أن انظر في مسألة الطالع هذه . هل تبغي ماري الغنى ام تريده من اجلي انا ؟ وكونه طالعاً مزيّفاً رتّبته مارجي يونج هنت لأسباب أجهلها ، لا يبدّل شيئاً في الموضوع . فالطالع الزائف كغيره من الطوالع تماماً ، ومن الجائز أن في كل طالع قليلاً من زيف .

بمقدور اي رجل على قدر معقول من الذكاء أن ينمي تروة ان كان هذا مطلبه . وفي الحقيقة أن مطلبه في الاصل ينحصر في اغلب الأحيان في الحصول على النساء أو الثياب أو الإعجاب ، فتحرفه هذه الأمور عما شاء أصلاً . وكبار الفنانين الماليين أمتال موركن وروكفلر لم ينحرفوا عن هدفهم . أما ما فعلوه بهذا المال بعد ذلك فتلك مسألة أخرى . اشعر أن أمثال هؤلاء الناس يفزعون من الشبح الذي يستحضرونه ، ولذا تراهم في محاولة دائمة لرشوته .

حاشية : تفهم ماري المال على انه ستائر جديدة للبيت وثقافة أكيدة للأولاد ومحاولة لرفع رأسها إلى أعلى اكثر من ذي قبل ، ولنواجه الحقيقة فنقول بأنها تود أن تفخر بي عوضاً من أن تخجل . لقدقالتها في ساعة حنق ولكنها أصابت بها الحقيقة .

حاشية : هل أريد المال شخصياً ، في الحقيقة انه لا ، شيء في نفسي يكره أو يشمئز من كوني موظفاً في حانوت . لقد بلغت رتبة رئيس في الجيش ، ولكني اعرف كيف بلغت مرتبة الضباط بعد أن كنت من الانفار . لقد بلغتها بواسطة اسم عائلتي وصلاتي وعلاقاتي . فأنا لم أُنتخب لسواد عيني . لقد كنت في الحق ضابطاً صالحاً . ولو انني كنت حقاً أميل إلى التسلط وفرض ارادتي على الآخرين ورؤيتهم يتسارعون لتلبية رغباتي لبقيت في الجيش ولنلت مرتبة مقدم . ولكنني لم أبق . اردت أن اخلص من العسكرية فقط . يقولون بأن الجندي الحق يحارب في معركة واحدة ولا يخوض حرباً طويلة اذ يترك هذه للمدنيين .

حاشية : لقد صدقني مارولو القول عندما حدثني عن العمل والتجارة ، فالتجارة هي عملية انماء للمال . وقد كان جوي مورفي صادقاً في حديثه معي ، وكذلك مستر بيكر والبائع المتجول ايضاً . لقد كانوا جميعاً صادقين فلم نفرت من حديثهم الذي خلّف في فمي مذاقاً كمذاق البيضة الفاسدة ؟ أمستقيم أنا إلى هذا الحد ، ام تراني حليماً اوعادلاً ؟ لا اعتقد ذلك . هل أنا

أبيّ ؟ اظن أن عندي شيئاً من هذا . هل أنا كسول ـ كسول إلى الحد الذي اكره فيه أن اتورّط في عمل ؟ هناك دائماً انواع من الاحلام المتوانية والتي هي في حقيقتها لا تعدو أن تكون كسلاً لا يريد أن يتكلّف اي مجهود .

للفجر رائحة وملمس ينتشران قبل ظهور أي نور . انهما في الجو الآن ، اعتدال في الريح ،نجمة جديدة أو كوكب قد جلا عن الافق متجهاً إلى الشرق . يجب أن أتعرّف على اسم هذه النجمة أو الكوكب فاني أجهله . تنتعش الريح وتثبت وقت حلول الفجر فعلا . وقد اقترب وقت عودتي . لقد تأخر هذا النجم الصاعد في الظهور ولذا كانت اشراقته قصيرة الامد . هل تذكرون القول المأثور «النجوم تميل ولا تأمر ؟» لقد سمعت أن كثيرين من الاثرياء العقلاء يقصدون المنجّمين طالبين تعليمات ووصايا حول شراء الاسهم . هل تميل النجوم إلى تصاعد الاسعار ؟ هل يتأثر الجميع بالنجوم ؟ لا شيء في طالعي حلو وممتنع كالنجم . رزمة من ورق البخت البالي بين يدي امرأة كسول مشاغبة حلا لها أن تتلاعب به . هل الورق أيضا يميل ولا يأمر ؟ على كل ، قد مال بي الورق إلى هذا المكان في منتصف الليل وأجبرني على التفكير أطول مما أردت في موضوع أمقته . فهل تراه يميل بي إلى مهارة في العمل أفتقر اليها والى كسب غريب عني ؟ هل يميل بي إلى شيء لا أريده ؟ الناس في عالمنا فريقان : آكل ومأكول . وهذه قاعدة حسنة يجدر أن نبدأ بها . فأي الفريقين أكثر فسادا ، ان الدائرة لتدور في النهاية عليهم جميعا اذ تبتلعهم الارض ، بأشرس من فيهم وأوسعهم حيلة .

منذ زمن والديكة دائبة على الصياح من فوق (كُلام هِل) وقد سمعتها ولم أسمعها . ووددت لو تمكنت من البقاء لأرى الشمس تشرق على المكان تماما .

لقد قلت إن زيارتي للمكان تتم دون أية طقوس وهذا ليس صحيحاً تماماً ففي وقت معيّن في كل زيارة لي أحاول اعادة تشييد المرفأ القديم لأدخل السرور على خاطري ـ الاحواض ، ومخازن البضاعة ، وغابات من

الصواري ، وأدغال من الحبال والقلوع ، وأجدادي وأسلافي ، الصغار منهم على سطح السفينة ، والبالغون فوق ، والناضجون في مركز الربان . لم يكن هناك من مجال للثرثرة الفارغة عن ماديسون أفنيو والتجارة والاعمال ، أو عن تشذيب اطراف القرنبيط . كان للرجل اذ ذاك قيمة وقدر وبعض من كرامة . كان بوسعه أن يتنفّس كما يريد .

هذا نمط من أحاديث أبي الاحمق . أما القبطان العجوز جدي فيتحدث عن المعارك التي كانت تنشب حول الحصص وعن مغالطات التجار ، وعن الدعاوى والتقاتل على النساء والمجد والمغامرة احيانا ، وعلى المال! وكان يقول انها كانت نوعا من شركة نادرة لا تدوم لأكثر من رحلة ومن بعدها يحل العداء المستحكم إلى الابد ، ويستمر حتى بعد أن يُنسى السبب الأصلي للنزاع .

الا أن القبطان هاولي لم ينس حادثة واحدة مرَّة المذاق ، جريمة لم يجد في نفسه القدرة على غفرانها . قصّ علي قصتها عدة مرات واقفا أو جالسا على حافة المرفأ القديم . لقد أمضينا وقتا ممتعا أنا وهو هناك . ما زلت أذكره وهو يؤشّر بعصاه المنحوتة من ناب الحوت .

قال : « خذ ثالثة الصخور من مجموعة ويتسن . هل رأيتها ؟ والآن صفّها مع رأس بورتي بوينت عند المد ؟ ارأيته ؟ والآن ـ على بعد ثلاثمائة وستين قدماً من هذا الخط تجدها ـ تجد قاعها على الاقل » .

« تقصد بِلْ آدير ؟ »

« نعم . بل آدير » .

« سفينتنا » .

« كان نصفها لنا بالمشاركة . واحترقت وهي راسية ، احترقت إلى القاع ، إلى مستوى الماء . لم أصدّق في حياتي انها حادثة عرضية » .

« أتظن يا سيدي انها أُحرقت ؟ »

« نعم ـ اعتقد ذلك » .

« ولكن ـ ولكنك لا يمكن أن تفعل ذلك بنفسك » .

« انا ، لا افعله » .

« اذن ، من الذي احرقها ؟ »

« لا ادري »

« لماذا احرقت ؟ »

« للتأمين » .

« اذن ، لا اختلاف ولا فرق الآن » .

« لافرق » .

« ولكن لا بد من وجود فرق ما » .

« الاختلاف والفرق في رجل واحد فقط ـ رجل واحد فقط . رجل واحد بمفرده ولا يمكن الاعتماد على أي شيء آخر » .

خبرني ابي أن جدي قاطع القبطان بيكر ولم يحدثه من بعد ذلك ابداً ، الا انه لم يحمل الخصومة لابنه مستر بيكر صاحب المصرف . اذ لا يمكنه أن يفعل ذلك تماما ، كما لا يمكنه أن يحرق سفينة .

يا اللّه! يجب أن اعود إلى البيت . وقد وصلت إلى البيت راكضاً تقريباً اثناء العودة ، ومن دون تفكير صعدت إلى الشارع الرئيسي . كان الظلام ما زال سائداً ولكن ، على طرف البحر ، امتد اطار من ضياء جعل الأمواج تبدو رصاصية اللون كالحديد . درت حول النصب التذكاري للحروب وقطعت مكتب البريد . وكما توقعت وجدت داني تايلور واقفاً امام بوابة منزل ، ويداه في جيبيه ، وقد قلب ياقة معطفه المهلهل ، وعلى رأسه قبعة الصيد القديمة وقد ارخى حافتها على اذنيه ، فبدا وجهه ازرق رمادياً من البرد والمرض .

قال : « ايث! آسف لازعاجك ـ آسف . يجب أن احصل على شراب . انت تعلم اني لو لم اكن مضطراً لما سألتك » .

« اعرف . اقصد لا اعرف ولكني اصدقك » . اعطيته ورقة دولار قائلاً . « أتكفيك هذه ؟ »

رجفت شفتاه كشفتي الطفل عندما يكون على وشك البكاء . قال : «اشكرك يا ايت . نعم ، تكفي . ستطرحني طول اليوم ، وربما طول الليل» . وبدأ شكله يتحسن من مجرد تفكيره في ذلك .

«يجب أن تمتنع عن هذا يا داني . اتظنني نسيت ؟ لقد كنت اخي يا داني وما زلت . وانا مستعد لأي شيء كي اساعدك» .

وظهر بعض اللون على خديه النحيلين . فنظر إلى النقود التي في يده وكأنه قد عبّ اول جرعة من الخمرة . ثم نظر اليّ بعينين باردتين قاسيتين وقال :

«اولاً ، لا يحق لأحد أن يتدخل في اموري الخاصة . وثانياً انت يا ايث لا تملك قرشاً . انك اعمى مثلي الا أن نوع عماك يختلف عن عماي» .

«استمع إلي يا داني» .

«ولماذا ؟ ان حالي أحسن من حالك ، وحظي أثبت . أتذكر بيتنا في الريف ؟»

«حيث احترق البيت ؟ وحيث كنا نلعب في السرداب ؟»

«ما زلت تذكره جيداً . انه لي» .

«بامكانك يا داني ان تبيعه وتبدأ حياتك من جديد» .

«لن أبيعه . أن السلطة تقتطع جزءاً صغيراً من ايراده في كل سنة من أجل الضرائب . واما المرج الكبير فمال زال لي» .

«ولمَ لا تبيعه ؟»

«لأنه قطعة مني ـ لأنه داني تايلور . فما دمت محتفظاً به فلن يستطيع ابن كلب أن يتطاول ليعلمني كيف اسيّر حياتي ، ولن يستطيع ابن حرام أن يحبسني مدّعياً حرصه على مصلحتي . أتفهم ؟»

«اسمع يا داني ـ »

«لن اسمع . وان كنت تظن أن هذا الدولار يمنحك الحق في القاء المواعظ عليَ ـ فهاك! خذه!»

«احتفظ به» .

«سأحتفظ به . وانت لا تعرف ما تقول . لم تكن في حياتك سكيراً . هل افرض عليك أنا أن تلف لحم الخنزير بطريقة خاصة ؟ والآن حبذا لو تمضي في طريقك ، سأجد لي نافذة اطرق عليها لأحصل على قليل من الشراب . ولا تنس أن حالي تفضل حالك . فأنا لست موظفاً في حانوت بقالة» . ثم دار وجهه تجاه زاوية البوابة المغلقة كطفل يَلْقى العالم باهمال وعدم اكتراث . وظل وجهه في الزاوية إلى أن يئست منه ومشيت .

تحرك وي ويللي من غفوته في سيارته الواقفة امام الفندق وانزل زجاج نافذة سيارته الشفروليه وقال : «صباح الخير يا إيثان . هل بكّرت وخرجت ام انك قضيت الليل خارجاً وتأخرت ؟»

«الأمران معاً» .

«لا بد وجدت لنفسك بنتاً حلوة» .

«بالتأكيد يا ويللي . لقد وجدت حورية» .

«لا لا يا ايث . لا تقل لي انك تصادق اية عاهرة تلقاها في الطريق» .

«اقسم لك» .

«ان المرء لا يستطيع أن يصدق شيئاً في هذا الزمن . اراهن انك خرجت لصيد السمك . كيف المدام ؟» .

«نائمة» .

«وهذا ما سأفعله عندما تنتهي نوبتي» .

تابعت طريقي دون أن اذكّره انه هو ايضاً كان نائماً .

صعدت الدرجات الخلفية لبيتي بهدوء واشعلت ضوء المطبخ . كانت رسالتي القصيرة قد تحركت قليلاً عن وسط الطاولة . واقسم انني وضعتها في الوسط تماماً .

هيأت القهوة ووضعتها على النار وجلست انتظرها لتفور ، ولما اخذت تغلي نزلت ماري . وكان لحبيبتي اذ تستيقظ مظهر فتاة صغيرة . لم يكن

سهلاً عليك أن تصدق انها أم لطفلين كبيرين . وكانت لجلدها رائحة عطرة كالعشب المقصوص جديداً . عبير مريح لم ولن اعرف له شبيهاً .

« ما الذي تفعله في البكور ؟ » .

« تسألينني . اذن فاعرفي انني قضيت معظم الليل ساهراً . انظري إلى خفَي المطر قرب الباب ، انهما مبللان » .

« اين ذهبت ؟ »

« هناك يا بطتي كهف صغير قرب البحر . لقد زحفت إلى داخله وقبعت اتأمل الليل » .

« كفى... كفى! »

« رأيت نجمة تطلع من البحر ولما لم اجد مالكاً لها اخذتها نجمةً لنا . لقد رضتها وتركتها تسمن » .

« لا تتحامق ، اعتقد انك قد نهضت قبل قليل وهذا ما ايقظني » .

« ان كنت لا تصدقين كلامي فاسألي وي ويللي فقد حادثته . واسألي داني تايلور فقد اعطيته دولاراً » .

« ليتك لم تعطه . سيسكر به » .

« اعرف ذلك . هذه كانت رغبته . اين تبيت نجمتنا الليلة يا زهرتي الحلوة ؟ »

« ألا تجد رائحة القهوة طيبة ؟ الحمد للّه انك عدت لسخافتك . فما افظع ما تبدو اذ تستولي عليك الكآبة . آسفة على قصة الطالع . لا اريدك أن تعتقد اني غير سعيدة » .

« ابداً لا تقلقي . لقد بدأ الطالع يتحقق » .

« ماذا ؟ »

« لست امزح . لقد قررت أن أبدأ بجمع ثروتنا » .

« لن استطيع في حياتي أن اقرأ افكارك » .

« وهذه هي الصعوبة لدى الاعتراف بالحقيقة . هل استطيع أن اضرب

الاولاد قليلاً احتفالاً باليوم الذي يسبق القيامة ؟ اعدك بأني لن اكسر عظامهم» .

فقالت : «لم اغسل وجهي بعد ، اذ لم اقدر أن اتصور من الذي يعبث في المطبخ في هذه الساعة» .

ولما صعدت إلى الحمام وضعت الرسالة التي كنت قد كتبتها لها في جيبي . وانا حتى الآن لا اعرف ما ذا كان يمكن لأي شخص أن يعرف حقيقة شخص آخر ، ولو مجرد الغشاء الخارجي لها ؟ ترى كيف تبدين يا ماري في داخل نفسك؟ أتسمعينني يا ماري ؟ من تكونين في دخيلتك ؟

٤

كان لصباح ذاك السبت نمط خاص على ما يبدو . ترى ، هل لكل الايام نمطها الخاص بها ؟ كان يوماًمنكمشاً . وقد حضرتني عبارة عمتي ديبورا الصغيرة المنقبضة : «المسيح ميّت . وهذا هو اليوم الوحيد من ايام السنة الذي يكون فيه المسيح ميتاً . وكل الرجال والنساء ميتون ايضاً . ولكن انتظر للغد ، للغد فقط وسنرى امراً عجيباً » .

لا اتذكر عمتي بوضوح تام ، كما لا يمكن للانسان أن يتذكر تفاصيل شخص يراه عن قرب دائماً . الا انها كانت تقرأ الكتاب المقدس كالجريدة اليومية ولعلها كانت تنظر للكتاب وكأنه صحيفة يومية ـ شيء يستمر حدوثه إلى الابد ولكنه مثير ابداً ، جديد ابداً ، وفي كل عيد فصح يقوم المسيح من بين الاموات ، حَدَث منتظر ولكنه لا يفقد جدته قط . والامر بالنسبة لعمتي لم يقع قبل الفي عام ، بل انه واقع الآن . وقد زرعت شيئاً من هذا في نفسي .

لا اذكر اني رغبت في فتح الحانوت مرة من قبل . اظنني كنت اكره كل صباح قذر بليد . ولكنني في هذا اليوم شعرت برغبة في الذهاب . انني احب ماري من كل قلبي ، كما انني افضل بعض الامور على نفسي ولكنني في الحقيقة لا اصغي اليها دائماً بانتباه . فعندما تأخذ في سرد اخبار الملابس والصحة والاحاديث التي سرّتها وبعثت فيها المزاح تراني لا اصغي اليها

بالمرة حتى انها تضج بي احياناً وتصيح : «ولكن كان يجب أن تعلم . فقد سبق وحدثتك عن ذلك . اذكر جيداً أني حدّتتك صباح يوم الخميس » . ولا شك انها قد خبّرتني فعلا . فهي تطلعني على كل شيء ضمن مواضيع معينة .

وفي هذا الصباح لم اكتف بعدم الاصغاء اليها ، بل اردت التهرب من حديثها . لعلّي تئئت أن اتحدت أنا الآخر الا اني لم اجد ما اقوله ، ولانها كانت هي ايضاً ـ اقول ذلك ايفاء لحقها ـ لا تصغي لحديتي ، وهذا حسن في بعض الاحيان . انها تصغي للهجة والنبرة ومنهما تستخلص ما تبغي من حقائق عن صحتي ومزاجي . وهذه طريقة لابأس بها مطلقاً . والآن ، وانا افكر في هذه المسألة ، انهاكانت لا تصغي اليّ لأني لا اوجه الحديث اليها وانما لمستمع قائم في نفسي . وكانت هي ايضاً لا توجه حديتها اليّ . وكان ذلك يتبدل طبعاً اذا ما جرى الحديث على الاطفال ، أو على ازمة جهنمية اخرى .

لقد فكرت كثيراً في مسألة تبدل نمط الحديث حسب طبيعة المستمع . فمعظم احاديثي موجهة إلى اشخاص قد ماتوا ، كعمتي الصغيرة ديبورا ، التي تشبه صخرة بليموت في رسوخها ، أو القبطان العجوز . فأجد نفسي في جدل معهم . اذكر مرة انني تقاتلت مع القبطان العجوز . فصحت به سائلاً : «أمرغم انا ؟» فأجابني بكل وضوح : «طبعاً مرغم . ولا تتحدث بصوت هامس مرة اخرى» . ولم يجادل ، لم يجادل قط . قال اني مرغم على ذاك الفعل ، فأطعته . لا ابهام ولا غموض في الامر . ان سؤالك النصح ، أو بحثك عن عذر في داخل نفسك ، لأمر مرسوم واكيد .

اما ان كان الامرلمجرد الكلام ، أو بعبارة اخرى لمجرد القاء السؤال ، فبضائعي المعلّبة والمقنّنة الخرساء الفصيحة تفي بطلبي تماماً . أو قد يفي بالغرض اي حيوان أو طير عابر . فهي لا تجادل ولا تعيد ما سمعت .

قالت ماري : «هل تذهب الآن ؟ ولكن لديك نصف ساعة قبل حلول الموعد . هذا ما يتأتى من جراء النهوض باكراً» .

قلت : «عليَ أن افتح قطيعاً من الصناديق . واضع بعض الاغراض على الرفوف قبل أن افتح الحانوت . قرارات هامة . هل اضع الكبيس والبندورة على نفس الرف ؟ هل يتخاصم المتمش المعلّب مع الدراق المعلب ؟ تعلمين اهمية علاقات الالوان في فستان» .

قالت ماري : «انك تهزل في اي شيء ولكنني مسرورة . فهذا افضل من التذمر . كثيرون من الرجال يتذمرون» .

ولقد كنت مبكراً فعلاً . فَردْ بيكر لم يخرج بعد . يمكنك أن توقّت ساعتك على هذا الكلب ، أو على اي كلب آخر . سيبدأ جولته الجليلة بعد نصف ساعة بالضبط . وجوي مورفي ايضاً لم يظهر بعد . وقد لا يفتح المصرف ابوابه الا أن هذا لا يعني أن جوي لن يكون هناك مكبّاً على دفاتره . كانت البلدة هادئة تماماً وهذا طبعاً بسبب رحيل كثير من الناس لقضاء عطلة عيد الفصح خارجها . هذه العطلة وعطلة الرابع من تموز ويوم العمال لهي اطول العطل . إذ يرحل الناس حتى لو لم يرغبوا في ذلك . اعتقد أن عصافير شارع إلم قد رحلت ايضاً .

وقد رأيت ستونوال جاكسون سميث اثناء نوبته . كان خارجاً لتوه من محل فورماستر بعد أن شرب فنجان قهوة . بدت مسدساته واصفاده اضخم في الحقيقة من نحوله ورقة جسمه . وكان يلبس قبعة الضباط بشكل مائل على طرف رأسه ، كما كان يسوك اسنانه بريشة اوزة .

«اعمال ضخمة يا ستوني . امامي يوم طويل صعب للحصول على المال» .

قال : «هه ؟ ما من احد في البلدة ، فقد رحل اهلها» . وبدا عليه انه يتمنّى لو كان مع الراحلين .

«هل من حوادث قتل يا ستوني أو ما يشابهها من لذائذ مريعة ؟»

قال : «الحالة هادئة . بعض الشبان حطّموا سيارة على الجسر ولكنها كانت سيارتهم . سيفرض عليهم القاضي دفع اجور تصليح الجسر . أسمعت بقصةالمصرف في فلدهامبتون ؟»

«كلا» .

«ولا حتى على التلفزيون ؟»

«ليس لدينا تلفزيون بعد . هل سرقوا مبلغاً ؟»

«يقولون ثلاثة عشر الفاً . وكان ذلك بالأمس قبل موعد اغلاق المصرف . انهم ثلاثة اشخاص . ولقد عمّم الانذار على اربع ولايات . ويللي الآن على الطريق العام ، يسبّ ويكفر» .

«انه يشبع نوماً»

«اعرف ذلك ، ولكني لا انام . كنت في الخارج طوال الليل» .

«اتظن انه سيقبض عليهم ؟»

«اوه! اظن ذلك . ان كان المسروق مالاً فان القبض عليهم امر لا بد منه فشركات التأمين تظل تلح وتنق ولا تتخلى ابداً عن إلحاحها» .

«لو انهم لم يمسكوا بك لكانت مسألة ظريفة» .

قال : «صحيح!»

«ستوني ، اود لو انك تلتفت إلى داني تايلور . يبدو عليه المرض بشكل فظيع» .

قال ستوني : «انها مسألة وقت فقط . ولكني سأمر به . شيء مخجل حقاً . شاب لطيف ومن عائلة طيبة» .

«ان مشكلته تقتلني . وأنا احبه» .

«ليس بمقدورك أن تفعل اي شيء له . ستمطر يا إيث . وويللي يكره البلل» .

ولأول مرة في حياتي دخلت الزقاق بسرور وفتحت الباب بابتهاج . كان القط ينتظر قرب الباب . لا اذكر أن صبحاً قد فات دون أن اجد القط الهزيل ينتظرني ليحاول النفاذ من الباب الخلفي ولم اقصّر يوماً في رميه بقضيب ، فلم ينجح ـ على ما اعلم ـ في الدخول قط . اذكر هذا القط لأن اذنيه كانتا مخدشتين من أثر العراك . هل القطط حيوانات غريبة بالفعل ام اننا نجدها

غريبة عجيبة لأنها ـ كالقردة ـ شديدة الشبه بنا ؟ لقد حاول هذا القط الدخول ستمائة أو ثمانمائة مرة ولم ينجح مرة واحدة .

قلت مخاطباً القط : «امامك مفاجأة قاسية» . وكان جالساً في دائرة من ذيله الذي كان يتذبذب بين قدميه الأماميتين . دخلت إلى الحانوت المظلم واخذت علبة حليب من الرف وخرقتها ثم سكبتها في كوب . ثم حملت الكوب إلى غرفة المخزن ووضعته داخل الباب تماماً وتركت الباب مفتوحاً . فراقبني بوقار ونظر إلى الحليب ثم قام ومشى بعيداً وتزحلق من فوق السور خلف المصرف .

كنت اراقبه وهو يمشي عندما دخل جوي مورفي الزقاق وقد امسك بمفتاح باب المصرف الخلفي بيده . كان يبدو عليلاً متوعكاً كأنه لم ينم .

«مرحباً يا مستر هاولي» .

«ظننتكم تغلقون ابوابكم اليوم» .

«يظهر انني لن اتوقف عن العمل ابدا . هناك غلطة بستة وثلاثين دولار في الدفاتر . اشتغلت حتى منتصف الليل في الليلة الماضية» .

«أهي نقص ؟»

«كلا ـ زيادة» .

«يجب أن يكون ذلك مستحسناً» .

«ليس مستحسنا . يجب أن أجدها» .

«هل المصارف بهذه الاستقامة ؟»

«نعم... المصارف مستقيمة . الناس فقط غير مستقيمين . أن أردت التمتع بالعطلة فإن علي أن أجدها» .

«ليتني اعرف شيئا عن الاعمال والتجارة» .

«استطيع أن أحصر لك كل ما أعرف في جملة واحدة . المال يجلب المال» .

«هذه لا تغنيني شيئا» .

« ولا انا . ولكنني استطيع أن اقدم نصيحة بكل تأكيد » .

« متلا ؟ »

« متلا ، لا تقبل ابدا العرض الاول ، ومثل آخر : ان أراد أحد أن يبيع شيئا فلا بد أن هناك باعثا لذلك ، ومتل تالت : الشيء تمين بالنسبة للراغب فيه » .

« اهذا درس ؟ »

« تماما . ولكنه لا يعني شيئا بدون الحكمة الاولى » .

« المال يجلب المال ؟ »

« وهذا يستبعد عددا كبيرا منا » .

« الا يستدين بعض الناس ؟ »

« نعم ، ولكن يجب أن تكون صاحب اعتماد وهذا نوع من المال » .

« الافضل أن استمر في عملي بالبقالة » .

« يظهر ذلك . هل سمعت بحادثة المصرف في فلدهامبثون » .

« خبرني ستوني . غريب! أتذكر ؟ كنا البارحةفقط نتحدث عن الموضوع » .

« لدي صديق هنا . ثلاثة اشخاص ـ واحد منهم يتكلم بلكنة غريبة ، وواحد اعرج . ثلاثة اشخاص . سيلقى القبض عليهم من كل بد . ربما خلال اسبوع ، ربما اسبوعين » .

« فظيع! »

« اوه! لا ادري . لقد اثبتوا غباءهم . وهناك قانون ضد الغباء » .

« آسف على ما حدت البارحة » .

« بسيطة! اني اثرتر كثيراً . وهذه قاعدة اخرى ـ لاتثرثر . وهذه حكمة لن اتعلمها ، انك تبدو رائعاً اليوم » .

« يجب أن يكون الامر عكس ذلك . لم أنم الا قليلاً » .

« اهناك مريض في البيت ؟ »

«لا ، ليلة من هذه الليالي» .

«اعلم تماما ما تقصد...»

كنست الحانوت ورفعت الستر وانا افكر فيما قاله جوي . وظلت حِكمُه تقفز وتنطنط في رأسي . وناقشت الامور مع اصدقائي على الرفوف بصوت عال اولاً ـ لا ادري .

قلت : «شركائي الاعزاء ـ ان كانت المسألة بهذه السهولة فلم لا يكثر الناس من الاقدام عليها ؟ لمَ يكرر كل واحد تقريباً نفس اخطاء الآخرين مرة بعد مرة ؟ ربما كان الضعف الاساسي الحقيقي هو نوع من انواع الحلم والعطف . قال مارولو ان لا قلب للمال . اذن ، هل يصح قولنا ان اي عطف يبدر من رجل متموّل هو في الحقيقة ضعف ؟ كيف تقنع رجلاً عادياً لطيفاً بقتل الناس في الحرب ؟ قد يساعد على المسألة قليلاً اختلاف شكل العدو ولغته . ولكن كيف تتدبر ذلك في حرب أهلية ؟ لقد اكل اليانكيون الاطفال الصغار ، وجوّع جماعة الرب أسراهم في حربنا الاهلية . وهذا يساعد قليلاً . سأبلغك بعد دقيقة ايها البنجر المقطع ويا ايها الفطر المعلّب . اعلم انكم تريدونني أن اتحدث عنكم . كل واحد يريد ذلك . لقد كنت على وشك أن ابلغ نقطة يُستشهد بها ، ان كانت قوانين التفكير هي قوانين الاشياء ، فالاخلاق اذن نسبية ايضاً ، والطباع والخطايا نسبية ايضاً في عالم نسبي . يجب أن تكون كذلك . اذ لا مهرب منها . هذه نقطة يُستشهد بها .

«وانتِ يا حبوبَ الحنطة الجافة التي رسم على غطائها قناع ميكي ماوس الذي يمكن استبداله بآلة للتكلم من الباطن بعد دفع عشرة سنتات ايضاً ، يجب أن آخذك للبيت ولكن عليك اولاً أن تعتدلي في جلستك وتصغي اليّ . ما قلته لماري على سبيل المزاح كان حقيقة . فأسلافي ـ اصحاب السفن الربابنة المبجلون ـ حصلوا حقاًعلى براءات تخولهم الاغارة على التجارة اثناء الثورة ، وفي عام ١٨١٢ ايضاً . ولقد كانوا مواطنين صالحين إلا انهم بالنسبة للبريطانيين قد اعتبروا قراصنة ، إذ احتفظوا بكل ما وقع تحت

ايديهم . هكذا بدأت ثروة العائلة التي بددها ابي . هكذا جاء المال الذي يجلب المال . وبامكاننا أن نفخر بذلك» .

لقد حملت كرتونة تحتوي على علب معجون البندورة وفتحتها ، ثم رحت اكدس التنكات الصغيرات النحيلات الفاتنات على الرف . «لعلكن تجهلن الامر لانكن غريبات بعض الشيء . ان المال لا قلب له ولا شرف ولا ذاكرة . والمال محترم اتوماتيكياً ان عرف المرء كيف يحتفظ به . لا تخلن اني اشهّر بالمال . فأنا شديد الاعجاب به . سادتي ، اسمحوا لي في أن اقدم لكم بعض القادمين الجدد في مجتمعنا . سأضعهم هنا بجوارك يا علبة الصلصة . رحبوا بهذا المخلل في منزله الجديد . إنه نيويوركي ، ولد وقطّع وعبئ في الزجاجات هناك . كنت اتناقش في موضوع المال مع اصدقائي هنا . الا فاسمعوا انتم ايضاً . ان احدى عائلاتكم العريقة . اوه! ستعرفون اسمها! اظن أن كل واحد في العالم يعرف اسمها . حصلت على بدايتها العظيمة عندما باعت لحم البقر إلى البريطانيين بينما كانت بلادنا تخوض حرباً ضد البريطانيين ، وما تزال ثروتها تستحق الاعجاب كغيرها من الثروات ، وكذلك العائلة صاحبة الثروة . وهناك سلالة أخرى ، اربابها الآن أعظم اصحاب المصارف على الاطلاق . اشترى مؤسسها ثلاثمائة بندقية من الجيش . كان الجيش قد ردّها لانها معطوبة وخطرة . فحصل عليها بثمن زهيد ، لعله دفع خمسين سنتاً في القطعة الواحدة . وبعد قليل ، استعد الجنرال فريمونت لبدء هجرته الباسلة إلى الغرب ، فاشترى البنادق ـ دون أن يتفحصها ـ بعشرين دولاراً ـ للقطعة . ولم يسمع احد ان كانت قد انفجرت في ايدي فرسانه . وهكذا كان المال الذي يجلب المال . ان اسلوب تحصيله ليس مهماً ابداً ما دمت قد حصلت عليه واستعملته للحصول على مزيد من المال . لست اتهكّم . فسيدنا ومولانا مارولو ذو الاسم الروماني الشيق محق كل الحق . ان القواعد العادية في السلوك والمعاملة تبطل جميعاً عندما تتعلق المسألة بالمال . لماذا أتحدث اليك ايتها البضاعة ؟ ألأنك فطنة ولأنك

تأخذين عني الكلام ولا تثرثرين ؟ ان المال تابع فظ جحود عندما يكون بين يديك فقط . ولكن الفقراء يجدونه فتاناً ولكن ، ألا توافقونني على أن المرء يجب أن يعرف شيئاً عن طبيعة المال وسجيته ونزعته ان هو اهتم به اهتماماً فعّالاً ؟ قليلون هم الرجال ـ باستثناء الفنانين الكبار والبخلاء ـ الذين يهتمون بالمال من اجل المال . ويمكنكم أن تطردوا منهم هؤلاء البخلاء الذين يملي عليهم الخوف تصرفاتهم .

تكدّست الكرتونات الفارغة حينئذ في كومة كبيرة على الأرض . فحملتها إلى المستودع لتحفظ بعد أن تقصص ، فيحمل كثير من الناس مؤونتهم إلى البيت فيها ، فهي كما يقول مارولو : «توفّر الاكياس يا فتى» .

عدنا إلى كلمة (يا فتى) مرة اخرى . بتّ لا آبه لها . اريده أن يناديني بالفتى ، وحتى أن يفكر فيّ كفتي . وبينما كنت اكدّس الكرتونات سمعت طرقاً قوياً على الباب الامامي . فنظرت إلى ساعتي الكبيرة ـ ساعة السكك الحديدية ـ هل تعلم انها المرة الاولى في حياتي التي لم افتح فيها الحانوت في الساعة التاسعة بالضبط ؟ ها هي ذي واضحة امامي . لقد تجاوزت التاسعة والربع . لقد اخرني حديثي مع العلب . ومن خلال الباب الزجاجي استطعت أن ارى انها مارجي يونج هنت . في الحقيقة لم اكن قد نظرت اليها من قبل ، لم اتفحصّها . لعلها ابتكرت قصة الطالع لهذا السبب ، حتى تتأكد من اني احسّ بوجودها . يجب أن لا اتبدل بهذه السرعة .

فتحت الابواب فقالت :

«لم اقصد أن ازاحمك» .

«ولكني تأخرت» .

«صحيح ؟»

«اكيد . فقد فاتت التاسعة» .

ودخلت متماهلة . برزت مؤخرتها المدوَرة وهي تتحرك مرة إلى فوق ومرة إلى تحت ، مع كل نقلة . كانت ممتلئة تماما فما من حاجة بها إلى

التأكيد على مفاتنها... ومارجي « تحفة » كما يسميها جوي ، ولعل ابني ألن يرأها هكذا ايضا . كنت كمن يراها لأول مرة . تقاطيعها متناسقة ، انفها طويل قليلا ، وهي تخط شفتيها بطريقة تزيد من امتلائهما الفعلي ، لا سيما السفلى منهما . وكان شعرها مصبوغا بلون كستنائي ترف ليس من الوان الطبيعة ، ولكنه جميل . ذقنها قصيرة عميقة ولكن العضل متوافر في خديها ، ولقد لقيت عينا مارجي كل عناية منها . فكان لونهما ذاك اللون المحيّر الذي يتبدّل بتبدّل الضوء ـ ذلك اللون الذي يتراوح بين العسلي الفاتح والازرق والرصاصي . كان وجها متينا يوحي بأنه تحمّل الكثير ، وان في طوقه أن يتحمل المزيد . جالت عيناها في المكان ، نظرت الي ثم إلى البضاعة ثم عادت الي . فتصورت انها لا بد أن تكون صاحبة ملاحظة دقيقة وذاكرة قوّية .

« ارجو أن لا تكون متكلتك اليوم كمشكلة البارحة » .

ضحكَت . « لا... لا . فأنا لا استقبل بائعا متجوّلا كل يوم . انني بحاجة فعلا إلى القهوة اليوم » .

« معظم الناس هكذا » .

« ماذا تقصد ؟ »

« في كل صباح يكون الزبائن العشرة الاول ممن نفدت قهوتهم عادة » .

« صحيح ؟ »

« اكيد . اريد أن اشكرك على ارسالك البائع المتجول إلى هنا » .

« كانت الفكرة فكرته » .

« ولكنكِ اقترحتِها . اي نوع من القهوة ؟ »

« لا يهم . مهما بدلت في الاصناف فقهوتي ليست طيبة » .

« الا تستعملين المقادير بدقة ؟ »

« طبعاً . ولكنها مع ذلك تأتي غير طيبة . فالقهوة ليست . كدت اقول ليست فنجاني المفضل » .

« لقد قلتِها . جرّبي هذا المزيج » . والتقطت علبة من الرف وفيما هي تمدّ يدها لتتناولها مني تحرّك كل عضو في جسمها وتمايل معلناً عن نفسه بسكون . انا هنا ، الساق . وانا ، الفخذ . وانا البطن الناعم . كل شيء فيها جديد ، أو انني اراه متجدداً فأخِذْت . تقول ماري ان بامكان المرأة اذا رغبت أن ترسل اشارات اولاً ، ان صحّ هذا ، فلمارجي جهاز ارسال يمتد من طرف حذائها الاسود اللماع إلى شعرها الكستنائي الناعم المموج .

« يظهر انك تغلبت على جهامتك » .

« كانت فظيعة البارحة . لا ادري من اين تأتي » .

«اعرف ما تقصد تماماً . ويحدث ذلك لي احياناً . الا انها لا تنبتق من سبب عادي » .

«لقد وفقتِ في لعبة الطالع التي ابتكرتها » .

« هل اغضبك الامر ؟ »

« كلا . وانما اريد أن اعرف كيف رتّبته » .

«انت لا تؤمن بهذه الامور » .

«ليست المسألة مسألة ايمان . لقد اصبت في بعض الاشياء . فقد كنت افكر في بعضها وكنت اقوم ببعضها الآخر » .

« مثلاً ؟ »

«مثلاً : لقد حان الوقت لإجراء تبديل» .

«تظن اني تلاعبت بالورق ، أليس كذلك ؟ »

« لا يهمّني إن أنت تلاعبت ـ لم فعلت ذلك ؟ هل فكّرت به ؟ »

«حدّقت في عيني وهي مرتابة تفتش وتتساءل ، فقالت بنعومة : «نعم! اقصد لا ، لم افكر في ذلك مطلقاً . فان كنت تعتبر الامر تلاعباً فما هو دافعي لذلك ؟ »

اطل مستر بيكر من الباب . قال : «صباح الخير يا مارجي . ايثان ، هل فكرت في اقتراحي ؟ »

«من المؤكد اني فكرت . وأود أن احادثك» .

«في أي وقت تشاء يا ايثان» .

«لا اقدر أن اخرج اثناء الاسبوع . ونادراً ما يمر مارولو هنا . هل أنت باق في البيت غداً ؟»

«اكيد ـ بعد الكنيسة . فكرة عظيمة . اصطحب ماري حول الرابعة . فنترك السيدات يثرثرن عن قبعات عيد الفصح وننسحب و ـ » .

«لدي مائة سؤال . أظن انه من الافضل أن اكتبها» .

«اهلاً وسهلاً . انا بالخدمة . كل ما أعرف بخدمتك . إلى اللقاء . وداعاً يا مارجي» .

ولما خرج قالت مارجي : «لقد شرعت تعمل بسرعة» .

«لعلي لنت اخيراً . ما قولك في مسألة طريفة ؟ ما رأيك لو قرأت طالعي وعيناك مشدودتان أو شيء من هذا القبيل ، ثم قارنا بين طالع اليوم وطالع الامس ؟»

قالت : «لا! لن تنجح هذه الطريق ـ أتمزح معي ام انك حقاً مؤمن بها ؟»

«الايمان بها لا يهم ـ وهذه نظرتي إلى مثل هذه الامور . فأنا لا أومن بالبصيرة الحية ولا بالبرق ولا بالقنبلة الهيدروجينية ولا حتى بالبنفسج أو بالاسماك ـ ولكني اعلم انها موجودة . ولا أومن بالاشباح ولكني رأيتها» .

«ها قد بدأت تمزح» .

«لست أمزح» .

«لقد تبدّلت» .

«ان المرء يتبدل بين حين وآخر» .

«ما سر هذا التبدل يا ايت» .

«لا ادري . لعلي مللت وظيفة موظف حانوت» .

«آن الأوان» .

« هل تحبين ماري حقاً ؟ »

« بكل تأكيد . لم تسألني ذلك ؟ »

« لأنكما لستما من نفس الجبلة ـ اعني انكما تختلفان كثيراً » .

« فهمت ما تقصد . ولكني احبها من كل قلبي » .

« وانا ايضاً » .

« حظ! »

« ادري اني محظوظ » .

« قصدت انها هي المحظوظة . فلأذهب الآن لأغلي قهوتي غير الطيبة . سأفكر في اقتراحك حول الورق » .

« كلما أسرعت كان ذلك افضل . اضربي حديداً حامياً » .

خرجت تنقر بقدميها ، وردفاها الانيقان يترجرجان . لم أرها من قبل . ترى كم من الناس نظرت اليهم دون أن اراهم ؟ عندما يتقابل شخصان يتبدل واحدهما في عين الآخر فتجد أمامك شخصين جديدين . لعل هذا يعني ـ يا للجحيم ، فالمسألة معقدة . لقد اتفقت مع نفسي على الا افكر في هذه المسائل الا في ليالي الأرق . ان سهوي عن فتح الحانوت في الموعد المعين قد افزعني . كأنك اسقطت منديلك أو نظارتك في مسرح الجريمة كما يفعل هؤلاء الذين نسيت اسماءهم من عصابات شيكاغو . ما يعني هذا ؟ أية جريمة ؟ واية حادثة قتل ؟

في الظهر هيأت اربع شطيرات من الجبن ولحم الخنزير مع الخس والمايونيز . أخذت اثنتين من الشطائر وزجاجة كوكاكولا وناولتها إلى جوي من باب المصرف الخلفي .

« هل اكتشفت الغلطة ؟ »

« لقد اعماني عنها قربي منها » .

« لم لا تتركها إلى يوم الاثنين ؟ »

« لا استطيع ، فالعمل في المصرف يختلف عن أي عمل آخر » .

« انت اذ تهمل الشيء في بعض الاحيان فانه سرعان ما يوافيك » .

«ادري . شكراً على الشطائر» . قال ذلك وفتحها ليتأكد من وجود الخس والمايونيز بداخلها .

في تجارة البقالة ، يمضي عصر السبت الذي يسبق أحد الفصح هباء ، أو يكون كما يصفه ابني الوقور الامي (مسخرة) . ولكن حادثين أتبتا لي أن تبدلا عميقا يجري في اغوار نفسي . اعني اني لم اكن لأفعل ما فعلته البارحة مثلا ، أو أي يوم قبله . لكأنني انظر إلى نماذج من ورق الجدران ، كأنني اكتشفت نمطا جديدا .

قبل كل شيء ، دخل مارولو ويظهر أن داءه كان يؤلمه بشدة . اذ ظل يثني ذراعيه كرافعي الاثقال .

« كيف يسير الشغل ؟ »

« بطيء يا الفيو » . لم اكن اناديه باسمه الاول من قبل .

« ما من احد في البلدة يا... »

« افضل تسميتك اياي بيا فتى » .

« ظننتك لا تحبها » .

« اكتشفت اني احبها يا الفيو » .

« لقد رحل الجميع » .

لا شك أن كتفيه كانتا تحرقانه وكأن مفاصله قد رشت بالرمل الحار .

« متى اتيت من صقلية ؟ »

« منذ سبعة واربعين عاما . مدة طويلة . »

« هل عدت بعدها ؟ »

« ابدا » .

« لم لا تذهب في زيارة ؟ »

« ولماذا ؟لقد تبدل كل شيء » .

« ألم يستول عليك الفضول ؟ »

« قليلا » .

« هل بقي لك احد من اقربائك ؟ »

« طبعا . اخي واولاده وأولادهم » .

« أظنك راغباً في رؤيتهم » .

نظر الي ولعله يراني ـ مثلما رأيت انا مارجي ـ للمرة الاولى .

« ما الذي يشغل بالك يا فتى ؟ »

« يحز في نفسي داؤك والمك . فكرت في صقلية ودفء جوها . قد تطرد الألم عنك» .

نظر إلي مرتاباً .« ما بك ؟ »

« ما تقصد ؟ »

«لقد تبدل شكلك»

«اوه! لدي نبأ صغير سار » .

«هل ستترك العمل ؟ »

«ليس الآن . اذا شئت أن تسافر إلى ايطاليا فانني اعدك بالبقاء هنا » .

« ما هو الخبر السار ؟ »

« لا استطيع أن اطلعك عليه الآن . فما يزال... » وأرجحت كفي إلى فوق والى تحت .

« مسألة نقود ؟ »

« يجوز . اسمع ، انك غني . فلم لا تعود إلى صقلية وتدعهم يرون كيف يبدو الاميركي الذي يستمتع بالشمس ؟ بامكاني أن اعتني بالحانوت وانت تعلم ذلك جيداً » .

« قلت بانك لن تترك العمل معي ، أليس كذلك ؟ »

« كلا . وانت تعرفني معرفة كافية وتعرف اني لن اتهرب من العمل واتركك» .

«لقد تبدلت يا فتى . فلماذا ؟ »

« قلت لك لماذا . اذهب وداعب صغارهم » .

قال : «بتّ لا انتمي لتلك البيئة» . ولكني عرفت اني قد زرعت شيئاً في نفسه ـ شيئاً هاماً . كما عرفت انه حري بأن يعود في ساعة متأخرة من هذه الليلة ليراجع الدفاتر . فهو وغد شكوك .

وما كاد مارولو يخرج حتى دخل ـ مثلما حدث تماماً بالامس ـ ممثل شركة ب . ب . د . المتجول .

قال : «لم آت بخصوص عمل ، اذ سأقضي عطلة آخر الاسبوع في مونتوك وقد خطر لي أن امر بك» .

قلت : «حسنا فعلت . لأني اريدان اعطيك هذه» ومددت يدي بالمحفظة وقد برزت منها ورقة الدولارات العشرين .

«يا الهي ما اطيب قلبك . قلت لك ان زيارتي ليست للعمل» .

«خذها!»

«ما قصدك ؟»

«انها في عرفنا بمثابة عقد» .

«ما بك ؟ هل غضبت ؟»

«ابدا» .

«اذن ، لماذا ؟»

«خذها! فإن عروض المحلات الاخرى لم تصلنا بعد» .

«يا الهي ـ هل تقدم اليك ويلاندز بعرض افضل من هذا ؟»

«كلا» .

«من اذن ؟ محلات التنزيلات الملعونة ؟»

ودسست ورقة العشرين في جيب سترته دافعاً بها وراء منديله البارز وقلت : «سأحتفظ بالمحفظة لأنها لطيفة» .

«اسمع ، ليس بوسعي أن اعرض عليك شيئا قبل أن اراجع المكتب الرئيسي . لا تغلق الباب بيننا قبل يوم الثلاثاء تقريبا . سأتصل بك بالتليفون . ان قلت اني هيو فاعرف مَنْ محدثك» .

«انت حر . فأنت الذي تدفع نقود المخابرة لا انا » .

«اذن ، دع الباب مفتوحا بيننا » .

قلت : «انه مفتوح . هل تمارس التصيد ؟ »

«اصطاد النساء فقط . حاولت أن اخرج مع هذه (التحفة) مارجي . ولكنها لم تقبل . كدت اجن فانا لست موفقا مع النساء » .

«انهن يزددن غرابة يوماً عن يوم » .

قال : «اعد العبارة من فضلك» . وبدا منزعجاً ثم قال : «لاتفعل شيئاً قبل أن اتصل بك . يا إلهي! كنت اظن اني اخدع فتى ريفياً » .

«لن ابيع سيدي رخيصاً » .

« كلام فارغ . الاستعداد متوافر ولكنك رفعت الاسعار » .

«اذن فاعلم انني رفضت الرشوة في هذه اللحظة ، اذا كان يلذ لك التحدث في ذلك» .

اظن أن هذا يبرهن على اني مختلف عن الآخرين اذ اخذ الرجل ينظر إلي باحترام فأعجبني ذلك منه . بل اني احببت ذلك . لقد ظن الصعلوك انني مثله مع فرق بسيط في المهارة .

خابرتني ماري وانا على وشك أن اقفل الحانوت . فقالت : « إيتان... لا تجن » .

« من أي شيء يا وردتي ؟ »

«ان مارجي وحيدة ومستوحشة فدعوتها إلى العشاء » .

« ولم لا ؟ »

«الا تغضب ؟ »

«يا للعنة . كلا لست غاضباً » .

« لا تشتم . فغداً عيد الفصح » .

« وهذا يذكرني بشيء... اعدي اجمل فساتينك ، فسنذهب لزيارة آل بيكر في الساعة الرابعة» .

« في بيتهم ؟ »

« نعم . لتناول الشاي » .

« اذن سألبس فستان العيد الذي سأرتديه للكنيسة » .

« جميل جداً يا زهرتي » .

« ألم تغضب من دعوتي لمارجي ؟ »

قلت لها : « احبك » . ذلك لأنني كنت احبها حقيقة من كل قلبي ، وهنا تذكرت ما كنت قد فكرت به من أن الانسان يتبدل إلى انسان آخر فتملكني العجب .

٥

لما سرت في شارع إلْم واستدرت إلى الممشى الذي ردمت حصاه ، وقفت وتطلّعت إلى البيت العتيق . فشعرت انه تبدل . شعرت انه لي . لا لماري ولا لأبي ولا للقبطان العجوز ، بل لي انا وحدي . وبامكاني أن ابيعه أو احرقه أو احتفظ به .

كنت قد صعدت درجتين من درجات الباب الخلفي عندما انصفق باب الشبك المعدني ودلف منه الن صائحاً : «اين علبة البيكس ؟ الم تجلب لي البيكس ؟»

قلت : «لا» . والعجيب انه لم يصرخ شاكياً المه وحرمانه ، ولم يلتجئ إلى امه ليستشهد بها على اني وعدته .

قال : «اوه!» وانصرف بهدوء .

فقلت لظهره المتواري «مساء الخير» . فوقف وقال : «مساء الخير» وكأنها كلمة اجنبية جديدة قد تعلمها حديثاً .

دخلت ماري وقالت : «لعلك قصصت شعرك» . انها تفسّر كل تبدل فيّ على وجهين : فاما أن تكون حرارتي مرتفعة ، أو اكون قد قصصت شعري .

«لا يا عزيزتي . لم اقص شعري» .

«لقد كنت اركض طيلة اليوم لأهيئ البيت» .

«لتهيئي البيت ؟»

«لقد اخبرتك أن مارجي ستحضر على العشاء» .
«ادري . ولكن لم كل هذا الاحتفال والهرج والمرج ؟ »
«نحن لم نستقبل ضيفا على العشاء منذ امد بعيد» .
«صحيح... فعلا» .
«هل تلبس بدلتك القاتمة ؟»
«لا . سألبس الرمادية الوقور» .
«لم لا تلبس القاتمة ؟»
«لا اريد أن افسد كيّها لأحضر بها القدّاس غداً» .
«سأعيد لك كيها صباح الغد» .
«كلا ، سألبس الرمادية ، احلى بدلة في المنطقة» .
فنادت : «يا أولاد! لا تمستوا شيئاً . لقد جهزت أطباق اللوز والفستق . الا تريد أن تلبس القاتمة ؟»
«كلا» .
«مارجي ستلبس أحسن واجمل ما عندها» .
«ان مارجي ستعجب بالرمادية» .
«وكيف عرفت ؟»
«لقد قالت لي ذلك» .
«ليس صحيحاً» .
«لقد صرحت بذلك للصحيفة» .
«كن جدياً . ستكون لطيفاً معها اليس كذلك ؟»
«سأطارحها الغرام» .
«ظننت انك تفضل ارتداء البدلة القاتمة بمناسبة حضورها» .
«انظري إلي يا زهرتي ، عندما دخلت إلى البيت لم اكن اهتم البتة بما ارتديه . وفي لحظتين قصيرتين نجحت في اقناعي بعدم ارتداء شيء سوى الرمادية» .

« تفعل ذلك نكاية بي ؟ »

« طبعاً » .

قالت : « اوه! » وقالتها بنفس اللهجة التي قالها بها ألن .

« ماذا اعددت للعشاء ؟ اريد أن البس ربطة تلائم لون لحم » .

« دجاج محمر . الا تشمه ؟ »

« بل اشمه . ماري اني... » ولكني لم اتم عبارتي . ولماذا اتمها ؟ لا يمكنك أن تقاوم غريزة شعبية عامة . فلقد استنتجت أن ماري قد ذهبت إلى مخزن سيف رايت في اليوم المخصص لصفقات الدجاج . فالدجاج هناك ارخص من دجاج مارولو رغم انني احصله من مارولو بسعر الجملة ، حدثت مارجي ذات يوم عن صفقات الدعاية في امثال هذه المخازن . اذ تجتذبك الدعاية عن الصفقة فتدخل وتنتقي عدداً من الاشياء الاخرى التي لا علاقة لها بالصفقة ، لا لسبب الا لأنك وجدتها في متناول يدك . ان كل واحد يعرف هذه المسألة ، وكل واحد يفعلها .

ماتت محاضرتي لماري قبل أن تولد . فإيثان ألن هاولي الجديد يساير نزعات الجنون الشعبية ويستعملها عند الامكان .

قالت : « ارجو الا تعتبرني خائنة » .

« يا حبيبتي ـ ما هو وجه الفضيلة أو الخطيئة في دجاجة ؟ »

« كانت رخيصة جداً » .

« لقد فعلت عين الحكمة ـ عين ما تفعله كل زوجة » .

« انك تسخر مني » .

وجدت ألن ينتظرني في غرفة نومي . « هل اقدر أن اتفرج على سيف الفرسان الهيكليين ؟ »

« أجل . تجده في زاوية الخزانة » .

كان يعرف مكانه جيداً . وبينما كنت اسلخ ثيابي عن جسدي ، اخرج الن السيف من صندوقه الجلدي واستله من غمده ورفع نصله البراق في الضوء

وتطلع إلى وقفته النبيلة في المرآة .

« كيف حال المقال ؟ »

« هه ؟ »

« الم تتعلم كيف تقول عفواً يا سيدي ؟ »

« نعم يا سيدي » .

« سألتك كيف يسير العمل في المقال ؟ »

« اوه! عظيم » .

« هل أنت مصمم على المضي به إلى النهاية ؟ »

« نعم » .

امتأكد ؟ »

« متأكد يا سيدي » .

« يمكنك أن تتفرج على القبعة ايضاً . فهي موضوعة في الصندوق الجلدي الكبير على الرف . لقد اصفرّ ريشها » .

عطست في الحوض الكبير واسع القعر ذي القوائم الشبيهة بمخالب الأسد . كانت الاحواض كبيرة في تلك الايام لينعم المرء بحمامه فيها . فركت آثار مارولو ويومي كله عن جلدي بالفرشاة ، وحلقت ذقني في الحوض دون أن انظر في مرآة متحسساً الشاربين بأطراف اصابعي . قد يتفق الجميع على ان هذه عادة رومانية أو عادة قديمة منحطة . ولما سرحت شعري نظرت إلى المرآة . لم اكن قد رأيت وجهي منذ زمن طويل . من الممكن أن تحلق ذقنك كل يوم دون أن ترى وجهك حقاً ، خاصة ان كنت لا تلتفت له كثيراً . ان الجمال ظاهرة سطحية فقط ، والجمال ايضاً يجب أن ينبع من الداخل . الافضل أن أومن بالقول التاني ان اردت التوصل إلى شيء . فالمشكلة لا تعلق بقبح وجهي أو بجماله بل تتعلق بعدم جدارة وجهي باهتمامي . لقد رسمت بعض التعابير على وجهي تم أقلعت . لم تكن التعابير نبيلة أو متوعّدة أو فخورة أو مضحكة . كان وجهي هو نفس الوجه الملعون يتصنع التعابير .

لما عدت إلى غرفة النوم كان الن قد لبس قبعة الفرسان المريّشة ،فاذا كنت ابدو فيها على نفس السخف الذي بدا عليه فمن الافضل لي أن استقيل . كان صندوق القبعة الجلدي مفتوحاً على الارض . وكان له مسند مصنوع من الكرتون المغلف بالقطيفة على شكل طاسة مقلوبة .

« ترى هل يمكنهم تنظيف ريشة النعام هذه لتعود إلى بياضها ام انه يتوجب علي أن اجلب ريشة جديدة غيرها ؟ »

« ان جلبت ريشة جديدة فهل استطيع أن احصل على هذه ؟ »

« ولم لا ؟ اين ايلين ؟ لم اسمع صوتها الفتيّ الزاعق» .

« انها تكتب مقالها « احب اميركا » .

« وأنت ؟ »

« اني ما زلت افكر فيه . هل ستجلب لنا علبة بيكس ؟ »

« من المرجح أن انساها . لم لا تمر أنت بالحانوت في يوم من الايام وتأخذها ؟ »

« حسنا . اتسمح لي أن اسألك شيئا ـ يا سيدي ؟ »

« من دواعي سروري أن تفعل » .

« هل كنا نملك بناءين كبيرين في الشارع الرئيسي ؟ »

« نعم ، كنا نملك» .

« وهل كنا نملك سفنا لصيد الحوت ؟ »

« اجل » .

« ولم لا نملكها الآن ؟ »

« لقد اضعناها » .

« وكيف حصل هذا ؟ »

« افقنا يوما فاذا بها قد فقدت » .

« اهذا مزاح » .

« مزاح في منتهى الجدية ان انا شرّحته » .

«لقد شرّحنا ضفدعاً في المدرسة» .

«عافاك! مسكين الضفدع . أي ربطة من هذه الربطات الجميلة ألبس ؟»

فقال دون اكتراث «البس الزرقاء» . ثم اضاف : «هل تصعد معي إلى العلية متى انتهيت من ارتداء ملابسك ؟»

«لابأس ان كان هناك امر هام» .

«هل تأتي ؟»

«نعم» .

«طيب . سأصعد الآن واشعل الضوء» .

«سأكون معك بعد لحظات» .

رنّت خطواته بصوت اجوف على درج العلية الذي خلا من السجاد .

ان أنت فكرت في عقد الربطة لدى عقدها فانك تظل تدور في دوّامة ، ولكن ان تركت لأصابعك أن تتحسس سبيلها فهي تقوم بالعملية خير قيام . وقد عهدت إلى اصابعي بالعملية ورحت افكر في علية بيت هاولي العتيق ، بيتي وعليّتي . ولم تكن سجنا مظلما تعشش فيه العناكب ويلقى اليه بكل مكسور مطروح . فلها نوافذ بمربّعات صغيرة للزجاج يدخل منها الضوء فيتحوّل لونه الي ازرق فاتح متموج ـ كأنك ترى العالم من خلال حاجز من الماء . ولم تكن الكتب المخزونة هناك كتباً تنتظر أن تطرحها أو تهبها إلى مؤسسة الملاحين . بل إنها كانت تجلس مرتاحة على رفوفها تنتظر من يكتشفها من جديد . وكانت الكراسي هناك عريضة لينة ، ولقد بطل طراز بعضها منذ زمن ، وتمزقت حشايا بعضها الآخر . ولم تكن العلّيّة مكانا اغبر مهجورا . اذ كان يشملها التنظيف في الربيع كباقي مرافق البيت . وبما انها تظل مقفلة معظم الوقت فان الغبار لم يكن يعرف طريقه اليها . اذكر اني لما كنت طفلا كنت ازحف بين المنتخب من كتبها كما كنت الجأ اليها عندما تعضني الآلام ، فأنشد الوحدة بلجوئي إلى العلية فأجلس منكمشاً في مقعد

ضخم عفن وقد غمرني الضوء اللازوردي من النافذة . ومن مكاني كنت اتامل الدعائم الكبيرة التي شذبها الفأس والتي تسند السطح ، وارى كيف شذبت وادخلت الواحدة في الاخرى وثبتت بدُسر من خشب البلوط . وحتى وقت سقوط المطر كانت العلية مكانا امينا فاخرا . ثم كانت هناك الكتب الملوّنة بالضوء ، كتب مصورة لأطفال كبروا وشاخوا وذهبوا ، مجموعات كلها مصورة تراصت كحجارة الآجر ، بعضها روايات تكسر القلب . وبعضها تقشعرُ لعفنه وقسوته الابدان ، وبعضها يضم صوراً زائفة مريضة لشخصيات عظيمة .

تذكرت رأيي في مدى حكمة هانس كريستيان اندرسون . (باح الملك باسراره لبئر فبقيت اسراره مصونة .) فالرجل الذي يكشف الاسرار أو يحكي الحكايات يجب أن يفكر في سامعه وقارئه ، اذ يختلف مغزى القصة باختلاف قارئيها . فكل واحد يستخلص منها ما يريده ـ أو ما يقدر عليه ـ وهكذا يطابقها على نفسه . فينتقي اجزاء ويطرح عنه الباقي ، وبعضهم ينخل القصة من خلال شبكة تحامله ، فلا يثبت منها شيء ، وبعضهم يطليها بألوان من بهجته . يجب أن تشتمل القصة على نقاط اتصال بالقارئ لتجعله يرتاح اليها . عندئذ تراه على استعداد لأن يتقبل العجب . فالقصة التي اقصّها على الن يجب أن يختلف بناؤها عن القصة نفسها عندما اقصها على ماري ، وهذه بدورها تصاغ على شكل يلائم مارولو ـ هذا ان شعر مارولو برغبة في المشاركة . ولكن ، قد تكون بئر اندرسون هي الحل الاوفق . فهي تختزن أي شيء ، ولا ترجّع الا صدى هادئاً سرعان ما يموت .

أظن اننا جميعاً ، أو أن معظمنا ، موال لتلك النزعة العلمية التي ظهرت في القرن التاسع عشر ، والتي انكرت وجود أي شيء لا يمكن قياسه اوتفسيره . فالامور التي لم نتمكّن من تفسيرها ، استمرت ، ولكن ، ذلك قد تم طبعا على الرغم منا ، ودون عون منا . لم نر ما لم نقدر أن نفسره ، وفي اثناء ذلك تُرك قسم كبير من العالم بين ايدي الأطفال المخبولين

والحمقى والمتصوّفين الذين اهتموا بوجود الشيء اكثر من اهتمامهم بعلة وجوده . كثيرة هي الاشياء القديمة البديعة التي اختزنت في عليّة العالم ، ذلك لأننا لا نريدها حولنا ، كما أننا لا نجرؤ أن نرميها بعيداً .

تدلّى ضوء وحيد من دعامة السطح . وكانت ارض العليّة قد غطيت بألواح من خشب الصنوبر صقلت باليد يبلغ عرضها عشرين بوصة وسمكها بوصتين ، وكانت بمثابة دعامة متينة لأكداس الصناديق ، والعلب المرتّبة ، والفوانيس الملفوفة بالورق ، والمزهريات والأنواع المختلفة من الزخارف المحكوم عليها بالنفي . تألّق الضوء ناعماً هادئاً على أجيال من الكتب في خزائن الكتب المفتوحة ـ وكلها نظيف لا يعلوه غبار . فقد كانت ماري تحسن اصطياد ذراته ، وكانت الكتب مرتبة ومنظمة كالعساكر ، ومنظمة حسب الحجم واللون .

أسند ألن جبينه إلى طرف الخزانة محملقاً في الكتب . ويده اليمنى على مقبض السيف .

قلت : « انك تشكّل صورة رمزية يا ولدي . سمها « الشباب والحرب والمعرفة! » .

« اريد أن أسألك سؤالاً ؛ لقد قلت ان ثمة كتباً ارجع اليها » .

« لأي غرض ؟ »

« لمراجعة الخزعبلات الوطنية ، للمقال » .

« ها . خزعبلات وطنية . ما رأيك في هذه ؟ هل عزّت الحياة وحلا السلم إلى حد أن الحياة باتت تشرى بالقيود والعبودية ؟ الا بئست الحياة اذن! لا اعرف أية طريق سيسلك الآخرون ، أما أنا فامنحني يا رب الحرية ، أو امنحني الموت! »

« عظيم » .

« بكل تأكيد . في تلك الأيام كانت الأرض مأهولة بالعمالقة » .

« ليتني عشت في ذلك الزمن ، سفن القراصنة . يا عيني! أنزلوا

اعلامكم! جرار من الذهب ونسوة يرتدين الحرير والحلي . يا ليتني عشت في ذلك الزمن . ان بعض اهلنا فعلوا . لقد قلت ذلك بنفسك» .

«نوع من القرصنة الراقية ـ لقد أسموا انفسهم بملاحي السفن التجارية التابعة للأسطول الحربي . اظن انها لم تكن على نفس الحلاوة التي تبدو عليها من بعد . لحم مقدّد مالح وخبز يابس . وكان الداء يجتاح الأرض في تلك الأيام أيضاً» .

«لا اظنني كنت اعبأ بذلك . ولكنت جلبت الذهب إلى البيت . لعلهم لا يسمحون بذلك الآن» .

«كلا ، لقد نظمت القرصنة في الوقت الحاضر ، وباتوا يسمونها بالديبلوماسية» .

«ربح ولد في مدرستنا جائزتين من جوائز التلفزيون ـ واحدة بخمسين دولاراً والثانية بمائتي دولار . فما رأيك في هذه ؟»

«لا بد انه ذكي» .

«ذكي ؟ طبعاً لا . يقول انها حيلة . وانه يجب أن تتعلم الحيلة لتعرف سر المهنة» .

«سر المهنة ؟»

«طبعاً . كأن تقول مثلاً انك مقعد ، أو انك تعيل أماً عجوزاً تربي الضفادع . عندئذ تحصل على اهتمام المستمعين فيقع عليك اختيارهم . ان لدى صديقي هذا مجلة تنشر كل مسابقة تنظم في طول البلاد وعرضها . هل يمكنني أن احصل على مجلة كهذه يا بابا ؟»

«لقد انقرضت القرصنة ولكن يبدو أن دوافعها لم تمت» .

«ماذا تقصد ؟»

«شيء من لاشيء . الثروة بدون مجهود» .

«هل يمكنني أن احصل على تلك المجلة ؟»

«خلتها فقدت سمعتها بعد الفضائح الماضية» .

«اللعنة! ـ اقصد ، لا يا سيدي . لقد بدّلوا فيها بعض الأشياء . لكم أتوق للحصول على جزء من هذه الغنائم» .

«غنائم ؟ ، أليس كذلك ؟»

«كلها نقود ولا يهم ماذا تدعوها ما دمت تحصل عليها» .

«لا اعتقد ذلك . فطريقة الحصول على المال لا تؤذي المال نفسه بل تؤذي من يحصّله» .

«لا أتصور كيف ـ فالمسألة ليست ضد القانون . وبعض أعاظم الناس في هذا البلد ـ»

«او من الضروري أن تكون غنياً يا ألن ؟ قل لي يا ألن ، هل في ذلك من ضرورة ؟»

«هل تظنني احب أن أحيا بدون دراجة نارية ؟ هناك عشرون ولداً يمتلكون دراجات نارية . فما بالك ان كانت العائلة لا تملك سيارة ولا حتى تلفزيوناً ؟»

«اني مندهش حقاً» .

«انت تجهل سر الأمر يا بابا . في يوم من الأيام كتبت موضوعاً في الصف عن جدي الأكبر وكيف كان فيما مضى قبطاناً لسفينة صيد الحوت» .

«لقد كان قبطاناً بالفعل» .

«لقد انفجر الصف كله ضاحكاً . أتدري ماذا يسمّونني الآن ؟ ويلي الحوت . أيعجبك هذا ؟»

«شيء فظيع» .

«ان فظاعته لتخف لو انك كنتَ محامياً أو موظفاً في مصرف أو شيئاً من هذا القبيل . أتعلم كيف سأصرف أولى دفعات الغنائم التي سأفوز بها ؟»

«لا أعلم . كيف ؟»

«سأشتري لك سيارة حتى لا تغتم عندما ترى غيرك يملك سيارة» .

قلت : «أشكرك يا ألن» . وأحسست بجفاف في حلقي .

«لا ، بسيطة . على كل لا اقدر أن احصل على اجازة قيادة الآن» .

«ستجد يا ألن اعظم خُطَب أمتِنا في هذه الخزانة . أرجو أن تقرأ قسماً منها» .

«سأفعل ، اذ سأحتاج إلى ذلك» .

«ستحتاجه بالفعل . صيد مبروك» . ونزلت الدرج بسكون . رطبت شفتي بلساني . ان ألن محق في قوله ، وانني لأشعر بغم تقيل .

حملت لي ماري الصحيفة عندما جلست في مقعدي الكبير تحت الضوء .

«لكم أنت مريحة يا عزيزتي» .

«بدلتك لطيفة تماماً» .

«انك خاسرة ناجحة وطباخة ناجحة» .

«لون ربطتك يلائم لون عينيك» .

«أراك تخفين عني شيئاً . فلنتبادل ، سراً بسر» .

قالت : «ولكني لا اخفي سراً» .

«اخترعي سراً» .

«لا اقدر . قل ، يا إيثان ، افصح عن سرك» .

«هل من طفل مخيف يتنصت ؟» .

«كلا» .

«جاءتني اليوم مارجي هنت مدعية أن قهوتها قد نفدت . أخالها مغرمة بي» .

«عجل . قل السر» .

«كنا نتحدث عن الطالع فقلت لها انه يلذ لي أن تعيد قراءة الطالع لنرى ما اذا كان يشابه طالعي السابق» .

«بالله عليك! هل قلت لها ذلك ؟»

«بلى ، قلت لها ذلك . وقالت انه يلذ لها ايضاً أن تعيد قراءته» .

«ولكنك لا تحب هذه الامور» .

«أحبها ان كانت حسنة» .

«أتظنها تفعل ذلك الليلة ؟»

«اذا وعدتِني بتأدية قيمة الرهن ، فسأراهنك على انها لم تأت هذه الليلة الا لهذا الغرض» .

«مستحيل! انا التي دعوتها» .

«بعد أن مهدت هي لك السبيل لذلك» .

«انت لا تحبها» .

«بالعكس ـ لقد غدوت شديد الاعجاب بها وشديد الاحترام لها» .

«ليتني أتعلم متى يبدأ المزاح في حديثك» .

انسلت ايلين عندئذ بكل سكون إلى الغرفة حتى انك لن تعرف ما اذا كانت قد تسمعت ام لا ، ولكني ارجح انها سمعت حديثنا . لقد كانت ايلين في الثالثة عشرة من عمرها وهي قطعة من انوثة ، فيها عذوبة وفي نفسها حزن ، وهي على شيء من فرح ورقة ، ومستعدة أن تدّعي المرض ان دعت الحاجة . انها في هذه المرحلة تشبه العجين عندما يبدأ بالاختمار . وقد تغدو جميلة أو لا تغدو ، ولكنها الآن تحب التمايل ، فتميل علي وتتنفس في وجهي ايضاً ، فيهب علي نَفَسُها حلواً كنفس البقرة . وكانت تحب اللمس ايضاً .

مالت ايلين على يد مقعدي فمست كتفها الصغيرة النحيلة كتفي . ومررت اصبعاً وردية على كم سترتي ، ثم على الشعرات على رسغي فدغدغتني . التمع الزغب الاشقر على ذراعها كغبار من الذهب تحت الضوء . ان هذه البنت ملتوية ولعوب ، وعلى كل حال اظن أن كل الإناث مثلها .

قلت : «أتستعملين طلاء الاظافر ؟»

«ماما تسمح لي اذا كان لونه وردياً فاتحاً . ان اظافرك خشنة» .

«صحيح ؟»

«ولكنها نظيفة» .

« لقد فركتها » .
« كم أكره الاظافر القذرة كأظافر الن » .
« لعلك تكرهين ألن كله . جملة وتفصيلاً » .
« اني أكرهه فعلاً » .
« عافاك . لم لا تقتلينه ؟ »
« انت سخيف » . وزحفت بأصابعها إلى ما خلف اذني ـ باتت تتقن تهييج بعض الاولاد الآن .
« سمعت انك تهيّئين مقالتك » .
« هل خبّرك النمّام ؟ »
« هل وفّقت في ذلك ؟ »
« أوه! نعم ، انها عظيمة . وعندما أنتهي منها سأسمح لك بقراءتها » .
« لي الشرف . اراك قد لبست أحسن ما عندك لهذه المناسبة » .
« هذا الفستان القديم ؟ لقد وفّرت فستاني الجديد للغد » .
« فكرة طيبة . ستجدين اولاداً أكثر » .
« اني اكره الاولاد . انني اكرههم حقاً » .
« أدري . فشعارك هو الخصومة . وانا ايضاً لا أحبهم كثيراً . والآن ميلي عني دقيقة ، ودعيني اقرأ الجريدة » .
انتفضت كممثلات عام ١٩٢٠ وفي الحال انتقمت لنفسها بأن سألتني « متى ستصبح غنياً ؟ »
نعم ، ستكون هذه الفتاة مصدراً للمتاعب والقلق لرجل ما في المستقبل . لو طاوعت غريزتي لأمسكت بها وضربتها وهذا بالضبط ما يلزم لها . اعتقد انها وضعت طلاء على جفنيها . وفاضت عيناها بكمية من الحنان هي عين الكمية التي قد تجدها في عيني نمر أرقط .
قلت : « يوم الجمعة المقبل » .
« اذن اسرع من فضلك . فقد سئمت الفقر » . وانسلت بسكون إلى

خارج الغرفة . انها تتسمّع من وراء الابواب ايضاً . كم احبها ، وهذا غريب اذ أجد فيها كل ما أبغض في غيرها من الناس ـ وَلكِني مغرم بها .

لن تتاح لي قراءة الصحيفة اليوم اذ وصلت مارجي ينجو هنت وأنا لم أفتح صحيفتي بعد . وقد عنيت بزينتها إلى أقصى حد . وصففت شعرها عند الحلاق تصفيفاً لم أفهمه ولكن ماري قد فهمته .

في الصباح كانت مارجي التي نفدت قهوتها منصوبة أمامي كفخ لدب ، وفي مساء نفس اليوم كانت ماري هدفها . واذا ما هزت ردفيها الساعة فقد فعلت ذلك بهدوء بحيث لم ألحظهما ، وان كان ثمة فتنة تحت ثوبها الانيق ، فانها كانت متسترة . وكانت مثال الضيف ، تنضح بحب المساعدة والفتنة والتناء والاهتمام والتواضع . ولقد عاملتني وكأن سني قد زادت أربعين عاماً عن الصباح . عجيبة هي المرأة! وكلي اعجاب بما تفعل النساء وان كنت لا أفهم البواعث !

وبينما انهمكت مارجي وماري في تبادل التسابيح المرحة ، «ماذا فعلت بشعرك ؟» «انه يعجبني» ... «هذا اللون خلق لك . يجب أن تكثري من لبسه» ـ اشارات التعرّف البريئة بين النساء ـ فكرت في أحسن قصة سمعتها عن الانثى . تصيح واحدة : «ماذا فعلت بشعرك ؟ انه يبدو كشعر مستعار» . فترد الأخرى : «إنه فعلاً شعر مستعار .» ، «صحيح ؟ لا يمكن أن يحزر المرء ذلك عنه» .

قد تكون هذه ردوداً أعمق من أن ندركها ، وأعمق مما يحق لنا أن ندرك .

تخللت العشاء صيحات الاعجاب والثناء على الدجاج المحمّر ، والاستنكار لتقطيعه وأكله . تأمّلت ايلين ضيفتنا وعينها تسجّل كل ما ترى ، كل دقائق تصفيف الشعر ، وكل دقائق الزينة . وعندها عرفت في أية سن تبدأ النساء بالتفحص الدقيق الذي يبنين عليه ما يسمّونه بالبديهة فيما بعد . تحاشت ايلين أن تنظر في عيني . فقد عرفت انها قد رمت بسهمها

لتصيب مقتلاً فتوقعت الانتقام . حسناً ، يا ابنتي الضارية . سأنتقم لنفسي انتقاماً قاسياً لا يمكنك تصوره . سأنسى سهمك هذا .

وقد كان العشاء طيباً ، دسماً ، وافراً ـ كما يجب أن تكون عليه الوليمة ـ وتكدّست الاطباق التي لا تستعمل في الاحوال العادية . وبعد العشاء قدمت القهوة التي لا نتعاطاها في الاحوال العادية .

« ألا تسبب لك الأرق ؟ »

« لا شيء يؤرقني » .

« ولا أنا! »

« ايثان! »

وبعد ذلك حلّت الحرب الساكنة المميتة مع الاطباق . « دعيني أساعدك » .

« مستحيل . انك ضيفتنا » .

« اذن ، دعيني أحملها عنك » .

بحثت عينا ماري عن الولدين ثم صوّبت كل سهامها عليهما . عرفا مصيرهما ولكنهما كانا عاجزين .

قالت ماري : « الولدان يغسلانها دائماً . وهما يتقنان العملية ويحبانها جداً . اني فخور ة بهما » .

« ما أجمل ذلك! لن تري مثلهما الا القليل » .

« أدري . أشعربأننا محظوظان بولدين مستعدين للمساعدة دائماً » .

استطعت أن أقرأ افكارهما الصغيرة وهي تستكشف محاولة أن تجد منفذاً من المأزق ، كخلق جلبة ، أو التظاهر بالقيء ، أو اسقاط الاطباق الموروثة الجميلة . لا بد أن ماري قرأت هي الأخرى افكارهما الشريرة . فقالت : « والجدير بالملاحظة انهما حريصان على الاواني فلا يكسران شيئاً منها مطلقاً ، ولا هما حتى يفطران كوباً منها » .

قالت مارجي : « انها نعمة! وكيف علّمتهما ذلك ؟ »

«لم أعلمهما شيئاً . انها شيء يُدرك بالفطرة . ان بعض الناس يؤذون بالفطرة ، ألن وايلين مفطوران على المهارة وخفة اليد » .

نظرت إلى الولدين لأرى كيفية معالجتهما للمسألة . وعرفا انهما انخذلا . أظنهما كانا يتساءلان في نفسيهما ان كانت مارجي يونج هنت قد أُخذت بهذه المظاهر أم لا . كانا ما يزالان يفتشان عن منفذ للهرب . وهنا أجهزت عليهما .

قلت : « يعجبهما طبعاً أن يصغيا لكل هذا المديح ولكنا ، في الحقيقة ، نعطلهما . اذ ستفوتهما السينما ان لم نتركهما ليباشرا في غسل الاطباق » .

أظهرت مارجي كياسة ولم تضحك ، وحدجتني ماري بنظرة اعجاب سريعة جفول . اذ لم يكونا حتى قد طلبا اذناً بالذهاب إلى السينما .

والاولاد في سن المراهقة يخلّفون هدوءاً وراءهم بعد ترك مكان ما ، حتى لو هم لم يحدثوا صوتاً اثناء وجودهم . فهم يثيرون الجو حولهم ويغيرونه . ولكأن البيت كله تنفس الصعداء واستكن بعد أن تركانا . ولا عجب من عدم اغارة الاشباح الا على البيوت التي تضم اولاداً في سن المراهقة .

دار ثلاثتنا بحذر حول الموضوع الذي أدرك كل واحد فينا انه لا بد مطروق ، وقصدت الخزانة ذات الواجهة الزجاجية وأخرجت ثلاث كؤوس على شكل زنبقة تلفلفت ساقها كالقطن المجدول ، جلبها اسلافنا من وطنهم في انكلترة قبل زمن لا يعرف مداه الا اللّه . وصببت من ابريق وضع في سلة أحالت لونها الايام فبدا داكناً .

قلت : « روم من جمايكا . كان آل هاولي من اهل البحر » .

قالت مارجي يونج هنت : « لا بد انها معتّقة » .

« أعتق منك ومني ومن ابي » .

قالت ماري : « ستطيّر رأسك . لا شك انها وليمة حافلة ، فايثان لا يخرج هذا الروم الا في المناسبات ـ في الأعراس والجنائز . أليس من بأس

في شربه يا عزيزي ؟ أقصد قبل عيد الفصح ؟ »

« يا حبيبتي ، ليس السر المقدس من الكوكاكولا » .

« أتدرين يا ماري ؟ لم أر زوجك من قبل على هذا المرح » .

قالت ماري : « انه الطالع الذي قرأته ، فلقد بدّله بين عشية وضحاها » .

كم هو مخيف هذا الانسان ، كتلة من العيارات والقياسات والسجلات ، ولا يمكننا قراءة الا النزر القليل منها ، وان نحن قرأناه فان قراءتنا لن تكون صحيحة تماماً . تكوّنت في احشائي فورة من ألم احمر محرق تصاعدت حتى وصلت إلى ما تحت ضلوعي فنخزتها كالرمح وقطعتها . وزمجرت في اذني ريح عظيمة دفعتني كسفينة بلا معين وقد تهشم صاريها قبل أن تقصِّر قلوعها .احسست بطعم ملح مر ورأيت الغرفة تهيج وتموج . وكل اشارة تصدت لي محذرة صارخة بالخطر ، بالدمار ، بالفزع . لقد فاجأني الألم بينما كنت امرّ خلف مقاعد السيدات فانثنيت على نفسي من الألم المبرح ، وبنفس الفجاءة تركني . فرفعت قامتي وعدت فلم تشعرا بأن شيئاً قد حدث . فهمت الآن اعتقاد الناس فيما مضى أن الشيطان قد يتلبس الانسان . ولست واثقاً ان كنت انا ايضاً اعتقد الاعتقاد نفسه . تلبس! ولادة فائرة لشيء غريب ، وكل عصب يقاوم ثم يخسر المعركة ويستقر مغلوباً ليهادن الغازي . اغتصاب ـ أن أنت أردت ان تفكر في كلمة اطارها من لهب ازرق كالشعلة .

ومن خلال ذلك وصلني صوت حبيبتي وهي تقول :« في الحقيقة انه لا ضرر من سماع اشياء طريفة » .

جربت صوتي فوجدته جيداً قوياً . قلت :« قليل من الامل ، حتى الأمل الذي لا أمل فيه ، لا يضر احداً » . ثم اعدت الابريق إلى الخزانة وعدت إلى مقعدي وشربت حتى نصف الكأس من الروم المعتقة المفوحة ثم رفعت ساقاً على الأخرى وشبكت اصابعي في حجري .

قالت : « لا افهمه . كان دائماً يكره قراءة الطالع ويسخر به . اني فعلاً لا افهم » .

خشخشت اطراف اعصابي كالعشب اليابس الذي لوحته رياح الشتاء وابيضت اصابعي المتشابكة من ضغطي عليها .

قلت : «سأحاول أن افسرها لمسز يونج هنت . ان ماري من عائلة ارلندية نبيلة ولكنها فقيرة» .

«لم نكن فقراء إلى هذا الحد» .

«الاتشتمين رائحة الفقر في حديثها ؟ »

«ما دمت بصدد حديث الفقر ـ»

«وجدة ماري قديسة ، أو يجب أن تكون قديسة ، وكانت في منتهى التقى ، أليس كذلك يا ماري ؟»

بدا لي أن شيئاً مَن خصومة بدأ يتحرك في نفس حبيبتي . فتابعت حديثي : «ولكنها لم تجد أية صعوبة في الاعتقاد بالجن والجنيات بالرغم من أن أمثال هذه الأمور لا تنسجم البتة مع تزمت الدين المسيحي» .

«ولكنها مسألة مختلفة» .

«انها مختلفة يا حبيبتي . فكل شيء تقريباً مختلف . هل يمكنك انكار شيء تجهلين وجوده ؟»

قالت ماري : « انتبهي سيصطادك بفخ من الكلمات» .

«لن افعل ذلك . فأنا لا أعرف شيئاً عن الطوالع وقراءتها . فكيف استطيع انكارها ؟ أعتقد بوجودها لأنها تحدث» .

«ولكنك لا تعتقد بصدقها» .

«الصحيح هو أن كثيراً من الناس بل ملايين منهم يستكشفون طالعهم ويؤدون ثمنه . يكفي أن يعرف المرء هذا ليشوقه الامر أليس كذلك ؟»

«ولكنك لا ـ»

«انتظري! ليست المشكلة في عدم اعتقادي فيه وانما في جهلي التام به ـ وجهتان تختلفان تماماً . ولا أدري أيهما يأتي أولاً ـ الطالع ام قراءة الطالع» .

«اظن اني بدأت افهم قصده» .

« صحيح ؟ » ولم تكن ماري مسرورة .

« فلنفرض أن قارئ الطالع يحس بالأمور التي ستحدث بطبيعة الحال . اهذا كان قصدك ؟ »

« هذه مسألة أخرى . ولكن انّى للورق أن يعرف ؟ »

قلت : « الورق عاجز عن الحركة ان لم يكن من يقلبه » .

لم تنظر مارجي الي ولكنني ادركت انها احست بانزعاج ماري المتزايد وباتت تنتظر التعليمات .

فسألتُ : « هل سنقوم بتجربة ؟ »

« شيء مضحك . فهذه المسائل تستنكر التجارب وتتهرب منها ، ولكننا لن نخسر شيئاً ان نحن جرّبنا . هل فكرتما في اختبار ؟ »

لم تكونا قد مستّا كأسيهما بعد ، ثم رفعتا كأسيهما معاً ورشفتا رشفة واحدة ، وانتهيت انا من شرب كأسي ، وأخرجت الزجاجة .

« أينبغي لك أن تشرب يا إيثان ؟ »

« نعم يا عيوني » . وملأت كأسي . « لم لا تقلبين الورق وأنت معصوبة العينين ؟ »

« يجب أن يُقرأ الورق » .

« وما رأيك لو تقوم ماري أو أقوم انا بقلبه ثم تقومين أنت بقراءته ؟ »

« المفروض أن يكون هناك نوع من تقارب بين الورق وقارئه ، يمكننا أن نجرب على كل حال » .

قالت ماري : «اعتقد اننا لو قمنا بالتجربة فينبغي أن نجربها بالطريقة الصحيحة » . وكان هذا طبع ماري ، فهي لا تحب أي تبديل ، اعني لا تتقبّل الا القليل منه . وهي تعالج الامور الكبيرة احسن مما يفعل أي شخص آخر ـ تفزع لمرأى اصبع مجروحة ولكنك تجدها هادئة متماسكة امام شخص مذبوح . شعرت بخلجة من القلق لأني قلت لماري اننا قد تناقشنا في الموضوع ، وها نحن ندّعي اننا نفكر فيه لأول مرة .

« لقد تحادثنا في الموضوع هذا الصباح » .

« نعم ، حين قدمت لشراء القهوة . لقد كنت افكر فيه طيلة اليوم ولقد حملت الورق معي » .

تنزع ماري إلى الخلط بين العزم والغضب ، وبين الغضب والعنف وهي تفزع من العنف . وقد غرس هذا الفزع في نفسها بعضُ السكيرين من أعمامها ـ شيء مخز وقد شعرت بخوفها يزداد .

قلت : « فلنترك العبث بالطوالع ولنلعب لعبة بالورق عوضاً من ذلك » .

ادركت مارجي حيلتي وعرفتها ولا بد انها استعملتها من قبل ، فردت : « لا مانع لدي » .

« حظي مرسوم . سأصبح غنياً . فلنترك الأمور على حالها » .

« أرأيت ؟ لقد قلت لك انه لا يؤمن بهذه الامور . يقودك في دائرة مفرغة ثم يتخلى عنك . ان امره يجنني احياناً » .

« حقاً ؟ ولكنك لا تظهرين شيئاً . فانت دائماً وأبداً زوجتي الحبيبة »

أليس غريباً احساسك في بعض الاحيان بتيارات متضاربة متعاكسة ـ احياناً وليس دائماً . ان ماري لا تستعمل عقلها للتفكير المنظم ولعل هذا قد جعلها اكثر قابلية لتلقي الانطباعات . ونما التوتر في الغرفة . خطر في ذهني انها قد لا تصبح صديقة حميمة لمارجي بعد اليوم ـ قد لا ترتاح لها بعد الآن .

قلت : « أود لو اعرف شيئاً عن الورق فأنا جاهل في هذه الامور . اسمع دائماً أن النَوَر يتقنون فنونه . هل أنت منهم ؟ لا أظن اني رأيت أو عرفت أحداً منهم » .

قالت ماري : « اسم عائلتها روسي ولكنها من ألاسكا » .

اذن ، هذا سبب عظام وجهها العريضة .

قالت مارجي : « لقد كتمت عنك سراً اثيماً يا ماري ، عن كيفية مجيئنا إلى ألاسكا » .

قلت : « كانت ملكاً للروس تم شريناها منهم » .

« تماماً . ولكن هل تعرف انها كانت سجناً ومنفى كسيبيريا ولكن لجرائم انحس ؟ »

« اي نوع من الجرائم ؟ »

« انحسها! نفيت جدة ابي إلى ألاسكا لامتهانها السحر » .

« ماذا فعلت ؟ »

« كانت تبعث العواصف » .

فضحكت وقلت : « اذن أنت موهوبة بالسليقة » .

« بماذا ؟ في بعث العواصف ؟ »

« قراءة الورق ـ نفس الشيء تقريباً » .

قالت ماري : « انك تمزح . ليس هذا صحيحاً » .

« قد يكون مزاحاً يا ماري ولكنها الحقيقة . فقد كانت هذه افظع جريمة ـ افظع من القتل . ما زلت احتفظ بأوراقها ـ الا انها باللغة الروسية طبعاً » .

« هل تتكلمين الروسية ؟ »

« قليلاً الآن » .

قلت : « لعل السحر ما زال اشنع الجرائم » .

قالت ماري : « ارأيت ما اقصد ؟ انه يطفر من طرف إلى آخر . ولا يمكنك أن تعرفي حقيقة فكره . ففي ليلة البارحة ـ استيقظ قبل أن يطلع الصبح وذهب إلى نزهة » .

قلت : « اني وغد سافل ولا يمكن رده أو شفاؤه من لؤمه » .

« يعجبني أن ارى مارجي تقلب الورق ـ ولكن على طريقتها الخاصة دون تدخل منك . سيعود الأولاد ان نحن دأبنا على الثرثرة وحينئذ لن نستطيع أن نقوم بالتجربة » .

قلت : « اسمحا لي بدقيقة » . وصعدت إلى غرفة نومنا . كان السيف على الفراش وصندوق القبعة مفتوحاً على الأرض . ذهبت إلى الحمام وسحبت

السيفون . يمكنك أن تسمع صوت تدفق المياه في كل أرجاء البيت . وبللت خرقة بماء بارد وضغطتها على جبيني وخاصة على عيني . لكأنهما جحظتا تحت الضغط واسترحت للماء البارد .

وجلست على مقعد التواليت دافناً وجهي في الخرقة الندية ، ولما دفئت بللتها من جديد . وأثناء مروري بغرفة النوم التقطت القبعة المريشة من صندوقها ولبستها ونزلت الدرج ماشياً كالعساكر .

قالت ماري : «اوه! يا احمق!» وانفرجت وبدا عليها السرور . رحل الألم من الجو .

فسألت : «هل يمكن تبييض ريش النعام ؟ لقد اصفر» .

«اظن ذلك . اسأل مستر شولتز» .

«سآخذها معي يوم الاثنين» .

قالت ماري : «ليت مارجي تقلب لنا الورق . ارغب في ذلك من كل قلبي» .

وضعت القبعة على رأس آخر عمود في درابزون الدرج ، فبدا كأميرال سكران ـ ان كن ثمة من اميرال سكران .

«اجلب طاولة لعب الورق يا ايث . فالمسألة تتطلب فسحة في المكان» .

فجلبتها من خزانة الردهة وفتحت ارجلها .

«مارجي تحب كرسياً مستقيماً» .

فأحضرت كرسياً من غرفة المائدة . «اينبغي لنا أن نفعل شيئاً ؟»

فقالت مارجي : «احصر فكرك» .

«في أي شيء ؟»

« اذا أمكن في لاشيء . الورق في حقيبتي على الأريكة» .

كنت دائماً أتصور أن ورق قراءةالحظ لا بد أن يكون ثخيناً مثنياً ملوثاً بالدهن ، اما هذا الورق فقد كان نظيفاً متلامعاً وكأنه قد غطي بالبلاستيك .

كان اطول واقل عرضاً من ورق اللعب العادي وعدده أكثر من اثنين وخمسين . واعتدلت مارجي في جلستها على الطاولة وفرشت الورق على شكل مروحة ـ صور بالوان زاهية وملابس مزخرفة معقدة . كانت الاسماء بالفرنسية : الامبراطور ، الناسك ، العربة ، العدل ، الصاري ، الشيطان ، الارض ، الشمس ، القمر والنجوم ، ومجموعات من السيوف والكؤوس والعصي القصيرة والنقود ، ان كانت هذه الكلمةالفرنسية تعني النقود ، الا أن الرمز كان على شكل وردة شعار الدروع ، وكان لكل مجموعة ملكها وملكتها وفارسها . وبعد ذلك رأيت ورقاً غريباً عجيباً ـ ورقاً مزعجاً باعثاً على القلق ـ برج قد شقه البرق ، عجلة حظ ، ورجل معلق من رجليه إلى المشنقة ويدعى بالمتنوق ـ والموت ، هيكل عظمي يحمل منجلاً .

قلت : « كئيبة نوعاً ما . هل تنبئ الصورة بالمعنى ؟ »

« حسب وقوعها وحسب موقعها . فإن وقعت رأساً على عقب فان المعنى ينعكس » .

« هل هناك تباين في المعنى ؟ »

« نعم . وهذا هو التأويل » .

وفي اللحظة التي اخذت فيها مارجي الورق لبسها الجد . اظهرت يداها تحت الضوء ما كنت قد شعرت به من قبل من انها اكبر سناً من مظهرها .

سألتها « أين تعلمت الفن ؟ »

« كنت أراقب جدتي ، وبعد ذلك اتخذتها حيلة مسلية في الحفلات ـ لعلها طريقة من الطرق لجلب الاهتمام » .

« هل تؤمنين بها ؟ »

« لا اعلم . في بعض الأحيان تظهر اشياء عجيبة . لا اعلم» .

« هل يمكن أن يكون الورق شعيرة لتركيز الفكر ؟ نوعاً من رياضة روحية عقلية ؟ »

« أعتقد أن هذا يكون صحيحاً في بعض الاحيان . ولكن عندما اجد

نفسي اقدّر ورقة لم تكن ذات قيمة من قبل ، فان الورق يكون عندئذ مضبوطاً » .

كانت يداها رشيقتين وهي تخلط ورق اللعب وتفصله ، ثم تخلطه وتفصله من جديد ، تم قدمت الورق اليّ لأفصله .

« طالع من سأقرأ ؟ »

فصاحت ماري : « اقرئي لإيثان لنرى أن كان طالعه يطابق طالع البارحة » .

نظرت اليَّ مارجي وقالت : « شعر فاتح وعيون زرق . هل سنك أقل من الاربعين ؟ »

« تمام » .

« ملك العصي » لقد وجدته بين الورق . « هذا انت » . صورة لملك في حلة رسمية وعلى رأسه تاج وقد امسك بيده صولجاناً ضخماً لونه احمر وازرق ، وطبعت تحته بالفرنسية عبارة (ملك العصي) . وضعت مارجي الورقة على الطاولة ووجهها إلى فوق تم عادت وخلطت الورق . ثم قلبت الورق بسرعة وهي تنغم كلامها اثناء ذلك . ورقة فوق ورقتي ـ « هذه تغطيك » . ثم واحدة بالعرض فوقها ـ « وهذه تعترضك » . واحدة فوقها ـ « وهذه تتوّجك » . وواحدة تحتها ـ « وهذه أساسك ، وهذه امامك ، وهذه وراءك » . شكّلت من الورق صليباً على الطاولة . وبسرعة قلبت أربع ورقات أخر صفّتها إلى يسار الصليب وهي تقول : « انت ، بيتك ، أمانيك ، مستقبلك » . وآخر ورقة كانت الرجل المشنوق المقلوب رأساً على عقب ، الا انه كان معكوس الوضع كما بدا من مكاني الذي جلست اليه .

« وعلى مستقبلي السلام » .

قالت : « قد يعني ذلك الخلاص أو النجاة » .

واستفهمت ماري : « هل المال موجود ؟ »

فقالت وهي شاردة بفكرها : « نعم ، انه موجود هنا » . وفجأة لمّت

الورق وخلطته مرة بعد مرة وفرشته من جديد وهي تتمتم بطقوسها بصوت خافت . فبدت وكأنها لا تدرس كل ورقة على حدة بل ترى المجموعة بكاملها في نظرة واحدة ، وبدت عيناها مبهمتين سحيقتين .

وفكّرت انها حيلة طريفة مرغوبة في نوادي السيدات ، أو في أي مكان آخر . لا شك أن هيئة عرّافات ابولو كانت شبيهة بمارجي الآن ، ساكنة رصينة وغامضة . ان أنت استطعت أن تَشْدَه الناس وتوتر أعصابهم وهم ينتظرون ولا يكادون يتنفسون لمدة طويلة فسيؤمنون بأي شيء تقوله ، وهذه ليست مهارة في التمثيل بقدر ما هي فن وطريقة وتوقيت . هذه المرأة تبدد موهبتها على البائعين الجوّالين . ولكن ، ماذا تريد منا أو مني ؟ وفجأة جمعت الورق وطبقته في مربع ثم وضعته في العلبة الحمراء التي عليها بالفرنسية : « أ . مولر وشركاه ، مصنع الورق » .

قالت : « لست بقادرة على القراءة ، وهذا يحدث احياناً » .

فقالت ماري وهي تلهث : « هل رأيت شيئاً لا تريدين كشفه لنا ؟ »

« سأكشف لك الحقيقة . رأيت مرة عندما كنت طفلة حيّة تنفض عنها ثوبها ، افعى من ذوات الاجراس . ولقد شهدت المنظر كله . والآن ، بينما كنت أتأمّل الورق اختفى من أمامي ورأيت الافعى نفسها تبدّل ثوبها ، وكان نصفه مغبّراً مهلهلاً ونصفه الآخر جديداً غضاً . وأترك لك تفسير ذلك» .

قلت : « انها أشبه بحالة غيبوبة . هل حدثت لك قبل الآن ؟ »

« ثلاث مرات » .

« هل تكشفت عن شيء في المرات السابقة ؟ »

« لا ، على ما أعلم » .

« وفي كل مرة كانت الأفعى تبدو ؟ »

« لا . أبداً . اشياء أخرى كانت تبدو ولكن من نفس نوع الخبال » .

فقالت ماري بحماسة : «لعلها ترمز الى التبدل في حظ ايثان المقبل» .

« أوه! فهمت قصدك الآ ن » .

قالت مارجي : «ان جلدي يقشعر لذكراها . كنت فيما مضى احب الأفاعي ولما كبرت ، كرهتها . ان مرأى الأفاعي يفزعني . آن لي أن أذهب» .

«سيوصلك ايثان» .

«مستحيل» .

«يسرني أن أوصلك» .

فابتسمت مارجي لماري وقالت : «احتفظي به هنا الى جانبك . انت لا تعرفين معنى الحرمان» .

قالت ماري : «هراء» ، بامكانك الحصول على زوج بمجرد اشارة صغيرة من اصبعك» .

«وهذا ما فعلته في السابق دون جدوى . فهم ان جاؤوا بهذه السهولة ، فلا خير يرتجى منهم . احتفظي به في البيت ، فقد يسرقه أحد منك» . وفي خلال حديثها جلبت معطفها وانسحبت انسحاباً سريعاً قائلة : «عشاء لذيذ وأرجو أن تدعواني مرة اخرى . آسفة على قصة الطالع يا ايتان» .

«هل نراك غداً في الكنيسة ؟»

«لا . سأقصد مونتوك الليلة» .

«ولكنها باردة ورطبة» .

«أعشق الاصباح على البحر هناك . تصبحون على خير» .

وقبل أن يتسنى لي أن امسك لها الباب ، كانت قد خرجت ، خرجت وكأن شيئاً يطاردها .

قالت ماري : «لم أدر انها ستصعد إلى هناك هذه الليلة ؟»

لم استطع أن اعلل سبب قرار مارجي المفاجئ ، مثلما لم تستطع هي .

«ايتان ، كيف رأيت الطالع الليلة ؟»

«انها لم تقرأ طالعاً» .

«انت نسيت ، لقد قالت ان المال سيأتي . ولكن ماذا فهمت من

ذلك ؟ اظنها رأت شيئاً لم تشأ اخبارنا عنه ـ شيئاً افزعها » .

« لعلها رأت الافعى مرة ولصقت ذكراها في مخيلتها » .

« ألا تعتقد انها تعني شيئاً ؟ »

« يا حلوتي ، أنت المختصة بالطوالع . أنّى لي أن افهم أو أن أعرف ؟ »

« على كل ، اني مسرورة لأنك بت لا تكرهها . ظننتك تكرهها » .

قلت : « انني محتال احسن اخفاء افكاري » .

« لا تستطيع أن تخفيها عني . اعرفها واحدة واحدة . سيتأخر الولدان للحفلة الثانية »

« اعيدي ما قلت ؟ »

« الاولاد . انهم دائماً هكذا . كنت رائعاً في قصة الاطباق » .

قلت : « انا ملتوٍ . وتبعاً لذلك أعددت مؤامرة على شرفك » .

٦

حدث لي في اختبارات سابقة انني كنت اؤجل قراراً ما لأتروى فيه في وقت مقبل ، ثم أحدد له وقتاً من الأوقات لأقوم بدرسه ، فما أجد المشكلة الا وقد تُممت وحُلّت واتخذ القرار بشأنها . لا ريب أن هذا يحدث لكل فرد منا ، ولكني لا أملك وسيلة للتحقق من ذلك . لكأن هيئة من محكمين لا وجوه لهم اجتمعت في كهوف الفكر المظلمة المقفرة واتخذت القرار . لقد تمثلت دائماً تلك المساحة الخفية الأرقة كماء أسود عميق ساكن ، كمكان لتفريخ السمك لا يطفو على السطح من سمكه الصغير الا القليل اليسير . أو كأنه مكتبة عظيمة تضم سجلات بكل ما يحدث للمادة الحية منذ اللحظة الاولى التي تدب الحياة فيها .

أعتقد أن لبعض الناس مدخلاً إلى هذا المكان أقرب من غيرهم من الناس ـ كالشعراء مثلاً . في احدى المرات ، لما كنت مسؤولاً عن توزيع الجريدة لم أكن أملك ساعة منبه ، فابتكرت لنفسي وسيلة لإرسال اشارة وتلقّي جواب عليها . فبينما أكون مضطجعاً في فراشي في الليل ، أرى نفسي واقفاً على شفا ماء أسود اللون . وأتصوّر حجراً أبيض في قبضة يدي ـ حجراً مدور الشكل . ثم أكتب على سطحه بحروف شديدة السواد «الساعة ٤» وألقي بالحجر من يدي وأرقبه وهو يغوص في الماء متقلّباً مرة بعد مرة إلى أن يختفي . وفيما بعد ، استعملت الوسيلة نفسها لأوقظ نفسي في الرابعة الا

عشر دقائق ، أو في الرابعة والربع ، ولم تخيّبني الوسيلة قط .

وفي بعض الاحيان كان يطفو على وجه ذاك الماء شيء غريب كريه ، كأنه افعوان بحري أو وحش خرافي برز لي من هذه الأغوار العظيمة .

فقبل سنة فقط مات دنيس ، أخو ماري ، في بيتنا . مات ميتة فظيعة ، بسبب التهاب في غدّته الدرقية اخافه وافزعه فجعله عنيفاً فزعاً شرساً . فتحوّل وجهه الإرلندي الذي كان في وداعة وجه الحصان إلى وجه وحشي . وقد ساعدت في قمع غضبه وتهدئته وتسكين روعه في أحلام موته التي استمرّت اسبوعاً قبل أن تمتلئ رئتاه . لم أشأ أن تراه ماري وهو يموت . لم تكن قد رأت الموت من قبل ، وخفت أن تمحو هذه الميتة الذكرى الرقيقة التي تحملها لرجل وديع كان أخاها . وفيما انا جالس أنتظر قرب فراشه ، سبح وحش وطلع من مياهي المظلمة ، لقد أبغضت أخاها ، وأردت أن أقتله . أردت أن أقصم رقبته . فتوترت عضلات فكي وأظن اني كشرت عن أنيابي كالذئب عندما يهم بالتهام فريسته .

ولما انتهت حياته ، اعترفت بما شعرت للدكتور بيل العجوز عن هلعي الآثم . وهو الذي وقّع على شهاد الوفاة .

قال : « اظن أن في الامر شيئاً خارقاً للعادة . فلقد رأيتها على وجوه الناس ، ولو أن القليلين فقط هم الذين يعترفون بوجودها أو حدوثها » .

وسألته : « ولكن ما سببها ؟ »

قال : « لعلها ذكرى قديمة . أو لعلها عودة إلى تلك الحقبة التي كان يتكتل فيها الانسان في اسراب ترى الخطر المحدق في مرض أو جرح أحد اعضائها . بعض الحيوانات ، ومعظم انواع السمك تمزّق الأخ الضعيف وتأكله » .

« ولكني لست حيواناً ـ ولا سمكة » .

« كلا ، لست أياً منهما . ولعلك تستغرب الامر لهذا السبب نفسه . ولكنها موجودة فينا جميعاً » .

والدكتور بيل رجل عجوز طيب النفس ـ رجل عجوز منهك . لقد ظل دائباً يولّدنا ويدفننا طوال خمسين عاماً .

فلنعد إلى ذاك المؤتمر في الظلام ، لا بد انه كان يعمل إلى حد ابعد من الوقت المقرر له . في بعض الاحيان يناقض الرجل نفسه حتى انك تقول ، «لا يمكن أن يفعل تلك الفعلة ـ فذلك ليس من سجاياه» . وقد لا يكون ذلك فعلاً من سجاياه بل يكون وجهاً غريباً لها أو قد تكون عوامل ضاغطة قد بدّلت من شكله . انك تلمس هذه الحالة في الحروب بكثرة ـ ترى الجبان ينقلب إلى بطل وترى الشجاع يتهشّم في اللهيب . أو تقرأ في الجريدة الصباحية أن رجلاً لطيفاً كريماً صاحب عائلة قطّع اوصال زوجته واولاده بالفأس . اظن اني أومن بأن الانسان يتغير على مر الزمن . ولكن هذا التغيّر يصبح ملحوظاً في لحظات معيّنة . ولو اردت أن افتش وانقب عن بذور تبدلي لرددتها إلى وقت مولدي أو إلى ما قبل ذلك . ولقد بدأتْ مؤخراً اشياء صغيرة بتكوين نمط لأشياء كبيرة . لكأن الوقائع والتجارب تضغط علي وتدفع بي إلى اتجاه يعاكس طبيعة نفسي أو ما تصورت انه طبيعة في نفسي ـ في اتجاه موظف البقالة الفاشل ، في اتجاه رجل فقد الامل أو الاندفاع ، وأعاقته مسؤوليات ملء بطون واكساء اجسام عائلته ، وحبسته عادات وآراء كنت اخالها عين الخلق والفضيلة . ولعل شيئاً من غرور قد انتابني لأن امتلك مزايا ما يمكن أن يسمى بالرجل الطيب .

ومن المؤكد اني كنت اعلم بما يدور حولي . ولا حاجة بمارولو لإطلاعي على شيء . اذ لا يمكنك أن تعيش في بلدة بحجم نيوبايتاون دون أن تعرف كل شيء . ولم أكن التفت إلى هذه الامور كثيراً . فالحاكم دوركاس كان يدبر تذاكر مخالفات المرور لقاء بعض المنافع . ولم يكن ذلك خافياً على احد ، والمنافع تستدعي المنافع . ومحافظ المدينة ، الذي كان على صلة بمؤسسة بَدْ لتجهيزات البناء ، يبيع الاجهزة والمعدات للبلدية بسعر عال ، ولم يكن للبلدة من حاجة الى اكثرها ، واذا ما فتحت طريق

جديدة مبلطة ، يتبين لنا فيما بعد أن مستر بيكر ومارولو وعدداً آخر من كبار رجال الاعمال قد اشتروا قطع الارض قبل أن يعلن عن المشروع . ليست هذه الامور الا حقائق عن الطبيعة ، ولكني كنت دائماً اعتقد انها ليست حقائق عن طبيعتي انا . لقد حثرني مارولو ومستر بيكر والبائع المتجول ومارجي يونج هنت وجوي مورفي ودفعوني دفعاً الى«ايجاد وقت للتفكير فيها » .

كانت حبيبتي تخر في نومها والابتسامة العتيقة على شفتيها ، وقد اضفى غزلي عليها تألقاً وراحة وسلوى .

كان ينبغي أن اشعر بالنعاس بعد جولتي في الليلة الماضية ، ولكني لم اشعر به . لقد لاحظت اني نادراً ما احس برغبة في النوم لو انا عرفت أن باستطاعتي أن أتأخر في نومتي في الصباح التالي . كانت البقع الحمراء تسبح على عيني وضوء الشارع يلقي بظلال اغصان الدردار العارية على السقف حيث كانت تشكل خطوطاً بطيئة فخمة . كانت النافذة نصف مفتوحة والستر البيضاء تنتفخ وتمتلىء كقلوع على مركب في مرساه . وكانت ماري تصر على وضع ستر بيضاء وتصر على غسلها دائماً . اذ تهبها هذه الستر احساساً بالحشمة والاستقرار . وهي تتظاهر بالغضب الخفيف عندما اقول لها ان روحها الارلندية ذات ستر الدنتيل تدفعها إلى ذلك .

ولقد اشعرني الغزل انا ايضاً بالراحة والوفاء ، ولكني لم اشأ أن أنام ، وفي حين راحت ماري تغوص باحثة عن النوم اردت انا أن اتلذذ بهذا الشعور الطيب المريح . اردت أن افكر في المقال : مسابقة (أحب اميركا) ، الذي انهمك في تحضيره ولداي . اردت أن انظر في ما يحدث لي وفي ما يترتب عليَّ عمله بشأنه . ومن الطبيعي اخرجت آخر القضايا لأنظر فيها قبل البقية ، فوجدت أن هيئة محكمي الاعماق قد بتّت لي فيها . ها هو الامر واقف امامي ، واضح وأكيد . كان حالي كحال من تدرب وتهيأ لسباق ثم وصل اخيراً نقطة الانطلاق . لا خيار لك عندئذ اذ أنت مضطر إلى التحرك لدى انطلاق المسدس . وجدت نفسي

مستعداً وأسنتي معدّة انتظر الطلقة فقط . ويظهر اني كنت آخر من عرف . لقد ظل الناس طوال اليوم يشيرون إلى اني في صحة جيدة قاصدين بذلك أن هيئتي اختلفت عما كانت عليه ، واني تبدلت ، وأني ابدو اكثر وثوقاً بنفسي اكثر من ذي قبل . لقد صعق ذلك البائع المتجول عصر اليوم . كما تفحصني مارولو بقلق . ووجد جوي ضرورة للاعتذار عن شيء فعلته . وبعد ذلك تألمت مارجي يونج هنت . لعل بصيرتها كانت اكثر من بصائرهم حدة في حلمها بالأفعى ذات الاجراس . فقد نفذت بطريقة ما إلى نفسي واكتشفت فيها ثقة قبل أن اتأكد من وجودها انا نفسي . كانت الافعى ذات الاجراس رمزها . وجدت نفسي مكشراً في الظلمة ، وبعدها ، لما اضطربت لجأتْ إلى اقدم حيلة ـ التهديد بالخيانة الزوجية ، طعم رمته في مد متدفق لترى أي سمك يرعى هناك . لم اذكر الهمس الخفي المنبعث من جسدها ؛ كلا ، بل كانت الصورة التي تذكرتها هي صورة مخالب يديها التي فضحت سنها واضطرابها ، والقسوة التي تتبدى عندما يفلت زمام الامور من الانسان .

في بعض الاحيان اتمنى لو كنت اعرف شيئاً من طبيعة افكار الليل . فهي قريبة من الاحلام . وبوسعي احياناً أن اوجهها ،كما اراها في احيان أخرى تركب رأسها وتأتيني مندفعة منطلقة كخيل قوية شديدة المراس .

دخل داني تايلور . لم أشأ أن افكر فيه واغتم ولكنه حضر على اية حال . فاضطررت إلى اللجوء إلى حيلة علمني اياها فيما مضى عريف عركته السنون ـ حيلة ناجعة . مر عليّ في الحرب يوم وليلة ويوم قطعة واحدة دون انقطاع ، وحدة تكونت اجزاؤها من كل قذر مريع يمكن أن يحدث في هذه العملية السقيمة . لست واثقاً ان كنت قد شعرت بعذابها اثناء وقوعها لأني كنت منشغلاً ومرهقاً إلى درجة لا توصف ، ولكن ، فيما بعد ، عادت إلي تلك الوحدة من يوم وليلة وبعض اليوم ، مرة بعد مرة في هواجسي الليلية ، إلى أن اصبحتْ كذلك النوع من الجنون الذي يسمونه (ارهاق المعركة) . وكان يسمى قبل ذلك « صدمة القنابل » . استعملت كل حيلة اعرفها حتى لا

افكر فيها « ولكنها كانت تنسل عائدة بالرغم مني . تقبع طوال النهار حتى تتسلمني في الظلام . في إحدى المرات كنت في حالة عاطفية مخزية بتأثير الويسكي فاعترفت بها لعريفي الاول وهو محترف قديم شهد من الحروب ما نسينا وقوعه . ولو هو لبس كل اشرطته لما بقي مكان لزر ـ اسمه مايك بولاسكي ، بولندي من شيكاغو ولا يمت للبطل بأية صلة قرابة . ومن حسن الحظ انه هو ايضاً كان سكران سكرة لائقة ، ولولا ذلك لسد فمه بسبب تكيفه والفكرة التي لا تحبذ التآخي مع الضابط .

لقد استمع مايك إلي حتى النهاية وهو يحملق في نقطة بين عيني . ثم قال : «أجل! أعرفها . والمشكلة هي أن المرء يحاول طردها من فكره فلا تنجح اية محاولة . ينبغي عليك أن تحاول الترحيب بها » .

«ماذا تقصد يا مايك ؟ »

« تصورها قصة طويلة ـ ثم ابدأ من بدايتها وحاول أن تتذكر قدر الامكان كل شيء حتى النهاية . وبعد قليل ستتعب وتمل فتسقط منها اجزاء ، ثم لن يمضي وقت طويل حتى تذهب كلها نهائياً » .

ولقد جربت ذلك ونجحت . لا ادري ان كان المتوحشون الذين يقلصون رؤوس اعدائهم يعرفون هذه الطريقة ام لا ، لا بد انهم يعرفونها .

ولما حضر داني تايلور امام ناظري عالجته بطريقة العريف مايك .

لما كنا اطفالا ، انا وهو ، في عمر وحجم ووزن متماثل ، كنا نذهب إلى مخزن بيع الحبوب والعلف في الشارع الرئيسي ونصعد على الميزان . فإن زاد وزني نصف باوند عن وزنه ، لحق بي داني في الاسبوع التالي وجعل وزنه مساوياً لوزني . كنا نخرج معاً للقنص وصيد السمك والسباحة ، وكنا نصادق نفس الفتيات ونخرج معهن . كانت احوال عائلة داني في ذاك الزمن كحالة معظم العائلات القديمة في نيوبايتاون . وكان بيت آل تايلور هو ذاك البيت الابيض في شارع بورلك ذي الاعمدة المخططة . كما كان آل تايلور يمتلكون ايضاً بيتاً ريفياً يبعد عن البلدة بحوالي ثلاثة اميال .

كان الريف حولنا عبارة عن سلسلة من التلال المكسوة بالشجر ، بعض شجيرات من الصنوبر والسنديان والجوز وبضع ارزات . ولقد كانت شجرات السنديان قائمة منذ وقت سحيق قبل أن أولد ، كانت ضخمة هائلة حتى ان السفن المحلية كانت تبنى هياكلها من هذه الشجرات القريبة إلى أن أجهز عليها جميعاً . ،في هذا الريف اللفيف كان لآل تايلور بيت يتوسط مرجاً واسعاً كان البقعة الوحيدة المستوية هناك لعدة اميال . لا ريب انها كانت قاع بحيرة فيما مضى لأنها كانت مستوية السطح كالطاولة ومحاطة بتلال قليلة الارتفاع . وقبل ما يقرب من الستين عاماً احترق بيت آل تايلور فما أعيد بناؤه من بعد ذلك قط . كنت وداني نذهب إلى هناك على دراجتينا لما كنا صغاراً . وكنا نلعب في السرداب الحجري وقد ابتنينا لنا كوخاً صغيراً للصيد من حجارة الاساس القديم . لا بد أن الحدائق كانت رائعة . كما نقدر أن نميز ممرات متشجرة وبقايا ترمز إلى أسيجة أو جدران . كنا نجد قطعاً من انقاض درابزون حجري موزعة هنا وهناك ، ومرة وجدنا تمثالا نصفياً للإله (بان) على قاعدة مستدقة الطرف . وجدناه منكفئاً على وجهه وقد دُفن قرناه ولحيته في الرمل الصلصال . فعدلنا من وضعه ونظفناه وأخفينا امره معه الا أن الطمع والفتيات قد غلبانا على امرنا . فحملناه إلى فيلدهامبتون اخيراً وبعناه إلى رجل يتاجر بالعاديات بمبلغ خمسة دولارات . لا بد انه كان قطعة مليحة ، أو لعله كان قطعة اثرية ثمينة .

كنا اصدقاء انا وداني كما يتصادق كل الاولاد عادة . وبعد ذلك تم قبوله في الاكاديمية البحرية . رأيته مرة بلباسها الخاص ولم أره بعدها لعدة سنين .

كانت نيوبايتاون وما زالت بلدة ضيقة متماسكة . ولقد علم الجميع بطرد داني من الاكاديمية ولكن لم يبحث بهذه المسألة احد ، وانقرض آل تايلور تماماً كما انقرض آل هاولي . لم يبق منهم سواي ، وابني ألن طبعاً . لم يعد داني الا بعد أن ماتوا جميعاً ، وعاد سكيراً . ولقد حاولت في اول

الامر أن اساعده ولكنه لم يردني ، ولم يرد احداً . ولكننا ـ بالرغم من ذلك ـ صديقان حميمان .

عكفت على كل ما حضرني من ذكريات لي معه حتى ذلك الصباح الذي أعطيته فيه دولاراً ليتسنى له أن يجد بنجه الموضعي .

كان نسيج ذاك التحول الذي حصل لي مغزولا من شعور والحاح خارجيين ، ومن أمنية ماري ، ورغبات ألن ، وغضب ايلين ، ومعونة مستر بيكر . وفي النهايةو عندما تأهبت للأمر وضعَ الفكرُ اطاراً لهذا النسيج وتدخل بكلماته مفسراً مبرراً . هب أن وظيفتي الوضعية ، وظيفتي التي لن ينتهي امدها كموظف حانوت ، ليست فضيلة مطلقاً بل هي كسل روحي . فان النجاح يستدعي الجرأة ، ولعلي كنت مجرد هيّاب أو متخوف من العواقب ـ أو انني بالاختصار مجرد كسلان . والاشغال الناجحة في بلدتنا ليست معقدة أو مبهمة كما وانها ليست ناجحة على نطاق واسع ، لأن مزاوليها قد وضعوا حدوداً مصطنعة لكدهم ونشاطهم . كانت جرائمهم صغيرة وكذلك كان نجاحهم . لو نقَّبت في جهاز حكومة البلدة وفي اشغالها المعقدة المركبة بدقة لوجدت مائة مخالفة للقانون ، وألف مخالفة لقواعد الخلق والمعاملة ، ولكنها مخالفات صغيرة ـ سرقات طفيفة حقيرة . لقد ألغوا من حياتهم المسلكية جزءاً من الوصايا العشر واحتفظوا بالبقية . وعندما يحصل احد رجالنا الناجحين على احتياجه أو رغبته يعود وينتحل الفضيلة بعين السهولة التي تُبدل فيها قميصك دون أن يُصاب بأي أذى نتيجةَ اهماله لها ، هذا اذا افترضنا عدم انكشاف امره . هل فكر احدهم بهذا كله ؟ لا أعلم . واذا كانت النفس تتجاوز عن مثل هذه الجرائم الصغيرة فلمَ لا تكون الجريمة سريعة قاسية جريئة ؟ هل القتل بالتضييق البطيء الثابت أخف وطأة من طعنة خنجر سريعة رحيمة ؟ انا لا اشعر بأي اثم تجاه النفوس الالمانية التي قتلتها . هب اني ألغيت كل القوانين لفترة معينة محددة ، لا جزءاً منها فقط . أفلن تكون العودة اليها ممكنة متى بلغت هدفي ؟ ان الاشغال التجارية

هي ـ بدون ادنى شك ـ نوع من حرب . فلم لا نجعلها حرباً عامة شاملة للجهاد في سبيل السلم ؟ ان مستر بيكر واصدقاءه لم يطلقوا النار على ابي ، وانما اقتصروا على تقديم المشورة ، ولما انهار بناؤه ورتوه . اليس هذا نوعاً من القتل ؟ هل جُمعت ثروة عظيمة واحدة من الثروات التي نعرفها دون وقوع ظلم بأحد ؟ انا لا استطيع أن اجد واحدة مهما اجهدت نفسي في التذكر .

وان انا اطّرحت القواعد جانباً لفترة ، فانني لا شك سأصاب بندوب ، ولكن هل ستكون تلك الندوب اسوأ من ندوب الفشل التي اصبت بها ؟ يكفي أن يكون الانسان حياً ليصاب بالندوب .

كل هذا التساؤل كان بمثابة دوّارة للريح على سطح بناءمن القلق والضجر . اجل ، من الممكن أن اقدم على ذلك . فقد اقدم عليه كثيرون من قبلي ، ولكن هل يمكنني ان انا فتحت الباب أن اغلقه مرة اخرى ؟ لا ادري ، ولا يسعني أن ادري قبل أن اجرب... ترى ، هل يدري السيد بيكر ؟ وهل فكر في ذلك قط ؟... أن القبطان العجوز كان يعتقد أن آل بيكر قد احرقوا السفينة « بل ادير » ليحصلوا على التأمين . فهل يمكن أن يكون هذا الحريق وتلك النكبة التي حلت بأبي هي الدافع لرغبة السيد بيكر في مساعدتي ؟ أهذه هي ندوبه ؟

يمكننا أن نصف ما كان يحدث لي كسفينة عظيمة تسحبها جرارات صغيرة عديدة وتدفعها وتنطحها وتديرها . ومتى ادارها المد والجرارات ، كان عليها أن تعين الطريق التي ستسلكها وتشغل محركاتها . وفي مركز الربان ، حيث ترسم الخطط ، ينبغي أن يُدرس هذا السؤال : « حسناً . اعرف الان وجهتي . كيف اصل اليها ، وأين تربض الصخور ، وكيف سيكون الطقس ؟ »

ان احد الصخور المهلكة التي أعرفها هي الثرثرة . كثيرون هم الذين يخونون أنفسهم قبل أن يغدر بهم أحد ، يدفعهم إلى الثرثرة نوع من الشهوة

للمجد والعظمة ، ولو مجد العقاب . ان بئر أندرسون هي النجي الوحيد الذي يمكن ائتمانه على سر ـ بئر أندرسون .

صحت بالقبطان العجوز ، « هل أعيّن الطريق يا سيدي ؟ هل الطريق حسنة ؟ هل تحملني إلى هناك ؟ »

ولأول مرة ، رفض القبطان العجوز أن يقودني . « عليك أن تحلّها بنفسك . قد تحمل المنفعة ضرراً لشخص آخر ، ولن تعرف ذلك الا فيما بعد » .

كان بامكان الوغد العجوز أن يساعدني حينئذ ، ولكن قد لا تكون مساعدته ذات تأثير البتة . ما من أحد يريد النصيحة ـ فحسبه من الآخرين تأييدهم له...

٧

ولما افقت وجدت أن ماري النؤوم استيقظت قبلي ونزلت ، وكانت تحضيرات القهوة واللحم المقدد على قدم وساق ، اذ استطعت أن اشمها . ومهما فتشت فلن تجد يوماً اكثر لياقة بالقيامة من اليوم ـ يوم ألوانه خضراء وزرقاء وصفراء . ومن نافذة غرفة النوم استطعت أن ارى كل شيء وقد بُعث من جديد ـ العشب والاشجار . لقد احسنوا اختياره فصلاً يلائم عيد القيامة . وارتديت معطفاً منزلياً تلقيته هدية في عيد الميلاد وخفين ، هما هدية عيد ميلادي . وفي الحمام وجدت قليلاً من زيت الشعر الذي يستعمله ألن لشعره فدهنت شعري المسرح به حتى شعرت وكأن جلدة رأسي قد اشتدت وصارت كالطاقية الضيقة .

ان افطار احد الفصح لهو عبارة عن وليمة من البيض والفطائر ولحم الخنزير . تسللت من وراء ماري وربت على كتفها الملتفعة بردائها الحريري وقلت : « يا رب ارحم! »

قالت : « اوه! لم اسمع خطوتك » . ونظرت إلى ردائي ونقشه ثم قالت : « ظريف . انك لا تلبسه كثيراً » .

« لم اجد الوقت والمناسبة للبسه قبل اليوم » .

فقالت : « على كل ، اجده لطيفاً » .

« يجب أن يكون لطيفاً ، فقد انتقيتِه أنت بنفسك . أينام ولدانا دون أن يلتفتا لهذه الروائح الشهية ؟ »

« كلا ، لقد قاما وخرجا إلى الحديقة الخلفية ليخبئا البيض . ترى ماذا يريد السيد بيكر منك ؟ »

وكنت في كل مرة اجفل من هذا الانتقال السريع من موضوع لآخر .

« السيد بيكر ؟ ها ، السيد بيكر! من المحتمل انه ينوي مساعدتي في الشروع بجمع ثروتي » .

« هل اطلعته على... ؟ اعني على قصة الورق ؟ »

« طبعاً لا يا حبيبتي ولكن لعله استطاع أن يخمن » . ثم اضفت بجدية : « بالله عليك ألا ترين فيّ مخا عملياً عظيماً ؟ ألا ترين ذلك ؟ »

« ماذا تقصد ؟ » كانت تقلب فطيرة ، وتركتها معلقة في منتصف العملية .

« ان السيد بيكر يرى ان أستثمر إرثك من أخيك » .

« ما دام السيد بيكر ـ »

« انتظري قليلاً . انا لا اريد أن افعل ذلك . فالنقود نقودك وهي الضمان الوحيد لك » .

« الا ترى السيد بيكر يعرف عن هذه الامور اكثر مما تعرف يا عزيزي ؟ » .

« لست واثقاً من ذلك . كل ما اعرفه هو أن ابي خال انه يعرف ، ولهذا ترينني اعمل موظفاً عند مارولو » .

« ومع ذلك ، ما زلت اجد أن السيد بيكر ـ »

« حبيبتي ـ هل تتركين لي تولي هذه الامور ؟ »

« طبعاً » .

« كل الامور ؟ »

« هل عدت للسخف ؟ »

« اني جاد فيما اقول كل الجد » .

« لا بد انك جاد . ولكنك لا تستطيع أن تستمر في شكك بالسيد بيكر . فهو ـ انه ـ »

« انه السيد بيكر . سنستمع لما عنده من حديث ، وبعد ذلك اراني ما زلت مصراً على الاحتفاظ بهذه النقود في مكانها في المصرف » .

دخل ألن من الباب الخلفي مسرعاً وكأنه حجر مقلاع اطلق لتوه . قال : « مارولو ، السيد مارولو واقف بالباب يريد أن يراك » .

فاستفهمت ماري : « وماذا يريد في هذا الصباح ؟ »

« أدخله » .

« لقد دعوته للدخول ولكنه قال انه يريد أن يراك خارج البيت » .

« إيثان ، ما القصة ؟ لا يمكنك أن تخرج بالمعطف المنزلي فاليوم هو أحد الفصح » .

فقلت : « ألن ، قل للسيد مارولو اني لم أرتد ملابسي بعد . قل له أن يعود فيما بعد . ولكن ان كان على عجلة من أمره فليدخل من الباب الامامي ان أراد أن يراني على حدة » . فاندفع ألن راكضاً .

« لا أدري ماذا يريد مني . لعل الحانوت قد سرق » .

وعاد ألن مندفعاً أيضاً . « لقد استدار نحو الباب الامامي » .

« والآن يا عزيزي لا تدعه يفسد عليك افطارك ، أتسمعني ؟ »

دخلت البيت وفتحت الباب الامامي فوجدت مارولو على الطنف وقد لبس أحسن ما لديه استعداداً لقداس عيد الفصح ـ بدلة من الجوخ الأسود وسلسلة ذهبية كبيرة للساعة . وقد أمسك قبعته السوداء بيده ، وابتسم لي بعصبية كالكلب الذي تخطّى حدوده المعيّنة إلى مكان محظور عليه الاقتراب منه .

« تفضل . ادخل » .

قال : « لا . اريد فقط أن أقول لك كلمة واحدة . لقد سمعت بقصة الرجل الذي عرض عليك العملة » .

« نعم ؟ »

« وسمعت ايضاً كيف طردته » .

« من خبّرك ؟ »

« لا أقدر أن أصرّح » . وابتسم مرة اخرى .

« طيب . وماذا بشأنها ؟ أتريد أن تقول لي انه كان يجب علي أن اقبله ؟ »

تقدم خطوة وصافحني ، هازاً يدي إلى فوق والى تحت مرتين بكل رصانة . وقال : « انك فتى طيب » .

« لعلي رفضتها لأن العرض لم يكن مناسباً » .

« أتمزح ؟ انك فتى طيب ، هذا كل ما في الامر ، أنت فتى طيب » . ثم مدّ يده إلى جيبه الجانبي المنتفخ وأخرج كيساً . « خذ هذه » . وربت على كتفي ثم استدار محرجاً وانطلق وساقاه القصيرتان تضخانه بعيداً ورقبته السمينة الحمراء تبدو منتفخة فوق ياقته البيضاء اليابسة .

« ماذا يريد ؟ »

نظرت الى داخل الكيس ـ وكان يحوي بيضات العيد المصنوعة من السكر الملون . وكان لدينا منها في الحانوت ملء وعاء زجاجي كبير مربع ، قلت : « لقد جلب هدية للصغيرين » .

« مارولو ؟ ويجلب هدية ؟ لا أصدق » .

« صدقي أو لا تصدقي ـ فقد جلبها » .

« ولمَ يجلب هدية ؟ انه لم يفعل ذلك من قبل » .

« لعله يحبني حباً جماً » .

« هل هناك شيء أجهله ؟ »

« يا زهرة قلبي ـ في هذا العالم مليون من الاشياء التي نجهلها » . وهنا أخذ الصغيران يحملقان من خلال الباب الخلفي المفتوح . فمددت يدي لهما بالكيس وقلت : « هدية من معجب . ولا تشرعا في قضمها قبل تناول الافطار » .

وبينما كنا نتأهب للذهاب إلى الكنيسة قالت ماري : « ليتني أعرف ماهية كل هذه الامور التي حولي » .

« أتقصدين مارولو ؟ أعترف ، يا حبيبتي ، اني انا ايضاً أتمنى لو أعرف قصده » .

« ولكن ... كيس من الحلوى الرخيصة » .

« أتعتقدين انها مجرد طيب خلق منه ؟ »

« لا افهم » .

« ان زوجته ميتة . وليس له اولاد ، وسنه تتقدم ، فلعله ـ أعني لعله يشعر بالوحدة » .

« لم يسبق له أن زارنا من قبل . فانتهز فرصة شعوره بالوحدة إذن ، واطلب منه زيادة في مرتبك . انه لا يزور السيد بيكر . وكل هذه الامور تقلقني » .

لقد حرصت على أناقتي كزهور الحقل فارتديت بدلتي الداكنة الرصينة ، وحذائي الاسود الذي ألبسه في الجنائز عادة ، وياقة قميصي البيضاء المنشاة حتى انها عكست ضوء الشمس وألقت به في وجهها ، وربطتي الزرقاء المنقطة الرصينة .

هل كانت السيدة مارجي يونج هنت تمارس مهارة اجدادها في اثارة العواصف ؟ من أين حصل مارولو على معلوماته ؟ لا يمكن أن تنبع المسألة الا من السيد بيجر ، ومنه إلى السيدة يونج هنت ، ومنها إلى مارولو . لا أثق فيك يا مارجي يونج ولا استطيع أن أصرّح بالسبب . كل ما اعرفه ـ وأعرفه جيداً ـ هو اني لا أثق بك يا سيدة يونج . وبهذه العبارة التي كانت تطن في رأسي خرجت إلى الحديقة لأنقّب عن زهرة بيضاء أضعها في عروة سترتي بمناسبة العيد . لقد كانت هناك قطعة أرض مخبوءة في الزاوية التي يشكلها الاساس من جهة ، وباب السرداب المائل من جهة اخرى ، وهي معرّضة لنتف من ضوء شمس الشتاء ، بالاضافة إلى أن الموقد الكبير في السرداب كان يدفئ تربتها . ولقد نمت هناك مسكبة من البنفسج الابيض الذي جلب من المقبرة حيث يتكاثر وينمو فوق قبور اجدادي . فالتقطت

تلات زهرات صغيرات منه لعروتي لاحت لي كأنها وجه أسد ، وجمعت باقة منه لحبيبتي ، ونسقت حول الزهرات أوراقها الباهتات ، ثم شددتها شداً محكماً وحملتها لها .

قالت ماري : «يا لها من باقة بديعة! انتظرني حتى اجلب دبوساً - أريد أن اشكلها» .

«انها باكورة البنفسج - اول الزهرات يا عصفورتي . وأنا عبدك . المسيح قام . وكل شيء في هذا العالم على ما يرام» .

«أرجو يا عزيزي ألا تستخف بالأشياء المقدسة» .

«بربك ، ماذا فعلت بشعرك ؟»

«هل يعجبك ؟»

«اعشقه . رتبيه دائماً على هذا التشكل» .

«خفت أن لا يعجبك ، وقد قالت مارجي انك لن تلحظ التغيير . ولكني سأنبيها بأنك لحظته» . ثم وضعت على رأسها قبعة تشبه طاسة من الزهور - وهي التقدمة السنوية للربيع في عيد الفصح . «أتعجبك ؟»

«كثيراً» .

تلقى الصغيران الفحص التدقيقي المعتاد ، فحص الآذان وفتحات الأنف والاحذية - فحصاً مفصلاً دقيقاً - وقاوما كل لحظة منه . وكان ألن قد دهن شعره فلزق على جلدة رأسه إلى حد صعب عليه معه أن يطرف عينيه . ولم يكن قد لمّع كعب حذائه الا انه استطاع - بعناية متناهية - أن يروض خصلة من شعره لتتموّج على جبينه كموجة صيف .

اما ايلين فقد كانت فتاة تقطر أنوثة . وكل ما ظهر من هيئتها كان منتظماً . فجرّبت حظي معها مرة أخرى وقلت «ايلين! لقد بدّلت شيئاً في ترتيب شعرك وهو يلائمك . ألا يعجبك يا حبيبتي ماري ؟»

فقالت ماري : «أوه! لقد بدأت أيلين تعرف الزهو» .

وشكّلنا موكباً في طريقنا إلى شارع الم ، تم انعطفنا يساراً إلى شارع

بورلك حيث تقع كنيستنا ـ كنيستنا العتيقة ذات البرج الأبيض والتي نسخ طرازها كاملاً عن طراز كان قد صممه المهندس الانكليزي كريستوفر رن . وكنا جزءاً من تيار يزداد كلما اقتربنا من الكنيسة ، وطوال الطريق دأبت النسوة على إظهار سرورهن بقبعات النسوة الاخريات .

قلت : «لقد صممت قبعة لعيد الفصح . تاجاً بسيطاً من الشوك المذهب يتدلى منه على الجبين قطرات من الياقوت الحقيقي » .

فصاحت ماري بصرامة : « إيثان هب أن احداً سمعك» .

« لا اظنها تكون مستلطفة» .

قالت ماري : «انت فظيع!» وكان هذا نفس رأيي أيضاً في نفسي ، بل لعلي كنت اكثر من فظيع . ولكني فعلاً كنت أتساءل عن رد فعل السيد بيكر لأي تعليق عن شعره .

انضمّ تيار عائلتنا الصغير إلى التيّارات الاخرى ، وتبادلنا التحيات والاحترامات ، ثم تحوّل التيار إلى نهر يتدفّق في كنيسة القديس توما الاسقفية .

عندما يحين الوقت لاطلع ابني على خفايا الحياة ، التي لا اشك في انه قد تعرّف اليها ، فإن علي أن اتذكر وأطلعه على أمر يتعلق بشعر النساء ، اذ بوسعه أن يصل إلى كل ما يشتهيه قلبه الشبق لو هو تسلح بكلمة لطيفة عن الشعر . ومهما يكن الأمر فإن عليّ أن أحذره أن بوسعه أن يرفسهن أو يضربهن أو يوقعهن أو يقلبهن أو يورمهن ولكن لا يجوز له ـ أبداً ـ أن يشعث شعرهن . فمتى عرف هذا ملكهن .

لقد سبقنا آل بيكر ببضع خطوات على الدرج ، فتبادلنا التحيات المناسبة . «أعتقد أنا سنراكم على الشاي» .

« نعم . من كل بد . كل عيد وانتم بخير» .

« أهذا ألن ؟ لكم كبر وطال . وماري ايلين ايضاً ؟ ليس بامكاني أن اتتبع نمو الصغار ، فهم يطولون بسرعة» .

هناك شيء عزيز جداً وغال في الكنيسة التي نشب عليها منذ صغرك . فأنا اعرف كل زاوية خفية فيها ، واعرف باب كنيسة القديس توما السري . لقد عمّدت في هذا الحوض ، وثُبّت عمادي عند ذاك الدرابزون ، وفي هذه المقصورة جلس آل هاولي منذ أمد لا يعلم مداه الا اللّه ، وليس في عبارتي أية مبالغة . اذ لا شك أن القداسة تركت في نفسي اثراً عميقاً ، ذلك لأنني اذكر كل دناساتها ـ وهي عديدة . اظنني استطيع أن اعين كل مكان خدشت فيه حروف اسمي بمسمار . ولما تقبنا انا وداني تايلور كتاب الصلاة بكلمة بذيئة جداً اكتشفنا السيد ميلر وعاقبنا ، ولكنهم اضطروا للتفتيش في كل كتب الصلاة والترتيل ليتأكدوا من عدم وجود كلمات غيرها .

لقد وقعت مرة حادثة شنيعة في جناح الجوقة تحت المنبر تماماً . كنت البس الدنتيل واحمل الصليب وأرتل بطبقة من السبرانو العريض . وفي احدى المرات تولى الاسقف الخدمة الدينية ، وكان عجوزاً طيباً خلا رأسه من الشعر فبدا كالبصلة المسلوقة ، الا انه كان يشع بالقداسة في نظري . فكان أن وضعت الصليب في نقرته بعد أن انتهينا من الموكب ، ولشدة استغراقي نسيت أن اقفل السقاطة النحاسية التي تثبته في مكانه . ولما وصل الاسقف في قراءته إلى الدرس الثاني رأيت ـ ويا لهول ما رأيت ـ رأيت الصليب النحاسي الثقيل يتمايل ثم يهوي على الصلعة ، فخسرت الدنتيل الذي اعطي بعدي إلى ولد لا يتقن الترتيل مثلي ـ يسمى سلنكنوت هيل أصبح فيما بعد عالماً في تاريخ الأجناس البشرية في مكان ما في غرب البلاد . لقد أثبتت لي الحادثة أن النوايا ـ حسنت أو ساءت ـ لا تكفي . ففي مثل هذه الحوادث يتدخل الحظ دائماً ، أو القدر ، أو شيء آخر .

لقد استمعنا إلى القداس قعوداً ، ثم سمعنا اعلان الخبر من أن المسيح قد قام بالفعل . وكالعادة ، اقشعر جسمي كله لدى سماعي هذه العبارة . فتناولت القربان المقدس بكل اخلاص . ولم يكن عماد ألن وماري ايلين قد ثُبّت بعد فلم يتناولا القربان فشرعا يتململان في جلستهما إلى أن حدجتهما

ماري بنظرة حادة لتحد من حركاتهما العصبية . وعندما تتألق العداوة في عيني ماري فإن بإمكانها أن تخترق حتى درع المراهقة الحديدي .

وفي أشعة الشمس الصافية صافحنا وهنأنا وسلمنا على لفيف من جيراننا . اعدنا التحية على كل من سبق أن حيانا ، قبل الدخول إلى الكنيسة ـ استمرار في تمتمة اوتوماتيكية يفرضها السلوك والعادات المتعارف عليها ، نوع من توسّل هادئ للفت النظر واستجداء الاحترام .

« صباح الخير . وكيف حالك في هذا اليوم الجميل ؟ »

« بخير ـ شكراً لله . وكيف حال والدتك ؟ »

« لقد تقدمت بالمسكينة السن ـ آه لآلام وخناجر الشيخوخة . سأخبرها بأنك سألت عنها » .

ان الكلمات تكون عديمة المعنى الا في مجال الشعور والاحساس . فهل يتصرف الانسان تصرفاً ما نتيجة للفكر ام أن الشعور يستحثه على هذا التصرف ، وقد يقوم الفكر احياناً بهذا التحريض ؟ لقد سار السيد بيكر في طليعة موكبنا الصغير وهو يتجنب السير في الحفائر ، ولعل امه التي ماتت قبل عشرين عاماً قد رسخت فيه هذه العادة حتى لا يتسخ سرواله ، وكانت السيدة بيكر ، واسمها اميليا ، تخطو إلى جانبه بخفة ورشاقة محاولة أن تساير بقدميها الخفيفتين مشيته غير المستوية . كانت امرأة صغيرة الحجم في عينيها اشراقة عيني الطير ـ طير من غير الجوارح .

مشى ابني ألن بجانب اخته ، وقد حاول كل منهما أن يظهر للملأ انه غريب تماما عن الآخر . اعتقد انها تكنّ له احتقاراً ، وكان بدوره يبغضها . لقد يستمر فيهما هذا الشعور طول حياتهما ولكنهما قد يتعلمان كيف يخفيانه وراء سحابة وردية من عبارات المحبة . فاعطيهما طعامهما يا زوجتي ـ اعطيهما تفاحاتهما الحمراء العطرة وأطلقيهما في هذا العالم الواسع ليُنْسِلا .

وهذا عين ما فعلت ماري . ابتعدا ، وقد حمل كل منهما كيس طعامه ، كل إلى عالمه السري الخاص .

«هل استمتعت بالقداس يا حبيبتي ؟»

«نعم . انا دائماً استمتع به . ولكن انت... انني تساءل في نفسي احياناً ان كنت فعلاً من المؤمنين . لا تعجب ، اني اعني ما اقوله . ان هزءك ومزاحك في بعض الاحيان...»

«اسحبي كرسيك يا حبيبتي الفاتنة» .

«يجب أن احضّر الغداء» .

«فليذهب الغداء إلى جهنم» .

«أرأيت ؟ هذا هو المزاح الذي قصدته» .

«ليس الغداء مقدساً . لو كان الطقس اكثر دفئاً لحملتك إلى زورق ولجذفت بك إلى ما بعد الحاجز لنتصيد السمك الاحمر» .

«سنذهب لزيارة آل بيكر . هل تدرك في قرارة نفسك يا إيثان ان كنت حقاً تؤمن بالكنيسة ام لا ؟ ثم لمَ تطلق علي اسماء سخيفة ؟ فانك تكاد لا تناديني باسمي» .

«افعل ذلك لأجنبك التكرار والملل ، ولكن اسمك يرن في اعماق قلبي كجرس . هل أومن بالكنيسة ؟ يا له من سؤال! هل ارفع كل عبارة متألقة من العقيدة ، وقد شحنت كطلقة البندقية ، لأتفحصها ؟ كلا ، ولا ضرورة لذلك . انها شيء غريب فريد يا ماري . فلو جفت عقلي وروحي وجسمي من الايمان جفاف حبة الفاصولية اليابسة لاستمرت هذه الكلمات على اتقادها في نفسي وقلبي :

«الرب راعيَّ فلا يعوزُني شيء ، في مراعٍ خُضْرٍ يُرْبِضُني» .

«لست افهم شيئاً» .

«عظيم! ولا انا كذلك . فلنقل اني لما كنت طفلاً صغيراً ، وكانت عظامي ما تزال طرية قابلة للتكيّف ، وُضعتُ في علبة اسقفية على شكل صليب ـ وهكذا تكوّن شكلي . وبعد ذلك ، كسرت العلبة لأخرج منها ، تماماً كما يهرب الفرخ من البيضة ، فهل تستغربين بقاء شكلي على شكل الصليب ؟ هل لاحظت أن للفرخ شكل البيضة تقريباً ؟»

«انت دائماً تتفوه بأشياء فظيعة ـ حتى لولدينا» .

«وهما أيضاً يوجهان الي عبارات فظيعة . ففي الليلة الماضية سألتني ايلين : «بابا ، متى سنصبح أغنياء ؟» ولكنني لم اطلعها على ما اعرف : «سنصبح من الاترياء في وقت قريب ، وأنت التي تسوسين الفقر بهذا السوء ستسوسين الثروة بنفس السوء» . وهذه هي الحقيقة . انها حسود في فقرها ، وستغدو متعجرفة في غناها ، فالمال لا يبدّل المرض ، وإنما يبدل من اعراضه فقط» .

«اذا كنت تتكلم بهذه اللهجة عن ولديك ، فبأية لهجة يا ترى تتحدث عني ؟»

«اقول انك بركتي وغاليتي وضياءحياتي التي يكتنفها الضباب» .

«لكأنك سكران ـ أو نشوان على الاقل» .

«اني فعلا كذلك» .

«لستَ سكران . لو كنت ذلك لشممت رائحتك» .

«انك لتشمينها يا معشوقتي» .

«ماذا جرى لك ؟»

«انت تعرفين ، أليس كذلك ؟ تحول وتبدل ـ عاصفة هوجاء من التحول . وانت لا تحسّين إِلا بالموجات النائية» .

«ان حالتك تقلقني يا إيثان . تقلقني حقاً . ان فيك شيئاًمن الطيش والتهوّر» .

«اتذكرين اوسمتي ؟»

«تقصد التي نلتها في الحرب ؟»

«لقد كوفئت بها لتهوّري ـ لوحشيتي . لم يوجد على الارض رجل طهر قلبه من القتل كقلبي انا . ومع ذلك فقد صنعوا علبة أخرى وحشروني فيها . تطلّبت مني تلك الفترة ـ بل تلك اللحظة ـ أن اذبح البشر ، ففعلت» .

«كانت فترة حرب وما فعلتها الا لوطنك» .

«انها دائماً نوع معين من الفترات . ولقد نجحت حتى الآن في تجنب فترتي . كنت جندياً باسلاً يازهرتي ـ ذكياً وسريعاً وعديم الرحمة ـ كنت وحدة فعالة في فترة الحرب . لعلني اصبح وحدة فعالة في هذا الوقت ايضاً» .

«انك تحاول أن تفهمني شيئاً» .

«بكل اسف ، احاول ذلك . وهي ترن في اذني وكأنها اعتذار ـ أرجو ان لا تكون كذلك» .

«سأذهب لتحضير الغداء» .

«لا أشعر بجوع بعد ذاك الافطار الثقيل» .

«بوسعك أن (تنقنق) . هل رأيت قبعة السيدة بيكر ؟ لا شك انها ابتاعتهامن نيويورك» .

«ماذا فعلت بشعرها ؟»

«هل لحظت ذلك ؟ انه بلون الشليك تقريباً» .

«حتى يكون نوراً يضيء للأمم» .

«ولمَ تريد مارجي أن تذهب إلى مونتوك في هذاالوقت من السنة ؟»

«انها تعشق الصبح هناك» .

«اعرف انها تكره النهوض مبكرة ـ اني امازحها في ذلك . ألا تظن أن احضار مارولو لتلك البيضات من الحلوى شيء غريب يلفت النظر ؟»

«هل تربطين بين الحادثتين ؟ يقظة مارجي المبكرة ، واحضار مارولو للبيض» .

«لا تكن سخيفاً» .

«لست سخيفاً . ولأول مرة لا أكون سخيفاً . لو انا أفشيت لك سراً ، فهل تعدينني بعدم اطلاع احد عليه ؟»

«انك تمزح!»

«كلا» .

«طيب . اعدك» .

«أعتقد أن مارولو سيذهب في رحلة لإيطاليا» .

«وكيف عرفت ذلك ؟ هل قال لك هو ذلك ؟»

«لم يقله تماماً ، الا انني ربطت بين الامور . أقصد اني انا الذي ربطت بين الامور» .

«ولكن هذا يعني انك ستبقى وحدك في الحانوت . يجب أن تهيىء لك شخصاً يساعدك» .

«استطيع أن اتدبر الامور بنفسي» .

«انك تقوم بكل شيء تقريباً الان ، وستحتاج إلى شخص يساعدك» .

«تذكري أن النبأ ليس مؤكداً ويجب أن يبقى سراً» .

«انا لا انسى وعداً أقطعه على نفسي . »

«ولكنك قد تلمحين أو تشيرين» .

«إيثان !لن افعل ذلك» .

«اتدرين ما أنت ؟انت ارنب صغير عزيز توج بالزهور» .

«اذهب إلى المطبخ واغرف لنفسك . ساذهب لارتب من شكلي قليلا» .

وبعد أن ذهبت تمددت في مقعدي وسمعت في اذني الخفيفتين :«الان تُطلِقْ عبدَك يا سيد حسب َقولك بسلام» .

فنمت وكأني سقطت من فوق جرن إلى الظلام ـ تماماً في غرفة الجلوس . وانا لا افعل ذلك كثيراً . ولاني كنت افكر في داني تايلور ، فقد حلمت فيه . لم نكن صغاراً بل كباراً ، وكنا عند قاع البحيرة الجافة المنبسطة قرب اساس البيت القديم وحفرة السرداب . كان الصيف في مطلعه فقد لحظت كثافة اوراق الشجر والعشب الذي كان يتثنى لتقله ، نمط من الايام يدفعك للشعور بانك سمين ومخبول ايضاً . ذهب داني إلى خلف شجرة عرعر طويلة نحيلة كالعمود . وسمعت صوتي يبلغني مشوّهاً وعريضاً كمن يتحدث تحت الماء . ثم وجدت نفسي معه واذا به يذوب ويسيل على هيكله . حاولت ان

اعدله بكفي واعيده إلى اصله ، تماماً كما تحاول أن تعدل الاسمنت الندي أن هو خرج عن قالبه ـ ولكني لم افلح . لقد سال عنصره من بين اصابعي . يقولون ان الحلم يدوم لحظة . ولكن هذا الحلم استمر واستمر ، وكلما عاودتُ محاولتي ازداد ذوبانه .

لما ايقظتني ماري كنت ما ازال الهث من الجهد الذي بذلته في محاولتي .

قالت :«هذه حمى الربيع . هذه اول شاراتها . لما كنت فتاة في طور النمو ازداد نومي فقلقت امي وارسلت في طلب الدكتور جريدي معتقدة اني اصبت بمرض النوم ، كل ما في الامر هو اني كنت انمو في ذلك الربيع» .

«لقد رايت كابوساً ـ حلماً لا اتمناه لاحد » .

«انه بسبب كل هذه البلبلة التي من حولك . اصعد وسرح شعرك واغسل وجهك . يلوح عليك التعب يا عزيزي ، هل أنت بخير ؟ آن وقت ذهابنا . لقد نمت ساعتين ولابد انك كنت في حاجة لهما ، ليتني اعرف ما خبأ لنا السيد بيكر» .

«ستعرفين يا حبيبتي . عديني بالاصغاء لكل كلمة تقال » .

«ولكنه قد يود الانفراد بك ، فرجال الاعمال يكرهون وجود السيدات قربهم يصغين لاحاديثهم» .

«لن يتم له هذا . اريدك أن تكوني معنا» .

«انت تعلم اني عديمة الخبرة في مثل هذه الامور» .

«ادري ولكن ، ستكون نقودك مدار الحديث» .

لا يمكنك أن تعرف اناساً كآل بيكر معرفة حقة الا اذا ولدت وانت تعرفهم . فالتعرف الى الناس ، وحتى الصداقة شيء مختلف بالمرة . لقد كنت اعرفهم لان آل هاولي وآل بيكر يتشابهان في الدم ، وفي الاصل ، وفي التجارب ، وفي النجاح . وهذا يشكّل نوعاً من نواة سُورت وحُفظت من الدخلاء . فلما فقد ابي ثروته ، لم أُنبذ تماماً ، فانا لا ازال مقبولاً عند آل

بيكر ـ ما دمت حياً ـ كفرد من آل هاولي ، لانهم يشعرون باواصر قربي معي ، ولكنني قريب فقير . فالوجهاء يكفّون عن كونهم وجهاء متى فقدوا ثرواتهم . قد يكون ابني ألن بلا مال . وعليه فانه لن يخالط آل بيكر وسيصبح ابنه دخيلاً منبوذاً مهما كان اسمه وأصله وأسلافه . لقد أصبحنا زراعاً بدون أرض ، قوّاداً بدون جند ، فرساناً لا خيل لهم . ولن نقوى على البقاء . لعل هذا احد اسباب التبدل الذي طرأ علي . لا اريد ــ ولم أرد في حياتي ــ المال من اجل المال . ولكنه كان ضرورياً لاحتفظ بمكاني في الطبقة التي اعتدتها وارتحت اليها . لا ريب أن هذا كله قد حل وتخمّر في ذاك المكان المظلم الكائن تحت مستوى التفكير . تلك فكرة لم تنبت في مكانها كفكرة ، وانما برزت كاعتقاد ثابت .

قالت السيدة بيكر : «أهلاً ، يا مرحباً . سرّني جداً مجيئكما . لقد اهملتِنا يا ماري . ألم يكن يوماً رائعاً ؟ هل استمتعتما بالقداس ؟ ألم يكن القس رجلاً ممتعاً ـ بالرغم من انه قس ؟»

وقال السيد بيكر : «نحن لا نراكما بما فيه الكفاية ، انني اتذكر جدك جالساً في هذا المقعد بالذات يقص علينا كيف اغرق الاسبانيون القذرون السفينة «سين» . فاندلق الشاي من كوبه ـ الا انه لم يكن شاياً . فالقبطان العجوز كان يزوّق مشروبه من الروم بقليل من الشاي . كان رجلاً صارماً ، وبعضهم كان يظنه شكساً» .

لحظت أن ماري تعجّبت في بادئ الامر ، ثم سرّت لهذه الحرارة في الترحاب . انها طبعاً لم تدر اني رفعت مرتبتها إلى مرتبة الوارثات . وصيت الغنى صالح للمفاوضة والمداولة كالغنى نفسه تقريباً .

صبّت لنا السيدة بيكر الشاي ورأسها يهتز بسبب خلل في جهازها العصبي . قد صبّته في اكواب رقيقة كورق الزهر ، وكانت يداهاالتي تصب هي الجزء الثابت الوحيد فيها .

حرّك السيد بيكر الشاي في كوبه بملعقة أدارها التأمل . قال : «لا

ادري ما اذا كنت احب الشاي ام احب الطقوس التي ترافقه . احب كل الطقوس ـ حتى السخيفة منها » .

فقلت : « لا اظنني افهم ما تعني . فصباح اليوم شعرت براحة وطمأنينة اثناء القداس لأنه لم يحو أية مفاجآت . بل كنت اعرف كل كلمة منه قبل أن يُنطَقَ بها » .

« في اثناء الحرب يا إيثان ـ اصغين ايتها السيدات إلى هذه القصة وحاولن أن تجدن قصة تباريها ـ خدمت اثناء الحرب كمستشار لوزير الحرب . ولقد قضيت في واشنطن فترة لابأس بها » .

قالت السيدة بيكر : « لكم كرهت تلك الفترة » .

« في احدى حفلات الشاي الكبيرة التي اقيمت للعسكريين كان هناك ما يقرب من خمسمائة مدعو . وكانت زوجة أحد القوّاد ذوي الخمس نجوم تجلس في مكان الصدارة ، وتليها زوجة قائد ذي نجوم ثلاثة . فطلبت زوجة الوزير ، وهي المضيفة ، من زوجة القائد ذي النجوم الخمس أن تصّب الشاي للمدعوين وطلبت من زوجة ذي النجوم الثلاث أن تصب القهوة بدورها لمن يؤثر القهوة من المدعوين . وهنا رفضت السيدة الأعلى مركزاً أن تصبَ الشاي . وهنا ، وأعيد ما قالته حرفياً ـ « لأن الجميع يعرفون أن القهوة تَفضُلُ الشاي ، أسمعتم ما هو اكثر غرابة من هذا الرأي ؟ » وضحك بفتور . « والى أن انتهت الحفلة تبين لنا أن الويسكي ارفع المشروبات قدراً » .

فقالت السيدة بيكر : « ان واشنطن مكان لا يشعر فيه المرء بأي استقرار . فالناس في حركة دائبة ، ينتقلون من مكان لآخر قبل أن يتاح لهم أن يستوعبوا شيئاً من عادات المكان وطباعه » .

وقصت ماري قصتها حول حفلة شاي اقامتها جماعة الارلنديين في بوسطن ، وكيف غلى فيها الماء في براميل صغيرة مدوّرة على نار مكشوفة ، ثم صبَ الشاي بمغرفة من التنك . قالت : « وهم لا يكتفون بنقع ورق الشاي في الماء الغالي بل يغلونه ايضاً . ولو سقطت قطرة واحدة من هذا الشاي على مائدة خشبية لأزالت عنها الطلاء حالاً » .

لا بد من طقوس تمهيدية لأي نقاش أو عمل هام ، وكلما كان الموضوع حاداً طالت مدة الغناء وخفّ نوعه . يجب على كل شخص أن يضيف إلى اللوحة سحبة فرشاة أو رقعة ملوّنة . ولو لم تكن ماري والسيدة بيكر جزءاً من هذا الموضوع الهام لأقامتابينهما نمطاً خاصاً لتبادل الحديث منذ بدء الجلسة . سكب السيد بيكر الخمر على ارض حديثنا ، وهكذا فعلت ماري ، وقد سرّها وأثارها التفاتهما واهتمامهما بها . بقي علي وعلى السيدة بيكر أن نسهم بشيء في الحديث ، وتقضي اللياقة بأن اكون الاخير .

ولما جاء دور السيدة بيكر استوحت من الجو نفسه الذي استوحاه الآخرون ـ وهو ابريق الشاي . فألقت بنصيبها متحذلقة : «اذكر الايام الخوالي حين كنا نجد انواعا مختلفة من الشاي . واذكر أن كل انسان كان يفخر بوصفة يتقنها لكل نوع . أعتقد انهم لم يتركوا ورقة خضراء ولا زهرة الا وصنعوا منها نوعاً من الشاي . اما الآن فليس منه سوى نوعين ـ الهندي والصيني ، والصيني لا نجده الا بصعوبة . أتذكرون البابونج وورق البرتقال وزهره ، والكامبريك ؟ »

فسألت ماري : «وما هذا ؟ »

«يتكون من جزأين متعادلين من الماء الحار والحليب الساخن . ويحبه الاطفال حباً جماً . ان طعمه لا يشبه طعم الحليب والماء » . وهكذا انتهت السيدة بيكر من تسديد حسابها .

وجاء دوري ، ولقد انتويت أن اعلّق ببضع ملاحظات لا معنى لها انتقيها بعناية عن حفلة الشاي في بوسطن ، ولكنك لا تقدر أن تحقق نواياك دائماً . اذ تنسلّ المفاجآت وتخرج دون أن تنتظر اذناً بذلك .

فسمعت نفسي ابدأ كلامي بقولي : «لقد نمت بعد أن عدنا من القداس ورأيت داني تايلور في حلم مريع . انك تذكر داني ، أليس كذلك ؟ »

قال السيد بيكر : «مسكين هذا الشاب» .

« كنا في ما مضى اكثر من اخوين . ولم يكن لي اخ . لعلنا كنا اخوين بشكل ما . اشعر أني يجب أن اصبح ولياً لأمر أخي داني ، ولكني لا أنفذ ما اشعر به طبعاً » .

تضايقت ماري مني لأني خالفت نمط الحديث . فانتقمت مني انتقاماً طفيفاً بقولها : «ان إيثان يمنحه بعض النقود ولا ارى هذا صحيحاً ، لأنه ينفق النقود على الشراب» .

قال السيد بيكر : «حسناً» .

« عجباً ـ على كل كان كابوساً في الظهيرة . انا لا اعطيه سوى القليل ـ دولاراً واحداً بين آن وآخر . فماذا عساه يفعل بدولار واحد سوى أن يسكر . لعل حاله يتحسن ان توفر له مبلغ محترم من المال» .

فصاحت ماري : «لن يجرؤ احد على فعل ذلك . ومن يفعل ذلك يكن بمثابة القاتل . ألا توافقني يا سيد بيكر ؟ »

قال السيد بمكر : «مسكين . كانت عائلة تايلور عائلة طيبة . يؤلمني أن أراه على هذه الصورة . ولكن ماري محقّة . فلعله يظل يشرب حتى يموت» .

« انه سائر في هذه الطريق على أية حال . ولكنه في مأمن مني . اذ اني لا امتلك مبلغاً محترماً امنحه اياه» .

قال السيد بيكر : «المبدأ خطأ من اصله» .

واشتركت السيدة بيكر بوحشية انثوية : «لا بد من وضعه في مؤسسة تعنى بأمثاله» .

لقد تضايقوا ـ ثلاثتهم ـ مني اذ كان يجب أن احدد نفسي بحفلة الشاي في بوسطن .

غريب كيف يركض الفكر ويلعب متحسساً متلمّساً كأنه يمارس لعبة (الغميضة) عوضاً عن أن ينشغل باستقصاء مشاهداته ليجد لنفسه درباً يسلكه خلال الحقول الملغومة بالخطط السرية والعقبات الخفية . لقد ادركت

سر بيت آل بيكر وبيت آل هاولي ، الجدران الداكنة والنبات الداخلي المتسلق الذي لم يرَ الشمس قط ، صور الاجداد وصور الزهور ، وتذكارات من الازمان الخالية مصنوعة من الفخار والاواني المزخرفة بالصدف أو العاج المحفور ، أو من الاقمشة أو الخشب ـ كلها تثبت حقيقتها وخلودها . أن اشكال المقاعد تتغيّر حسب تغيرات الطرز ومقتضيات الراحة ، ولكن الصناديق والموائد والمكاتب والمكتبات تنتمي إلى ماض راسخ . فكلمة هاولي تعني اكثر من اسم لعائلة ـ انها بيت . ولهذا السبب نفسه تمسّك داني المسكين بمرج تايلور . فبدونه ، يصبح بلا عائلة ، وبعد قليل يصبح بلا اسم ايضاً . نسخه من الوجود هؤلاء الثلاثة القاعدون هناك بنبرة صوتهم وهم يتحدثون عنه وبنغمته وبمشيئتهم . بعض الرجال يحتاجون إلى بيت وتاريخ ليستوثقوا من انهم يعيشون . صلة تافهة في معظم الحالات . ففي الحانوت كنت موظفاً ، وآية للفشل ، أما في بيتي فأنا فرد من آل هاولي ، اذن لا شك اني انا الآخر غير واثق من نفسي . بإمكان فرد من آل بيكر أن يمد يد المساعدة لفرد من آل هاولي . وأنا الآخر أُنسخ من الوجود لو تخلّيت عن بيتي . لم تكن العلاقة علاقة رجل بآخر ، بل علاقة بيت بآخر . ولقد شقّ عليّ أن يزال داني تايلور عن الحقيقة ، ولكني لم استطع منع ذلك . لقد أثارتني هذه الفكرة وشحذت مزاجي . فبيكر يحاول أن يعيد صقل آل هاولي استعداداً للإسهام في حصة ماري من الإرث المزعوم . لقد وقفت الآن على حافة الحقل الملغوم . فقسا قلبي على المحسن المنكر لذاته . أحسست بقلبي يقسو ويتخذ الحيطة والحذر إلى أن اتخذ صفة خطرة . وبتولّيه الارشاد والقيادة وافاه الشعور بضرورة القتال والتمسك بقوانين الوحشية ، وأولها هذا القانون : اجعل حتى دفاعك على صورة هجوم .

قلت : «لا حاجة بنا يا سيد بيكر إلى أن نعيد سرد ما مضى . فأنت تعرف احسن مني الطريقة البطيئة المحكمة التي فقد فيها ابي ثروة آل هاولي . كنت متغيّباً في الحرب . فكيف تم ذلك ؟ »

«لم يكن قصده أن يخسر الثروة ، ولكن تلك كانت قسمته» .

«اعرف انه كان لا يهتم بالامور المادية ـ ولكن كيف تم ذلك ؟ »

« كان الوقت موبوءاً بحمى استثمار الأموال . وقد استثمر ماله بتهوّر » .

«هل نصحه احد ؟ »

«لقد وظف ماله في مهمّات حربية بطل استعمالها . فلما ألغيت العقود مع هذه المؤسسات ، فقد ماله» .

« كنت في واشنطن . هل كنت تعرف شيئاً عن الغاء العقود ؟ »

«بصورة عامة فقط» .

«ولكنك عرفت من امرها ما حال بينك وبين استثمار أي مال فيها» .

«لا ، لم اوظف مالي فيها» .

«أكنت أنت الذي نصح ابي في استثمار ماله ؟ »

« كنت في واشنطن» .

«ولكنك عرفت انه رهن ممتلكات آل هاولي ليقترض المال اللازم لتلك العملية ؟ »

«نعم ، عرفت ذلك» .

« ولِمَ تنصحه ؟ »

« كنت في واشنطن» .

«ولكن مصرفك قد اغلق الرهن ونزع ملكيته» .

«لا خيار للمصرف في ذلك يا إيثان . وانت تعرف هذه النقطة» .

«نعم ، اعرفها . ولكن لا يسعني أن اقول سوى ـ ليتك نصحته» .

«يجب ألا تلومه يا إيثان» .

«انا لا الومه الآن ، بعد أن فهمت حقيقة الأمر . ولم اقصد أن ألومه ، ولكني لم اعرف ما حدث بالضبط» .

اظن أن السيد بيكر كان قد هيأ لنفسه مدخلاً . ولكنه اضطر أن يتحسّس

موقع خطوته الثانية بعد أن فقد فرصته . فسعل ، ثم مخط انفه ومسحه بمنديل من الورق اخرجه من رزمة مسطحة في جيبه ، ثم مسح عينيه بورقة ثانية ، وجلا نظارته بثالثة . لكل فرد اسلوبه الخاص في كسب الوقت . اعرف شخصاً كانت تستغرق عملية ملء غليونه واشعاله مدة خمس دقائق .

ولما عاد واستعد من جديد ، قلت : « اعلم انه لا يحق لي أن اطلب منك المعونة . ولكنك أنت نفسك أثرت الشراكة الطويلة بين عائلتينا » .

قال : « انهم أناس طيبون ـ أهل رأي ثاقب عادة ، محافظون » .

« ولكن لا على ضلال يا سيدي . اعتقد انهم كانوا يسلكون طريقهم إلى نهايته متى استقر رأيهم على خطة ما » .

« فعلاً ، لقد كانوا كما تقول » .

« وحتى لو استدعى الامر اغراق عدو ـ أو حرق سفينة ؟ »

« كانوا مكلّفين بذلك طبعاً » .

« لقد سئلوا في سنة ١٨٠١ ، على ما اعتقد يا سيدي ، عن مفهومهم لكلمة عدو » .

« يعاد تعديل القيم دائماً بعد الحرب » .

« بكل تأكيد . ولكني لا اريد التحدث عن حقوق قديمة . فأنا ، يا سيد بيكر ـ بصراحة ـ اريد أن اعود وأشرع في بناء ثروتي » .

« لقد أعجبتني يا إيثان . فقد ظللت لفترة أعتقد انك فقدت مسحة آل هاولي منك » .

« نعم فقدتها ، أو لعلني لم احاول أن انميها في نفسي . وأنت قد عرضت علي المعونة . فمن أين أبدأ ؟ »

« المشكلة هي انك تحتاج إلى رأسمال » .

« اعرف هذا . ولكن أن وجد رأس المال . فمن أين ابدأ ؟ »

قال : « لا شك أن هذا الحديث يثير ملل السيدات . من الافضل أن نذهب إلى غرفة المكتبة . فالاعمال التجارية لا تلذ لهن » .

فوقفت السيدة بيكر . «كنت على وشك أن اطلب إلى ماري أن تساعدني في انتقاء ورق للجدران يناسب غرفة النوم الكبيرة . والعيّنات موجودة في الطابق الاعلى يا ماري» .

«اود لو تسمع ماري حديثنا» .

«ولكنها لزمت جانبهما كما توقعت اذ قالت : «انا لا افهم شيئاً عن هذه الامور ، الا اني افهم في ورق الجدران» .

«ولكن الامر يخصك يا حبيبتي» .

«سيختلط الامر علي يا ايثان فأرتبك . وانت تعرف أن هذا ما يحدث لي» .

«لعل الامر بدونك يكون اكثر اختلاطاً وتعقيداً» .

لعل السيد بيكر هو الذي اقترح قصة ورق الجدران . اشك في أن تكون زوجته هي التي تنتقي ورق الجدران . ومن المؤكد انها لم تنتخب هذا الورق القاتم ذا الاشكال الهندسية الموجودة في الغرفة التي جلسنا فيها .

قال بعد أن تركتانا : «والآن ان متسكلّتك يا إيثان هي رأس المال . بامكانك أن ترهن بيتك» .

«لن افعل ذلك» .

«اني احترم رأيك هذا ، ولكنه الضمان الوحيد لديك . ثم هناك نقود ماري وهي ليست بالمبلغ الكبيرولكن بمقدورك أن تحصل على المزيد من المال بقليل منه» .

«لا اريد أن امس نقودها ، فهي ضمانها الوحيد» .

«انها مودعة في حساب مشترك ولا تربح شيئاً» .

«لنفرض اني تغلّبت على حيرتي وترددي . فماذا لديك من آراء ؟»

«هل لديك فكرة عن قيمة ارتها من امها ؟»

«كلا ـ ولكنه مقدار وفير على أي حال» .

نظّف بيكر نظارته بعناية فائقة . «ينبغي أن يبقى ما اقوله سراً» .

« طبعاً » .

« من حسن الحظ اني اعرف انك لا تميل للترثرة . وكل افراد عائلتك كانوا مثلك ، باستثناء والدك . لدي كرجل اعمال معلومات تشير إلى أن بلدتنا ستنمو وتكبر . فهي تملك كل اسباب التطور ـ ميناء وشواطئ ومياه داخلة . ومتى بدأت تنمو فلن يقف في طريقها شيء . ورجل الأعمال الصالح مدين لبلدته وعليه أن يسهم في تطويرها » .

« وفي الحصول على ربح » .

« طبيعي » .

« ولماذا لم تتطوّر حتى الآن ؟ »

« اظنك تعرف الاسباب ـ هؤلاء الرجعيون في المجلس . انهم يعيشون في الماضي ويعرقلون التقدم » .

يلذ لي دائما الاستماع إلى التفسيرات القائلة بأن جمع المال هو امر انساني يستهدف الصالح العام ، فلو أن السيد بيكر عُرّي من مسوح التقدمية وادعاء خير الانسانية لظهر على حقيقته المفروغ من امرها . فهو وبضعة من امثاله ـ عددهم ضئيل جداً ـ سيدعمون التدابير الادارية الحالية في البلدة إلى أن ينتهوا من عملية الشراء أو السيطرة على كل مشاريع التحسين المستقبلة . وبعد ذلك يطردون المجلس والعمدة ويمهّدون لأسباب التقدم . ولأسباب عاطفية فقط ، حلا له أن يشركني بحصّة صغيرة . هذا ولا ادري ان كان بيكر قد انتوى اطلاعي على الوقت المحدّد لهذه العملية أو أن الاندفاع والتحمس غلباه فباح به ، على كل حال لقد عرفت نواياه من خلال أحاديثه العامة . فالانتخابات ستجري في بلدتنا في السابع من تموز . وحتى يحلّ موعدها ينبغي لمجموعة التقدميين أن يسيطروا على عجلات التقدم .

أعتقد انه لا يوجد انسان في هذا العالم الا ويرغب في اسداء النصيحة . وكلما اظهرت اصراراً على تمنعي وترددي ازدادت حمية مرشدي واندفع في توضيح الامور وتحديدها .

قلت : «يجب أن افكر بالأمر يا سيدي . فما تراه انت سهلا هيّناً هو بالنسبة لي سر غامض . ويتوجّب عليَ أن اتباحث مع ماري في الامر ، طبعاً » .

فقال : «هنا يكمن الخطأ على ما اعتقد . فأنا أرى النسوة في هذه الايام يتدخلن اكثر من اللازم في مثل هذه الامور » .

«ولكن الإرث ارثها » .

«وأحسن ما تفعله لها هو أن تجمع لها بعض المال وتفاجنها به . فالنساء يفضلن هذه الطريقة » .

«ارجو ألا ابدو لك يا سيد بيكر في مظهر الجاحد للفضل . ولكني بطيء التفكير وأحب أن امعن النظر في الامر . هل سمعت بأن مارولو سيذهب إلى ايطاليا ؟ »

فحدّت نظرة عينيه وسأل : «ولن يعود ؟ »

«كلا . مجرد زيارة » .

«ارجو أن يتدبّر تسوية ليحفظ عليك حقوقك في حالة حدوث شيء له لم يعد شاباً . هل كتب وصيته ؟ »

«لا اعلم » .

«ستفقد عملك ان حدث له شيء ونزل عليك جماعة من اقربائه » .

فانسحبت إلى غموض يحميني من اسئلته وقلت : «أيمكنك أن تعطيني فكرة تقريبية عن موعد شروعك في العملية ؟ »

«لن اصرّح بأكثر من هذا القدر : يعتمد التطور إلى حد كبير على النقل » .

«ولكن الطرق المجانية قد نقلت إلى خارج البلدة » .

«ما زال تحقيقها بعيداً . فنوع الرجال الذين نود استمالتهم ونوع المال الذي نود اجتذابه يفضل المجيء الينا جواً » .

«دون أن نملك مطاراً ؟ »

« هذا صحيح » .

« وبالاضافة إلى ذلك ، لا مكان عندنا ، إلا اذا دفعنا التلال المحيطة » .

« عملية مكلفة . وأجرة العمل ستتعدى الحد المحظور » .

« اذن ، ما هي خطتك ؟ »

« يجب أن تضع ثقتك بي يا ايتان ويجب أن تغفر لي لأني لا املك من شأن ايضاح المسألة اكثر مما اوضحت في الوقت الحاضر . ولكني اعدك بحصة اكيدة إن انت استطعت أن تؤمن رأس المال اللازم . وبوسعي أن اقول لك ان الوضع مقرر ولكن بعض الامور تستلزم حلاً لها » .

« لعل هذه المعلومات اكثر مما استحق » .

« ينبغي للعائلات القديمة ان تتساند وتتعاون » .

« هل يشترك مارولو في المجموعة ؟ »

« طبعاً لا . أن له طريقه الخاصة مع جماعته الخاصة » .

« وهم يدبرون أمورهم بنجاح ، أليس كذلك ؟ »

« اكثر من اللزوم . لا احب أن ارى هؤلاء الغرباء يزحفون الينا » .

« والسابع من تموز هو موعد بدء العملية ؟ »

« هل قلت انا ذلك ؟ »

« لا ، لم تقله . لعلني تخيّلته » .

« لا بد » .

وعند ذلك عادت ماري من مهمة ورق الجدران . فقمنا بالواجبات التي تمليها المجاملة ومشينا متباطئين صوب بيتنا .

« كلاهما كان في منتهى اللطف . ماذا قال لك ؟ »

« عاد إلى نغمته القديمة . ينبغي أن استعمل نقودك لأبدأ ، ولن افعل ذلك » .

« أعلم يا عزيزي أن سبب احجامك هو تفكيرك فيّ . ولكني ارى انك ان لم تعتبر نصيحته فما أنت الا احمق » .

« ماري ، لست مرتاحاً للأمر . فلنفرض انه اخطأ في الرأي ـ فستصبحين بلا سند » .

« اقول لك يا ايتان انك ان لم تفعل فسأسحب النقود بنفسي وأسلمّها له . اؤكد لك اني سأفعلها » .

« دعيني افكر في الأمر . لا اريد أن أورّطك في هذه الاعمال » .

« ما من مجال للتوريط . هذه النقود مودعة في حساب مشترك . وأنت تدري بالذي كشف عنه الطالع » .

« يا إلهي ـ عدتِ للطالع مرة اخرى ؟ »

« اني أؤمن به » .

« ستبغضينني لو خسرت مالك » .

« لن أبغضك . فأنت فألي! هذا ما قالته مارجي » .

« ما قالته مارجي محفور في ذهني بأحرف من نار حتى أموت » .

« لا تمزح » .

« لعلني لا امزح . لا تدعي الثروة تفسد علينا حلاوة فشلنا » .

« لا ارى المال القليل مستطيعاً أن يفسد أي شيء . القليل لا الكثير . القليل يكفي » . ولم اجبها فسألت : « ألا توافقني ؟ »

فقلت : « يا ابنة الامير ، لا يوجد شيء يمكن أن يوصف بالمال الكافي . هناك مقياسان فقط : اما فقر أو مال لا يكفي » .

« ليس صحيحاً ما تقول » .

« هذا هو الصحيح . أتذكرين بليونير تكساس الذي مات مؤخراً ؟ كان يسكن غرفة في فندق ولا يملك من المتاع سوى ما تحويه حقيبته . لم يترك وصية ولم يخلف ورثة ولكنه لم يملك مالاً كافياً . كلما ازداد مالك ، قلّت كفايته » .

فقالت متهكمة : « لعلك تجدني آثمة ان انا تمنيت ستائر جديدة لغرفة الجلوس ، أو سخانة للماء تكفي لحمام اربعة اشخاص دفعة واحدة وغسل الاطباق ايضاً »

«انا لا احكي لك قصصاً بذيئة يا ساذجة ، وانما كنت اشرح لك حقيقة واقعة ، احد قوانين الطبيعة» .

«يلوح لي انك لا تكن في نفسك احتراماً للطبيعة الانسانية»

«لا الطبيعة الانسانية يا ماري ، وانما الطبيعة نفسها . يخزن السنجاب عشرة اضعاف ما يمكن أن يستعمله من الجوز . ولا يكتفي بملء معدته إلى حد يخشى منه أن تنفلق بل يملأ خديه ايضاً كالاكياس . والنحلات الدؤوبات يجنين العسل ولكن ، ما هو نصيبهن منه ؟»

عندما تقع ماري في حيرة وارتباك فانها تبقّ غضبها تماماً كما يبق الاخطبوط حبره ، ثم تختبيء وراء سحابة غضبها المظلمة .

قالت :«سئمت منك ومن حديثك . فأنت لا تترك غيرك يحتفظ بشيء من السعادة »

«يا حبيبتي ، ليس الامر هكذا . ولكنني اخشى التعاسة البائسة ، واخشى الهلع الذي سيجره علينا المال والحسد» .

لا بد انها كانت تخشى نفس الاشياء دون أن تشعر . لقد سددت طعنتها نحوي وتلمّست مكاناً مؤلماً ، ولما وجدته اطلقت كلماتها المسنّنة اليه .«ما الطف هذا ! موظف في حانوت بقالة لا يملك شروى نقير يحمل هم تحوّل حاله من الفقر إلى الغنى . تتصرّف وكأن الثروة مطروحة عند قدميك ولك أن تلتقطها حين تشاء» .

«أظن أني استطيع أن التقطها حين اشاء» .

«وكيف ؟»

«هنا المشكلة» .

«انت لا تعرف كيف يمكنك الحصول عليها ، ولو عرفت ذلك لفعلته منذ امد طويل . ما انت الا شخص مخادع ــ دأبك دائماً الخداع والمبالغة» .

انت اذا تقصدت جرح احساس شخص ما دائماً ، فانك بذلك تثير

غضبه . شعرت بسورة الغضب تصعد في نفسي وتحتد ، وتحرّكت فيّ كلمات بشعة دعناء كالسم . واحسست بكراهية مرة .

قالت ماري :«انظر! ها هي ذي قد مرت! هل رايتها ؟»

«أين ؟ماذا ؟»

«مرّت من هناك ، امام الشجرة ، ودخلت حديقتنا» .

«ما هي يا ماري ؟ قولي !ماذا رايت ؟»

وفي ضوء الغسق رايتها تبتسم تلك الابتسامة النسائية التي لا تصدّق ، والتي يصفونها بالحكمة ، الا انها في رأيي تفهم عميق يبطل الحاجة إلى الحكمة .

«لم تري شيئاً يا ماري» .

«رأيت معركة ـ ولكنها فاتت وراحت» .

وطوّقتها بذراعي واستدرت بها .«فلنتمشّ قليلاً قبل أن ندخل البيت» . وتجّولنا في نفق الليل ولم نتحدث ، اذ لم تكن بنا من حاجة للكلام .

٨

لما كنت طفلاً ، كنت اقوم بالصيد وقتل المخلوقات الصغيرة بنشاط وحبور ـ الارنب والسنجاب والطيور الصغيرة ، ولما كبرت صرت اطارد البط والاوز البري ـ اصيبها فتهوي ، كتلاً مشعثة هامدة . كنت اجد في ذلك نوعاً من الابداع الوحشي يخلو من الشعور بالكراهية أو الحقد أو الاثم . الا أن الحرب قلصت شهوتي للدمار ، كالطفل الذي ياكل من الحلوى فوق ما يطيق . لم يعد صوت انفجار الطلقة صيحة تعبر عن سعادة ضارية .

وفي هذا الربيع اعتاد ارنبان سمينان على القيام بزيارة يومية لحديقتنا . احبا القرنفل الذي زرعته ماري اكثر من أي شيء آخر ، فأكلا الزهرات إلى أن استوت سيقانها مع الارض .

قالت ماري :« يجب أن تتخلص منهما » .

فأخرجت بندقيتي الممسوحة بالدهن ووجدت بضع طلقات عتيقات . وعند حلول المساء جلست على الدرجات الخلفية ، ولما صار الارنبان على مرمى مني ، اصبتهما بطلقة واحدة . ثم دفنت كتلتي الفراء الهامدتين تحت شجرة الليلك الكبيرة ، واحسست بالتعاسة في داخلي .

كل ما في الأمر هو اني بت لا استسيغ قتل المخلوقات . بوسع الانسان أن يعتاد كل شيء ـ الذبح أو دفن الموتى ، أو حتى تنفيذ الاعدام . ولا ريب أن التعذيب ايضاً يصبح مجرد وظيفة متى اعتاد عليه الانسان .

ولما ذهب الصغيران إلى فراشيهما قلت : « سأخرج لبرهة قصيرة » .

لم تسألني ماري إلى أين ، أو لِمَ أخرج ، ولو حدث أن خرجت قبل بضعة ايام لما كفت عن السؤال .

« هل تتأخر ؟ »

« لا ، لن أتأخر ؟ »

قالت : « لن انتظرك حتى تعود لأني ناعسة » . يظهر انها قد سبقتني في التصميم على الخطة بعد أن تقبلت مهمة القيادة . كنت ما زلت متأثراً من حادثة الارنبين التعسة . لعله من الطبيعي للرجل الذي دمّر شيئاً أن يحاول خلق شيء ليستعيد بعض توازنه . ولكن ، هل كان هذا الدافع الحقيقي لفعلتي ؟

تسكّعت في طريقي حتى وصلت إلى الكوخ النتن الذي يسكن فيه داني تايلور .الشمعة المضاءة في شمعدان قائم إلى جانب السرير العسكري الضيّق تكاد تحترق إلى نهايتها .

كان داني في حالة يرثى لها ـ مريضاً هزيلاً أزرق اللون وكان لبشرته لمعان التنك . تقزّ النفس من رائحة الكوخ القذر والرجل القذر المغطّى بلحاف وسخ . كانت عيناه مفتوحتين ملتمعتين . وقد توقعت أن أسمعه يهذي ويهذر . الا انني فوجئت عندما تحدث بوضوح وبنبرة واسلوب داني تايلور التي أعرفها .

« ما الذي جاء بك هنا يا إيث ؟ »

« أرغب في مساعدتك » .

« تعلم انه لا فائدة من ذلك » .

« انك مريض » .

« اتظنني لا أعرف ؟ اعرف ذلك اكثر من أي واحد » . ومدّ يده متلمساً ما وراء سريره ثم أخرج زجاجة من الويسكي الجيد لم يبق من محتوياتها الا الثلث .

«هل لك في جرعة ؟»

«لا ، يا داني . انه من الويسكي الغالي الثمن . فمن أين لك به ؟»

«لا أخلو من الاصدقاء» .

«من أعطاك اياها ؟»

«ليس هذا من شأنك يا ايث» . وتناول جرعة وحاول أن يبقيها في جوفه ، وللحظة لم يكن ذلك سهلاً . بعد قليل عاد اليه لونه وضحك وقال : «حاول صديقي هذا أن يتحدث الي عن العمل ولكني خدعته . أغمي علي قبل أن يتوصل في حديثه إلى النقطة التي يريد . أفتريد أنت أيضاً يا ايث أن تتحدث عن العمل ؟ الا تخشى أن اصاب بالإغماء بنفس السرعة» .

«الا تكنّ لي يا داني أية عاطفة ؟ هل تثق بي ؟ أعني ـ هل تكن لي نوعا من شعور ؟»

«طبعاً . ولكني لدى إلحاح الضرورة لست الا سكيراً . وأقوى عاطفة يكنها السكير هي عاطفته نحو الشراب» .

«هل تذهب إلى مصح ما لو دبرت لك المال اللازم ؟»

وشعرت بالخوف من سرعة تحوله وعودته إلى نفسه والى طبيعته السهلة . «قد أذهب يا ايث . ولكنك لا تعرف شيئاً عن طبيعة المدمنين . قد أبدد المال على السكر» .

«فلنفرض اني سلمته رأساً إلى المستشفى أو المصح» .

«اني احاول أن افهمك . قد اذهب وانا مخلص في نواياي ولكني سأهرب بعد بضعة ايام . لا تثق يا ايث في مدمن سكير . هذا ما لا تفهمه ـ مهما قطعت لك من وعود أو عهود ـ فلا بد من أن اهرب» .

«ألا تريد أن تشفى من علتك يا داني ؟»

«لا أظن ـ واظنك تعرف ما اريد» . ورفع الزجاجة مرة اخرى ، ومرة أخرى اذهلتني سرعة رد الفعل عنده بعد الجرعة التي تناولها . فهو لم يعد إلى نفسه التي عرفتها فيما مضى فحسب وانما نشطت حواسه ومداركه

وصفت إلى حد استطاع معه أن يعرف ما يجول في خاطري وقال : «لا تثق بهذه اليقظة ـ انها قصيرة الامد . فالكحول تنبه وتنعش لبرهة قصيرة تحل بعدها الكآبة . ليتك تذهب قبل أن تحل الكآبة . في هذه اللحظة ، لا يمكنني أن اصدق انها ستحل ولا استطيع أن اتصور ذلك عندما اكون في لحظة الانتعاش» . وراح داني ينعم النظر في عيني بعينيه النديتين البراقتين في ضوء الشمعة وقال : «إيثان! لقد عرضت أن تقوم بمصروف علاجي وانت لا مال لديك يا ايثان» .

«بوسعي أن اتدبّره لك . لقد ورثت ماري بعض المال عن اخيها» .

«وانت مستعد لتهبني اياه ؟»

«نعم» .

«بالرغم من تحذيري لك بألا تأمن سكيراً ؟ وحتى لو انا أكدت لك اني سأبدد مالك وأحطم قلبك ؟»

«انك تحطّم قلبي الآن يا داني بوضعك هذا . لقد حلمت بك . رأيت نفسي معك عند البيت القديم ـ أتذكر ؟»

ورفع الزجاجة ثم انزلها قائلاً : «لا ، ليس الآن ـ بعد! لا تثق ابداً بسكير يا ايث لأنه عندما يكون ـ عندما أكون شيئاً مريعاً ، شيئاً ميتاً ، ينشط للعمل في أعماقي عقل سري حاذق ، الا انه ليس بالعقل الذي يكنّ وداً أو عاطفة . وانا الآن ، وفي هذه اللحظة ، مجرد رجل كان صديقاً لك . انا لم أصدقك القول في قصة الاغماء ، لقد أغمي علي فعلاً ، ولكنني ادركت ماذا وراء الزجاجة» .

قلت : «انتظر . قبل أن تستمر في حديثك ، والا بدا كل هذا... حسناً ، إذ يمكنك آنذاك أن تسيء بي الظن . لقد كان بيكر الذي جاءك بالزجاجة ، أليس كذلك ؟»

«نعم» .

«وأرادك أن توقّع له على شيء» .

« صحيح ــ ولكن اغمي علي » . وضحك لنفسه بفتور ثم رفع الزجاجة إلى شفتيه ولكنه لم يجرع الا نقطة صغيرة .

« وهذا احد الامور التي أردت أن أحدثك عنها يا داني . هل أراد منك البيت القديم وما حوله من مروج ؟ »

« نعم » .

« وكيف لم تبعه للآن ؟ »

« أظنني أطلعتك على السبب . ان البيت يحفظ عليّ كياني كرجل نبيل من أسرة عريقة ، رجل لا ينقصه الا التصرف النبيل » .

« لا تبعه يا داني .تشبّث به » .

« وماذا يهمك انت من هذا الامر ؟ لم لا ابيعه ؟ »

« لتحفظ على نفسك كرامتك » .

« لم يبق من كرامتي شيء ، لم يبق سوى المقام والاسم » .

« لا ، فأنت ما تزال تحتفظ بكرامتك . لقد شعرت بالحياء لما سألتني عن النقود . وهذا يعني أن كرامتك ما تزال معك » .

« كلا ــ لقد أفهمتك انها كانت خدعة . ألم تفهم ؟ المدمنون حاذقون . لقد ارتبكت وأعطيتني دولاراً لأنك حسبتني خجلاً . انا لم أشعر بأي حياء وانما كنت أتوق إلى جرعة » .

« لا تبعه يا داني . انه قطعة ثمينة وبيكر يعرف ذلك ، ،فهو لا يشتري شيئاً لا قيمة له » .

« وما وجه القيمة فيه ؟ »

« انها القطعة الوحيدة المستوية فيما حولنا والتي تصلح لتكون مطاراً » .

« الآن فهمت » .

« ان تمسكت بها يا داني فقد تساعدك على بداية جديدة في حياتك . تشبّث بها . بمقدورك حينئذ أن تتم علاجك وتجد خميرة من المال تنتظرك » .

« ولكني لن اجد الراحة . لعله من الافضل أن ابيعها واشرب بثمنها كله و ـ« اذا انكسر الغصن هوت الارجوحة ووقع الطفل ومهده » . غنى الترنيمة بصوت حاد ثم ضحك . « اتريده لنفسك يا ايث » . « اهذا ما اتى بك إلى هنا ؟ »

« أريد لك أن تتعافى » .

« اني معافى » .

« اريد أن اوضح لك الامر يا داني . لو كنت صعلوكاً متشرداً ، فلك أن تفعل ما تشاء . ولكنك تملك شيئاً يود أن يستحوذ عليه جماعة من مواطنينا التقدميين وهم في شديد الحاجة اليه » .

« نعم ، مرج تايلور . سأتمسك به فأنا ايضاً من التقدميين » . وتطلع إلى الزجاجة بشغف .

« قلت لك يا داني . انه المكان الوحيد الصالح لمطار ـ انه مكان رئيسي هام . فاما أن يحصلوا عليه أو يهدموا التلال ـ ولا اظنهم يقدران على ذلك» .

« اذن ، هم في قبضة يدي ، وفي نيتي أن اماطل وأسوف » .

« لقد نسيت يا داني أن الملاك ليس الا وعاء ثميناً . لقد سمعت منهم أن افضل شيء يمكن عمله لك هو وضعك في مؤسسة توفر لك العناية التي تحتاجها » .

« لن يجرؤوا على ذلك » .

« يجرؤون ، وأكثر من ذلك انهم يؤمنون بأنهم يصدرون في ذلك عن بر وفضيلة . لا شك انك تعرف خطوات العملية . وسيقرر الحاكم ـ وانت تعرفه ـ انك لست اهلاً لإدارة ممتلكاتك فيعيّن لك وصياً ، وبوسعي أن أخمّن من سيكون . وكل هذه الاجراءات تكلّف نقوداً طبعاً وسداد التكاليف يستدعي بيع ملكك ، وأترك لك أن تخمّن من سيكون مستعداً لشرائها » .

برقت عيناه وهو مصغٍ الي وفغر فمه . ثم ما لبث أن اعرض عني .

«انك تحاول أن تفزعني يا ايت . ولكنك اخترت وقتاً غير مناسب . أعد علي القصة في الصباح عندما اكون بارداً وحولي عالم من القيء الأخضر . اما الآن فقوتي تساوي قوة عشرة رجال ، لأن الزجاجة بجانبي» . ولوّح بها كأنها سيف ، وفي ضوء الشمعة أخذت عيناه تومضان في شقين مستطيلين .

«الم اقل لك يا ايث ؟ أظنني قلت لك ان للسكير نوعاً خاصاً من الذكاء الشرير» .

«ولكني شرحت لك ما سيحدث» .

«أوافقك ـ وأعرف انها الحقيقة ، فلقد نجحت في اطلاعي على وجهة نظرك . ولكنك ، عوضاً عن أن تفزعني ، أيقظت شيطاني . مجنون كل من يظن أن السكير انسان عديم الحيلة . فهو آلة من نوع خاص ، ولها كفاءات خاصة . بامكاني أن أكيل الصاع صاعين ، وفي الوقت الحاضر يبدو لي اني راغب في ذلك» .

«عافاك! هذا ما احب أن اسمع منك» .

حدّد النظر الي من فوق رقبة زجاجة الويسكي وكأنه يحدد هدفه استعداداً لاطلاق بندقيته . «أتقرضني نقود ماري ؟»

«نعم» .

«بدون كفالة ؟»

«نعم» .

«وانت تعلم أن الامل في استرجاعها واحد في الالف» .

«نعم» .

«للسكران خاصة قبيحة يا ايث ، فهو يرفض أن يصدق احداً» . تم لعق شفتيه اليابستين . «أتقبل أن تضع النقود في يدي ؟»

«في أي وقت تشاء» .

«حذرتك من أن تأمن لي» .

«ولكني اثق فيك» .

في هذه المرة أمال الزجاجة على فمه فصعدت فقاعة كبيرة فيها . ولما انتهى من جرعته برقت عيناه اكثر من ذي قبل ولكنهما كانتا باردتين غامضتين كعيني الثعبان . «هل تستطيع أن تجلب النقود في هذا الاسبوع يا ايث ؟»

«نعم ، استطيع» .

«الاربعاء ؟»

«نعم» .

«أمعك دولار أو اثنان الآن ؟»

كنت احمل دولارين تماماً ـ واحد بورقة كاملة والآخر من عملات صغيرة ـ فصببتها في يده المدودة .

أفرغ الزجاجة والقى بها إلى الارض . «لم اقدرك في حياتي يا ايث على مهارتك . اتعلم أن كلفة ابسط علاج قد تزيد على الالف دولار ؟»

«ادري» .

«لعبة لذيذة يا ايث . ليست لعبة شطرنج وانما لعبة بوكر . كنت احذق هذه اللعبة فيما مضى ـ احذقها اكثر من اللزوم . انك تراهن على اني ساطرح المرج الذي املكه كضمانة ، وان كمية من الشراب تبلغ قيمتها الالف دولار تكفي لقتلي ، وبعدها تجد بين يديكَ مطاراً جاهزاً» .

«انها صورة بشعة يا داني» .

«لقد انذرتك اني على قدر من البشاعة» .

«الا تظنني اعنيها من كل قلبي من طريقة عرضي لها ؟»

«كلا . ولكن عندي طريقة لاحفظها بنفس الطريقة التي عرضتها بها . انك تذكر ايامنا الماضية معاً . اتظنني لا اذكرك انا ايضاً ؟ فانت الفتى الذي زُرع العدل في قلبه . حسناً . لقد يبس حلقي والزجاجة فارغة . ساخرج . أن ثمني الف دولار» .

«حسناً»

« تحملها نقداً يوم الاربعاء » .

« اجل »

« لا ورقة ولا توقيع ولا شيء . ولا تعتقد انك تعرفني من الايام الماضية . لقد غيّر الشراب يا صديقي كل ما تعرف عني . لا ولاء لدي ولا انصاف . لن تجني سوى الضحك الساخر » .

« لا اطلب منك سوى أن تحاول »

« اعدك طبعاًيا ايث . ولكن ارجو أن اكون قد اقنعتك بتفاهة قيمة وعد سكير . اجلب النقود فقط . وابق ما طاب لك البقاء فبيتي بيتك ، اما انا فساخرج . إلى الاربعاء يا ايث » . ورفع نفسه بسهولة من السرير العسكري العتيق والقى باللحاف وراءه وخرج وهو يتخبط في مشيته ، ولم يكن سرواله مزرراً .

جلست برهة ارقب الشمعة وقطراتها الذائبة تسقط في الشمعدان . أن ما قاله صحيح باستثناء الشيء الذي راهنته عليه . انه لم يتّبدل كثيراًعن الماضي كما زعم . ففي زاوية ما من هذا الحطام كان يكمن داني تايلور . ولا يمكنني أن اصّدق انه قد بُتر أو ازيل .احببت داني وكنت على استعداد للقيام بكل ما طلبه بالتمام . لقد كنت مستعداً فعلاً . وقد سمعته يغني عن بعد بصوت واضح وعال وناشز :

« اسرع يا قاربي الجميل كطائر على جناح الريح ،
الى الامام! صاح البحارة!
واحمل الفتى الذي وُلد ليكون ملكاً ،
عبر البحر إلى سكاي» .

وبعد فترة موحشة اطفأت الشمعة ومشيت إلى البيت من الطريق العامة . وجدت ويللي صاحياً بعد في سيارة الشرطة .

قال :« اراك تخرج كثيراً في الليل يا ايت »

« انت ادرى بالسبب »

«ها ... الربيع ، وفورة الشباب ؟ »

وجدت ماري نائمة وعلى فمها ابتسامة ، ولما اندسست إلى جانبها ، استيقظت نصف يقظة . كانت التعاسة ما تزال تعتمل في احشائي ـ تعاسة باردة مؤلمة . واستدارت ماري على جنبها واحتضنتني بجسدها الدافيء المعطّر كالعشب الندي ، كنت بحاجة اليها . عرفت أن التعاسة ستخف ، ولكنني في اشد الحاجة إلى ماري الان . لا ادري أن كانت قد افاقت فعلاً أو انها ادركت في نومها حاجتي الملحة اليها .وبعدها ، صحت تماماً وقالت :«لعلك جعت»

«نعم يا ماري» .

«ما تريد ؟ »

«شطيرة بصل ـ لا ، اجعليها اثنتين على خبز الشعير» .

«يجب أن آخذ واحدة لأتحمل رائحة البصل» .

«ألا تريدين واحدة ؟ »

«اريد طبعاً » .

وهبطت الدرج وعادت بعد برهة ومعها الشطائر وزجاجة حليب وكوبان .

ولذعت البصلة الحرّيفة لساني فشرعت اقول : « ماري ـ »

«انتظر حتى تبتلعها » .

«هل كنت تعنين ما قلته عن عدم رغبتك في معرفة شيء عن الاعمال المالية ؟ »

«نعم ، لقد كنت اعني ما قلت» .

«حسناً ، لدي مشروع وأريد الف دولار» .

«هل بنيت مشروعك حسب نصيحة السيد بيكر ؟ »

«تقريباً . وحسب اطلاعاتي الخاصة ايضاً » .

«ما عليك الا أن تكتب الصك» .

«لا يا حبيبتي . اريدك أن تحملي النقود بنفسك من المصرف ، عداً ونقداً . ولابأس من أن تذيعي اثناء وجودك في المصرف انك تريدينها من اجل أثاث جديد ، أو بسط للبيت ، أو شيء من هذا القبيل» .

«ولكني لن ابتاع شيئاً من ذلك» .

«لابأس من اذاعة ذلك على كل حال» .

«هل مشروعك سرّي ؟ »

«لقد قلت بنفسك انك تفضلينها على هذه الصورة» .

«حسناً ، لقد قلت ذلك . نعم ، هذه الطريقة افضل .أوه! لقد حرقتني هذه البصلة . أيرضى السيد بيكر عن مشروعك ؟ »

«قد يرضى عنه لو قام به بنفسه» .

«متى تريد النقود ؟ »

«غداً» .

«لا اقدر أن آكل هذه البصلة . لعل رائحتي اصبحت توازي رائحتك الآن» .

«انت حبيبتي» .

«ما زلت افكر في مارولو» .

«ماذا تقصدين ؟ »

«مجيئه إلى البيت وجلبه الحلوى» .

«ان اللّه يسيّر الامور بطريقة غامضة» .

«لا تستهزئ بالدين . لم ينته العيد بعد» .

«لقد انتهى العيد . فالساعة هي الواحدة والربع» .

«يا اللّه! الأفضل لنا أن ننام» .

«ها! هنا العثرة ـ حسب رأي شكسبير» .

«انت تحوّل كل شيء إلى مزاح» .

ولكنها لم تكن مزاحاً . ظلت التعاسة تأكل احشائي حتى ولو اني لم

افكر بها ،حتى بت أسائل نفسي احياناً : لماذا أتألم ؟ ان المرء يعتاد كل شيء ، ولكن ذلك يتطلب وقتاً . اشتغلت ذات مرة في مصنع للديناميت . كان الاجر عالياً نظراً لخطورة المادة . في اول الامر كنت اقلق لكل خطوة اخطوها ، وبعد اسبوع تقريباً لم يعد إلا روتيناً رتيباً . لقد اعتدت حتى وظيفتي في الحانوت . هناك شيء مرغوب في كل شيء تعتاده ، بعكس الشيء الذي لم تعتد عليه .

وبينما كانت النقط الحمراء تسبح امام عيني في الظلام سألت نفسي سؤالاً حول ما يسمونه بتأنيب الضمير ، فلم أجد ثمة جرحاً في ضميري . سألت ان كان بامكاني أن اغيّر وجهتي بعد أن وضعت خطة لمسيري أو حتى أن أرجع البوصلةبمقدار تسعين درجة ، فوجدت.اني مستطيع ذلك ، ولكني لا ارغب فيه .

وجدت نفسي مزوّداً بعدّة جديدة فتنتني ، كمن يكتشف أن لديه مجموعة من العضلات لم يستعملها بعد ، أو كمن يتحقق له حلم طفولته في أن يطير . كثيراً ما يكون بوسعي أن استعيد حوادث معيّنة ، أو مشاهد ، أو احاديث . فأخرج من هذه الاعادة بتفاصيل فاتتني في العرض الاول .

لقد استغربت ماري مجيء مارولو للبيت حاملاً معه بيضات السكر ،واني لأثق في احساس ماري بغرابة ذلك . لقد فسرت الامر على انه تَقدِمَة شكر لأني لم أخنه . ولكن سؤال ماري جعلني اعود واتفحّص شيئاً اعرفه وكنت قد تغاضيت عنه . فمارولو لا يكافئ على امور ماضية ، وانما يرشو رجاءً في امور مقبلة . لم يكن ليهتم بي الا بمقدار نفعي له . استرجعت تعليماته عن اصول العمل وحديثه عن صقلية . لقد فقد ثقته عند نقطة ما . انه يريد مني شيئاً ما ، أو يحتاج إلى مساعدتي في شيء . وهناك طريقة لأتأكد من ذلك . فإن انا طلبت اليه طلباً يقابل عادة برفضه ، ثم حصلت عليه رغم ذلك ، فاني ، عندئذ ، أتأكد من انه فقد توازنه ، وانه في حالة شديدة من الاضطراب . واطّرحت مارولو وانتقلت إلى مارجي . « مارجي ، اني احلم بك دائماً يا مارجي . انني اهب الدنيا لو ـ »

استعدت مشاهد مارجي على النقط الحمراء السابحة على السقف ، محاولاً الا ازيد عليها أو انقص منها شيئاً . فلمدة طويلة ، حوالي سنتين تقريباً ، كنت اسمع زوجتي تذكر صديقة لها تدعى مسز يونج هنت ، وكان الحديث عنها جزءاً من الاحاديث التي لم اصغ اليها قط . وفجأة ظهرت مارجي يونج هنت ، وباتت تدعى مارجي فقط بعد ذلك . لا بد انها اتت إلى الحانوت مرات عديدة قبل يوم الجمعة العظيمة ، ولكني لم اذكرها ، لكأنها اعلنت عن نفسها في ذاك اليوم . ولعلها لم ترني قبل ذلك ، تماماً كما انني لم ارها . ولكنها اصبحت حاضرة في كل مناسبة من بعد ذلك اليوم . ماذا تريد هذه المرأة ؟ أيمكن أن يكون تدخلها مجرّد شغب من امرأة لا عمل لها يلهيها ؟ ام انها تسير وفق خطة ؟ لاح لي انها بعد أن اعلنت نفسها لي ثابرت حتى جعلتني احسّ بوجودها واعيه . ولاح لي ايضاً انها لما قرأت الطالع للمرة الثانية قرأته بنية صافية لم تقصد بها سوى أن تستعرض براعتها الفنية الخالصة . ثم حدث شيء ما مزّق نيتها وفتتها . لم تقل لها ماري شيئاً يسبب التوتر ، ولا قلت انا شيئاً . تُرى رؤياها عن الافعى كانت صحيحة ؟ لعل هذا ابسط تفسير للحادثة ولعله اصدق تفسير . ولعل مارجي بالفعل كانت تتمتع بحدس عجيب ، وبقدرة على قراءة افكار غيرها من الناس . ومما يجعلني أومن بهذه النظرية كونها اكتشفتني وانا في منتصف حالة التطور التي انتابتني ، وقد تكون صدفة عرضية . ولكن ما الذي جعلها تهرع إلى مونتوك ، مع انها لم تنتو الذهاب إلى هناك اصلاً ، ألتلتقي بالبائع المتجول ، ثم تحكي القصة بأكملها لمارولو ؟ لم استطع أن اتصوّر انها قد تحكي شيئاً لا تنتوي أن تحكيه . في احد رفوف العليّة كتاب سيرة عن... هل كان اسمه بيرنج ؟ لا ، بارانوف ـ اسكندر بارانوف الحاكم الروسي الذي عاش حوالي سنة ١٨٠٠ . لعلي اجد فيه اشارة عن سجن الساحرات في الاسكا ولأن قصة جدة مارجي كانت بعيدة الاحتمال ، فلا يمكن أن تكون قد اخترعتها . يجب أن افتّش عن الكتاب لعلني مستطيع أن اتسلّل إلى فوق الآن دون أن اوقظ ماري .

وعندها سمعت صرير خطوات على الدرجات العتيقة المصنوعة من خشب السنديان ، ثم سمعته مرة ثانية وثالثة فعرفت حينئذ أن الصوت لم ينشأ عن استقرار البيت على قواعده بسبب تبدّل في حرارة الجو . لا بد أن ايلين كانت تمشي في نومها . لقد كنت احب ابنتي طبعاً ، ولكنها تخيفني احياناً اذ يلوح لي انها خلقت ماهرة قادرة غيورة وفي عين الوقت محبّة . انها دائمة الغيرة من اخيها ، وفي احيان كثيرة اشعر انها تغار مني . واظن أن اهتمامها بالجنس بدأ في سن مبكرة . لعل الاباء يشعرون بهذا دائماً . ولما كانت طفلة صغيرة جداً ، كان اهتمامها الصريح بأعضاء الذكر التناسلية محرجاً للغاية . ثم انها دخلت في طور النمو الخفي الغامض . لم تكن صبوة بريئة ملائكية تعتمد على المجلات في جمع المعلومات . بل كان البيت يفور بالتهيّج والقلق الذي يسوده . لقد قرأت مرة انهم كانوا في العصور الوسطى يعتقدون أن الفتيات في سن البلوغ معرّضات لممارسة اعمال السحر وانا لا استبعد ذلك . فلقد وافانا لفترة ما شيء سميناه طيفاً على سبيل المزاح . فقد سقطت الصور من اماكنها وتهشّمت الاطباق على الارض وسمعنا دقّاً في العليّة وطرقاً في السرداب . ولا اعلم مبعث هذه الامور ولكن الامر اثارني إلى حد بتّ معه ارقب ايلين وكل حركاتها وسكناتها الخفية . كانت كقطة الليل ، ولقد اقتنعت انها لم تكن مسؤولة عن وقوع الاشياء وتحطيمها ولا عن الدق والطرق ، ولكني اكتشفت أن هذه الامور لم تحدث مرة وهي خارج البيت . قد تكون جالسة تتأمل الفضاء عند مجيء الطيف ، ولكنها كانت دائماً موجودة عند حضوره .

اذكر اني سمعت في طفولتي عن شبح لاحد اجدادنا الاول كان يسكن البيت ، وتقول الروايات انه كان يتصرّف تماما كما ينبغي لأي شبح محترم أن يتصرف ، فكان يمشي ويدور ويئنّ كما يجب . ويصرّ الدرج بوزنه غير المرئي ، وكان يدقّ على الحائط منذراً بموت وشيك ، الا أن الطيف كان يختلف عن الشبح . كان خبيثا مؤذياً مفسداً ومنتقماً . لم يكسر مرة شيئاً

تافهاً عديم القيمة . ثم رحل بعد ذلك . انا في الحقيقة لم أومن به تماماً . وكنا نتندّر باخباره تندّرا ، الا انه اثبت وجوده بما كسر من صور ، وما هشّم من آنية الصيني . وبعد أن رحل بدأت ايلين تمشي في نومها كما تفعل الآن . فأنصتُّ الى خطواتها البطيئة الواثقة وهي تهبط الدرج . وفي نفس الوقت تنهّدت ماري من اعماقها وتمتمت إلى جانبي . وهبّت نسمة وحركت ظلال الاغصان المورقة على السقف .

انسللت بهدوء من فراشي ولبست برنص الحمام بسكون لاني اعتقد ـ كما يعتقد غيري ـ بضرورة عدم ازعاج الماشي في نومه وايقاظه .

قد يبدو اني لا احب ابنتي ولكني احبها . احبها من كل قلبي ولكني اخافها قليلاً لاني لا افهمها .

ان انت هبطت سلم بيتنا ملاصقاً الحائط فان السلم لا يصرّ . اكتشفت ذلك لما كنت ولداً اقفز كهر فوق اسوار البلدة في الظلام اثناء عودتي للبيت . وما زلت اتّبعُ الاسلوب نفسه عندما اتوخى عدم ازعاج ماري . ولقد استعنت باسلوبي الآن ونزلت الدرج دون أن احدث أي صوت وانا اسحب اصابعي على الحائط لأتحسس طريقي . ونفذ ضوء ضئيل مشبّك من ضوء الشارع ثم تبدّد في ظلمة باهتة بعيداً عن النافذة . ولكن كان باستطاعتي أن ارى ايلين . لكأنها كانت تتألق ـ ربما بسبب ثوب النوم الابيض . كان وجهها مخفياً وراء الظلال الا أن ذراعيها ويديها كانتا تلتقطان النور . كانت واقفة امام خزانة ذات بابين زجاجيين حيث تُحفظ كنوز الاسرة التافهة ـ اواني العاج المحفور على شكل حيتان ومراكب كاملة بمجاذيفها وملاحيها وحديدها وحامل الرمح في وقفة الاستعداد في مقدمة السفينة ـ كلها محفورة من اسنان الحوت وانياب فيل البحر ، ونموذج مصغّر لسفينة (بل آديراً) لامعة الطلاء ، مغبرة القلاع والحبال . وكانت هناك بضع تحف أخرى حملها الربابنة الاول معهم من الشرق بعد أن جردوا منطقة بحر الصين من الحيتان ، قطع ونتف من الابنوس والعاج ، آلهة ضاحكة وصارمة ، تماثيل بوذا رصينة

وقذرة ، زهور محفورة في حجر صوّان وردي شفاف ، وفناجين رقيقة شفافة بديعة . قد يكون بعضها ذا قيمة ـ كالخيل الصغيرة التي لا شكل لها ، والتي كانت إلى ذلك تنبض بالحياة ـ ولكن ان حق هذا فلا شك انه جاء نتيجة صدفة عرضية . انّى لهؤلاء الملاحين قاتلي الحوت ان يميّزوا الحسن من الرديء ، ام لعلهم كانوا يمتلكون ملكة تمييز ؟

كانت هذه الخزانة بالنسبة لي قدس اقداس السلف ـ اقنعة رومانية للاجداد ، أو آلهة البيت حفرت من حجر وقع بالاصل من القمر . وكان عندنا جذر من نبتة تفاح الجن على شكل رجل كامل الهيئة . كما كانت عندنا جنية بحر حقيقية ـ اهترأت وبليت الآن ـ صنعت بمهارة فالصق الجزء الاعلى الذي كان على هيئة قرد بالجزء الاسفل الذي له شكل ذنب سمكة وخيط باتقان .لقد انكمشت بمرور الايام وبانت الخياطة فيها ولكن ما زالت الاسنان الصغيرة تظهر في ابتسامة شرسة .

اعتقد أن لكل عائلة نوعا من تعويذة ، نوعا من استمرار يلهب ويطمئن ويوحي من جيل إلى اخر . وكانت تعويذتنا ، ولا اعلم كيف افسّرها ، نوعا من كتلة مدوّرة تقريباً من حجر شفاف لعله كان صوّاناً أو من معدن الجاديت أو حجر الصابون . قطرها اربع بوصات ، وفي الطرف المدبب كان بوصة ونصفاً . حفر على سطحها شكل متداخل لا نهاية له يلوح وكأنه يتحرّك ولكنه لا يصل إلى مكان . كان شكلاً حيا ، ولكن لا رأس له ولا ذنب ، لا بداية له ولا نهاية . لم يكن الحجر الصقيل ناعم الملمس بل كان لزجاً كاللحم ، وكان دائما يشعّ بالدفء ان أنت لمسته . بامكانك أن ترى ما بداخله ولكنك لا تستطيع أن ترى شيئاً خلاله . لعل بحاراً قديما من دمي ولحمي قد جاء به من الصين . كان طلسماً يطيب لك أن تراه وان تلمسه وان تمسح به على خدك أو أن تداعبه باصابعك . وكانت هذه الكتلة السحرية الغريبة تقبع في الخزانة الزجاجية . وكان يسمح لي لما كنت طفلاً ثم صبيا ثم رجلا بلمسها والامساك بها ، ولكن لم يسمح لي قط بحملها

بعيدا عن مكانها . وقد تبدّلت الوانها والتفافاتها وتركيبها بتبدّل احتياجاتي . حسبتها مرة نهداً ، أو شيئا آخر . لعلها تطوّرت فيما بعد إلى مخ أو حتى إلى لغز ـ الشيء المتحرك الذي لا رأس له ولا نهاية ـ سؤال كامل في ذاته ، لا يحتاج إلى جواب ، ولا لبداية أو نهاية تحدده .

كان للخزانة الزجاجية قفل من النحاس ومفتاح نحاسي مربع موجود في قفله دائماً .

وجدت الكتلة السحرية في يد ابنتي النائمة وهي تداعبها باصابعها وتدللها وكأنها شيء حي . لقد ضمتها إلى نهديها اللذين لم يتكورا بعد ، ثم وضعتها على خدها تحت اذنها وحكّتها بأنفها كالجرو الرضيع ، بينما كانت تهمهم بأغنية بصوت منخفض وكأنها أنين اللذة أو الشوق احسست بالدمار فيها . خفت اول الامر أن ترميها وتحطّمها أو أن تخبئها ، ولكني فهمت الآن انها كانت اما وحبيباً وطفلاً في يديها .

تساءلت ـ كيف يمكنني أن اوقظها دون أن ارعبها ؟ ولكن لماذا يوقظون الذين يمشون في نومهم ؟ ألأنهم يخافون أن يؤذوا انفسهم ؟ لم اسمع مرة بأذى وقع في حالة كهذه الا بسبب محاولة ايقاظ النائم . فلم اتدخل بالامر ؟ لم يكن كابوساً مملوءا بالالم والفزع وانما كان لذة ومشاركة تفوق ما يمكن أن يدركه الصحو الواعي . فمن اين لي الحق في افسادها عليها ؟ خطوت إلى الوراء بسكون وجلست في مقعدي الكبير انتظر .

بدت الغرفة المعتمة كأنها تموج بذرات دقيقة من الضوء المتلألئ تتحرك وتدور كسحابة من البرغش لعلها لم تكن موجودة في الحقيقة ، بل كانت وخزات من الضنى تسبح في سائل عيني ، ولكنها كانت مقنعة تماماً . وابنتي ايلين كانت فعلاً تشع بالنور المنبعث ، لا من بياض ثوبها فحسب ، وانما من نقاء بشرتها ايضاً . استطعت أن ارى وجهها بالرغم من ظلام الغرفة . لاح لي كأن وجهها لم يعد وجه طفلة ابداً ، لم يكن وجهاً هرماً ، بل

رأيت فيه نضجاً وكمالاً وشكلاً تام الخلقة . لقد انطبقت شفتاها بحزم مع انها لا تنطبق عادة بهذا الشكل .

وبعد فترة من الوقت وضعت ايلين الطلسم بحزم ودقة في محله وأغلقت الخزانة الزجاجية تم ادارت المفتاح الذي يقفلها . تم استدارت ومرت بالقرب من مقعدي وصعدت الدرج . لعلني تخيلت امرين : الاول ، انها لم تمش كفتاة صغيرة بل كامرأة استوفت حقها من الحياة ، والمسألة الثانية ، هي انها لما توجهت عائدة زايلها الضياء الذي شع منها . مجرد انطباعات ، ولعلها كانت من بنات افكاري ، ولكن الامر التالث ليس كذلك . ففي اتناء صعودها الدرج لم اسمع له صريراً . لا بد انها كانت تصعد ملتزمة الحائط حيث لا تصر الدرجات .

بعد بضع لحظات لحقت بها فوجدتها نائمة في فراشها وغطاؤها مرتب عليها . كانت تتنفس من فمها وبدا وجهها كوجه طفل نائم .

أجبرت على نزول الدرج مرة أخرى وفتحت الخزانة الزجاجية وتناولت الكتلة في يدي . كانت ما تزال دافئة من حرارة جسد ايلين . وكما كنت أفعل في طفولتي تتبعت بطرف اصبعي تدفق الخطوط التي لا تنتهي ووجدت طمأنينة في تلك العملية . شعرت اني قريب من ايلين بسببها .

ترى هل يقربها الحجر مني بشكل ما ـ هل يقربها من آل هاولي ؟

٩

في يوم الاثـنين راغ الربيع الخؤون وعاد الشتاءبمطر بارد وريح قارسة هبوب بددت اوراق الشجر الطريئة التي اطمأنت إلى وجود الربيع ، وطوحت بالعصافير الجريئة الشهوانية المنتثرة على العشب ، وبعثرتها كالخرق البالية مبعدة اياها عن طريقها وعن هدفها ، فلم تملك العصافير سوى الثرثرة مغضبة محنقة على ذلك الطقس المتقلب .

سلمتُ على السيد بيكر اثناء جولته وقد طار ذيله جانباً كعلم في معركة . وقد حول وجهه ليتفادى المطر . قلت له : « من الآن فصاعداً ستصبح صداقتنا ظاهرية فقط ، ولكني اشعر انه من الانصاف أن اخبرك أن ابتساماتنا تخفي مباراة ضارية ، تخفي نزاعاً لإنهاء اعمالنا اليومية والعودة إلى مخبئنا » .

وجدت مورفي في الموعد ، ولعله كان ينتظرني .قال : « يوم فظيع! » وانتفخ المعطف الواقي من المطر حول ساقيه واصطفق . « سمعت انك قمت بزيارة اجتماعية لمعلمي » .

« كنت بحاجة لبعض النصح . وقد قدم لي الشاي ايضاً » .

« والنصيحة ـ كما تعرف ـ لا يكون مرغوباً فيها ما لم تتفق مع ما قد صمم المرء على فعله على كل حال » .

« يبدو أن النصيحة كانت حول موضوع استثمار مالك » .

«ان ماري تريد أثاثاً جديداً . واذا ما شاءت المرأة شيئاً فانها تعطيه مظهر مشروع مثمر» .

فقال مورفي : «ان النساء لا ينفردن بذلك وحدهن ، فأنا ايضاً افعل ذلك» .

«على كل حال ، ان النقود نقودها . وهي تريد أن تفتش عن اسعار مناسبة» .

ولما وصلنا إلى زاوية الشارع راقبنا لافتة حانوت اللعب وهي تنخلع من مكانها وتنزلق إلى الارض ، وقد احدثت صوتاً كالذي يصدر عن حادثة تصادم .

«سمعت أن (معلمك) سيذهب في رحلة لوطنه ايطاليا» .

«لا ادري ، كنت استغرب عدم ذهابه قبل الآن ، فالعلاقات بين اعضاء الأسرة عندهم قوية ومتينة عادة» .

«ألديك وقت لنشرب فنجاناً من القهوةمعاً ؟»

«أخاف أن أتأخر عن عملي اذ لا بد أن اليوم سيكون مزدحماً بالعمل بعد العطلة . انني كما تعلم حريص على الا أُطرد» .

«أوه! عش كالمترفين! فبامكان صديق السيد بيكر الشخصي أن يجد وقتاً لفنجان من القهوة» . لم يقلها باللؤم الذي يمكن أن توحي به العبارة . اذ كان بمقدوره أن يضفي البراءة وحسن النية على اية عبارة يريد .

لم يحدث أن ذهبت في صباح يوم من الايام طوال هذه الاعوام لتناول فنجان من القهوة في الفلوماستر ، ولعلني كنت الوحيد في البلدة الذي لا يتردد عليه . اذ كان التردد على هذا المطعم والمقهى نوعاً من تقليد في بلدتنا ، الا انني قبلت اخيراً دعوة مورفي ، فتسلقنا الكراسي العالية قرب الحاجز ، وصبت لنا الآنسة لينش ـ التي كانت زميلتي في المدرسة ـ القهوة دون أن تسكب نقطة واحدة منها في صحن الفنجان . وألحقت بالفنجان زجاجة صغيرة من الحليب ، كما دحرجت لنا قطعاً من السكر ملفوفة بالورق وكأنها تدحرج احجار النرد .

الآنسة لينش ـ دائماً الآنسة لينش ، فقد اصبح لقب الآنسة جزءاً من اسمها ، وجزءاً منها . ولعلها لن تستطيع أن تستأصله قط . وكلما تقدمت بها السنون كلما ازداد انفها احمراراً ـ إلا أن احمراره كان بسبب التهاب الجيوب في وجهها لا بسبب ادمانها للخمر .

قالت : « صباح الخير يا إيثان . هل جئتنا لأنك تحتفل بمناسبة ما ؟ »

فقلت : « لا . لقد سحبني مورفي إلى هنا » . ثم حاولت أن ألاطفها وأضفت : « يا آني » .

فالتفتت بسرعة كأنها تسمع طلقة تنبعث من مسدس ، ولما فهمت قصدي ابتسمت فبدت ـ ويا للعجب ـ على الصورة التي كانت عليها لما كنا معاً في الصفوف الابتدائية . هي وانفها الاحمر وكل هيئتها .

فقالت : « اني مسرورة لرؤيتك يا ايثان » . ومسحت انفها بمنديل من الورق .

قال مورفي : « دهشت لما سمعت النبأ » . والتقط الورقة التي لفّ بها السكر وكانت اظافره مصقولة . « ترسخ في ذهنك فكرة فتتصورها حقيقة ولكنك تدهش عندما تجدها ليست حقيقة » .

« لا افهم عمّا تتحدث » .

« ولا انا ايضا . لعنة اللّه على هذه اللفائف! لم لا يضعون قطع السكر دون لفائف في طاسة بكل بساطة ودون كل هذه المشاكل ؟ »

« ذلك لأن الناس قد يأخذون منها عادة اكثر من حاجتهم » .

« ربما . كنت أعرف شخصاً عاش فيما مضى على السكر فترة من الوقت . كان يدخل المقهى ويطلب فنجان قهوة ثمنه عشرة سنتات ، فيشرب نصفه ثم يملأ الفنجان بالسكر فهو بذلك لم يمت جوعاً على الاقل » .

وكالعادة ، رحت اتأمل هذا الشخص المدعو مورفي فقد بدا لي رجلا غريب الاطوار صلباً لا يهرم وقد قلّم اظافره وصقلها . اظنه كان صاحب ثقافة لابأس بها ، اكتسبها باساليبه الخاصة وبطريقته في التفكير بالامور . ان

براعته تكمن في تلك اللهجة التي يستعملها عادة اهل تلك الطبقة من الناس الذين لا يُعرف اصلهم ولا تُؤمن سمعتهم ـ لهجة هي لغة الجهلاء الأذكياء القساة الوقاح . فسألته : «ألهذا السبب لا تضع في فنجانك قطعة واحدة من السكر ؟ »

فضحك ضحكة فاترة وقال : «لكلٍ نظريته في الحياة . ولا يهمني إلى أي حد يبلغ الانهاك بالانسان مادامت له نظرية خاصة بهذا الانهاك . وقد تضلّلك تلك النظرية لأنك ستتبعها مهما حدث ، وبالرغم من اشارات التحذير والانذار . ولعل هذا ما خدعني في معلّمك» .

لم اكن قد شربت قهوة خارج بيتي منذ امد طويل ، ولم تكن القهوة طيّبة المذاق الا انها كانت ساخنة ولما دلقت بعضاً منها على قميصي وجدتها بنيّة اللون ايضاً .

« أظنني لا افهم قصدك» .

« كنت احاول أن اعرف مصدر هذه الفكرة لديّ ، ربما لاني سمعته يقول انه جاءالى هنا منذ اربعين عاماً . لعله جاء قبل خمسة وثلاثين عاماً أو سبعة وثلاثين ولكن لا اظن قبل اربعين عاماً » .

«لعلني لست ذكياً بالقدر الذي افهم فيه ما تريد أن تقول» .

«اي حوالي سنة ١٩٢٠ ألم تفهم بعد ؟ نحن في المصرف نحاول أن نصنّف الناس ونقوّمهم بسرعة لنعرف المتلاعبين منهم . وبعد قليل نجد اننا كوّنا لأنفسنا مجموعة من القواعد نبني عليها احكامنا دون أن نفكر كثيراً ، فلا نجدها الا وقد سقطت في مكانها المعلوم ـ وقد تخطئ في حكمك . فلعله جاء عام ١٩٢٠ حقاً وقد اكون انا مخطئاً» .

انتهيت من شرب قهوتي : « آن لي أن اخرج من هنا » .

قال مورفي : «انك تخدعني ايضاً . فلو سألتني بضعة أسئلة مستفهماً لراوغتك في الاجابة . ولكنك لا تسأل ، ولذا اجد نفسي مضطراً لإخبارك . ففي سنة ١٩٢١ صدر اول قانون لتحديد الهجرة» .

«ثم ماذا ؟»

«وفي سنة ١٩٢٠ كان بإمكانه أن يدخل دون قيد أو شرط ، واما في سنة ١٩٢١ فإن ذلك كان مستحيلاً» .

«ثم ماذا ؟»

«ان عقلي الحاذق يحدثني بأنه لم يدخل الا بعد عام ١٩٢١ ومن الباب الخلفي وهكذا لا يمكنه أن يعود لوطنه لأنه لا يستطيع أن يحصل على جواز سفر» .

«ربّاه! ما أسعدني لأني لست موظفاً في مصرف» .

«لو كنت موظفاً لحذقت الصنعة اكثر مني فأنا ثرثار . لو أن مارولو عاد لوطنه لثبت لي أني مخطئ . انتظر ـ سأجيء معك . القهوة على حسابي هذه المرة» .

قلت : «مع السلامة يا آني» .

«زرنا مرة أخرى يا ايث . انك لا تأتي هنا ابداً» .

«سأعود» .

وبينما كنا نعبر الطريق قال مورفي : «لاتظهر لسيادة الايطالي اني قد فضحت شيئاً عن كونه طعماً معرّضاً للإبعاد ؟ أرجوك!»

«ولمَ اذكر شيئاً كهذا ؟»

«ولم اذكره انا ؟ ماذا يوجد في هذه العلبة ؟»

«قبعة الفرسان . فقد اصفرّت ريشتها وسأرى ان كان يمكن تبييضها» .

«اتنتمي اليهم ؟»

«ان ذلك تقليد عائلي . فقد كنا اعضاء في الماسونية قبل أن يصبح جورج واشنطن معلماً أعظم فيها» .

«حقاً ؟ وهل ينتمي اليهم السيد بيكر ايضاً ؟»

«تقليد في عائلته ايضاً» .

كنا قد وصلنا إلى الزقاق ، وبدأ مورفي يفتش عن مفتاح الباب الخلفي للمصرف . «اذن ، لهذا السبب ترانا نفتح صندوق الحديد في طقوس شبيهة بطقوس المحفل . لا ينقصنا الا أن نحمل الشموع فللمال نوع من قدسية» .

قلت : «مورفي! انك مملوء بالهراء والفساد في هذا الصباح ، فالفصح لم يطهر نفسك مطلقاً» .

قال : «سأعرف ذلك بعد ثمانية أيام . انني فعلاً اعني ما اقول . فما تكاد تحل الساعة التاسعة بالضبط الا ونقف مكشوفي الرؤوس امام قدس الأقداس . ثم يطق القفل الموقّت ويركع أبونا بيكر ويفتح صندوق الحديد فننحني جميعاً للإله العظيم ـ المال» .

«أنك مجنون يا مورفي» .

«ربما! لعنة اللّه على هذا القفل العتيق . يمكنك أن تفتحه بالفأس ولا يمكنك أن تفتحه بالمفتاح» .

«وعالج القفل ثم رفس الباب إلى أن انفتح اخيراً . ثم أخذ منديلاً من الورق من جيبه وقطع قطعة منه وحشى بها ثقب القفل . لقد منعت نفسي في الوقت المناسب عن سؤال : «أليست هذه العملية خطيرة» .

فأجاب دون أن أسأله : «هذا القفل المنحوس لا ينفتح . وبيكر طبعاً يتفحصه بعد فتح صندوق الحديد ليتأكد ان كان مقفولاً . أرجوك ، لا تتفوّه بشيء عن شكوكي القذرة لمارولو . فهو مقتدر اكثر من اللزوم» .

قلت : «حسناً يا مورفي» .

واستدرت صوب باب الحانوت من جهة الزقاق ، وتطلعت حولي مفتشاً عن القط الذي كان دائماً يحاول الدخول إلى الحانوت ولكنه لم يكن هناك . بدا لي الحانوت من الداخل وكأنه غير ذاك الحانوت ، لقد بدا لي جديداً ، ورأيت أشياء لم أكن قد رأيتها من قبل ، كما انني لم ألحظ الاشياء التي كانت تزعجني وتقلقني . وليس هذا بمستغرب ، فإن انت نظرت إلى العالم من خلال عينين جديدتين أو حتى عدستين جديدتين ، فإنك تجد أمامك عالماً جديداً .

هسهس صمام صندوق الحمام بلطف والماء يتسرب منه . ان مارولو لن يجلب صماماً لأن الماء لا يخضع لقياس معيّن ، اذن لا ضرورة للاهتمام به . ذهبت إلى مقدمة الحانوت ورفعت من الميزان القديم احدى قطع الحديد التي كنا نزن بها (العيار) وعلقتها بالسلسلة المدلاة من صندوق الحمام فتسرع الماء يتدفق واستمر يتدفق . فعدت إلى مقدمة المحل لأتسمّع عليه وهو يتدفق فائراً زاجراً في انائه ـ صوت لا يمكنك أن تخطئه ابداً . ثم أعدت (العيار) إلى مكانه في الميزان واتخذت مكاني على منبري وراء الطاولة أتأمل اتباعي المصفوفين على الرفوف ـ مساكين! لا يمكنهم الهروب من وضعهم . وقد لحظت بصورة خاصة قناع ميكي ماوس يبتسم لي من علبته في مقصورة أطعمة الإفطار فتذكرت وعدي لألن . وجدت العصا الطويلة التي ننزل بها الأغراض من الرفوف العليا وأنزلت علبة منه وضعتها تحت معطفي . ولما عدت إلى منبري وجدت ميكي ماوس الذي يليه في الصف يبتسم لي .

مددت يدي وراء الاطعمة المعلّبة وأخرجت كيس العملة الصغير الأغبر لأضعه في صندوق النقود ثم ، تذكرت شيئاً ومددت يدي مرة أخرى إلى أبعد من المرة الاولى إلى أن وجدت المسدس القديم الذي قبع في هذا المكان منذ عرفت هذا الحانوت . فتحته ورأيت الطلقات وقد اخضر لونها من الزنجار ، اما الاسطوانة فإنها لم تدر الا بصعوبة . تم وضعت هذا المسدس الشائن والخطر ايضاً في الدرج تحت صندوق النقد وسحبت ازاراً نظيفاً ولففته حول خصري بعد أن طويت الجزء الاعلى منه بإتقان لأخفي الرباط .

ألم يتساءل أحدنا عن قرارات واعمال وغزوات ذوي القدرة والبطش على هذه الأرض ؟ هل كانت تتولد من تفكير وتعليل تمليه الفضيلة ام أن بعضها كان حصيلة الصدف ، حصيلة الاحلام ، حصيلة الخيال ، حصيلة القصص التي نقصها على انفسنا ؟ فأنا اعلم بالضبط متى بدأت العب لعبتي الخيالية لأني اعلم انها بدأت بعد أن سمعت قواعد مورفي بسرقة المصارف بنجاح . لقد استعدت كلماته بلذة وسرور كالاطفال ـ شعور لا يعترف به

الكبار الناضجون عادة . كانت لعبة تطابق حياة الحانوت ، وكل ما حدث كان يبدو كأنه جزء من اللعبة . الحمام بصمامه الذي يتسرب منه الماء دائماً ، قناع ميكي ماوس الذي اراده ألن ، رواية فتح صندوق الحديد . ودخلت اللعبة زوايا ولفتات جديدة وقد حلت في مكانها المعين ، كقطعة الورق الليّن الذي يحشو به مورفي قفل باب الزقاق . لقد تمت اللعبة بالتدريج ، وكانت كلها من بنات الخيال حتى هذا الصباح ، حيث اشتركت فيها لأول مرة بعمل حقيقي عنما وضعت (العيار) على السلسلة ، وبذلك أخرجت رقصة الباليه من دائرة الخيال وجعلتها حقيقية . وفعلتي الحقيقية الثانية كانت اخراج المسدس العتيق . والآن بدأت أتساءل في نفسي عن التوقيت المضبوط ، هذا اذا استمرت اللعبة في النمو بدقة .

ما زلت أحمل ساعة ابي الفضية الكبيرة ذات العقارب الثخينة والارقام السوداء الكبيرة ، وهذه الساعة ولو لم تكن جميلة الشكل الا أن دقتها في ضبط الوقت تعوض عن جمالها . لقد وضعتها هذا الصباح في جيب قميصي قبل أن اكنس الحانوت ولم اتوقف عن مراقبة الوقت إلى أن حلت الساعة التاسعة الا خمس دقائق وكنت قد فتحت الابواب الأمامية وبدأت بكنس الرصيف بضربات مستأنية . عجيب كيف يتراكم الغبار في عطلة نهاية الاسبوع . وقد تحول اليوم إلى طين بسبب المطر .

يا للمصرف من جهاز دقيق مدهش يعمل كساعة والدي التي تحمل علامة السكك الحديدية . ففي الساعة التاسعة الا خمس دقائق ظهر السيد بيكر قادماً من جهة شارع الم . ولا بد أن هاري روبيت وايديت آلدن كانا يترقبان ظهوره اذ ما لبثا أن خرجا من (الفورماستر) وانضما اليه في منتصف الشارع .

وقلت : «صباح الخير يا سيد بيكر ، صباح الخير يا ايديث ، صباح الخير يا هاري» . «صباح الخير يا ايثان . يلزمك خرطوم ماء لذلك!» ودخلوا إلى المصرف .

أسندت مكنستي إلى مدخل الحانوت وتناولت (العيار) عن الميزان وذهبت وراء عداد النقد ففتحت الدرج تم شرعت في تمثيل سريع صامت متعمد . سرت إلى المستودع وعلقت (العيار) بسلسلة خزان ماء الحمام . ورفعت مئزري وشبكت طرفه في حزامي ولبست معطف المطر ثم سرت إلى الباب الخلفي وشققته قليلاً . وعندما بلغ عقرب الدقائق الساعة الثانية عشرة حسب توقيت ساعتي بدأ جرس ساعة الاطفائية يدق . وعددت ثماني خطوات عبر الممر ثم عددت في ذهني عشرين خطوة أخرى . وحركت يدي ولكنني لم احرك شفتي ـ وانتظرت عشر ثوان وحركت يدي ثانية . كل هذا تخيلته بذهني ـ فكنت اعد فيما انا أؤدي حركات معينة بيدي ـ عشرين خطوة ، سريعة ولكنها ثابتة ، ثم ثماني خطوات اخرى . واقفلت باب الممر وخلعت معطف المطر وحللت طرف مئزري ودخلت الحمام ورفعت العيار عن السلسلة فأوقفت جريان الماء وسرت إلى ما خلف العداد ففتحت الدرج ثم فتحت صندوق القبعة ومزقته . وعدت إلى مدخل الحانوت فتناولت مكنستي ونظرت في الساعة فكانت قد بلغت الدقيقة التانية والثانية العشرين بعد التاسعة . ان ذلك حسن . ومع تمرين قليل يمكن اختصار الوقت إلى اقل من دقيقتين .

كنت قد انهيت تكنيس نصف الرصيف عندما خرج ستوني ، مدير البوليس ، من الفورماستر وعبر الشارع متجهاً الي .

«صباح الخير يا ايثان . اسرع باعطائي نصف رطل من الزبدة ورطلاً من القديد وزجاجة حليب ودزينة بيض فقد انتهى كل ما كان لدى زوجتي من كل ذلك» .

« حالاً ايها الرئيس ، كيف الاحوال ؟ »

قلت هذا بينما تناولت الأشياء التي طلبها ووضعتها ضمن كيس .

«ان الاحوال جيدة . قد حضرت قبل دقيقة وسمعت صوت حركتك في الحمام» .

«سأحتاج إلى اسبوع كي اتخلص من آثار البيض المسلوق»

فقال ستوني: «تلك هي الحقيقة، ان تأثير البيض المسلوق، شنيع على المعدة».

اذن فإن ما فعلت قد بدا طبيعياً.

وعندما كان على وشك الخروج قال: «ما الامر مع صديقك داني تايلور؟»

«لست ادري - هل قبض عليه بتهمة السكر؟»

«كلا بل اني رأيته بحالة جيدة من الصحو فقد كنت جالساً في السيارة. وطلب الي أن اشهد على توقيعه».

«لأية غاية؟»

«لا أعلم. كان يمسك بورقتين ولكنهما مطويتان إلى الخلف بحيث لم استطع رؤية محتوياتهما».

«ورقتان؟»

«نعم اثنتان. وقد وقع مرتين فشهدت على كل من التوقيعين»

«هل كان صاحيا؟»

«بدا كذلك. كان شعره مقصوصاً، وكان يلبس رباط عنق».

«ليس بوسعي تصديق ذلك ايها الرئيس»

«ولا انا. يا للمسكين. اعتقد بأن الذين هم على شاكلته لا يكفون عن المحاولة. عليه أن يذهب إلى البيت». قال ذلك وجرى خارجاً. ان زوجة ستوني تصغره بعشرين عاماً. وعدت وأنهيت تكنيس قطع الاقذار الكبيرة على الرصيف.

شعرت بحقارة في نفسي. قد يصعب تحمّل الشيء حين يمارس لأول مرة.

كنت على حق في رأيي بالعادة المستحكمة. بدا لي بأن كل أهل البلدة قد نفدت مؤنهم من بيوتهم. وبما أن طلباتنا من الخضار والفواكه لم تصلنا

الا حوالي الظهيرة فان مبيعاتنا كانت زهيدة . الا أن بعض الطلبات انصب على السلع المتوافرة في الحانوت فشغلت طول الوقت .

جاء مارولو حوالي الساعة العاشرة ، ومن العجيب انه ساعدني في الوزن والتغليف وقبض النقود وتسجيلها في آلة تسجيل النقد . لقد مضى زمن طويل منذ أن ساعد في العمل لآخر مرة . وكانت عادته أن يدخل الحانوت على غير ميعاد فيتلبث هنا وهناك ثم يمضي ـ تماماً مثل ملاّك يتفقد دائرة أعماله ثم يخرج ـ الا انه في هذا الصباح قد ساعد في فتح اقفاص وصناديق الخضروات والفواكه لدى وصولها وقد بدا لي بأنه قلق ، وبأنه كان ينظر الي متفحصاً حين لا اكون أنظر باتجاهه . ومع انه لم يكن لدينا وقت للحديث الا اني شعرت بنظرته تستقر علي . وخطر لي انه سمع بأني رفضت قبول رشوة . ولعل مورفي كان على حق ، فهنالك نوع من الناس يبحث ـ لو سمع بأنك أمين ـ عن نية الغش التي تبيتها وراء تلك الامانة . ولا بد أن فكرة « ماذا وراء تلك الامانة » تلح بصورة خاصة على هؤلاء الناس الذين يتصرفون بحياتهم وكأنها لعبة بوكر .

ولقد جعلتني تلك الفكرة اضحك في سري ضحكة خفية لم يظهر أي اثر لها على وجهي .

وفي حوالي الساعة الحادية عشرة أتت ماري زوجتي تتألق في ثوب جديد من القطن المطبوع ، وبدت جميلة وسعيدة ولاهثة الانفاس قليلاً وكأنها قامت بعمل سار ـ ولكنه خطير ـ فأعطتني مظروفاً بنياً وقالت :

« ظننت بأنك قد تحتاج هذا » . ثم ابتسمت لمارولو بتلك الطريقة التي تتبعها عندما لا تحب شخصاً ما . ولم تكن تحب مارولو وتأمن جانبه ـ وكان هذا دأبها دائماً ـ . وكنت أعزو ذلك إلى أن الزوجات يكرهن رؤساء وسكرتيرات أزواجهن . وقلت لها :

« اشكرك يا عزيزتي فإنك شديدة التبصر . ويؤسفني انه ليس بوسعي أن أرافقك الآن في جولتك في الاسواق » .

فقالت : « انك مشغول حقاً » .

« حسناً ، ألم تفرغ المؤونة التي لديك ؟ »

« طبعاً . وها هي لائحة بالحاجيات التي اريد . فهلا احضرتها معك إلى المنزل هذا المساء ؟ اني اعلم بان انهماكك في العمل الآن لا يساعدك على تحضيرها » .

« شرط أن لا يكون البيض المسلوق احدها »

« لا يا عزيزي لن نأكل بيضاً مسلوقاً لمدة سنة . على فكرة ، ان مارجي ترغب في دعوتنا للعشاء في الفورماستر هذه الليلة . وتقول بأن الفرصة لم تسنح لها قبلاً لتكريمنا » .

فقلت : « حسناً »

« وقالت أيضاً بأن منزلها صغير » .

« أهو كذلك ؟ »

فقالت : « اني اشغلك عن عملك »

وكانت عينا مارولو منصبتين على المظروف البني الذي كان ما يزال في يدي . فدسسته تحت مئزري وحشوت به جيبي . وأدرك مارولو بأن المظروف من المصرف ، وشعرت بأن دماغه يطارد المظروف ككلب يطارد الجرذان بين اكوام القمامة .

وقالت ماري : « لم تتح لي الفرصة لأشكرك على الحلويات يا سيد مارولو ، فقد أحبها الاطفال »

فقال : « انها لم تزد عن أن تكون تعبيراً عن تمنياتي الطيبة بمناسبة عيد الفصح . انك تبدين في ثوبك هذا كمن يلبس الربيع » .

« أشكرك... وقد تبللت ايضاً اذ ظننت أن المطر قد انقطع الا انه عاد فسقط » .

فقلت : « خذي معطفي يا ماري » .

« لن يخطر ذلك في بالي ابداً . انها زخة خفيفة على كل حال ، فعد إلى عملك »

ثم ازداد ضغط العمل وأطل السيد بيكر من الباب ، واذ رأى كثرة الزبائن انصرف قائلاً : سأعود فيما بعد . وظل الزبائن يفدون حتى الظهيرة ثم انقطعوا كما هي العادة . وشغل الناس بتناول طعام الغداء . وانقطعت حركة السير في الشارع . وللحظة الاولى منذ الصباح لم يكن هناك من يريد شيئاً . ثم اني شربت مزيداً من الحليب من العلبة التي كنت قد فتحتها . وكنت اسجل كل ما آخذه من الحانوت فيحسم ثمنه من مرتبي . وقد سمح لي مارولو بأن ادفع على اساس اسعار الجملة ، وهذا يساعد كثيراً اذ لا اعتقد أن مرتبي كان يكفينا لو لم يسمح لي مارولو بهذا الامتياز .

وكان مارولو عندئذ قد وقف مسنداً ظهره إلى العداد وقد شبك ذراعيه . واذ لم يشعر براحة وضع يديه في جيبيه حتى عاد فتعب من هذا الوضع . فقلت له : «اني مسرور جداً من مساعدتك لي في العمل فإني لم أرَ مثل هذا الازدحام قبلاً . على كل لست اعتقد أن بامكانهم أن يستمروا على اكل بقايا سلطة البطاطس» .

«انك تقوم بعملك جيداً يا فتى» .

«اني اقوم بواجبي» .

«كلا ، ان الزبائن يعاودون ترددهم على المحل ، فهم يحبونك» .

«لقد اعتادوا علي وهذا كل ما في الامر . لقد عملت في هذا المحل منذ زمن طويل» . وصمت قليلاً ثم قلت في محاولة لعملية سبر غور صغيرة :

«اراهن على انك تتطلع بشوق إلى شمس صقلية الحامية ، ان الطقس حار في صقلية وقد كنت هنالك في الحرب» .

فنظر مارولو نظرة بعيدة وقال : «اني لم احزم امري بعد» .

«ولم لا ؟»

«لست أدري ، فقد تغيبت عنها زمناً طويلاً ـ اربعين عاماً . ولست اعرف احداً هناك» .

«اما من اقارب لك هناك» .
«انهم لا يعرفونني» .
«كم أرغب في قضاء عطلة في ايطاليا ـ دون بندقية أو حقيبة ميدان . ان اربعين عاماً لزمن طويل . في أي عام جئت هنا ؟»
«منذ دهر ـ في عام ١٩٢٠» .
يبدو بأن مورفي قد اصاب كبد الحقيقة . وقد يكون ذلك غريزياً لدى رجال المصارف والشرطة والجمارك . ثم طرأت على بالي عملية استجواب أخرى قد تكون ابعد مدى . ففتحت الدرج وأخرجت المسدس القديم وألقيت به فوق العداد . فوضع مارولو يديه خلف ظهره وقال : «ما هذا يا فتى ؟»
«لقد فكرت بأن عليك الحصول على رخصة حمل سلاح اذا لم تكن لديك واحدة ، فإن قانون سوليفان شديد» .
«من أين أتى هذا المسدس ؟»
«لقد كان هنا دائماً» .
«لم اره من قبل ابداً ، وهو لا يخصني ، انه لك» .
«كلا ليس لي وأنا أيضاً لم أره قبلاً . ويجب أن يكون له مالِك . وطالما انه موجود هنا أفلا تعتقد بأن من الافضل لك أن تطلب ترخيصاً به ؟ أمتأكد انت بأنه لا يخصك ؟»
«قلت لك بأني لم أره قبلاً . اني لا احب الاسلحة» .
«انه لأمر غريب ، فقد كنت اعتقد أن كل اعضاء المافيا الكبار يحبونها» .
«ماذا تقصد بالمافيا ؟ هل تحاول أن تقول بأني عضو بالمافيا ؟»
فتظاهرت بالمزاح البريء وقلت : «ان كل الصقليين ، على ما سمعت ينتمون إلى المافيا» .
«ان هذا خيال مجاني .ولست اعرف أياً من اعضاء المافيا» .

فأعدت المسدس إلى الدرج وقلت : «عش وتعلّم! اني بالتأكيد لا أريد المسدس وربما كان من الاحسن أن اسلّمه إلى ستوني . سأقول له بأني وجدته خلف شيء ما . فتلك هي الحقيقة» .

فقال مارولو : «افعل ذلك فالمسدس ليس لي ، ولم يسبق لي أن رأيته ، ولست اريده» .

فقلت : «حسناً ، سنتخلص منه» .

ان الحصول على رخصة بموجب قانون سوليفان يحتاج إلى ملء بعض النماذج ، نماذج كتلك التي يقوم طالبو جوازات السفر بتعبئتها .

عند ذلك دخلت الحانوت الآنسة ايلكر العجوز وكانت متدثرة تماماً . وهي من بقايا العائلات العريقة في نيوبايتاون وبينها وبين المجتمع الذي تعيش فيه حواجز وحواجز . ولقد اشترت الآنسة ايلكر دستة من البيض . واذ كانت تعرفني منذ كنت صبياً صغيراً فهي ما زالت تراني كذلك ، وقد سرّت ، على ما بدا لي ، من استطاعتي عد النقود واعادة الباقي لها ، فعادت تنقل عينيها بين مارولو ومطحنة البن ، فيستقر بصرها على كل منهما لحظات متساوية .

«شكراً يا ايثان . كيف حال والدك ؟»

«بخير يا آنسة ايلكر» .

«بلغه تحياتي يا «شاطر» .

«نعم يا سيدتي ، سأبلغه تحياتك بالتأكيد» .

ولم يخطر في بالي أن انبهها إلى مرور الزمن . وقد سمعت بأنها ما زالت تدير ساعة جدها المعلقة على الحائط ، مساء كل احد ، مع أن تلك الساعة قد اصبحت تعمل بالكهرباء منذ سنين . ولم تكن حالتها سيئة ، فالزمن لا يسير لديها بل هو راسخ في الحاضر ولا نهاية له . وقد هزّت برأسها لمطحنة البن قبل خروجها .

وعند ذلك وضع مارولو اصبعه على صدغه ولواه بحركة لولبية وقال : «انها بلهاء» .

«ان ذلك لا يغير شيئاً ولا يؤذي احداً» .

« ولكن والدك ميت فلماذا لم تقل لها ذلك ؟ »

« ما الفائدة اذا كانت ستنسى ذلك في الحال ؟ انها دائبة السؤال عنه . وهي لم تتوقف عن السؤال عن جدي الا منذ فترة قصيرة . ويقال بأنها قد كانت صديقة له » .

وردد مارولو ثانية : «انها بلهاء » .

ولكنه لسبب ما ، يتعلق بعدم شعور الآنسة ايلكر بمرور الزمن ، عاد فصمت . ان من الصعب ادراك مدى بساطة أو تعقيد شخص ما . واذا ظننت بأنكِ متأكد من معرفتك له فإنك غالباً ما تكون على خطأ . لقد بت اظن لطول الخبرة وممارسة العمل بأن مارولو قد اخضع صلاته بالناس لثلاثة اشياء : اصدار الأوامر ، والتملق ، والشراء . ولا بد بأنه قد مارس هذه الامور الثلاثة طويلاً وكثيراً لدرجة يسعه معها الاتكال عليها في علاقته بالناس . وهو في مرحلة ما من مراحل علاقته بي قد اسقط البند الأول .

قال : « انك فتى طيب ، وصديق طيب ايضاً » .

فقلت « كان جدي ، القبطان القديم ، يقول : اذا اردت الاحتفاظ بصديق فلا تجربه » .

«ان ذلك يدل على الذكاء » .

«لقد كان جدي ذكياً » .

«لقد كنت افكر طيلة يوم الأحد ، ولم انقطع حتى في الكنيسة عن التفكير » . وأدركت بأن تلك الصدمة تشغل فكر مارولو ، أو هذا على الاقل ما ظننته ،ولذلك استبقته بالحديث كي أحضّر له الوقت قائلاً :

« أكنت تفكر بتلك الهدية الجميلة ؟ »

فنظر الي باعجاب وقال : « نعم . انك ذكي ايضاً » .

«لست من الذكاء إلى حد يحفزني إلى العمل على مسؤوليتي » .

«انك تعمل هنا منذ زمن طويل ـ أهي فترة اثنتي عشرة سنة ؟ »

«هو كذلك ـ زمن طويل . لقد بات من المناسب أن ابدل من وضعي ، الا تعتقد ذلك ؟»

«هذا ولم تأخذ شيئاً من النقود أو السلع دون أن تقيده على حسابك» .

«ان الأمانة احد عيوبي» .

«لا تمزح ، ان ما اقوله حق ، فأنا اراجع الحسابات» .

«اذن يمكنك ان تعلق وساماً على الجهة اليسرى من سترتي» .

«جميع الناس يسرقون . بعضهم يسرق كثيراً . والبعض قليلاً . ولكنك لست منهم ، وأنا اعلم ذلك» .

«قد اكون بانتظار فرصة سانحة تسمح لي بسرقة المحل بكامله» .

«لا تمزح ، أن ما اقوله حق» .

«انك تملك جوهرة يا الفيو ، فلا تسرف في تلميعي فأتآكل من معجونة التلميع» .

«لم لا تدخل في شراكة معي ؟»

«بماذا ؟ بمرتبي ؟»

«سنجد لذلك حلاً ما» .

«عند ذلك لن يسعني أن اسرقك ، دون أن اسرق نفسي» . فأضحكته النكتة وقال : «انت ذكي يافتى وأنت كذلك لا تسرق» .

«اراك لم تصغ لي ، فقد اكون ارسم خطة لسرقة المحل بأكمله» .

«انت امين يا فتى» .

«هذا ما اقوله لك . حين اكون اميناً جداً ، فما من احد يصدقني . وأقول لك يا ألفيو بأنك اذا اردت أن تخفي دوافعك الحقيقية فتكلم صدقاً!!»

«ما هذا الكلام الذي تقوله ؟»

فقلت باللاتينية : «اجل... لا يفسر الفن الا الفن!!»

راح مارولو يتمتم بهذه الكلمات من بعدي ثم انفجر ضاحكاً وقال باللاتينية ايضاً : « بالطبع... فقد ثبت ذلك... »

« أترغب في زجاجة كوكا مثلجة ؟ »

فوضع يديه على معدته ، وقال : « لا تصلح الكوكا لمعدتي » .

« انك لست مسناً إلى حد يصيبك معه داء المعدة ، فأنت لا تتجاوز الخمسين » .

« اثنتان وخمسون ، ولدي داء في المعدة » .

« اذن فقد كنت في الثانية عشرة عندما جئت إلى اميركا . اذا كان ذلك قد حدث عام ١٩٢٠ ، يبدو بأنهم يتسرعون في تعلم اللاتينية في سن مبكرة في صقلية » .

قال : « كنت احد صبيان جوقة المرتلين » .

قلت : « وكنت انا احمل الصليب في جوقة الترتيل . سأشرب زجاجة كوكا . اسمع يا ألفيو ، جد لي طريقة افضل ادخل بواسطتها شريكاً في هذا المحل لأدرسها . ولكني انبهك إلى انه ليس لدي أي مال » .

« سنجد طريقة ما » .

« ولكني سأحصل على مال » .

فاستقرت عيناه على وجهي وكأنهما لا تستطيعان حراكاً ، ثم قال بنعومة : « انا متأكد من ذلك » . فشعرت بقوة في نفسي ولكنها ليست قوة المجد ، وفتحت زجاجة الكوكا ووضعتها في فمي ، وعندما قلبتها إلى الوراء نظرت في عيني مارولو من خلال زجاجها البني .

فقال : « انك فتى طيب » . ثم هزّ يدي وانطلق خارجاً .

وبدافع طارئ صحت من خلفه قائلاً : « كيف حال ذراعك اليوم ؟ »

فاستدار باندهال وقال : « انها لا تؤلمني الآن » . ثم كرر الكلمات لنفسه ثانية « انها لا تؤلمني الآن » .

ثم عاد إلى داخل الحانوت وقال لي بتهيج : « يجب أن تأخذ تلك النقود » .

«أية نقود ؟»

«الخمسة بالمائة» .

«ولماذا آخذها ؟»

«يجب أن تأخذها فيصبح بامكانك أن تشتري منّي المحل تدريجياً . ولكن تمسّك بستة في المائة»

«كلا» .

«لماذا تقول كلا طالما اني موافق ؟»

«لن اكون بحاجة اليها يا الفيو ، ولو انني كنت بحاجة اليها لأخذتها» .

فتنهد طويلاً .

كان العمل بعد ظهر هذا اليوم اقل منه في الصباح ، الا انه لم يكن خفيفاً . فهناك عادة هدوء في حركة العمل بين الثالثة والرابعة ، وكثيراً ما تمتد فترة الهدوء ثلث ساعة أو نصفاً ، ولست ادري لماذا .ثم تعود الحركة ثانية ، ويكون الزبائن في هذه المرة اناساً عائدين من العمل إلى منازلهم ، وزوجات يحضرن طعام العشاء في آخر لحظة .

وقد حضر السيد بيكر إلى المحل في فترة الهدوء ووقف ينظر إلى الجبن والمقانق التي في الثلاجة منتظراً أن افرغ من خدمة زبونين قليلي الهندام ، من النوع الذي لا يعلم ماذا يريد ـ النوع الذي ينتقي ببطء ويضع ما ينتقيه جانباً ثم يتلكأ منتظراً أن تقفز البضائع إلى يده طالبة اليه أن يشتريها . واخيراً انتهيا وغادرا المكان .

فقال السيد بيكر : «هل علمت يا ايثان بأن ماري سحبت الف دولار» .

«نعم يا سيدي ، فقد قالت لي بأنها ستسحب» .

«هل تعلم لم تحتاج هذه النقود ؟»

«طبعاً ، سيدي ، فقد كانت تتكلم عن ذلك منذ شهور . انت ادرى

بالنساء . قد يهترئ الاثاث قليلاً ، ولكهن في اللحظة التي يقررن بها الحصول على اثاث جديد يصبح القديم لديهن عديم الفائدة بالمرة » .

« ألا تعتقد أن من الحمق بذل المال الآن لتلك الغاية ؟ لقد قلت لك بالأمس ان ثمة فرصة ستكون لاستغلاله » .

«انه مالها يا سيدي» .

«لم اكن احدثك عن مقامرات مالية يا ايثان ، بل عن استثمار اكيد مضمون . واعتقد ان بوسعها ، وبالألف دولار ، أن تشتري الاثاث خلال سنة ، ويتبقى لديها الف دولار » .

ـ « يا سيد بيكر ليس من حقي أن امنعها عن صرف نقودها » .

« او ليس بوسعك اقناعها ؟ الا يمكنك أن تجادلها ؟ »

« لم يخطر ذلك لي » .

«انت في ذلك تبدو كأبيك يا ايتان . وهذا ضعف . وما دمت راغباً في مساعدتك على الوقوف على قدميك فلست أريد لك أن تكون ضعيفاً » .

ـ « حسناً يا سيدي» .

ـ « هذا ولا يبدو بأنها ستصرف المبلغ محلياً . كلا ، بل انها ستزور المحلات التي تبيع باسعار مخفضة فتدفع نقداً ، ولا يمكن التخمين بما قد تنتقيه . ولو انها تشتري ما هي راغبة فيه من بائع محلي لكان من السهل الرجوع اليه فيما لو اشترت شيئاً ظهر فيه فيما بعد انه معطوب . يجب أن تكون حازماً يا ايثان ، حاول اقناعها بايداع المبلغ ثانية! أو قل لها بأن تضع نقودها في عهدتي ، وهي لن تندم على ذلك» .

ـ «انها نقود تركها لها شقيقها يا سيدي» .

ـ «اعرف ذلك . وقد حاولت اقناعها عندما سحبت النقود . الا انها نظرت الي بعينيها الزرقاوين نظرة غامضة وقالت بأنها تريد أن تبحث هنا وهناك . أفلا يمكنها البحث دون أن يكون في جيبها مبلغ الالف دولار ؟ يجب ان تكون اكثر دراية بذلك يا ايثان » .

«اعتقد بأني قليل تجربة في هذه الاختبارات يا سيد بيكر اذ لم يحدث أن كان لدينا منذ زواجنا أي مال» .

«اذن يجب أن تتعلم ، وتتعلم سريعاً ، والا فلن يتوافر لديكم شيء . ان عادة بعض النساء في صرف المال لعادة اشبه بادمان المخدرات» .

«لم تسنح الفرصة لماري بعد كي تكتسب هذه العادة يا سيدي» .

«سوف تصبح كذلك . دعها فقط تتذوق طعم الدم لتصبح قاتلة» .

«لا اعتقد بأنك تعني ذلك يا سيد بيكر» .

«اني اعنيه أيضاً» .

لم أر زوجة اكثر حرصاً على المال من ماري . ولم يكن لها بد من ذلك . ولقد بدا لي أن بيكر لسبب ما قد أثار ذريعة اذ تابع كلامه قائلاً : «لقد خاب املي فيك يا ايثان . اذا كنت تريد التقدم فيجب أن تكون صاحب الكلمة في بيتك . ان بامكانك تأجيل شراء اثاث جديد لفترة من الوقت» .

وخطر لي بأنه قد يكون لأصحاب المصارف عيون كاشفة كأشعة اكس ، وبأن في وسع السيد بيكر أن يرى المظروف من خلال ثيابي ، فقلت له : «ان ذلك باستطاعتي لكنه ليس في استطاعتها . على كل سأحاول اقناعها يا سيد بيكر» .

«هذا اذا لم تكن قد صرفت المبلغ . أهي في المنزل الآن ؟»

«قالت لي بأنها ستأخذ الاوتوبيس إلى ردجهامبتون» .

«يا للّه! ها قد طارت الالف دولار» .

«ولكن مازال لديها بعض المال» .

«ليس هذا هو المهم . ان باب أملك الوحيد هو المال» .

فقلت بصوت خافت : «ان المال يجلب المال» .

«هذا صحيح ، واذا انت نسيته فإنك ضائع ، وستبقى موظفاً في بقالة إلى نهاية حياتك» .

«يؤسفني أن ذلك قد حدث» .

«اذن فعليك أن تطبق القانون» .

«ان النساء بسيطات العقول يا سيدي . وقد يكون حديثك بالأمس عن الربح قد جعلها تفكر بأن الحصول على المال امر سهل» .

«اذن اوضح لها الحقيقة ، فبدون المال لا يمكنك الحصول على مال» .

«أتشرب زجاجة كوكا يا سيدي ؟»

«نعم» .

ولم يسعه الشرب من فم الزجاجة فأحضرت له قدحاً من الورق ، الا أن الكوكا هدأت من حدته فأخذ يغمغم كالرعد المتقهقر .

وفي تلك اللحظة دخلت الحانوت سيدتان زنجيتان فابتلع السيد بيكر الكوكا وابتلع معها غضبه وقال بعنف : «كلّمها» . ثم سار وغادر المخزن وعبر الشارع في طريقه إلى البيت . وقد تساءلت عما اذا كانت شكوكه هي مبعث غضبه ، الا انني استبعدت ذلك . كلا ، أظن انه غضب لأنه شعر بخروج الامر من يده . فقد تثور على شخص يرفض العمل بمشورتك .

كانت السيدتان الزنجيتان مرحتين . فهناك عند تقاطع الشارع تسكن جماعة من الملونين ، وهم اناس طيبون لا يتعاملون معنا كثيراً فلديهم حانوتهم الخاص . الا انهم يشترون منا القليل بين آونة واخرى لمجرد مقابلة الاسعار ، وليروا ما اذا كان اخلاصهم العنصري يكلفهم الكثير . وقد اشترت السيدتان قليلاً الا انهمااستفهمتا عن اسعار الكثير من المواد ، وكنت اعرف الدافع لهذا . وهما جميلتان ايضاً ، لهما سيقان طويلة مستقيمة ورشيقة ، ما أعجب ما يمكن أن يفعله نقص التغذية في الصغر للجسم الانساني ، أو للروح الانسانية .

ولدى أوان اغلاق الحانوت اتصلت بماري تلفونياً وقلت لها :«قد أتأخر قليلاً يا حلوتي» .

«لا تنس بأننا مدعوان لتناول العشاء مع مارجي في الفور ماستر» .

«اني ذاكر ذلك» .

«أتتأخر كثيراً ؟»

«عشر دقائق أو ربع ساعة . أريد أن اتمشى صوب الميناء للتفرج على الجرّافة» .

«لماذا ؟»

«افكر في شرائها» .

«ماذا ؟»

«هل ترغبين في أن أحضر معي سمكاً ؟»

«هذا اذا وجدت سمكاً مفلطحاً طازجاً ، فليس هناك من اصناف أخرى الآن» .

«حسناً ، اني ذاهب»

«احذر من التلكؤ واؤكد بان عليك أن تستحم وتبدل ثيابك . نحن ذاهبون إلى الفور ماستر كما تعلم»

«لن انسى ذلك يا جميلتي . إن السيد بيكر قد اثار جهنم في وجهي لسماحي لك بصرف الف دولار»

«وما شأن هذا المخادع بذلك ؟»

«احترسي يا ماري ، فللجدران آذان تسمع»

«قل له أن يفعل ما يشاء»

«ليس بوسعه أن يفعل شيئاً . على كل حال انه يعتقد بأنك حمقاء»

«ماذا ؟»

«وبأني ضعيف واهن العزيمة» .

فضحكت ضحكتها الغرّيدة الحلوة التي تثير الجذل والسرور في نفسي وقالت :«اسرع بالعودة إلى البيت يا عزيزي ، اسرع» .

ما هو رد فعل هذه العواطف في نفس الرجل ؟ لقد أعدت سماعة التلفون إلى مكانها ووقفت شاعراً بضعف وسعادة ، اذا صح أن تكون هناك

حالة هي مزيج من الاثنين . وحاولت أن اتذكر حياتي قبل ماري فلم استطع ، وحاولت أن أتخيّلها بدون ماري فلم استطع أن أتخيّل شيئا سوى انها كانت حياة يلفها السواد .

كانت الشمس قد انحدرت عن التلال الغربية ، الا أن غيمة كبيرة لها لون الغبار قد عكست ضوءها على الميناء وحاجز الرياح والبحر وراءه ، وبدت قمم التلال بلون الورد . كانت الركائز القائمة في البحر قرب رصيف المدينة جذوعاًثلاثية ضخمة رفيعة القمة يكسوها الحديد من اعلاها ، ثم تنحدر جوانبها فتصبح على شكل بوابات هرمية تصد صقيع الشتاء . ويقف على رأس كل ركيزة طير من طيور النورس يكون في العادة ذكراً لا يتحرك ، صدره ناصع البياض وجناحاه رماديان نقيان . واني لأتساءل عما اذا كان كل هذه الطيور يمتلك المكان الذي يقف فوقه فيكون بوسعه بيعه أو تأجيره حسبما يريد .

كانت بعض قوارب الصيد قد وصلت . وكنت اعرف جميع الصيادين ، وقد عرفتهم طيلة حياتي . وكانت ماري على حق اذ لم يكن هنالك سوى سمك موسى .

فاشتريت اربع سمكات جيدة من جو لوغان ، ووقفت انتظر حتى يفرغ من تنظيفها وتخليصها من سلاسلها العظمية . وكانت سكينه تسير تحت السلسلة العظمية بذات السهولة التي تقطع بها الماء . ثمة سؤال يفرض نفسه في الربيع :«متى يأتي السمك الطري ؟» وكانت عادتنا أن نقول بان السمك الطري يأتي عندما يزهر البنفسج ، وهو قول لا يعوّل عليه كثيراً ، ويبدو بان هذا السمك لم يجيء طيلة ايام حياتي أو انه قد ارتحل . ما اجمل ذلك السمك لو استطعت الحصول على واحدة منه ، فله رشاقة السمك النهري ، وهو نظيف فضي اللون ذو رائحة طيبة . ولسوءالحظ لا يوجد منه الآن . ولم يتح لجو لوغان أن يصطاد واحدة منه قط .

وقال لوغان :«اني أفضل سمك الكراكي . انك ان اسميت هذا السمك

بسمك الكراكي فإن الناس يشيحون عنه في حين انهم يتصارعون عليه لو أسميته بدجاج البحر » .

« كيف حال ابنتك يا جو ؟ »

« آه ، يظهر عليها التحسن ثم تذبل ثانية . ان هذا يقتلني »

« يؤسفني ذلك يا جو »

« لو كان هناك ما يمكن صنعه... »

« اعرف ذلك ـ يا للفتاة المسكينة . هاك كيساً ضع فيه السمكات . بلغها تحياتي يا جو »

فنظر في عيني طويلاً كما لو انه يأمل في أن يستخرج شيئاً مني ، دواء ما ، ثم قال :سأبلغها ذلك يا ايثان ـ سأبلغها »

وخلف حاجز الرياح كانت الجرافة تجرف بلولبها الضخم الوحل والاصداف ، وكانت المضخات تدفع بالمجروفات داخل انبوب كبير ، يرتكز على عوامات ، ثم تطرحها على الشاطىء خلف الجدران الواقية المطلية بالقار ، وكانت اضواء الجرافة وقد رفعت فوقها كرتان حمراوان دلالة على انها تعمل . واتكأ على حاجز الرصيف بذراعيه العاريين طبّاخ اصفر اللون يلبس طاقية ومئزراً ابيض ، وكان ينظر إلى الماء العكر ويبصق فيه بين اونة واخرى . وكانت الريح تتجه من البحر إلى الشاطىء حاملة معها من الجرافة رائحة الوحل والاصداف الميتة النتنة مع رائحة الاعشاب البحرية القاتمة التي تشبه رائحة القرفة في فطير التفاح اثناء خبزه . واستدارت الجرافة الضخمة بعظمة متابعة حفر القناة .

والتمعت قلوع اليخت الصغير بلون وردي عندما مسّها نور الغسق للحظة خاطفة . وسرت عائداً واستدرت إلى الشمال بجانب نادي اليخوت القديم وقاعة الفرقة الاميرالية وقد ربضت على جانبي درجات مدخلها مدافع رشاشة مطلية باللون البني .

وفي ساحة القوارب كان العمل ما يزال مستمراً بعد انتهاء الساعات

المقررة ، وذلك في محاولة لانهاء طلاء وتحضير القوارب لتكون جاهزة في الصيف المقبل . وكان برد الربيع المبكرالقاسي قد أضر بأعمال الطلاء .

واجتزت ساحة القوارب ثم عبرت الارض المغروسة بالعشب الاخضر إلى مدخل الميناء ، ثم سرت باتجاه العشة التي يأوي اليها داني ، وصفّرت لحناً قديماً يكره داني أن يسمعني أصفّره .

كانت عشته فارغة ولكني عرفت ، كما لو انني اراه بعيني ، انه مختبىء في الحشائش بين قطع الاخشاب الضخمة المربعة المبعثرة في المكان . وبما اني كنت واثقاًمن انه سيعود الى عشته حالما أذهب فإني أخرجت المظروف البني من جيبي ووضعته على سريره القذر وعدت ، ولم اكن قد كففت عن التصفير سوى لحظة صغيرة عندما قلت بصوت خافت :« وداعا يا داني ، وحظاً طيباً » . وتابعت سيري معاوداً الصفير إلى الشارع ثم إلى بورلك ماراً بالابنية الضخمة إلى شارع إلم ثم إلى منزلي ـ بيت هاولي .

وجدت ماري زوجتي وكأنها تواجه عاصفة ، تجيء وتروح بين اكداس من الثياب والاشياء ، وهي في ثيابها الداخلية وخفيها ، وشعرها المغسول حديثاً وقد تعلقت به المشابك وكأنها مقانق من نوع رخيص . ولم استطع أن اتذكر متى كانت المرة الاخيرة التي قصدنا فيها مطعماً لتناول وجبة . ذلك أن هذه العادة كانت فوق طاقتنا فكففنا عنها . وقد تشوش الولدان من جراء تهيج ماري . لقد أطعمتهما وغسلتهما ، وأصدرت أوامر وأبطلت اخرى . وانتصبت لوحة كي الثياب في المطبخ وقد كُويت ملابسي العزيزة الغالية وعُلقت على ظهور الكراسي . وكانت ماري اثناء ذهابها وايابها تتوقف لتضرب ضربة بالمكوى على فستان لها كانت تكويه . وكان الولدان مهتاجين لدرجة كادا معها الا يأكلا ، لولا الاوامر التي تلقيها بان يأكلا .

كنت امتلك اربع بذلات ـ وهذا عدد جيد بالنسبة لموظف حانوت . وقد تحسستها وهي على ظهور الكراسي . اما ألوانها فكانت الازرق الداكن ، والبني ، والرمادي والأسود .

«أيا من هذه البذلات ألبس يا عزيزتي ؟ »

«ان المناسبة ليست رسمية ، والوقت مساء الاثنين . وأعتقد أن البنية أو الرمادية هي الأنسب ، أجل الرمادية ، فهي تبدو رسمية دون أن تكون كذلك! »

« مع رباط العنق المنّقط ؟ »

« بالطبع » .

فقال ألن :« لا تلبس رباط عنق يا أبي فأنت كبير السن » .

« كلا ، اني لست كبيراً . اني صغير وجذل وطائش » .

« ستبدو كاللقلق الضاحك . ويسرني اني لست مدعوا » .

«وهذا امر يسرني انا ايضاً ، ولكن قل لي كيف راودتك الفكرة بأني لَقْلَقٌ مسن ؟ »

« انك لست مسنّاً ، ولكن سنك اكبر من أن تسمح لك بلبس رباط عنق » .

« إنك رجعي صغير رديء » .

«انني كذلك ما دمت تصر على أن تكون لَقْلقاً مرحاً » .

« هذا ما أريد أن أكونه . الا تريدين لي أن اكون لقلقاً مرحاً يا ماري ؟ »

«اترك والدك وشأنه يا ألن فعليه أن يستحم . قد وضعت لك قميصاً نظيفاً علي السرير » .

فقال ألن :« لقد انجزت نصف مقالتي بعنوان (أحب أمريكا) »

« هذا حسنٌ لأني سأدعك تعمل عندما يحل الصيف » .

« أعمل ؟ »

« أجل... في الحانوت » .

« آه... » قال ذلك ولم يبد متحمساً للفكرة .

اما ايلين فقد اخرجت صوتاً كمن يريد أن يتكلم ، وعندما توجهنا اليها

بانتباهنا لم تقل شيئاً . وكررت ماري اوامرها الخمسة والثمانين حول الاشياء التي يجب علي الولدين أن يفعلاها والاشياء التي يجب الا يفعلاها اثناء تغيبنا . وهنا صعدت لآخذ حمامي .

كنت أعقد رباطي الأزرق المنقط وهو الرباط الوحيد الذي أمتلكه ، وعندما أطلت ماري من الباب وقالت بأنتوية مخيفة :« لن تكون الربطة سيئة الغاية لو أنكَ كنت أصغر سناً » .

« ستتسببين بوقت تعيس لزوجك التعيس يا عزيزتي » .

« هذا الرباط لا يلبسه تلاميذ الصفوف الثانوية » .

« إن رئيس الوزراء مكميلان يلبسها » .

فتدخلت إيلين قائلة :« إن الأمر يختلف ... قل لي يا أبي ، هل إن انساخ شيء من كتاب يعتبر غشاً ؟ »

« اوضحي » .

« لنفرض أن أحداً .. لنفرض انني اكتب مقالة وانني استعنت بفقرات كتاب ما ـ فكيف يعتبر الأمر ؟ »

« ان ذلك يتوقف على كيفية اقتباس ذلك الشيء » .

« جاء دورك الآن لتوضح » .

« مثلاً ، اذا وضعت علامات الاقتباس في المقال ، ثم أضفت ملاحظة في نهاية الصفحة تشير إلى المصدر ، فإن ذلك يضفي على عملك احتراما واكبارا . وأعتقد أن نصف النتاج الأدبي الاميركي لا يعدو أن يكون مقتبسات ، الا اذا كانت تلك الاعمال دواوين شعرية . والآن ما رأيك في رباطي ؟ »

« لنفرض أن علامات الاقتباس لم تسجل » .

« اذن سيكون ذلك سرقة لا تختلف عن أي نوع من السرقات . انك لم تفعلي هذا ، اليس كذلك ؟ »

« كلا »

«اذن فما هي مشكلتك ؟»

«أيكون السجن من نصيبي ؟»

«قد تسجنين لو انك اتخذت من ذلك وسيلة للحصول على المال . لا تفعلي ذلك يا ابنتي . والآن ما قولك برباطي ؟»

«اعتقد أن لا جدوى منك» .

«إذا كنت تريدين أن تقفي إلى جانب والدتك واخيك فقولي لأخيك بأني قد أحضرت له قناع ميكي ماوس ، يا للعيب» .

«إنك لا تصغي ابدا اصغاء حقيقياً» .

«بل اني اصغي جيداً»

«كلا ، انت لا تفعل وستأسف إلى ذلك» .

«وداعاً يا ليدا ، سلمي لي على الاوزة»

فذهبت متلكئة ، ان البنات يقتلنني . فهن لا يملكن الا أن يكن بنات!

كانت ماري زوجتي مجرد جميلة ، جميلة ومتألقة . وقد شعت ذرات جسمها نوراً . أمسكت بذراعي عندما سارت في شارع إيلم تحت الاشجار المتعانقة واضواء الشارع تنعكس علينا . وأقسم أن أرجلنا كانت تسير بخطوات الخيول الاصيلة الفخورة وهي تبلغ منتهى اشواطها .

«يجب أن تذهبي إلى روما! فإن مصر ليست بالعظمة التي تليق بك . ان العالم العظيم ليدعوك» .

فضحكت . وأقسم بأن الطريقة التي ضحكت بها لهي مما يشرّف ابنتنا .

«سنبدأ في الخروج من البيت أكثر فأكثر يا عزيزتي» .

«متى ؟»

«عندما نصبح اغنياء» .

«ومتى يكون ذلك ؟»

* ليدا ملكة اسطورية في سبارطة استولدها الاله زفس حين زارها في شكل اوزة .

« قريباً . وسأعودك على لبس الاحذية » .

« وهل ستشعل سيكارك بورقة العشرة دولارات ؟ »

« بل بورقة العشرين » .

« اني احبك » .

« عفواً يا سيدتي . يجب أن لا تقولي ذلك ، فإنك تحرجينني كثيراً » .

كان اصحاب الفور ماستر قد جعلوا للمطعم نوافذ على شكل أقواس تطل على الشارع ، ولها ألواح صغيرة مربعة من زجاج القناني وذلك لكي يبدو المحل قديماً عريقاً ـ وقد بدا كذلك ـ الا أن الزجاج المقفل كان يبدل من اشكال الناس الجالسين في داخل المطعم . فيبدو احد الوجوه وكأنه مجرد فك كبير ولا شيء سوى الفك ، ويبدو وجه آخر وكأنه عين كبيرة فارغة ، بيد أن ذلك كله مما كان يزيد في اصالة الفور ماستر . وتعزز ذلك أيضاً ازهار الجيرانيوم والدخان الهندي المغروسة في اقصى النوافذ .

كانت مارجي في انتظارنا وكل ما في شكلها ينبىء بانها مضيفة . وقد قدمتنا إلى رفيقها ويدعى السيد هارتوك وقد لوّحت الشمس وجهه وبدت اذناه شبيهتين باذني سيد ريفي . وكان يتجاوب مع كل جملة تقال بضحكة ، وكان الضحك هو نصيبه في الجلسة ، ولم يكن نصيباً سيئاً .

وعندما قالت له ماري :« كيف حالك ؟ » ضحك . .

فقلت له :« ارجو أن تكون على علم بان رفيقتك ساحرة » .

فضحك ايضا وشعرنا جميعاً بجذل .

وقالت مارجي :« لقد طلبت حجز مائدة قرب النافذة ، تلك التي هناك » .

« ومن الاكيد انك انت من طلب وضع الازهار خصيصاً » .

« انا يا ماري لا افعل شيئاً سوى أن احاول مكافأتك على لطفك وكرمك » .

وسارت الامور على هذا النسق قبل وبعد أن اجلستنا مارجي ، وكان

السيد هارتوك يضحك لكل عبارة تقال ، وهو ذكي على ما يبدو ، وقد صممت على أن اجري حديثاً خاصاً بيني وبينه فيما بعد .

كانت المائدة نظيفة ومتقنة الترتيب ، ولم تكن ادوات الاكل من الفضة الخالصة الا انها بدت فضية على احسن ما تكون .

وقالت مارجي :« انني انا المضيفة ، وذلك يعني بانني صاحبة الامر هنا ، وسنشرب مارتيني سواء شئتم ام لم تشاؤوا » . فضحك السيد هارتوك .

وبعد لحظات كانت كؤوس المارتيني الكبيرة امامنا وفي كل منها شريحة من الليمون . وكان طعم الجرعة الاولى قوياً مخدراً ،وبعد ذلك اصبح جيداً ، ثم اصبح في نهاية القدح لذيذاً جداً .

وقالت ماري :« سنتناول قدحاً آخر ،فالطعام هنا جيد الا انه ليس ممتازاً » . ثم حدثتهم كيف كنت دائماً احلم بادارة مشرب يمكن للزبائن فيه أن يتناولوا كاسين من المارتيني فحسب ،فمثل ذلك المشرب كفيل بان ياتيني بثروة .فضحك السيد هارتوك ،وعندها وصلت إلى المائدة اربع كؤوس من المارتيني وكنت لا ازال امضغ قشرة الليمون التي استخرجتها من الكأس الأولى .

وحالما تناول السيد هارتوك الجرعة الاخيرة من كأسه الثانية بانت فيه القدرة على الحديث . وكان صوته خافتاً رجراجاً مثل ممتل أو مغن أو بائع لصنف من البضاعة لا يرغب فيه الناس . ووجّه حديثه اليّ قائلاً :

«اخبرتني السيدة يونج هنت بأنك تعمل في هذه المدينة الخلابة غير الفاسدة » .

وكنت على وشك اطلاعه على طبيعة عملي تماماً عندما قالت مارجي :

«ان السيد هاولي سيكون صاحب الشأن في هذه البلاد » .

فقال :« وما هو نوع عملك يا سيد هاولي ؟ »

فقالت مارجي :« كل شيء ، انه يعمل كل شيء ، ولكن ليس على المكشوف » .

وكانت عيناها تلتمعان من تأثير الشراب . فنظرت إلى عيني ماري واذا بهما قد بدأتا بالتأثر . واستنتجت بأن مارجي والسيد هارتوك قد شربا قبل حضورنا ، أو أن مارجي على الاقل قد شربت .

فقلت :«ان ما قالته مارجي يجنبني حالة الانكار» .

فعاود السيد هارتوك ضحكه وقال :«ان لك زوجة جميلة ،لقد كسبتَ نصف المعركة» .

فقلت :«بل هي كل المعركة» .

«لمَ تقول هذا يا ايثان ؟ فأنت تدفعه للظن بأننا نتشاجر» .

«آه ،اننا نتشاجر طبعاً !»قلت ذلك وجرعت نصف الكأس فشعرت بحرارة الشراب تثب إلى ما خلف عيني . وكنت انظر إلى الشارع من خلال زجاج النافذة الصغيرة ، وكانت اشعة الشموع المضاءة قد انعكست على ذلك الزجاج فبدا كأنه يدور ببطء . وقد اجتذبني منظر الزجاج فلم استطع تحويل نظري عنه . فشعرت اني نومت نفسي مغناطيسياً ، وسمعت صوتي وشعرت بأني اسمعه من بعيد ـ من خارج نفسي . وكنت اقول : «ان السيدة مارجي هي ساحرة الشرق ، والمارتيني ليس شراباً بل هو جرعة سحرية» .

«آه ، لقد كنت دائماً أعتقد بأني اوزما الساحرة . أو لم تكن ساحرة الشرق ساحرة شريرة ؟»

«بلى ، لقد كانت شريرة للغاية» .

«هل تلاشت ؟»

ومن خلال زجاج النافذة المقعر رأيت خيال رجل يسير على افريز الشارع . وبدا ممسوخاً بتأثير تشويه الزجاج ، وكان يسير ورأسه مائل قليلاً إلى اليسار ورجلاه مقوستان وهذه أشبه بمشية داني . وتخيّلت نفسي اثب واقفاً فاسرع خلفه راكضاً حتى ركن شارع ايلم ولكنه كان قد اختفى ، ربما في حديقة البيت الثاني . فصحت بيني وبين نفسي قائلاً :

«داني!داني! اعد نقودي الي ،ارجوك يا داني اعطني اياها . لا تاخذها

يا داني فانها مسمومة فقد سممتها » .

وهنا سمعت ضحكاً فاذا بالسيد هارتوك يضحك ، ومارجي تقول :« على كل حال اني اؤثر أن اكون اوزما » .

مسحت الدموع من عيني بفوطة المائدة وقلت :« يجب أن اشرب المارتيني بدلاً من غسل عيني به . انه يحترق »

فقالت ماري :« ان عينيك حمراوان »

لم يكن باستطاعتي أن اعود بنفسي كلية إلى المائدة . ولكني سمعت نفسي اتحدث واروي قصصاً ، وسمعت ماري تغرق بالضحك ، ويبدو أن حديثي كان فكهاً مضحكاً وساحراً ، الا اني لم استطع العودة كلية إلى المائدة . واظن أن مارجي ادركت ذلك فبقيت تنظر الي بتساؤل خفي ، عليها اللعنة .انها ساحرة .

لا اذكر انواع الطعام التي تناولناها . ولكني اذكر اني شربت خمرة بيضاء ، وقد يكون السمك بين الاصناف . وكانت الكأس رقيقة الزجاج فبدت لي كأنها تدور .ثم انني اذكر البراندي ، ولابد انني شربت القهوة ايضاً ـ ثم انتهى كل شيء .

وعندما كنا خارجين من المطعم وقد سارت ماري امامنا برفقة هارتوك سألتني مارجي قائلة :« اين كنت سارحاً ؟ »

« لست ادري عما تتحدثين »

« لم تكن حاضراً معنا اثناء العشاء الا بالجسد »

« اليك عني يا ساحرة »

« على رسلك يا فتى »

واثناء عودتنا الي البيت كنت افتش في ظلال الحدائق وقد التصقت بي ماري ، وكانت خطواتها تهتز قليلاً . وكانت تقول :« يا له من وقت طيب . لم اتمتع في حياتي بوقت اطيب من هذه الليلة »

« كانت امسية جميلة »

« وكانت مارجي مضيفة كاملة . لست ادري كيف يمكنني أن اعدّ مثل ذلك العشاء »

« انها بالتأكيد مضيفة كاملة »

« وانت يا ايتان . اني اعلم أن باستطاعتك أن تكون فكهاً ، ولكنك في هذا المساء جعلتنا نضحك باستمرار . وقد قال السيد هارتوك انه كاد يهلك ضحكاً وهو يسمعك تتحدث عن السيد بيكر »

فتساءلت في نفسي عما اذا كنت قد تكلمت عن ذلك ؟ وماذا قلت ؟ لا بد اني تكلمت وصحت آه يا داني ـ اعد الي نقودي! ارجوك !

« . . . لقد كنت اكثر من (فرجة) »

وعند باب الدار حضنت ماري بشدة فشهقت قائلة :« انك تؤلمني يا عزيزي ، حاذر أن تقع . لا تدع الولدين يستيقظان ارجوك »

كان قصدي أن انتظر حتى تنام ثم ازحف من الفراش لاخرج واقصد عشة داني فابحث عنه واسلمه للشرطة اذا لزم الامر . ولكني ادركت عدم جدوى ذلك ، فلا بد أن يكون داني قد رحل . فاستلقيت على فراشي ورحت ارقب البقع الحمراء والصفراء السابحة في ماء عيني . لقد ادركت ما قد فعلت وكذلك ادرك داني :

اجل لقد ادركت أن في الامر خدعة . .

قد يبدو هذا باعثاً على التعاسة للمرة الاولى فقط ، ولكن لا بد من مواجهة الامر . فعلى المرء في حياته العملية والسياسية أن يكافح ليشق طريقه بين الناس إلى القمة . فاذا ادركها بات في وسعه حينئذ أن يبدو كريماً وعطوفاً ـ ولكن عليه أن يصل اولاً .

١٠

يبعد مطار تمبلتون حوالي اربعين ميلاً عن نيو بايتاون ، أي أن الطائرات النفاثة كانت تقطع المسافة بما يقارب الخمس دقائق . وتزداد اسراب هذه الطائرات المجرمة ازدياداً مطرداً . وكنت اتمنى لو يسعني أن اعجب بها أو احبها كما يحبها ابني الن . وقد يسعني أن احبها لو كان لها اكثر من غاية واحدة . اما وعملها الوحيد قتل الناس ، فانا قد ضقت ذرعاً بها . وقد تعلمت ، كما تعلم الن ، أن احدد مكانها في الجو بالنظر الى الامام ـ بعيداً عن مصدر الصوت .انها تخرق جدار الصوت بدويّ يجعلني اعتقد بان اتوناً قد انفجر . وعندما تطير ليلاً فانها تقحم نفسها في احلامي ، فاستيقظ شاعراً بالالم والحزن كما لو كانت روحي مقرّحة .

وقد دوى صوت سرب منها لدى فجر هذا اليوم فأفقت وانا أرتجف قليلاً . ولا بد انها ذكرتني بالطائرات الالمانية ذات المدافع من عيار ٨٨ مليميتراً ، والصالحة لجميع الاهداف ، والتي كنا نعجب بها ونخافها كثيراً . وكان عرق الخوف ينضح من جسمي وانا مستلق في الفراش في نور الصباح المتجمع ، مصغياً إلى صوتها اللعين وهو يتلاشى في البعد . فكرت بتلك القشعريرة التي لا يشعر بها الفكر وحسب ، بل انها تسري تحت كل جلد انسان اذ يسمع هديرها لا لكونها مجرد نفاثات ، بل لان غايتها هو القتل .

عندما تتضخم حالة متشكلة ما فليس من ملاذ للمرء سوى عدم التفكير فيها .

ولكنها تستقر في خياله حيت تختلط في امور أخرى سبقته إلى هناك ، فينتج عن هذا كله التذمر والقلق والجريمة والاضطرار إلى كسب شيء - أي شيء - باية وسيلة ، وقبل أن يضيع كل شيء . وقد لا يكون ذلك الجيش من الاطباء النفسانين منكباً على معالجة التعقيدات النفسية بالمرة ، بل لعله مهتما بالدرجة الاولى بذلك النوع من الاسلحة الذي قد ينفجر يوماً كغيم على شكل نبات الفطر . والحقيقة أن كل ما اراه يبدو عصبي المزاج قلقاً سريع الانفجار ، جذلاً مسلوب العقل كالسكارى في ليلة رأس السنة ، لا يكاد يختشى من شيء بل لا يتورع عن سرقة زوجات اصدقائه .

ادرت راسي نحو زوجتي ولم تكن تبتسم في نومها . كان فكها الاسفل متدلياً ، وبدت علامات التعب حول عينيها غير المقفلتين تماماً ، لا بد انها مريضة ، فهكذا تبدو عندما تكون مريضة . انها (اصح) الزوجات جسماً في العالم ، ولكنها عندما تمرض ، وهذا امر نادر الوقوع ، فانها تغدو اكثرهن مرضاً .

وهنا دوى هدير سرب جديد من النفاثات مخترقاً جدار الصوت . لقد استغرقنا الامر حوالي نصف مليون سنة لنعتاد النار ، وأقل من خمس عشرة سنة لنعتاد التفكير بهذه القوة التي هي اكثر شراسة من النار . فهل يتاح لنا المجال لنخضع هذه القوة ونستعملها في شؤون حياتنا كما اخضعنا النار ؟ اذا كانت قوانين التفكير هي قوانين الاشياء ، فهل يصح وقوع انقسام في الروح ؟ وهل هذا هو ما يحدث لي ، لنا ؟

اني اذكر قصة قصتها علي العمة ديبورا منذ زمن طويل . في اوائل القرن الماضي كان بعض افراد العائلة ينتمون إلى طائفة «حواريي المسيح» ، وكانت العمة ديبورا ما تزال طفلة آنذاك ، ولكنها تذكر كيف أن نهاية العالم كانت حرية بأن تأتي في وقت معيّن . فقام والداها ووهبا كل ما يملكانه ولم يتركا لنفسيهما سوى اغطية الفراش . وفي التاريخ المعين تدثرا بهذه الاغطية وصعدا إلى التلال ليقابلا نهاية العالم . وكان هناك المئات من

امثالهما وقد راحوا يصلون ويرنّمون . ثم هبط الليل ، فعَلا ترنيمهم وأخذوا يرقصون . وعندما اقترب الوقت سقط شهاب ، حسبما روت عمتي ، فصرخ كل من الموجودين . وكانت عندما قصت علي تلك القصة ما تزال تذكر صراخهم . ووصفته بأنه كان شبيهاً بصراخ الذئاب والضباع ، هذا مع انها لم يسبق لها أن سمعت صراخ ضبع في حياتها . ثم حلّت اللحظة فحبست الجموع انفاسها ـ الرجال والنساء والاطفال المتدثرون بالبياض ـ وطالت اللحظة وازرقت وجوه الاطفال ، ثم مضى الوقت . لقد خدعوا جميعاً وخربت بيوتهم . وعند الفجر انسلّوا عائدين وحاولوا استعادة ما وهبوه من ملابس وأثاث وحيوانات . وبوسعي أن اتخيّل شعورهم في ذلك الوقت .

لقد اعاد صوت النفاثات هذه القصة إلى خاطري ـ كل تلك الجهود الضخمة والوقت الطويل والاموال الهائلة بذلت لابتكار وسائل الموت . فهل نشعر بأننا قد خدعنا فيما لو نحن لم نستعمل تلك النفاثات ابداً ؟ ان بوسعنا اطلاق صواريخ إلى الفضاء ، ولكن ليس بامكاننا شفاء الغضب والقلق .

استيقظت ماري وقالت : «انت تتحدث إلى نفسك يا ايثان . ولا ادري عم تتكلم ولكن ذلك يظهر عليك . فكف عن التفكير يا ايثان» .

كنت موشكاً أن أقترح عليها التوقف عن الهذر الا انها بدت في أشد حالات التعاسة . ولم أكن ادرك دائماً متى يتعين علي ألا امزح ، ولكني سألتها قائلاً : «أهو رأسك؟»

«نعم» .

«ومعدتك ؟»

«نعم» .

«وكل جسمك ؟»

«وكل جسمي» .

«سأحضر لك شيئاً» .

« أحضر لي قبراً » .

« لازمي سريرك » .

« لا يمكنني ذلك ، فعلي تجهيز الولدين للذهاب إلى المدرسة » .

« سأفعل انا ذلك » .

« ولكن عليك أن تذهب إلى عملكَ » .

« لا تهتمي بذلك» .

وبعد لحظة قالت : « لا اظن بأني قادرة على النهوض يا ايثان ، اني أشعر بتوعك شديد » .

« هل أدعو الطبيب ؟ »

« كلا » .

« لا يسعني أن اتركك وحدك . فهل تستطيع ايلين المكوث إلى جانبك ؟ »

« كلا ، فلديها امتحانات » .

« هل اطلب من ماري يونج هنت الحضور ؟ »

« ان تلفونها قد رُفع . وقد طلبت جهازاً جديداً » .

« بوسعي أن امر بها وأخبرها » .

« انها كفيلة بأن تقتل أي انسان يوقظها في هذا الوقت المبكّر » .

« اذن سأدس لها رسالة من تحت الباب » .

« لا أريدك أن تفعل ذلك » .

« ولكن ذلك لا يضر » .

« لا ، لا ، لست أريدك أن تفعل شيئاً . لست أريدك أن تفعل » .

« ولكن لا يسعني أن اتركك وحيدة » .

« انه لأمر غريب . اني اشعر بتحسن . واعتقد أن صراخي فيك هو الذي أفادني . لقد تحسنت حقاً » . ولكي تثبت قولها نهضت ولبست رداءها وبدت أحسن حالاً بالفعل .

«انك رائعة يا عزيزتي» .

ولما شرعت في الحلاقة جرحت ذقني ، واذ نزلت لتناول الفطور كانت تلتصق بذقني قطعة من ورق التواليت مصبوغة بالدم .

وعندما سرت في طريقي إلى العمل لم ار جو مورفي واقفاً امام الرواق يسوك اسنانه كالعادة . واذ لم اكن راغباً في رؤيته فاني اسرعت في سيري لئلا يحاول اللحاق بي . واذ فتحت باب الممر رأيت مظروف المصرف بني اللون الذي دس من تحت الباب . كان المظروف مختوماً ، وكانت مظاريف المصرف متينة . فأخرجت سكيني كي اتمكن من فتحه .

وجدت بداخل المظروف ثلاث ورقات منتزعة من دفتر مدرسي من فئة الخمسة سنتات ، مكتوباً عليها بقلم رصاصي . (وصية)

«اني ...... وأنا بكامل عقلي...... ومقابل... اني... »

«اني اوافق على التسديد والرهن... » وكانت اثنتان منها موقعتين . والكلام مرتب ومضبوط . ثم قرأت في الثالثة : «عزيزي ايثان ، لعل هذا ما تريده» .

شعرت بأن جلدة وجهي اصبحت قاسية مثل صدفة سرطان بحري . فأقفلت باب الممر بهدوء كما لو كنت اقفل خزانة مصرف . ثم طويت الورقتين الاوليين بعناية ووضعتهما في محفظتي . اما الثالثة فقد دعكتها في يدي ثم القيت بها في المرحاض وأغرقتها بالماء . الا أن الورقة التي كانت على شكل كرة حاولت مقاومة ضغط الماء الا انها عادت وخضعت وضاعت فيه .

عندما خرجت من المرحاض وجدت باب الممر مفتوحا قليلا وكنت ظننت بأني أقفلته . وعندما اتجهت نحوه سمعت صوتاً خافياً . فنظرت إلى الاعلى واذا بتلك القطة الملعونة تقف فوق احد رفوف المخزن وتحاول غرز مخالبها في قطعة من فخذ الخنزير المقدد كانت معلقة هناك . ولم اتمكن من طرد القطة الا بعد استعمالي مكنسة ذات يد طويلة ومطاردة شاقة . وعندما

مرّت مسرعة بجانبي ضربتها بالمكنسة ولكني اخطأتها فكسرت المكنسة من جراء الضربة .

ولم تكن ثمة موعظة القيها على المعلبات في ذلك الصباح اذ لم اتمكن من تحضير شيء . ولكني بدلاً من ذلك اخذت خرطوم الماء ونظفت الرصيف والمجرى ايضاً . وبعد ذلك نظفت الحانوت بكامله حتى الزوايا المهجورة والمملوءة بالغبار . وبينما كنت انظف انشدت ما يلي :

«لقد اصبح شتاؤنا الساخط صيفاً مجيدا
بشمس «يورك» هذه المشرقة» .

لقد كنت اعلم بأن هذه ليست بانشودة ولكنني انشدتها على كل حال .

القسم الثاني

١١

ان نيوبايتاون بلدة جميلة يقي ميناءها ذا الماضي المجيد من الرياح الشمالية جزيرة قريبة من الشاطئ . وتقوم ابنية البلدة حول شبكة اقنية تبلغها مياه البحر وقت المد عن طريق الميناء وتتسابق فيها مياه البحر اثناء المد والجزر . انها ليست بمدينة ، ولم تكن مزدحمة . وفيما عدا مساكن صائدي الحيتان القدماء الكبيرة فان بيوتها كانت صغيرة وانيقة ، تتناثر بين اشجار قديمة جميلة ، منها البلوط على انواعه ، والدردار ، والحور ، وبعض السرو . وباستثناء اشجار الدردار المغروسة على جوانب الشوارع الاصلية فان أكثر الاخشاب توافراً هناك هي اخشاب البلوط . وقد كانت اشجار البلوط البكر فيما مضى من الكثرة في المنطقة القريبة بحيث كانت مصانع السفن تتزوّد منها بكل ما تحتاجه من الخشب في بناء السفن .

ان للمجتمعات ، كما للافراد ، فترات من الصحة والمرض ـ وحتى من الشباب والشيخوخة والأمل والقنوط . وقد مضى عهد كانت فيه نيوبايتاون تزوّد العالم الغربي بزيت الحيتان للانارة . فقد انيرت مصابيح الطلاب في اكسفورد وكمبريدج بزيت من بايتاون . ثم انفجرت في بلنسلفانيا آبار البترول ، زيت الصخر ، وحل النفط الرخيص الثمن ، ويسمى بزيت الفحم ،محل زيت الحيتان فاضطر أكثر صائدي الحيتان إلى اعتزال العمل . وبذلك حلت فترة المرض أو القنوط ببلدة بايتاون ـ وقد كان وضعاً لم تتعاف

منه نيوبايتاون . وتنامت مدن أخرى لا تبعد كثيراً وازدهرت على منتوجات وطاقات اخرى . اما نيوبايتاون ، التي كانت مقوّمات حياتها تستمد من السفن ذات القلوع المربعة ومن الحيتان ، فقد وقعت في سبات . وقد مرّ خط المهاجرين الزاحف من نيويورك ببلدة نيوبايتاون مخلّفاً اياها لذكرياتها . وكما هي العادة اخذ سكان نيوبايتاون يقنعون انفسهم بأن البلدة قد باتت في وضع يدعو لإعجابهم . فقد تخلصوا من ضجيج المصطافين ونثارهم ، ومن لمعان اعلانات النيون الباهر ، ومن اموال السائحين وجلبتهم . فلم تنشأ سوى بيوت قليلة حول المياه الداخلية الجميلة . اما موجة الهجرة فما زالت تمر ببلدة نيوبايتاون مروراً عابراً ، الا ان كل واحد كان يدرك بأن هذه الموجة كانت كفيلة بأن تستقر في البلدة عاجلاً ام آجلاً . وقد استعذب اهل البلدة هذه الفكرة ومقتوها في آن واحد . ان المدن المجاورة غنية ، وتفيض بما تكسبه من السائحين ، وتتخمها الارباح ، وتسطع بها القصور الفخمة لمحدثي النعمة . ان بايتاون كانت تنتج فيما مضى الفن وصناعة الفخارة والمخنثين والنساء المنحرفات من نسل لزبوس اللواتي يحكن الانسجة والدسائس المنزلية الصغيرة . وكانت نيوبايتاون تتحدث عن الايام الماضية وعن السمك المفلطح وتتساءل متى يبدأ السمك الطري بالمجيء .

أقام البط أعشاشه بين القصب على اطراف المياه الداخلية ، وكان يعوم بأسطول من صغاره ، وحفرت جرذان المسك جحورها هناك . وكانت تسبح برشاقة في الصباح الباكر . وكانت العقبان المنسورية تطير في الجو ثم تأخذ أهبتها للانقضاض على السمك في الماء ، وطيور النورس تتناول البطلينوس والمحار فتعلو بها إلى الجو ثم تسقطها أرضاً كي تنفتح فتأكل محتوياتها . وحيوانات أخرى كانت تشق الماء بنعومة الفراء . وكانت الارانب تعبث بالحدائق ، كما سار السنجاب الرمادي في شوارع البلدة جماعات كأمواج صغيرة . ورفّفت ذكور الحمام وصاحت هادلة . ووازن مالك الحزين جسده

في الماء الضحل مثل سيف طويل ، وناحت طيور الواق ليلاً كأشباح متوحّدة .

ان الربيع يحل متأخراً في نيوبايتاون وكذلك الصيف . فاذا ما حلّ كان له صوت وشعور ورائحة خاصة ناعمة سحرية . ففي اوائل حزيران (يونيو) يتفجر عالم الازهار وأوراق الشجر والنبات ويكون لكل غروب منظر يختلف عما قبل . وعند المساء تتهامس طيور السمّن بأصواتها الهشة ، ويرتفع بعد الظلام جدار من اصوات طيور الليل . وتمتلئ اشجار البلوط بالاوراق وتلقي بأزهارها الطويلة إلى الاعشاب . وتلتقي الكلاب الوافدة من منازل مختلفة وتسير معاً وتتجوّل في الغابات سعيدة وعلى غير هدى ، ولا تعود احياناً إلى منازل اصحابها الا بعد ايام .

وبدافع غريزي ينشط الانسان في حزيران (يونيو) إلى حشّ الاعشاب ثم يستودع البذار الارض ، ويشتبك في عراك مع الخلد والارنب والنمال والخنافس والطير وغيرهم ممن يتجمعون لانتهاب أرضه . وتنظر المرأة إلى بتلات الورد متنهدة ، ويصبح جلدها شبيهاً بهذه البتلات وعيناها عسيباً يستقطب اللقاح .

ان حزيران (يونيو) لهو شهر مرح عليل دافئ وندي ، يتفجر بالنماء وبتوالد ما هو حسن وما هو مقيت ، ما هو بنّاء وما هو مدمر . فتسير الفتيات بالشوارع متشابكات الايدي وقد ارتدين سراويل تبرز اجسادهن ، وقد جثمت على اكتافهن راديوات صغيرة تهمس بأغاني الحب في آذانهن . ويجلس الصبيان ، وهم يتفجرون حيوية ، على مقاعد في المخازن يحتسون المرطبات ، بواسطة مصاصات القش . ويراقبون الفتيات بنظرات محرجة ويتبادلون بعضهم مع بعض عبارات تهكمية وهم يتحرقون لهفة .

في حزيران يهبط رجال الاعمال على الفورماستر وسواه من المطاعم والمشارب ليتناولوا البيرة ، ثم يتلكؤون ويشربون الويسكي فيتملون ويتندون عرقاً في الاصيل . وفي الاصيل ايضاً تزحف السيارات المغبرة إلى

باب المنزل البعيد المقفرغير المطلي والمسدل الستائر ، في نهاية شارع الطاحون ، حيث تقوم أليس ، بغي البلدة ، بحل المشاكل للرجال الذين يعضّهم حزيران بنابه . وترسو القوارب طول النهار خارج حاجز الرياح وبها رجال ونساء سعداء يتأملون اسماك البحر فيضمنوا غذاءهم .

ان حزيران شهر طلاء وتشذيب ، خطط ومشاريع . ويندر ان يكون هناك رجل لا يحمل إلى بيته في حزيران بلاط الاسمنت وقطع الخشب المربعة لإصلاح ارضيات الغرف ، ومظاريف طبعت على خلفياتها رسوم تخطيطية لتاج محل . وكانت هناك مائة من القوارب الصغيرة استلقت على الشاطئ مقلوبة والطلاء النحاسي يلتمع في اسفلها .

وفي حزيران تتمسك المدارس بالطلاب وتحتفظ بهم حتى حوالي نهاية الشهر ، وعندما يحل وقت الامتحانات تختمر الثورات ، ويعمّ الزكام ، ولا يزول الا في ختام السنة المدرسية .

في حزيران تنبت بذرة الصيف السعيدة : «أين نذهب في يوم الرابع من تموز (يوليو) المجيد ؟... حان الوقت لوضع خطتنا للاصطياف» . ان حزيران هو اب الجهود ، ففيه تسبح فراخ البط بجرأة ، وقد تزج بنفسها بين فكي سلحفاة البحر القاطعين المختفيين تحت سطح الماء ، وينمو الخس ويكبر ، ويطلق نبات البندورة جذراً يتحدّى دود الزرع ، وتناضل العائلات بين الرمال وتلويح الشمس وبين الليالي المزعجة في الجبال مع سمفونيات البعوض مرتفعة الصوت . «سأستريح هذه السنة ولن اجهد نفسي . لن اسمح للاولاد بأن يقلبوا اسبوعي راحتي إلى جهنم عجلات... اني اعمل طول السنة.. هذا الوقت ملكي . إني اتعب طول السنة» . بالتالي تنتصر مشاريع وتخطيطات العطلة على اي شيء ، وكل عام وانتم طيبون .

لقد نامت نيوبايتاون زمناً طويلاً . ودام طويلاً الرجال الذين حكموها سياسياً واخلاقياً واقتصادياً حتى اصبحت وسائلهم معروفة . فالمحافظ والمجلس البلدي والقضاة والشرطة كانوا أبديين . ولقد باع المحافظ

المهمات إلى البلدية ، ورتب القضاة طويلاً امور مخالفات السير حسب معرفتهم حتى اصبحوا لا يذكرون بأن عملهم ذاك غير قانوني ـ على الاقل هذا ما تقوله كتب القانون . ولكونهم رجالاً طبيعيين فإنهم بالطبع لم يعتبروا عملهم ذاك امراً منافياً للاخلاق . ان كل الناس ذوو اخلاق حسنة ، ولكن جيرانهم ليسوا كذلك .

دهم الاصيل الاصفر حر الصيف اللاهت . وقد بدأ بعض الناس الاغراب ممن لا اولاد يضطرونهم للبقاء في امكنتهم حتى حلول العطلة المدرسية ، في المرور بالبلدة . فقد وصلت بعض السيارات تقطر خلفها مقطورات محمّلة بالقوارب الصغيرة واللنشات البخارية . وكان بوسع ايثان وهو مقفل العينين ان يحكم بأنهم مصطافون وذلك من خلال ألوان المآكل التي كانوا يبتاعون ـ لحم مقدد ، جبن مغلف ، بسكويت وعلب سردين .

وأتى جو مورفي لتناول زجاجة المرطب التي اعتاد ان يشربها اصيل كل يوم منذ بدأت حرارة الجو في الارتفاع . ولوّح بالزجاجة مشيراً إلى التلاجة وقال : « يجب ان تضع ينبوعاً للصودا هنا . (سيفون) » .

« هل تريد ان تنمو لي ذراعان أخريان أو ان أنقسم إلى شخصين كقرن الفاصوليا ؟ لعلك نسيت يا جاري العزيز بأني لست مالك هذا الحانوت » .

« يجب ان تملكه » .

« هل يتعين علي ان أحكي لك قصتي المحزنة عن موت الملوك ؟ »

« اني اعرف قصتك . فأنت عندما بدأت عملك هنا لم تكن تعلم الفرق بين الهليون الذي تبيعه وبين دفتر الحسابات . وقد تعبت حتى تعلمت ، ولكنك تعلمت . وعليك الآن ان تنتظر الفرصة » .

« ان ما تعلمته لم يفدني كثيراً » .

« لو كان هذا الحانوت لك لربحت الكثير من المال » .

« ولكنه ليس لي » .

« لو انك فتحت حانوتاً خاصاً بك يجاور هذا المخزن فان كل زبائن هذا الحانوت يتحولون اليك » .

« ما الذي يجعلك تظن هذا ؟ »

« لأن الناس يؤثرون الشراء ممن يعرفون . وهذا ما يدعى بالشهرة وهي امر ذو مفعول » .

« لم يكن له مفعول في السابق ، فكل من في البلدة كان يعرفني . ومع ذلك فقد افلست » .

« كان لذلك ناحيته الفنية ، فأنت لم تكن تعرف كيف تشتري » .

« لعلي ما أزال كذلك » .

« أجل انت ما تزال كذلك ، فأنت حتى الآن لا تعلم بأنك قد تعلمت ، انت اذن في حالة افلاس ذهنية . فانبذ حالتك هذه يا سيد هاولي . انبذها يا ايثان » .

« اشكرك » .

« اني احبك . متى سيذهب مارولو إلى ايطاليا ؟ »

« لم يذكر ذلك . قل لي يا جو ـ كم يبلغ ما لديه من المال ؟ كلا ، لا تذكر ذلك لي . فأنا أعلم انه ليس مفروضاً فيك ان تتحدث عن عملاء المصرف » .

« بوسعي تجاوز النظام مرة من اجل صديق يا ايثان . اني لست مطلعاً على كل اشغاله ، ولكن اذا كان حسابه لدينا يعني شيئاً فهو ثري . ان أصابعه تمتد إلى جميع انواع الاعمال ـ بناية هنا ، وقطعة ارض هناك ، بعض البيوت على جبهة الشاطئ ، ورزمة كبيرة من اوراق رهنيات من الدرجة الاولى » .

« كيف تأتى لك ان تعرف ذلك ؟ »

« عرفت ذلك من صندوق الودائع . فهو مستأجر لأحد صناديقنا الكبيرة . وللصندوق مفتاحان يحتفظ هو بأحدهما واحتفظ انا بالثاني . واعترف بأني قد تلصصت على محتويات صندوقه . ويمكنك ان تخمن بأني

فضولي في صميمي » .

« ولكن أعماله قانونية بمجملها أليس كذلك ؟ أعني ـ أعني انك تتطلع دائماً على اخبار تهريب المخدرات وعمليات الاحتيال وما إلى ذلك ؟ »

« لست اعرف شيئاً من هذا القبيل عنه . وهو لا يذيع شيئاً عن اعماله . انه يسحب أموالاً ويودع أموالاً . ولست أدري في اي المصارف عدا مصرفنا يودع . لاحظ بأني لم أذكر شيئاً عن رصيده ؟ » .

« انا لم أطلب اليك ذلك » .

« هل تسمح لي بشيء من البيرة ؟ »

« شرط ان تشربها خارج المحل . بوسعي ان افرغها في قدح من الورق » .

« لا أريد لك ان تتجاوز القانون » .

فأخذ ايثان صفيحة وثقبها وناولها إلى جو . قال : « لابأس . فقط ضعها جانباً اذا ما دخل أحد الناس » .

« اشكرك . اني قد فكرت بك كثيراً يا ايثان » .

« لماذا ؟ »

« ربما لأني فضولي . اعلم ان الفشل حاله دهنية ، انه مثل فخ في الرمال الرخوة التي تخندق فيها الحشرات آكلة النمل ، والتي تهوي تحت قدميك وتتهافت ، وكلما حاولت الخلاص منها باحدى رجليك عادت رجلك الاخرى فطمست فيها . الا ان قفزة واحدة قوية حقاً تخلصك منها يا ايثان . وعندما تخرج فستجد ان النجاح هو ايضاً حالة ذهنية » .

« وهل النجاح فخ أيضاً ؟ »

« لو انه كان فخاً فهو فخ من نوع أحسن » .

« لنفترض ان قفزة شخص ما تسبب غرق شخص آخر » .

« ليس هناك من يرى الطير وهو يهوي غير الله ، ولكن الله ايضاً لا يمد يداً لإنقاذه » .

«اتمنى لو استطيع معرفة ما تحاول ان تقوله لي» .

«انا بدوري اتمنى لو عرفته ايضاً . ولو عرفته لفعلته بنفسي فإن صرّاف البنك لا يصبح مديراً . ولكن باستطاعة الرجل الذي يملك مبلغاً من الاسهم . اظن بأنني احاول ان اقول : استفد من اي شيء يعترض طريقك فقد لا يسنح لك ثانية» .

«انك فيلسوف يا جو - فيلسوف مالي!»

«لا تتخابث . واذا لم تكن هذه من صفاتك ففكر فيها . ان الرجل الذي يحيا وحيداً يفكر بمثل هذه الامور .واعلم ان تسعين بالمائة من الناس يعيشون في الماضي ، وسبعة بالمائة في الحاضر . وهذا لا يترك سوى ثلاثة بالمائة من الناس الذين يفكرون بالمستقبل . وأحسن ما سمعته بهذا الخصوص قول لساتشل بيدج اذ قال : «لا تنظر خلفك ، فقد يكون هناك من يحاول ان يسبقك» . يجب ان أذهب الآن فإن السيد بيكر ذاهب إلى نيويورك غداً ليغيب بضعة ايام . والعمل كثير» .

«لماذا هو ذاهب إلى نيويورك ؟»

«كيف لي ان اعلم ؟ ولكن بما اني أتسلم البريد واوزعه فقد لاحظت رسائل كثيرة ترده من مدينة الباني» .

«اتعتقد بأنها امور سياسية ؟»

«انا كما قلت احوّل له البريد ولا أقرؤه . هل العمل قليل لديكم بهذه الصورة دائماً ؟»

«انه يكون كذلك غالباً حوالي الساعة الرابعة . ولكن الحركة ستبدأ خلال عشر دقائق» .

«اترى كيف انك تعلمت ؟ اراهن بأنك لم تكن تعرف ذلك قبل ان تفلس . وداعاً ، ولا تنس ان تغتنم الفرصة» .

حلت ما بين الخامسة والسادسة فترة تزداد فيها حركة العمل . وكانت الشمس ما زالت مرتفعة في الفلك لتأخرها بسبب تقدم الوقت . وكان نورها

ما يزال يغمر الشوارع ، وذلك عندما ادخل ايتان اقفاص الفواكه إلى داخل الحانوت واقفله واسدل الستائر . ثم اخرج من جيبه لائحة حضّر بموجبها بعض الحاجيات ووضعها كلها في كيس من الورق ليأخذها معه إلى البيت . واذ خلع مئزره ولبس سترته وقبعته رفع نفسه وجلس على العدّاد ثم نظر إلى مجموعة العلب على الرفوف وقال موجهاً حديثه اليها : «ليس من موعظة اليوم . حسبكم ان تذكروا كلمات ساتشل بيدج . وأعتقد ان علي ان لا انظر إلى الخلف» .

ثم انه أخرج الاوراق المسطرة من محفظته ووضعها ضمن مظروف من الورق المشمع ، وفتح باب ثلاجة الاطعمة واخفى المظروف في ركن منه خلف مكبس الغاز واقفل الباب .

وأخرج من تحت آلة تسجيل النقد دليلاً تلفونياً لمنهاتن . وكان الدليل مكسواً بالغبار ومرتباً حسب الابجدية ، وهو محفوظ هنالك ليسهل الرجوع اليه في حالة احتياجهم إلى طلبات طارئة يطلبونها من مركز التموين . وفتح الدليل ومشى باصبعه صعدا ونزلا حتى اهتدى إلى الاسم الذي يريده وهو « مكتب الهجرة والتجنس » ورقم تلفونه ب أ / ٧٠٣٠٠ خلال ساعات الدوام و أو . ال / ٦٥٨٨٨ بعد ذلك ، وفي السبوت والآحاد وأيام العطل . فكرر الرقم الاخير حتى حفظه ، ثم راح يتحدث إلى المعلبات دون ان ينظر اليها قائلاً : «اذا سار كل شيء على طبيعته فلن يتضرر احد» .

وخرج ايثان من باب الممشى وأقفله . وعبر الشارع إلى الفورماستر حاملاً كيس المؤن . كان المشرب يضج بصوت الشاربين الا ان الردهة التي تقوم فيها غرفة التلفون الصغيرة كانت خالية مهجورة حتى من عامل التلفون . فدخل الغرفة وأقفل بابها الزجاجي خلفه ، ثم وضع كيس المؤن على الارض وأخرج من جيبه قطعة من النقود وضعها داخل الفتحة الخاصة وتكلم بالتلفون طالباً خط نيويورك . وعندما اتصل بالخط طلب الرقم .

وصل ايتان إلى بيته حاملاً المؤن . ما احسن فترة الاصيل في الايام

الطويلة! كان عشب مرجة الدار طويلاً وطرياً فحال دون ملامسة اقدامه التراب ثم انه قبّل زوجته وقال : « قد طال العشب يا ضفدعتي وأصبح منظر المرجة برياً موحشاً ، فهل تعتقدين بأن ألن سيقص العشب ؟ »

« لست ادري ، فالفترة هي موسم الامتحانات وختام السنة المدرسية ، وانت تعرف كيف تكون الاحوال في هذه الظروف » .

« ما هذا الزعيق الجهنمي في الغرفة الاخرى ؟ »

« انه يمرن صوته ؛ فهو سيقدم عرضاً يوم الاحتفال المدرسي الختامي » .

« اذن فلا بد لي من ان اقص الأعشاب بنفسي » .

« اني آسفة يا عزيزي ، ولكنك تعلم كيف هي الحال معهما » .

« اجل » .

« هل انت بحالة عصبية ؟ أكان يوماً مرهقاً ؟ »

« دعيني افكر . كلا ، لا اعتقد ذلك . قد كنت واقفاً على قدمي طول النهار . وان فكرة العمل بآلة قص العشب الآن لا تجعلني اقفز فرحاً » .

« يجب ان تكون لدينا آلة تعمل بالكهرباء . ان لدى آل جونسون آلة يمكن ركوبها كعربة » .

« بل يجب ان يكون لدينا بستاني وصبي يساعده . فقد كان لدى جدي بستاني وصبي مساعد . هل قلت ان هناك آلة يمكن ركوبها ؟ في هذه الحالة يكون بوسع ألن ان يقص العشب ما دام راكباً » .

« لا تقسُ عليه فانه لا يتجاوز الرابعة عشرة . ان الاولاد كلهم سواء في هذه المرحلة » .

« ما هو في رأيك اساس الاعتقاد الخاطئ بأن الأولاد اذكياء ؟ »

« لا بد من انك في حالة عصبية » .

« دعيني ارى . نعم اني كذلك . وهذا الزعيق يكاد يدفعني إلى الجنون » .

«انه يتمرّن» .

«هكذا ، اذن» .

«والآن ، لا (تفش) طبعك به» .

«لا تخافي ، ولكن (فش الخلق) سيساعدني لو وسعني ذلك» ثم ان ايثان دخل غرفة الجلوس حيث كان ألن يزعق بكلمات لا تكاد تبين ، وقد وضع على لسانه قصبة فقال : «اي صوت جهنمي هذا ؟»

فبصق ألن القصبة من فمه وقال : «انها من علبة قناع ميكي ماوس وهي آلة للتكلم الباطني» .

«هل أكلت محتويات العلبة ؟»

«كلا انها لم ترق لي . علي ان أتمرّن يا ابي» .

فجلس ايثان وقال : «اصبر لحظة . قل لي ما هي خططك للحياة ؟»

«ماذا ؟»

«المستقبل . الم يعلموك في المدرسة ؟ ان المستقبل بين يديك» .

وفي هذه اللحظة انسلت ايلين إلى الغرفة وانبطحت على بطنها فوق المتكأ متل قطة ثم اطلقت ضحكة هازئة تقدّ الحديد وقالت :

«انه يبغي الظهور في التلفزيون» .

«هناك صبي لا يتجاوز عمره الثالثة عشرة ومع ذلك ربح مائة وثلاثين الف دولار في برنامج الأسئلة والأجوبة» .

فقالت ايلين :«ثم تبين ان الامر كان مرتّباً» .

«ومع ذلك فانه قبض المائة والثلاثين الف دولار»

فقالت ايلين بصوت خافت :«الا تهمك الناحية المعنوية» .

«ان المبلغ كبير» .

«الا تجد في ذلك غشاً ؟»

«الجميع يفعلون ذلك» .

«وماذا تقول في اولئك الذين يعرضون انفسهم على طبق من الفضة فلا

يجدون من يرغب فيهم . هؤلاء لا استقامة فيهم ولا مال لديهم » .

« هذه هي المخاطر التي يقوم بها الانسان وقد تحطمه كما تتحطم الكعكة » .

«اجل انها تتحطم ، اليس كذلك ؟ وهكذا شأن الاخلاق . انهض! هل اسقطت كلمة (يا سيدي)من مفرداتك ؟ »

اجفل الصبي ونظر إلى والده ليرى ما اذا كان يعني ما قاله ثم وقف متلكئاً مستاء وقال :«لا يا سيدي» .

« كيف تسير امورك في الامتحان ؟ »

« أعتقد بأنها حسنة» .

لقد كنت تكتب مقالة عن حبك لامريكا . فهل اوقفت هذا المشروع نظراً لتصميمك على تدمير أمريكا ؟ »

« ماذا تعني بالتدمير يا سيدي ؟ »

« هل انت حقاً تحبذ الغش ؟ »

« يا لجهنم . ان كل انسان يفعل ذلك يا ابي » .

« وهل هذا يجعل من الامر شيئاً شريفاً ؟ »

«ان قلة من المتقفين المغرورين هم الذين يفعلون ذلك . اني قد انهيت المقالة» .

« حسناً . أريد ان ألقي نظرة عليها » .

«لقد بعثت بها » .

« ولكن لا بد ان لديك نسخة اخرى» .

« كلا يا سيدي» .

«افترض ان المقالة قد فقدت» .

«لم يخطر ذلك لي على بال . ليتني اذهب إلى المخيّم يا ابي مثلما يذهب جميع الاولاد » .

«ان ذلك ليس في طوقنا ، ومع ذلك فهناك من لا يذهبون . القلة فقط هي التي تذهب » .

فنظر إلى يديه ثم لعق شفتيه وقال : « ليت لدينا بعض المال » .

فضاقت عينا ايلين وركزت نظرها . اما ايثان فانه تأمل ابنه هنيهة وقال : « سأحقق لك هذا الامر » .

« ماذا يا سيدي . ؟ »

« بوسعي الحصول على عمل لك في المخزن خلال هذا الصيف » .

« ماذا تعني بالعمل ؟ »

« ماذا اعني ؟ ستحمل المعلبات وترتبها ، وتكنس المخزن . ثم اذا أثبت مهارتك فقد اكلفك بخدمة زبائن الحانوت » .

« أريد ان أذهب إلى المخيم »

« وتريد ايضاً ان تربح مائة الف دولار » .

« قد افوز في مباراة المقالة . فأسافر إلى واشنطن على الأقل . انها نوع من العطلة بعد مشاق السنة الدراسية » .

« اسمع يا ألن! ان هناك قواعد لا تتبدل في السلوك ، في اللطف ، والصدق ، نعم ، وحتى في النشاط . وقد حان الوقت كي أعلمك العمل بموجب هذه القواعد ولو ظاهرياً على الأقل . لا بد من ان تعمل في هذا الصيف » . فنظر اليه الصبي وقال : « لا تقدر ان تضطرني إلى العمل » .

« ماذا تقول ؟ »

« قانون العمل للأحداث . ولا يسعني الحصول على تصريح عمل قبل سن السادسة عشرة . فهل تريد لي ان اتجاوز القانون ؟ »

فظهر الغضب على ايثان مجرداً وشديداً وقال : « أوتظن ان جميع الصبيان والبنات الذين يمدون يد العون لوالديهم هم نصف عبيد ونصف مجرمين ؟ »

فحوّل ألن نظره وقال : « لم اعن ذلك يا سيدي » .

« اني متأكد بأنك لم تعن ذلك . ولن تعنيه مستقبلاً ، انك بهذا تتحدى عشرين جيلاً من آل هاولي وقد كانوا رجالاً شرفاء ولن تستحق ان تكون

واحداً منهم يوماً ما وانت على هذه الاخلاق » .

« اجل يا سيدي ، والآن هل تسمح بأن اذهب إلى غرفتي يا سيدي ؟ »

« يمكنك ذلك » .

فصعد ألن الدرج ببطء ، وعندما اختفى عن النظر استدارت ايلين وجلست ثم أنزلت اطراف تنورتها كسيدة صغيرة ثم قالت :

« كنت اطالع في محاضرات هنري كلاي . لقد كان عظيماً دون ريب » .

« نعم ، لقد كان عظيماً » .

« أتذكر محاضراته ؟ »

« كلا ، لا اعتقد ، فقد مضى على قراءتي لها زمن طويل » .

« انه لعظيم » .

« ولكنني لست ارى فيها مادة لمطالعة طالبة ؟ »

« انه مدهش » .

نهض ايتان عن كرسيه وكان تعب اليوم الطويل يدفعه إلى الجلوس ثانية . فوجد ماري في المطبخ وكانت مغضبة وحمراء العينين . فقالت :

« لقد سمعتك . لست أدري ماذا تظن انك كنت تفعل . انه ليس الا ولدا صغيراً » .

« هذا هو وقت الشروع يا عزيزتي » .

« لا تقل لي يا عزيزتي . اني لا اتحمل طاغية في البيت » .

« طاغية ؟ يا الهي » .

« انه ليس سوى صبي صغير وقد قسوت عليه » .

« أعتقد بأنه يشعر بأنه احسن حالاً الآن » .

« لست ادري ماذا تعني . ولكنك قد سحقته كحشرة » .

« كلا يا عزيزتي ، بل اني دفعته ليلمح العالم لمحة خاطفة . فقد كان يبني لنفسه عالماً مغلوطاً » .

« ومن انت لتعلم ما هو العالم » .

فلم يجبها ايتان بل مرّ بجانبها وخرج من الباب الخلفي . فسألته قائلة :

« إلى اين انت ذاهب ؟ »

« لأقص عشب المرجة » .

« ظننت بأنك متعب » .

« اني كذلك ـ كنت كذلك » . ثم نظر اليها حيث تقف وراء حاجز الباب المشبك وقال : ان الرجل مخلوق وحيد ، وابتسم لها قبل ان يخرج آلة قص العشب .

وسمعت ماري صوت دوي سكاكين الآلة وهي تقطع في الاعشاب .

ثم ان الصوت توقف على مقربة من الباب وقال ايثان بصوت عال : « ماري ، ماري ، يا عزيزتي ، اني احبك » . ثم استأنفت سكاكين الآلة عملها في قص الاعشاب زائدة النمو .

١٢

كانت مارجي يونغ هنت امرأة جذابة ، عليمة ، وماهرة ، ماهرةلدرجة انها كانت تعرف متى يتعيّن عليها ان تخفي مهارتها . لقد فشل زواجها ثلاث مرات بسبب فشل الازواج . كان الزوج الاول ضعيفاً ، والثاني عليلاً فتوفي . ولم يكن من احد يتقدم لضرب المواعيد لها بل كانت هي التي تقوم بهذه المهمة . فكانت تصلح حصونها بالمكالمات التلفونية المتوالية ، بالرسائل ، وبطاقات التهنئة ، وبتدبير مقابلات عرضية . كانت تحمل الحساء من بيتها إلى المرضى ، وتحرص دائماً على ان تتذكر تواريخ الولادة ، وبهذه الوسائل جعلت الناس يشعرون بوجودها .

ولقد حافظت ، أكثر من اية امرأة أخرى في البلدة ، على ضمور بطنها ، وعلى نظافة جسمها وتألقه ، وعلى بياض اسنانها ، وعلى عدم استرخاء خطوط ذقنها . فصرفت جزءاً كبيراً من دخلها على شعرها وأظافرها ، وعلى التدليك والمعاجين وطلاء الوجه . فقالت النساء بأنها أكبر سناً مما تبدو . وعندما وهنت عضلات نهديها ، ولم تعد تتجاوب مع المعاجين والتدليك والرياضة وضعتهما في حمالتين جميلتي الشكل جعلتهما يشتدان إلى الاعلى بأناقة . وأصبحت عملية التجميل تستغرق مزيداً من وقتها . وكان لشعرها كل خصائص المنتوجات التي يعلن عنها التلفزيون ـ من بريق ولمعان وتموّج . وكانت حاذقة بحيث يعجز مرافقها عن ادراك مدى رباطة

جأشها وهي تأخذ في تكرار تطبيق اساليبها اذ يماشيها رفيق أو يتبعها بجاذب مغناطيسي لموعد أو عشاء أو رقص ، أو حفلة ضحك ولهو! وبعد ان تقضي فترة ما في رفقته ، وتنفق بعض المال عليه ، فانها في العادة تضاجعه اذا تمكنت من ذلك بتبصر . ثم تعود إلى اصلاح حصونها وتقويتها . فالفراش المشترك يجب ان يصبح فخاً لاقتناص الطرائد في المستقبل . الا ان الطرائد كانت دائماً تنجو من الفكين المبطنين . واصبحت مواعيدها تكاد تنحصر في الرجال المتزوجين ، أو المترددين ، أو بالرجال بالغي الحذر . وأدركت مارجي أكثر من اي انسان آخر بأن أيامها مدبرة ، ولم تكن اوراق قراءة الحظ بالمسعفة اذ تنشد معونتها .

ان مارجي قد عرفت الكثير من الرجال ، عدداً من مثقلي الضمير أو مجروحي الكبرياء أو اليائسين . ولذا فقد نما فيها ، مع الوقت ، شعور بالاحتقار لفرائسها شبيه بشعور محترفي صيد الفئران وغيرها من الحيوانات والهوام القذرة . وكان من السهل عليها ان تسيّر هؤلاء الرجال وهم في غمرة مخاوفهم وغرورهم . فقد كان يلذ لهم ان يموّه عليهم حتى لم تعد تستشعر لذة بالتغلب عليهم ، بل صار شعورها نحوهم نوعا من الرثاء المقنع . هؤلاء كانوا اصدقاءها وعشراءها . ولقد حذرت من ان يعرف احد انهم اصدقاؤها ، مانحة لهم نفسها دون قيد لأنهم لم يطلبوا اليها ذلك . لقد كتمت امرهم لأنها في صميمها لم تكن تحترم نفسها . كان داني تايلور احدهم ، وألفيو مارولو ، كذلك ضابط البوليس شونويل جاكسن سميث ، كما كان هنالك غيرهم ممن وثقوا بها ووثقت بهم . وكان وجودهم السري في حياتها هو الحقيقة الوحيدة الواقعية التي تخلوا اليها للاستجمام . كان هؤلاء الاصدقاء يتحدثون اليها بحرية ودون ضعف لأنها كانت ، بالنسبة لهم ، مثل بئر يتلقى حديثهم دون ادانة أو خروج عن الصمت . ومثلما كانت لأكثر الناس نقائص مخفية فقد كان لمارجي يونغ هنت فضيلة سرية . وبسبب من هذه الفضيلة كانت مارجي تعلم عن نيوباياتاون ، وحتى عن مقاطعة وسَكس ، أكثر مما

يعلمه اي شخص آخر . وكانت ، مع كل ما تعرفه ، خالية الغرض لانها لم ترد ـ ولم تستطع ـ ان تستغل هذه المعلومات لمصلحتها . الا انها كانت تستفيد من كل ما يقع تحت يدها في المجالات الأخرى .

اما مشروع نصب حبائلها حول ايثان ألن هاولي فقد أتاها بشكل عرضي ، وبسبب من فراغها . وكان ايثان على حق نوعاً ما في تخمينه من ان مأربها خبيث تقصد به امتحان طاقتها . ان الكثيرين من الرجال المكتئبين الذين قصدوها للتسلية والاطمئنان كان يقيّدهم الوهن ، وتوثقهم الصدمات الجنسية التي امتدت آثارها إلى جميع النواحي الأخرى في حياتهم . وقد وجدت ان من السهل عليها ، بالإطراء والتطمين ، اعتاقهم من قيودهم ليعودا لمصاولة زوجاتهم من جديد... انها تحب ماري هاولي حباً خالصاً . وبواسطة ماري اصبحت مارجي تدريجياً تحس بوجود ايثان الذي ينوء تحت مشاكل من نوع آخر ، مشكلة اجتماعية اقتصادية سلبته قوته وحقيقته . واذ لم يكن لها عمل أو زوج أو اطفال فقد تساءلت عما اذا كان بوسعها ان تطلق هذا الرجل الكسيح وتوجهه نحو هدف جديد . كان هذا العمل أُلهية بالنسبة اليها ، لوناً من لغز ، تجربة ، هي نتاج الفراغ والفضول لا نتاج العطف . انه رجل متفوق ، فلو امكنها توجيهه لاثبتت تفوقها الشخصي ، وهذا ما تتوق اليه كثيراً .

لعلها الشخص الوحيد الذي أدرك عمق التبدل في ايتان ، وقد اخافها ذلك التبدل ظناً منها بأنه من صنيعها . فقد بدأت تنمو للفأر لبدة أسد . رأت عضلاته تبدو من تحت ثيابه ، وشعرت بقوة تنمو خلف عينيه . ولا بد ان هذا كان نفس شعور اينشتاين اذ رأى الصورة التي حلم بها بطبيعة المادة تلمع فوق هيروشيما .

ان مارجي تحب ماري هاولي كثيراً ، وهي تشعر بقليل عطف عليها ، ولكنها لم تكنّ لها شفقة قط . فسوء الحظ حقيقة طبيعية تتقبلها النساء برضوخ ، لا سيما اذا كان هدفه غيرهن من النسوة .

وفي بيتها الصغير الناصع ، القائم في حديقة كبيرة مغروسة ، والواقع قرب أولدهاربور ، مالت مارجي في مقعدها نحو مرآة الزينة لتتفحص اسلحتها . وتطلعت بعينيها ، من خلال المعاجين والمساحيق واصباغ تظليل العيون والرموش السوداء المستعارة ، فرأت الغضون الخفية والجلد الجاسي . وشعرت بالسنين تزحف كمن يرتفع نحو صخرة في بحر هادئ . هنالك اسلحة خاصة بسن النضوج وسن الكهولة ، الا انها تحتاج إلى مراس ومهارة لم تكتسبهما بعد . وعليها ان تتقنها قبل ان يضمحل شبابها وتتلاشى قدرتها على الاثارة وتغدو عادية ذميمة موضعاً للسخرية . كان سر نجاحها كامناً في انها لم تسمح لبوادر الانهيار هذه ان تبدو عليها حتى ولو كانت وحيدة . ولكنها ، وعلى سبيل التجربة ، تركت لفمها ان يتهدل على هواه ، ولجفنيها ان ينكسا . ثم سمحت بانخفاض ذقنها المرفوعة عالياً فبدت حالاً خطوط وتجاعيد ، ورأت امامها في المرآة عشرين عاماً زائدة تثقلها ، وارتجفت اذ هبّ الهاجس يهمس لها في برود ثلجي عما يكمن في انتظارها . فالمرأة يجب ان تهرم ضمن صندوق عرضٍ مجهز بالانارة والدعامات والقطيفة السوداء ـ بالاطفال ، بالشيْب والسمنة ، بالضحك والمزاح ، بالمحبة ، بالحماية ، بالنقود ، بالزوج الرزين القنوع ، أو بالحري الزوج الاكثر رزانة وذي الارادة الاقل تطلباً ، وبمبلغ موقوف تعيش من ريعه . اما المرأة التي تهرم في وحدتها فهي نفاية لا نفع فيها ، وهي بشاعة متغضنة ليس لها اتباع يتقيدون بها ويتأثرون لاوجاعها ويدلكون آلامها .

شعرت بقلبها يهوي خوفاً ، كانت محظوظة بزوجها الأول . فقد كان ضعيفاً ، وتمكنت بسرعة من اكتشاف ضعفه . فقد كان يذوب في حبها لدرجة انها عندما طلبت الطلاق طلقها دون شرط ، وأبدى استعداده في دفع النفقة حتى لو هي تزوجت . أما زوجها الثاني فقد اعتقد ان لديها ثروة خاصة ، وكان اعتقاده في محله .فلم يترك لها شيئاً يذكر بعد موته . ولكنها ، بالنفقة التي تقبضها من زوجها الاول ، عاشت جيداً . ولبست

جيداً ، وانفقت كما يروق لها . ولكن ماذا لو توفي زوجها الأول! لقد كان هذا سبب خوفها وانهيار اعصابها . كان هذا هو كابوس الليل والنهار ـ كابوس صك النفقة الشهرية .

لقد رأته في شهر كانون الثاني (يناير) عند تقاطع ماديسون آفنيو والشارع السابع والخمسين فبدا لها هرماً نحيلاً فأثار ذلك قلقها حقاً . فلو انه مات لتوقفت نقود النفقة . وفكرت بأنها قد تكون الشخص الوحيد في العالم الذي يدعو من صميم قلبه لدوام صحته .

لقد تمثلت في مخيلتها منظر عينيه الخامدتين ووجهه الهزيل الصامت فتفجر خوفها . ماذا يحدث لها لو مات...!

كانت مارجي ما تزال تميل في مرآة الزينة ، فكفت عن التفكير ونفضت ارادتها وارتفعت ذقنها فاختفت التجاعيد ، وتألقت عيناها واستكان الجلد إلى جمجمتها ، واستقام كتفاها . ثم نهضت ورقصت برشاقة على السجادة الكثيفة حمراء اللون . كانت قدماها عاريتين ، واظافر رجليها تلتمع بلون وردي . ان عليها ان تقتحم ، وعليها ان تسرع قبل ان يفوت الاوان .

فتحت دولاب ملابسها واخرجت ثوبها الحلو المثير الذي كانت تدخره لعطلة الرابع من تموز (يوليو) ، والحذاء ذا الكعبين الرقيقين رقة القلم ، والجوارب التي تفضح أكثر مما تخفي . لم تعد تشعر بفتور الآن وقد لبست ثيابها بسرعة وكفاءة جزار يشحذ سكينه ، وتفحصت نفسها امام مرآة كبيرة ، كما يتفحص الجزار سكينه بسرعة دون نزق ، ثم غادرت البيت بسرعة ، ثم حلت فترة التمهل العرضي ، تمهل السيدة العليمة ، الذكية ، الانيقة ، العاشقة ، السيدة ذات الساقين الجميلتين والقفازين ناصعي البياض . لم يخفق اي رجل في التطلع اليها لدى مرورها . فصفر سائق شاحنة كان يحمل خشباً ، ورماها طالبان بنظرة والهة وجرضا بريقهما الذي فاض في فميهما نصف المفتوحين ، وقال احدهما للآخر :

« ما رأيك فيها ؟ »

فقال الآخر : « يا سلام عليها ؟ »
« اتشتهيها ؟ »
« طبعاً! »

« ان السيدة لا تتسكع ـ ليس في بايتاون . فإذا ما مرت فيجب ان تكون قاصدة مكاناً معيناً ، ان يكون لها عمل ما ، مهما كان صغيراً وحقيراً . واثناء سيرها في الشارع العام كانت مارجي تنحني للمارة وتكلمهم وتستعرضهم في ذاكرتها بصورة آلية .

السيد هول ، انه يعيش على الاستدانة ، وقد دأب على ذلك منذ مدة ليست قصيرة .

ستوني ، رجل قوي ، ولكن اين هي المرأة التي يمكنها ان تكتفي براتبه كضابط شرطة ؟ وفوق ذلك فقد كان صديقاً لها .

هارولد بيك ، ملاك لديه الكثير من العقار الا انه غريب الاطوار كالبط . وقد يكون هو الشخص الوحيد في العالم الذي لا يعرف ذلك عن نفسه .

ماكدويل ـ « يسرني ان اراك يا سيد ماكدويل ، كيف حال ميلي ؟ » ـ مستحيل ـ انه اسكتلندي ، بخيل ، يلصق بزوجته ـ مريض ، من الصنف الذي لا يموت . انه لغز لا احد يعلم شيئاً عما يملكه من مال .

دونالد راندولف ذو العينين النديتين ـ ليس احسن منه فوق مقعد في مشرب ، فهو السيد المهذب الذي لايفقده الشراب تهذيبه . ولكن لا نفع فيه الا اذا أقمت بيته فوق مقعد في مشرب .

هارولد لوس ـ يقال بأن له صلة قرابة بناشر مجلة (تايم) . ولكن من قال ذلك ؟ أهو الذي قاله ؟ انه رجل صلب اشتهر بحكمة قامت على افتقاره لقوة الحديث .

ادوان تونر ـ كذوب ، خداع ولص . بل انه كان ثملاً لما كانت زوجته تلفظ انفاسها الاخيرة ، شكوك لا يثق بأحد ، حتى انه لم يثق في ان كلبه لن يهجره فأبقاه مشدوداً يعوي .

بول سترايت ـ انه قوة في الحزب الجمهوري . كان اسم زوجته (فراشة) ولم يكن هذا لقباً . فراشة سترايت ، تعمدت باسم فراشة ، وهذا هو الصدق .

وكان يستفيد عندما يكون أحد الجمهوريين حاكماً لنيويورك . انه يملك مستودعات القمامة حيث يتقاضى ربع دولار عن كل حمل يلقى هناك . وقيل بأنه عندما تكاثرت الجرذان هناك كان بول يبيع بطاقات للراغبين في تصيدها ، وقيل انه كان يؤجرهم مشاعل وبنادق ـ كما اختزن طلقات من عيار ٢٢ لاستعمالها في البنادق . وكان يبدو كرئيس للجمهورية حتى ان كثيراً من الناس أطلقوا عليه اسم (آيك) . وكان داني تايلور اذا ما عرض في حديثه لبول ، وكان ثملاً ، وصفه بأنه أنبل من يحمل اسم بول ، فلصق هذا اللقب به واصبح في غيابه يدعى بـ(بول النبيل) .

ثم مارولو ـ انه أسوأ صحة الآن منه في السابق . انه مريض باهت . عيناه كعيني شخص أطلقت عليه رصاصة في معدته . هو ذا يمر بباب حانوته دون ان يدخله . فدلفت مارجي إلى المخزن تهز ردفيها .

كان ايثان يتحدث إلى شخص غريب ، أسود الشعر ، ويبدو شاباً ، يلبس سروالاً من نوع آيفي ليج وقبعة عريضة الحاشية ، وكان اربعينياً صارم المظهر خشناً ومتوجهاً بكل مشاعره الى ما كان يبدو انه موضوع بحثه مع ايتان . وقد مال باتجاه العدّاد كأنه على وشك ان يفحص لوزتي ايثان .

وقالت مارجي : «هلوا انك مشغول ، سأعود فيما بعد» .

هنالك أمور فارغة كثيرة ـ ولكنها شرعية ـ وبإمكان اية امرأة تدخل المصرف ان تفعلها . وقد عبرت مارجي الممر ودخلت إلى الهيكل الرخامي . عندما رآها جو ، صراف البنك ، اقترب من نافذته المربعة المحددة . يا لابتسامته وشخصيته ويا له من رفيق مسل ، ولكن يا لخيبة الامل فيه كزوج . وقد اعتبرته مارجي بحق عازباً أزلياً ، ولعله سيموت محارباً للحفاظ على عزوبيته . لا لن يكون لجو قبر مزدوج .

قالت مارجي : «رجاء يا سيدي ، هل لديك نقود طازجة غير مملحة ؟ »

«عفواً سيدتي ، سأبحث لك . إني أكاد أكون متأكداً بأني قد رأيت بعضاً منها في مكان ما . فكم تريدين ؟ »

فقالت : «حوالي ست أواق يا سيدي» .

ثم انها أخرجت دفتر الصكوك من محفظتها الجلدية البيضاء وكتبت صكاً بعشرين دولاراً .

وضحك جو فقد كان يحب مارجي . وقد سبق له في بعض الاحيان ، وليس دائماً ، ان دعاها إلى عشاء ثم شاركها فراشها . وكان ايضاً يحب رفقتها وميلها للمرح .

«ان هذا يذكرني ، يا سيدة يونغ هنت ، بصديق لي كان مع بانشو فيلا في المكسيك ، أتذكرين ؟ »

«لم اسمع به» .

«انا لا امزح . انها قصة رواها لي صديقي . فقد قال انه عندما كان مع بانشو في الشمال كان يدير المطبعة التي تطبع أوراق النقد من فئة العشرين بيزو . وقد طبع كميات هائلة منها حتى ان رجاله كفّوا عن عدها ، وهم لم يكونوا يتقنون العد على كل حال ، ولكنهم صاروا يزنون تلك الاوراق بكفة الميزان» .

«الا يسعك يا جو ان تكف عن سرد تاريخ حياتك ؟ » .

«يا للجحيم يا سيدة يونغ هنت . لم أكن اتجاوز الخامسة اذ ذاك ، وهي إلى ذلك قصة ، فدعيني اتممها ، لقد دخلت سيدة أنيقة ، هندية وقالت :

«يا زعيمي ، انك قد اعدمت زوجي وجعلتني ارملة فقيرة ذات خمسة اطفال ، فهل هذه هي الطريقة لادارة ثورة شعبية ؟ »

فراح بانشو يراجع دفاتر حساباته كما أفعل أنا الآن» .

«واي اثبات لديك على ذلك ؟ »

«لاشيء ولكنها قصة ـ ثم أن بانشو أمر أحد مساعديه بأن يزن خمسة

كيلوغرامات من أوراق النقد واعطائها لها . فكان من اوراق النقد رزمة كبيرة ربطوها بسلك حديدي ، فحملتها المرأة وخرجت وكأنها تحمل حزمة من الكرنب . وعند ذلك اقترب منهااحد الضباط وحيّا وقال «نحن لم نقتل زوجها يا زعيمي بل وجدناه تملاً فسجناه على مقربة من هنا» . وكان بانشوما زال ينظر الي السيدة وهي تسير حاملة الرزمة ، فقال للملازم :

«اذن اذهب واقتل الرجل فلا يمكننا ان نخيّب رجاء هذه الارملة الفقيرة» .

«ان مواهبك ضائعة في هذا المكان يا جو» .

فقال مازحاً بعد ان قرأ الصك : «اتريدين النقود بأوراق من فئة العشرين أو الخمسين أو المائة دولار ؟»

«أريد أربع أوراق من فئة الخمسة دولارات» .

كان كل منهما يستمتع بالاخر .

واطل السيد بيكر من مكتبه الزجاجي الأغبش .

كان هنالك رهان . فإن بيكر قد رماها بملاحظة غامضة الا انها صحيحة من الوجهة اللغوية . ان السيد بيكر هو السيد مال . ان له زوجة بالطبع ، ولكن مارجي كانت خبيرة بأصحاب الاموال في هذا العالم . ان بوسعهم دائماً ان يجدوا سبباً ادبياً لعمل ما يريدون ان يقوموا به على كل حال . وقد سرّها انها خذلته ، وقد جعله ذلك ضمن فريق غير الحائزين على رضاها .

جمعت مارجي أربع الاوراق النقدية التي تسلمتها من جو وسارت باتجاه الصراف الاشيب ، وفي هذه اللحظة مرّ من امامها الرجل الذي رأته يتحدث إلى إيثان ، فقدم بطاقته ، ثم أُدخل إلى مكتب السيد بيكر وأقفل الباب خلفه . فقالت لجو :

«حسناً ، قبّل قدمي» .

فقال جو : «اجمل قدم في مقاطعة ويسكس . أتبغين الخروج هذه الليلة إلى العشاء والرقص وما إلى ذلك ؟»

«لا استطيع . من هو هذا الرجل ؟»

« لم أره قبلاً قط . تبدو عليه سمات مدققي اعمال المصارف . انني في مناسبات كهذه اشعر بسرور لأمانتي ، واشعر بسرور أكثر اذ أجد ان باستطاعتي القيام بعمليات الجمع والطرح » .

« اتعلم يا جو ؟ انك ستكون يوماً ما سبباً في دفع زوجة مخلصة إلى هجر زوجها » .

« ان هذا حلمي الذي ادعو له يا سيدتي » .

« وداعاً » .

وخرجت من المصرف وعبرت الممر إلى مخزن مارولو ثانية .

« مرحباً يا ايثان » .

« مرحباً يا مارجي » .

« من كان ذلك الغريب الجميل ؟ »

« الا تحملين بلورتك السحرية ؟ »

« أهو مخبر سري ؟ »

« انه أسوأ من ذلك . قولي يا مارجي ، ايخاف الناس جميعهم الشرطة ؟ اني اخشاهم حتى ولو انا لم افعل شيئاً » .

« اكان ذو الشعر هذا شرطياً ؟ »

« ليس تماماً . قال انه موظف بالحكومة الاتحادية » .

« ماذا فعلت يا ايثان ؟ »

« انا ؟ ماذا فعلت ؟ »

« ماذا يريد الرجل ؟ »

« لا ادري الا ما سمعته منه . ولست اعلم ما الذي يقصد اليه من كلامه » .

« وماذا سأل ؟ »

« منذ كم من الوقت عرفت مارولو ، اهناك من يعرفه سواي ، ومتى جاء إلى نيوبايتاون ؟ »

« وبماذا اجبت ؟ »

« قلت بأني لم اكن اعرفه عندما ذهبت إلى الحرب وعندما عدت كان هنا . ولما افلست اشترى الحانوت ووظفنى فيه » .

« ماذا تظن ان في الامر ؟ »

« الله وحده يعلم » .

كانت مارجي تحاول ان ترى من خلال عينيه وقد قالت في نفسها انه يتظاهر بالبساطة . اني لاتساءل عما يريده بالحقيقة ذلك الغريب .

وقال ايثان بصوت هادئ خافت بعث الخوف في نفسها « انك لا تصدقينني . فالناس كما تعلمين يرفضون الحقيقة » .

« الحقيقة الكاملة ؟ انت اذ تحشو دجاجة فانك تدعوها دجاجة ولكن الواقع ان بعض لحمها احمر وبعضه ابيض »

« هذا صحيح . وانا يا مارجي ، بصراحة ، قلق . فانا بحاجة إلى هذه الوظيفة ، واذا حدث شيء لألفيو فسأغدو عاطلاًعن العمل » .

« انسيت بأنك ستصبح غنياً ؟ »

« يصعب عليَّ ان اتذكر ذلك وانا فقير » .

« اني لأتساءل يا ايثان اذا ما كنت تذكر ما مضى . كان ذلك في الربيع حوالي عيد الفصح حين وافيتك في الحانوت فدعوتني بابنة اورشليم » .

« كان ذلك يوم الجمعة العظيمة » .

« ها انت تذكر ذلك . لقد وجدتها ، في انجيل متى . ان ذلك عجيب جداً ـ ومخيف » .

« اجل » .

« فماذا جرى لك ؟ »

« كانت عمة والدي ، ديبورا ، تصلبني مرة كل عام . واستمرت على ذلك معي إلى اليوم » .

« انك تمزح الان . ولكنك لم تكن تمزح حينئذ » .

« كلا ، لم اكن امزح آنذاك كما اني لا امزح الآن » .

فقالت بمرح : « انت تعلم ، ان الثروة التي تنبأت لك بها وانا اقرأ حظك ستوافيك بالتأكيد » .

« اني اعلم ذلك » .

« أولا تعتقد بأنك تدين لي بشيء ؟ »

« طبعاً » .

« متى ستدفع ؟ »

« هل تريدين الدخول إلى الغرفة الخلفية ؟ »

« لا اعتقد ان بوسعك ان تفعل ذلك » .

« لا تعتقدين ؟ »

« لا يا ايثان . وانت ايضاً لا تعتقد ذلك . انت لم تغتنم قط فرصة كهذه في حياتك » .

« قد يمكنني ان اتعلم » .

« ليس بوسعك ان تفسق حتى ولو انت شئت ذلك » .

« بوسعي ان اجرب » .

« لا يدفعك إلى ذلك سوى الحب أو الكراهية ، وكلا الامرين يحتاج الى اجراءات بطيئة وكبيرة » .

« قد تكونين على صواب ، فكيف علمت ذلك ؟ »

« لا أدري » .

فتح باب البراد وأخرج زجاجة كولا مثلجة ففتحها وناولها إلى مارجي وفتح أخرى لنفسه وقال :

« « ماذا تريدين مني ؟ »

« لم أعرف رجلاً مثلك قط . لعلي أريد ان اكتشف كيف يكون شعور الانسان عندما يكره أو يحب بهذا المقدار » .

« انك ساحرة ، فلم لا تستعينين على ذلك باثارة عاصفة ؟ »

«ليس في مقدوري اثارة العواصف ، ولكن بوسعي اثارة زوبعة صغيرة في أكثر الرجال لو انا حركت حاجبي . قل لي ، كيف يمكنني ان اضرم فيك النار ؟»

«قد تكونين فعلت ذلك» .

وتفحصها بدقة دون ان يحاول اخفاء تفحصه وقال :

«انت اشبه ببيت صغير من الآجر ، ليّنة وناعمة ومتينة وجيدة» .

«كيف تعلم ذلك وانت لم تمسني قط ؟»

«لو فعلت ذلك لكان خليقاً بك ان تهربي مني هروبك من الجحيم» .

«يا للّه» .

«دعك من ذلك .هناك خطأ ما . اني مغرور بما يكفي لأعرف مقدار جاذبيتي . ماذا تريدين ؟ انك امرأة جميلة ولكنك ذكية . فماذا تريدين ؟»

«تنبأت لك بالحظ وسيأتيك» .

«وتريدين نصيبك منه ؟»

«أجل» .

«لقد صدّقتك الآن» . ثم رفع عينيه وقال : «يا ماري ، يا مالكة قلبي ، تطلعي إلى زوجك ، إلى حبيبك ، إلى صديقك الحميم . اِحميني من الشر الذي في داخلي ، ومن الاذى الذي يهب علي من الخارج ، أتوسل اليك ان تساعديني يا ماري الحبيبة ، فان للرجل حاجة ملحة مزعجة ، وكثيراً ما يقع عليه ضغط الاجيال لينتقل من امرأة إلى اخرى ، فصلي من أجلي» .

«انت مراءٍ يا ايثان» .

«اعرف ذلك ولكن الا يمكنني ان أكون مرائياً متخصصاً ؟»

«اني اخافك الآن . ولم اكن اخشاك قبلا» .

«ليس بوسعي ان ادرك السبب» .

فنظرت اليه نظرة من يستطلع الغيب ، فلاحظ تلك النظرة . وقالت :

«مارولو» .

«ما به ؟»

«انني اسألك» .

«عن اذنك لحظة واحدة» . قال هذا متطلعاً للسيد بيكر الذي كان قد دخل الحانوت ثم تابع حديثه مع مارجي قائلاً : «ست بيضات وقالب من الزبدة ، حسناً هل تريدين بناً ؟»

«اجل ، علبة من البن احتياطاً . ماذا تعرف عن هذا النوع من اللحم المفروم المعلّب ؟»

«لم أجرّبه ، ولكن يقال انه جيد جداً . عن اذنك لحظة . قل لي يا سيد بيكر ، ألم تشتر السيدة بيكر من هذا النوع من اللحم المفروم المعلّب ؟»

«لست ادري يا ايثان ، فاني ألتهم ما يقدم الي من الطعام . انك يا سيدة يونغ هنت تزدادين جمالاً يوماً عن يوم» .

«أشكر لطفك يا سيدي» .

«هذا صحيح . وانت حسنة الهندام دائماً» .

«كنت افكر بالشيء عينه بالنسبة لك . انك لست جميلاً ولكن يبدو ان خياطك مدهش» .

«اعتقد ذلك . ولكنه يتقاضى الكثير» .

«هل تذكر الحكمة التي تقول بأن الأخلاق تصنع الرجال ؟ ان هذا قد تغيّر . فالخياطون الآن يصنعون الرجال على الشكل الذي يريدون» .

«ان ما يزعج في البذلة المصنوعة جيداً انها تعمر طويلاً . فإن عمر بذلتي هذه عشر سنوات» .

«لست اصدق ذلك يا سيد بيكر . كيف حال السيدة بيكر ؟»

«انها جيدة بدرجة تسمح لها بالتذمر . لم لا تزورينها يا سيدة يونغ هنت ؟ انها تشعر بوحدة فليس بين هذا الجيل كثيرون ممن يستطيعون ان يديروا حديثاً يدل على سعة الاطلاع . ان هذا القول لو يكهام ، وهو شعار كلية منشستر» .

فالتفتت إلى ايثان وقالت له :«دلني على صيرفي امريكي آخر يعرف ما يعرفه السيد بيكر» .

فاحمر وجه السيد بيكر وقال :«ان زوجتي تجمع كتباً كثيرة قيّمة ، فهي شديدة الولع بالمطالعة . ارجوك ان تزوريها» .

«يسعدني ذلك . ارجو ان تضع مشترواتي في كيس يا سيد هاولي . وسأمر لآخذها لدى عودتي إلى المنزل» .

«حسناً يا سيدتي» .

واذ خرجت قال السيد بيكر :«انها شابة مدهشة» .

«هي صديقة لزوجتي» .

«قل يا ايثان ، هل مرّ بك ذلك الرجل الحكومي ؟»

«اجل» .

«ماذا يريد ؟»

«لست ادري . لقد القى بعض الاسئلة حول السيد مارولو ولم اتمكن من الاجابة» .

وطرح السيد بيكر من خياله صورة مارجي بالسهولة نفسها التي تطرح بها شقائق البحر عظم سرطان بحري بعد ان تمتص لحمه وقال :

«هل رأيت داني تايلور يا ايثان ؟»

«كلا ، لم أره . ؟»

«اتعلم اين هو ؟»

«كلا ، لست اعلم» .

«يجب ان اتصل به . الا تقدر ان تخمن اين يكون ؟»

«اني لم اره ــ منذ شهر ايار (مايو) . فقد كان يحاول الذهاب للاستشفاء ثانية» .

«اتعلم إلى اين ؟»

«لم يقل . انما ذكر بانه سيحاول تانية» .

« هل ذهب إلى مصّحة عامة ؟ »

« لا اظن ذلك . فقد اقترض بعض النقود مني » .

« ماذا ؟ »

« قد اقرضته بعض المال » .

« كم اقرضته ؟ »

« ومن اين لك حق السؤال ؟ »

« آسف يا ايثان . انتما صديقان قديمان . آسف لسؤالي . هل كان لديه مال غير الذي اقترضه منك ؟ »

« أظن ذلك » .

« ألا تعرف كم كان لديه ؟ »

« لا يا سيدي . انما شعرت بانه يملك أكثر من المبلغ الذي اقترضه مني » .

« اذا عرفت اين يمكن ان يوجد فارجو ان تخبرني » .

« ساخبرك لو عرفت يا سيد بيكر . بوسعك ان تكتب لائحة بأسماء المصّحات ثم تستعلم بالتلفون » .

« هل كان ما أخذه منك نقداً ؟ »

« اجل »

« في هذه الحالة لا فائدة من الاستعلام . اذ لابد انه قد غيّر اسمه » .

« لم يغيّر اسمه ؟ »

« ان ابناء العائلات الطيبة يفعلون ذلك دائماً يا ايثان . هل كان المبلغ الذي أقرضته اياه من مال ماري ؟ »

« أجل » .

« ألم تعارض في ذلك ؟ »

« انها تجهل الأمر » .

« هذا حرص محمود » .

«قد تعلمت ذلك منك يا سيدي» .

«حسناً لا تنس ذلك» .

«اني اتعلم تدريجياً . واكثر ما تعلمته هو كثرةالاشياء التي اجهلها» .

«هذا حسن . كيف حال ماري ؟»

«بخير وعافية . اتمنى لو استطيع السفر معها في اجازة قصيرة . اننا لم نخرج من هذه البلدة منذ سنين» .

«سيأتي الوقت المناسب لذلك يا ايثان . أظن بأنني سأذهب إلى ماين في عطلة الرابع من تموز (يوليو) . فأنا لم اعد استطيع تحمل الضوضاء» .

«لا شك بأنكم محظوظون ايها الصيارفة . ألم تكن في ألباني مؤخراً ؟»

«من قال لك ذلك ؟»

«لا أذكر ـ سمعت ذلك في مكان ما . قد تكون السيدة بيكر قالت ذلك لماري» .

«لا يمكن ان يكون ذلك فهي تجهل الامر . حاول ان تذكر اين سمعت ذلك» .

«قد يكون ذلك مجرد تخيل مني» .

«ان هذا يقلقني يا ايثان . حاول ان تتذكر اين سمعته» .

«لا استطيع يا سيدي . ولكن ماذا يهم في الامر اذا لم يكن الخبر صحيحاً ؟»

«سأطلعك على سبب انزعاجي على ان يبقى سراً . اني منزعج لأني بالفعل ذهبت إلى ألباني . فقد دعاني الحاكم إلى هناك ، ان المسألة خطرة . واني لأعجب كيف شاع الخبر» .

«هل رآك احد هناك ؟»

«ليس على ما اعلم . فقد سافرت بالطائرة ذهاباً واياباً . ان هذا امر خطير ، سأطلعك عليه ، فإذا ما شاع عرفت المصدر» .

«لا اريد ان اسمع هذا الشيء» .

« ليس لك من مجال للاختيار الآن طالما انك قد عرفت بمسألة ذهابي إلى ألباني . ان حكومة الولاية تحقق في اعمال حكومة المقاطعة والبلدية » .

« ما السبب ؟ »

« اظن بأن الرائحة قد وصلت إلى ألباني » .

« ألذلك علاقة بالسياسة ؟ »

« في رأيي ان كل ما يفعله حاكم الولاية يمكن ان يكون سياسياً » .

« قل لي يا سيد بيكر ، لماذا لا يمكن للنبأ ان يشيع ؟ » .

« سأخبرك ، حدث في شمالي الولاية ان شاع النبأ . وعندما وصل الفاحصون كانت القيود قد اختفت » .

« ليتك لم تخبرني . فليست لي عادة الثرثرة ، وأتمنى لو انني لم أعرف » .

« انا أتمنى ان تجري الانتخابات يوم السابع من تموز . فهل تثور العاصفة قبل ذلك ؟ »

« لا أدري . وذلك يعود إلى حكومة الولاية » .

« هل تعتقد ان لمارولو ضلعاً بهذه الامور ؟ لا استطيع ان افقد عملي » .

« لا اظن ذلك . كان الرجل موظفاً اتحادياً . ألم تسأله عن الاوراق التي تثبت هويته ؟ »

« لم يخطر ذلك ببالي . فقد لوّح لي بأوراقه ولكني لم أنظر فيها » .

« كان يجب عليك أن تفعل ذلك . يجب أن تفعل ذلك دائماً » .

« في هذه الاحوال لا اظن بأنك ستتغيّب عن البلدة » .

« آه ، ان ذلك لا يهم . فلن يقع شيء خلال عطلة نهاية الاسبوع ويوم الرابع من تموز (يوليو) . ان اليابانيين هاجموا بيرل هابور في نهاية الاسبوع حين علموا بأن الجميع سيتغيّبون » .

« ليس بامكاني الذهاب مع ماري إلى مكان ما » .

« قد يكون ذلك بامكانك فيما بعد . أريد لك ان تعمل ذهنك وتحاول معرفة مقر داني تايلور » .

«لماذا ؟ هل أمره على هذه الدرجة من الأهمية ؟ »

«انه كذلك ، ولكن ليس بامكاني في الوقت الحاضر ان اشرح لك السبب» .

«اذن ، فأنا على وجه التأكيد اتمنى ان اجده» .

«لو امكنك ان تجده فقد لا تحتاج إلى عملك هذا بعد » .

«اذا كان الامر كذلك فسأبذل كل جهدي يا سيدي » .

«هذه هي الروح التي اريد ان المسها فيك يا ايثان . وانا متأكد بأنك ستبذل جهدك لتجده . فاذا عرفت مكانه فاتصل بي في اي وقت بالنهار أو الليل» .

١٣

يدهشني قول الناس بأن ليس لديهم الوقت ليفكروا . فمن جهتي أبدي بأنني قادر على ان أفكر تفكيراً مضاعفاً . وأجد ان قيامي بوزن الخضار أو صرف الوقت يومياً مع الزبائن ، أو مغازلة ماري أو معاركتها ، ومنافحة الأولاد ، أو اي شيء من هذه الامور أو سواها لا يمنع من استمرار قطاع ثان من ذهني في حالة تفكير وتساؤل وحدس . وهذا على وجه التأكيد امر يصح انطباقه على الجميع وقد يعني عدم وجود الوقت للتفكير انتفاء الرغبة فيه اصلاً .

لعله لم يكن لي من مجال لاختيار هذه الدنيا الغريبة غير المخططة التي دخلتها . فبرزت القضايا التي تتطلب الالتفات . وكانت عالماً جديداً علي لدرجة أُشكلت علي فيها امور قد حلها قدماء السكان وحفظوها منذ كانوا اطفالاً .

ظننت ان بوسعي وضع عملية ما موضع العمل والسيطرة عليها في كل حركة ـ بل وايقافها عندما اريد . ونما لدي الآن اقتناع مفزع بأن عملية كهذه قد تصبح شيئاً في حد ذاتها ، قد تصبح شخصاً مثلاً ، له غاياته ووسائله الخاصة وهومستقل تمام الاستقلال عن مبدعه . وقد وافاني خاطر ثان مزعج . هل انا الذي بدأت تلك العملية حقاً ، أو اني فقط لم اقاومها ؟ قد اكون المحرِك ، ولكن ألست أنا ايضاً المحرَّك ؟ فقد بدت الطريق الطويلة

اولاً غير ذات مفارق أو دروب تتفرع منها ، فليس هنالك من مجال للاختيار .

كان الاختيار هو موضع تقويمي الأول . فما هي الاخلاق ؟ وهل كان امراً نبيلاً ان أُقيّم ضَعفَ والدي ، الذي كان ذا عقل سمح وتقدير خاطئ بأن الناس الآخرين كانوا كرماء مثله ؟ لا ، كان الامر مجرد امر جيد ، فلنحفر له حفرة ولندع له ان يقع فيها من تلقاء ذاته دون ان يدفعه احد فهل يكون امراً لا خلقياً لو أنا حاولت تعريته بعد سقوطه ؟ ان الامر على ما يبدو ليس كذلك .

كانت هناك الآن عملية تطويق متعمدة تقترب من نيوبايتاون وقد شرع بها رجال محترمون . فلو نجحت العملية لما وصفوا بأنهم ملتوون أو فاسدون ، بل سيقال فيهم بأنهم حاذقون . ولو تدخل في العملية عامل غير منظور فهل يكون ذلك امراً غير خلقي أو غير شريف ؟ باعتقادي ان ذلك يتوقف على نجاح العملية أو فشلها . ان النجاح ، في نظر أكثر الناس ، ليس امراً سيئاً . وأذكر كيف ان هتلر عندما كان يسير من نصر إلى نصر دون ان يكون هناك من يصده تصدى اناس شرفاء كثيرون لإظهار فضائله ، وكذلك موسوليني الذي اشترك في الحرب في الوقت المعين . وقد تعاونت حكومة فيشي مع المحور لمصلحة فرنسا ، ومهما يكن من امر ستالين فقد كان قوياً . فالقوة والنجاح امور تعلو على الاخلاق وترتفع عن النقد . اذن فالقضية هي ليست قضية «ماذا تفعل» ولكن كيف تفعل ما تفعله ، وبأي الاسماء تدعوه . فهل هنالك من رادع داخلي في الناس ، يردعهم أو يعاقبهم ؟ لا يبدو ان هنالك شيئاً من هذا . أما العقاب الوحيد فهو للفاشل . ولا تكون هنالك جريمة بالفعل ما لم يقبض على مجرم . كان من المحتم ان ينتج عن العملية المرسومة لبلدة نيوبايتاون ان يتضور بعض الناس جوعاً ، وان يدمّر بعضهم ، الا ان هذا لم يقف في وجه العملية بأي حال من الاحوال .

لم يسعني ، في ضميري ، ان اسمّي هذا صراعاً . ففي اللحظة التي تمثلت فيها النموذج وتقبلته اصبح الدرب واضحاً والاخطار ظاهرة . ان أكثر

ما أذهلني هو ان العملية بدت وكأنها ترسم نفسها بنفسها ، حلقة تولّد حلقة وتأخذ الحلقات بعضها برقاب بعض ، ورحت أراقب العملية وهي تنمو دون ان ادفعها الا بأخف اللمسات .

ان ما فعلته وما رسمته للعمل قد قمت به وأنا على تمام العلم بأنه غريب علي ، ولكنه ضروري ضرورة الركاب لاعتلاء حصان مرتفع . وبعد الامتطاء لا تظل من حاجة للركاب . قد لا استطيع ايقاف هذه العملية ولكني لن اكون مضطراً للشروع في عملية أخرى ابداً . ولست بحاجة كما اني لا احب ان اكون مواطناً في تلك الدنيا الموحشة الخطرة . لم تكن لي اية صلة بالمأساة وشيكة الوقوع في السابع من تموز . لم تكن العملية تخصني ، ولكن كان بوسعي توقعها والافادة منها .

ان احدى أقدم اساطيرنا واكثرها افتقاراً إلى البرهان هي ان افكار الانسان تظهر على وجهه ، وان العينين هما نافذة الروح . ان الأمر ليس كذلك . اذ لا تظهر على الوجه الا علائم المرض ، الهزيمة واليأس ، وهذان نوعان مختلفان من المرض . وهناك ندرة من الناس تستطيع أن تشعر شعوراً خفياً ، ان تحس بأن هناك تبدلاً ، وان تسمع الاشارة الخفية . واني اعتقد بأن ماري شعرت بأن في الجو تبدلاً ما ، الا انها لم تدرك معناه ، وأظن بأن مارجي يونغ هنت قد علمت بالامر ، الا انها ساحرة ، وهذا شيء مزعج . وقد بدت لي ذكية بقدر ما هي ساحرة ، وهذا شيء أكثر ازعاجاً .

كنت متأكداً من ان السيد بيكر سيمضي في اجازة قد تبدأ في اصيل يوم الجمعة السابق ليوم الاثنين الموافق للرابع من تموز . ومن ان العاصفة حرية بأن تثور يوم الجمعة أو يوم السبت ليكون هنالك ما يكفي من الوقت كي يظهر اثرها قبل الانتخابات ، وكان من المنطقي ان يرغب السيد بيكر في ان يكون غائباً يوم تهب العاصفة .

ان هذا لا يهمني بالطبع ، ولم يكن تفكيري في ذلك سوى ممارسة لتوقع ما هو آت ، ولكنه جعل من الضروري بالنسبة لي ان اقوم ببعض التحركات

يوم الخميس ، وقبل ان يسافر السيد بيكر مساء ذلك اليوم . أما مخططي ليوم السبت فقد كان عملياً لدرجة تمكنني من مباشرته واتمامه وانا نائم . ولو كان لدي ادنى تخوف من ذلك فإن تخوفي ذاك يبدو أشبه بتخوف مسرحي طفيف .

حضر مارولو إلى الحانوت حالما فتحته في صباح الاثنين ، السابع والعشرين من حزيران (يونيو) . فتجول بالمكان ناظراً باستغراب إلى الرفوف وآلة تسجيل النقد والبراد ثم عاد يتطلع في ارجاء الحانوت . وانك لتخاله وانت تستقرئ التعبير الذي بدا على وجهه بأنه يرى تلك الأشياء لأول مرة في حياته .

قلت له : «هل ستسافر في الرابع من تموز ؟»

«لم تسأل ؟»

«لا لسبب ، ولكن كل من لديه الامكانات يسافر عادة» .

«آه ، و إلى أين أذهب ؟»

«أين يذهب سائر الناس ؟ إلى كاتسكيلز ، إلى مونتوك لصيد السمك . هناك الكثير من سمك التونا» .

ولعل مجرد التفكير بصيد السمك ومصارعة سمكة قد تزن خمسة عشر كيلوغراماً قد أثار آلام التهاب المفاصل في ذراعيه فثناهما مجفلاً .

وكنت على وشك ان اسأله متى يفكر بالسفر إلى ايطاليا ، ولكن السؤال بدا ثقيلاً فامتنعت . وبدلاً من ذلك سرت باتجاهه وامسكت بمرفقه الأيمن بلطف وقلت له : «اظن بأنك أحمق يا ألفيو . لم لا تذهب إلى أحسن اختصاصيي نيويورك ؟ لا بد ان هنالك علاجاً ما يوقف الالم» .

«لا أصدق ذلك» .

«انك لن تخسر شيئاً . فلم لا تذهب وتحاول ؟»

«وماذا يهمك من ذلك ؟»

«لا شيء . ولكنني عملت هنا طويلاً لحساب أحمق مأفون . ولو ان

كلباً كان يتألم مثلما تتألم لشعرت بألمه . ففي كل مرة تأتي إلى هذا المكان وتقوم بتحريك ذراعيك اشعر انا بألم ذراعيك في ظهري فينحني ولا يستقيم الا بعد ذهابك بنصف ساعة» .

«هل تحبني ؟ »

«أعوذ بالله ، أحبك ؟ انني لا اني عن معاركتك لتزيد من مرتبي» .

فنظر الي بعينين حمراوين كعيني كلب ، وكأن قزحية عينه بنية اللون وبؤبؤها وكل ما فيها تؤلف قطعة واحدة . وبدا كأنه يريد ان يقول شيئاً الا انه بدّل رأيه وقال : «انك فتى طيب» .

«لا يغرنّك ذلك كثيراً» .

وعاد يقول : «بل انت فتى طيب» . ثم خرج من الحانوت مسرعاً وكأنه خجل من تلك المظاهرة العاطفية .

كنت ازن كيلوغراماً من اللوبياء للسيدة دافيدسون عندما عاد مارولو مسرعاً فوقف بباب الحانوت وصاح بي قائلاً :

«خذ سيارتي البونتياك» .

«ماذا ؟ »

«اذهب بها إلى مكان ما يومي السبت والاحد» .

«ليست لدي الامكانات لذلك» .

«اصطحب الاولاد . لقد طلبت إلى الكراج ان يعد سيارة البونتياك لك وأن يملأ خزانها بالبنزين» .

«رويدك» .

«اذهب إلى الجحيم . قلت لك اصطحب الاولاد» . ثم رمى بشيء سقط كقنبلة بين اللوبياء . وراقبته السيدة دافيدسون يخرج مسرعاً فيختفي في الشارع . والتقطت ما ألقى به فاذا القى ثلاث اوراق نقدية خضراء من فئة العشرين دولاراً مطوية طية مربعة .

قالت السيدة دافيدسون : «ماذا جرى له ؟ »

«انه ايطالي سريع الانفعال» .

«هذا واضح من الطريقة التي ألقى بها النقود» .

ولم أره طيلة ذلك الأسبوع ، وهكذا كانت الامور تسير على ما يرام . لم يسبق له ان ترك البلدة دون احاطتي علماً . وكان الامر بالنسبة لي كمن يراقب استعراضاً عابراً ، مجرد مشاهد يرى الاحداث تمر ويعلم ما هي الوحدة التالية التي ستمر ، ومع ذلك فهو يواظب على المراقبة .

لم أتوقع ان يتخلى لي عن سيارته البونتياك ، اذ لم يسبق له ان اعار سيارته لأحد قط . وقد بدا ذلك عجيباً . فكأن قوة أو تصميماً خارجياً سيطر على مجرى الحوادث بشكل جعلها تزدحم كقطيع يسعى إلى المسلخ . اني أعلم بأن العكس قد يكون صحيحاً . فإن تلك القوة أو ذلك التصميم ينحرف احياناً عن طريقه فيتسبب عنه دمار ما مهما اوتي التصميم من عناية ودقة . وهذا ، على ما اعتقد ، هو سبب ايماننا بحسن الطوالع أو سوئها .

استيقظت يوم الخميس في الثلاثين من حزيران كالعادة والفجر ما يزال متسربلاً بغباشه اللؤلؤي القاتم . وكانت الكراسي وقطع الاثاث تبدو لي نقاطاً سوداء ، أما الصور فإشارات اقل وضوحاً . وبدت ستائر النافذة البيضاء وكأنها تزفر وتشهق في عملية تنفس ، اذ يندر ان يأتي فجر لا تصحبه موجة خفيفة من الهواء ينسم فوق الارض .

وحين صحوت من سباتي ، استمتعت بعالمين ، سماء الاحلام ذات الطبقات المتعددة ، والأثاث الدنيوي الذي يراه العقل اذ يستيقظ . وتمطّيت متلذذاً بشعور من (التنميل) فالجلد ينكمش خلال الليل ، وعلى الانسان ان يعيده إلى حجمه العادي بنفخ العضلات وفي ذلك ما فيه من الدغدغة الناعمة .

وكان اول ما فعلته هو اني استعرضت الاحلام التي ما زلت اذكرها وكأني أستعرض عناوين صحيفة لأرى ما اذا كانت على شيء من الاهمية . ثم اتبعت عادة كنت قد تعلمتها من احسن ضابط عملت معه . انه الرئيس الاول

شارلي ادواردز ، وكان في منتصف عمره . وربما كانت سنه فوق ان تسمح له بأن يكون في الجبهة ، إلا انه كان محارباً قديراً . كانت له عائلة كبيرة ، زوجة جميلة وأربعة اولاد من اعمار متفاوتة . وكان حرياً بقلبه ان يذوب حباً واشتياقاً لهم لو انه سمح بذلك . وقد حدثني عن اسلوبه . لم يكن عمله المضني يسمح له بتوزيع عاطفته بين الحرب والحب ، ولذلك راح يتلمس طريقة خاصة : كان عندما يستيقظ في الصباح ، هذا اذا لم يوقظه انذار ، يفتح ذهنه وقلبه لعائلته فيستعرض كلاً منهم بالدور ، ويتساءل عن احوالهم وكيف يبدون ، يلاطفهم ويؤكد محبته لهم . فيبدو كمن يخرج من الدولاب اشياء ثمينة يحملها واحداً واحداً فيتأمله ويقبله ويعيده إلى الدولاب ، ثم ينتهي بأن يودعه ويقفل عليه باب الدولاب . وكان ذلك يستغرق من وقته نصف ساعة في الاحوال العادية . ثم ينهمك في اعماله فلا يضطر للتفكير بهم ثانية طيلة اليوم . فكان بوسعه ان يركز كل مجهوده على العمل الذي كان عليه ان يقوم به ، وهو قتل الاعداء ، دون ان يسمح لأي شعور أو عاطفة ان يفسد عليه عمله . واستأذنته في استخدام اسلوبه فأذن لي . وعندما قتل رحت استعرض حياته فتأكد لي انه كان انساناً طيباً ناجحاً . استوفى مسراته ، ومارس عواطفه ، وقام بعمله خير قيام ، فكم من الناس من هم مثله ؟ .

لم اكن اتبع طريقة الرئيس شارلي ، الا انني في يوم الخميس ذاك ، وكنت عالماً ان لاشيء يجب ان يبدد انتباهي ، استيقظت حينما شق الفجر بابه فاستعرضت عائلتي كما كان الرئيس شارلي يفعل . استعرضتهم بحسب السن ، فانحنيت اولاً للعمة ديبورا التي سميت باسم قائدة ورد ذكرها في أحد كتب التاريخ . ولعل عمتي قد تجاوبت مع اسمها اذ كانت تنظم صفوف الافكار . وان لذتي في التعلم دون ان ارجو كسباً ما قد اخذتها عن عمتي ، التي كانت مع عبوسها الشديد ممتلئة بفضول المعرفة كما انها لم تكن تحترم احدا ليس له متل فضولها ، فقدمت لها حضوعي . ثم شربت نخباً

خيالياً لجدي القبطان الشيخ ، وأحنيت رأسي لوالدي . بل اني قمت بواجبي نحو ذلك الفراغ الماضي الذي اعلم ان والدتي كانت تحتله . فإني لم اعرفها قط اذ انها توفيت وانا طفل ولم تترك سوى ذلك الفراغ سحيق البعد .

ولقد أزعجني أمر واحد فقط وهو ان جدي القبطان الشيخ ، ووالدي ، والعمة ديبورا لم يتبدوا لي بوضوح . كانت خطوطهم الخارجية مبهمة ومذبذبة بدلاً من ان تظهر كخطوط صورة واضحة المعالم . ولعل بعض الذكريات تمّحي مع الزمن مثلما تمّحي معالم بعض قطع النقد . فلم أتمكن من الاحتفاظ بصورهم طويلاً في مخيلتي .

والآن كان يجب ان يكون الدور لماري الا انني أجلت دورها . فتناولت ألن فلم أتمكن من تذكر وجهه الفتي ، الوجه المرح الحيوي الذي جعلني في حينه اتأكد من خاصية الاكتمال الانساني . وبدا لي وجهه كما هو الآن ـ عابساً ، مغروراً ، ممتعضاً ، بعيداً ، غامضاً وسط متاكل البلوغ ، تلك المرحلة المخيفة المكدرة التي يحس الفتى ازاءها بشهوة إلى ان يعض كل من حوله بما في ذلك نفسه ، ككلب مربوط . وهو حتى في هذه الصورة الذهنية لم يستطع ان يتخلص من تعاسة تبرمه . فوضعته جانباً وقلت له : « اني ادرك ، اني أذكر صعوبة هذه الفترة وليس بوسعي مساعدتك ، وليس بوسع احد ان يساعدك . ولكني اؤكد لك ان هذا سيزول ، الا انك لن تصدقني . فاذهب بسلام ـ اذهب مصحوباً بحبي بالرغم من ان احدنا لا يستطيع تحمل الآخر في مثل طورك هذا » .

ووافتني ايلين بموجة من السرور . ستغدو جميلة ، وستكون اجمل من والدتها كما سيكون لها عندما يتبلور وجهها الصغير بشكله النهائي قوة السيطرة الغريبة التي كانت للعمة ديبورا . وان مزاجها ، وقسوتها ، وسرعة انفعالها لهي من العناصر التي تكوّن مخلوقاً جميلاً محبوباً . اني متأكد من ذلك فقد رأيتها في نومها تضم التعويذة إلى صدرها الصغير وتبدو امرأة كاملة . وبقدر ما كانت التعويذة تعني الشيء الكثير بالنسبة لي فهي كذلك

بالنسبة لايلين . وقد تكون ايلين هي الشخص الذي يرث ويورث ما هو خالد فيّ . واذ حييتها أحطتها بذراعي فقامت اخلاصاً منها لخصائص بنات جنسها بدغدغة اذني ضاحكة . ثم أدرت رأسي نحو ماري التي كانت نائمة عن يميني والابتسامة على وجهها . فهذا مكانها الذي يمكنها من ان تضع رأسها على ذراعي اليمنى فتبقى ذراعي اليسرى طليقة لملاطفتها .

كنت منذ بضعة أيام قد جرحت اصبعي في الحانوت بسكين الموز التي لها شكل المنجل فيبس الجلد على طرف اصبعي في موضع الجرح . ومررت باصبعي الثانية على جلدها الناعم ابتداء من الاذن وانحداراً إلى الكتف بلطف حتى لا تفزع ، وبقليل ضغط كي لا تُدغدغ . فتنهّدت عميقاً ، كما هي عادتها دائماً ، وكمّت انفاسها ثم اطلقتها بلذة واسترخاء . ان بعض الناس يستاؤون من الاستيقاظ الفجائي ولكن ماري ليست من هذا النوع . انها تستقبل اليوم وتتوقع ان يكون طيباً . ولمعرفتي بطبيعتها فقد حاولت ان أقدم هدية صغيرة تقديراً لتفاؤلها . وكنت في العادة احتفظ بالهدايا للمناسبات ، ولكنني ارتأيت ان اقدم لها هدية نبشتها من ذهني .

فتحت عينيها وما زالتا مغبّشتين من أثر النوم وقالت : « هل طلع النهار ؟ » ثم نظرت باتجاه النافذة لتتبين مدى طلوعه . هنالك صورة معلّقة على الحائط فوق دولاب الادراج تمثل اشجاراً وبحيرة وبقرة صغيرة تقف على حافة البحيرة وعندما تمكنت من تمييز ذيل البقرة علمت بان النهار قد اقبل .

« لدي اخبار سارة يا سنجابي الطائر » .

« انت مخبول » .

« هل من عادتي ان اكذب عليك ؟ »

« أحياناً » .

« هل انت مستيقظة تماماً لألقي بأخباري السارة ؟ »

« كلا » .

«اذن سأحتفظ بها» .

فاستدارت على كتفها اليسرى فتثنى لحمها الناعم ، وقالت : «انت كثير المزاح . لعلك تنوي ان تقول بأنك تريد تبليط ارضية المرجة» .

«كلا» .

«او لعلك تنوي انشاء مزرعة للصراصير» .

«كلا ايضاً . لا بد انك تذكرين المشاريع القديمة المهجورة» .

«أهذا مزاح ؟»

«انه شيء عجيب سحري لدرجة تقتضي منك ان تقوي ايمانك» .

كانت عيناها الآن صافيتين ومستيقظتين ، ورأيت شفتيها ترتجفان قليلاً استعداداً لضحكة وقالت : «هات ما عندك» .

«اتعرفين رجلا من اصل ايطالي يدعى مارولو ؟»

«ها قد عدت للمزاح» .

«سيبدو لك الأمر وكأنه مزاح . ان هذا المارولو قد رحل من هنا مؤقتاً» .

«إلى اين ؟»

«لم يذكر» .

«متى سيعود ؟»

«كفي عن التشويش . انه لم يذكر ذلك ايضاً . ان ما قاله لي ، وما أمرني به عندما عارضت ، هو ان نأخذ سيارته ونذهب بها في رحلة سعيدة خلال العطلة» .

«انت تسخر مني» .

«لست أسخر» .

«ولماذا اراد ذلك ؟»

«ذلك ما لا اعلمه . ولكن بوسعي ان اقسم لك على صحة كلامي ابتداء من قسم الكشاف وصعوداً إلى القسم البابوي ، ان سيارة البونتياك الجميلة

وخزانها المملوء بالبنزين ، ستكون بانتظار أوامر سموك » .

« ولكن إلى اين نذهب ؟ »

« هذا متروك لتقديرك وتقدير ولديك يا حشرتي الجميلة . وستكون السيارة تحت تصرفنا ابتداء من اليوم » .

« ويوم الاثنين يوم عطلة ، وهذا يعني يومين كاملين » .

« تماماً » .

« هل بوسعنا ان ننفق ؟ قد يعني ذلك المكوث في فندق أو شيء من ذلك القبيل » .

« سنذهب سواء أكان بوسعنا ام لا . ان لدي كيس نقود سرياً » .

« مزاح! اني اعرف ما فيه الكفاية عن كيس نقودك . لست اصدق بأن مارولو يعير سيارته لأحد » .

« ولا انا ، ولكن هذا ما حصل فعلاً » .

« لا تنس الحلويات التي حملها لنا يوم عيد الفصح » .

« قد يكون ذلك من مظاهر خَرَفه » .

« ما هو قصده يا ترى ؟ »

« ان هذا التساؤل لا يليق بزوجتي . لعله يريد منا ان نحبه » .

« لدي الف واجب ينتظرني » .

« ادرك ذلك » .

ولاحظت ان فكرها يعمل كالمحراث في حقول الاحتمالات . وادركت ان انتباهها قد تحوّل عني وانني قد لا استطيع استعادته ، وكان هذا ما اريده .

وعلى مائدة الفطور ، وقبل ان اتناول الكوب التاني من القهوة كانت ماري قد بحثت واسقطت من الاحتمال نصف مراكز التسلية في شرق اميركا . يا للعزيزة المسكينة ، انها لم تتمتع بشيء طيلة هذه السنوات الاخيرة . فقلت لها : « ايتها اليانعة ، ادري أنه من الصعب ان اجمع انتباهك .

الا ان هنالك مشروع استثمار ، واني لفي حاجة إلى بعض نقودك . فالمال الذي أخذته سابقاً يعمل على ما يرام » .

«هل يدري السيد بيكر بذلك الاستثمار الذي تتحدث عنه ؟ »

«انها فكرته » .

«اذن خذ ما تريد . اكتب الصك ووقعه بنفسك» .

«الا تريدين ان تعلمي مقدار المبلغ ؟ »

« لا اظن ذلك» .

«او لستِ راغبة في معرفة نوع الاستثمار ؟ الارقام والتخطيطات ورأس المال والربح المنتظر وما إلى ذلك ؟ »

«لن افهم شيئاً من ذلك» .

«بل ستفهمين » .

« لا أريد أن أفهم شيئاً » .

« لا عجب في انهم لقبوك بثعلبة وول ستريت . ذلك الذهن العملي البارد القاطع ، انه مخيف» .

فقالت : «اننا ذاهبون في رحلة ، اننا ذاهبون في رحلة ليومين » .

كيف يمكن لانسان ألا يحب ماري والا يعبدها ؟ وهكذا رحت انشد قائلاً : « من هي ماري ، ما هي ماري » . ثم جمعت زجاجات الحليب الفارغة وانطلقت إلى عملي .

شعرت بحاجة للحاق بجو ، الا اني تأخرت لحظة ، أو لعله هو قد خرج قبل موعده المعتاد بلحظة . وعندما بلغت هاي ستريت رأيته عن بعد يدخل المقهى فتبعته إلى الداخل وجلست بجانبه وقلت له : «انك قد علمتني هذه العادة يا جو » .

فقال : « مرحباً يا مستر هاولي . ان القهوة جيدة » .

ثم حييت صديقتي منذ ايام الدراسة : « عمي صباحاً يا آن » .

فقالت : «هل ستصبح زبوناً يا ايثان ؟ »

«هكذا يبدو لي . اعطيني كوباً بلا حليب» .

«هاك ، قهوة سوداء» .

«سوداء كعين اليأس» .

«ماذا ؟»

«سوداء» .

«اذا رأيت به بيضاً يا ايثان فأعده الي لأعطيك غيره» .

«كيف تسير الامور يا مورفي ؟»

«على النمط نفسه ، ولكن بتشكل اسوأ» .

«هل نتبادل الوظائف ؟»

«أقبل بذلك لا سيما اذا جاء الاقتراح قبل حلول عطلة نهاية الاسبوع الطويلة» .

«لست الوحيد الذي يتضاعف عمله . فالناس يختزنون الطعام ايضاً» .

«هذا صحيح . ولكني لم افكر بذلك» .

«انهم يحضرون لرحلاتهم ، مخللاً ومقانق وحلويات» .

«عطلة ليومين ، وطقس جيد ، ومما يضاعف من مسؤولياتي ان (إله المصرف) قد شعر بحاجته إلى الراحة والاستجمام في الجبال» .

«أتعني السيد بيكر ؟»

«هو ، وليس سواه» .

«أريد ان اراه ، اني لفي حاجة اليه» .

«اذن اسرع والحق به اذا أمكنك ذلك فانه ينطنط كقطعة نقد في دف» .

«بوسعي ان احمل لك الشطائر إلى (الجبهة) يا جو» .

«لابأس في ان اطلب هذا اليك» .

«على حسابي هذه المرة» .

«كما تشاء» .

فعبرنا الشارع معاً ودخلنا إلى الممشى وقلت له :

« انك لا تبدو على ما يرام يا جو » .

« اجل ايثان . فأموال الناس تتعبني . ان لدي موعداً شهياً في نهاية هذا الاسبوع ، وقد اكون وقتئذ منهك القوى واخاف ان لا يكون مزاجي بمستوى المناسبة » .

ثم فتح باب المصرف الخلفي وحشا قفله بالورق وحياني مودّعاً ، وأغلق الباب ودخل . فصحت قائلاً : « اتريد شطائر اليوم يا جو ؟ » فقال : « كلا شكراً . قد أحتاج لشطيرة يوم الجمعة ، أما يوم السبت فسأحتاج واحدة بالتأكيد » . وعند ذلك وصلت إلى أنفي رائحة زيت تلميع أرض الداخل المظلم . وقلت :

« ألا تقفل المصرف ظهراً ؟ »

« قلت لك ، ان المصرف يقفل ابوابه ، اما جو فلا » .

« ادعني اذا ما احتجت شيئاً » .

« شكراً ، شكراً يا سيد هاولي » .

لم يكن لدي ما اقوله ذلك الصباح لجنودي المتراصين على الرفوف سوى : « صباح الخير ايها السادة ، استريحوا في اماكنكم » ، وقبل التاسعة بدقائق كنت قد تسلّحت بمئزري ومكنستي وخرجت لأكنس الرصيف امام الحانوت .

كان السيد بيكر منتظماً في مواعيده وبوسعك سماع تكتكته كالساعة ، وانا واثق ان ثمة زنبلكاً دقيقاً يخبئه في صدره ، وها هو يصل شارع ايلم في الدقيقة السادسة والخمسين أو السابعة والخمسين بعد الثامنة . وفي الدقيقة الثامنة والخمسين عبر الشارع ، وفي الدقيقة التاسعة والخمسين بلغ الباب الزجاجي حيث اعترضته حاملاً مكنستي كأنها بندقية وقلت : « لدي ما احدثك به يا سيد بيكر » .

« صباح الخير يا ايثان . هل تنتظر لحظة ؟ اتبعني إلى المصرف » .

فتبعته ، وكانت الاجراءات تتم وكأنها طقس ديني ـ تماماً كما قال جو . فهم في الواقع قد وقفوا بانتباه عندما بلغت الساعة التاسعة . وصدر صوت طقة ثم رنين من باب الخزانة الحديدية الكبير . تم ان جو ادار الارقام السحرية وبعد ذلك أدار الدولاب الصغير الذي يرفع المزاليج . وانفتح قدس الاقداس بجلال ، وأخذ السيد بيكر التحية للاموال المكدسة داخل الخزانة . فوقفت انا خارج حاجز القضبان الحديدية كمن يستعد لتناول القربان المقدس .

تم التفت السيد بيكر الي : « والان ماذا تريد يا ايثان ؟ » فقلت بصوت خافت : « اريد ان احدثك حديثاً خاصاً ، وليس بوسعي ان اترك الحانوت » .

« ألا يمكن تأجيل هذا الحديث ؟ »

« كلا يا سيدي » .

« يجب ان يكون لديك من يساعدك في الحانوت » .

« أعرف ذلك » .

« اذا وجدت وقتاً فسأحضر اليك . هل سمعت شيئاً عن تايلور ؟ »

« كلا ، ولكنني بدأت أتتبع آثاره » .

« سأحاول الحضور » .

« أشكرك يا سيدي » . وكنت واثقاً من انه سيحضر . وقد حضر بالفعل قبل مضي ساعة ووقف ينتظر حتى انصرف الزبائن الموجودون في المحل .

« ان الكتمان قانون لدى الكاهن والطبيب . فهل الامر كذلك بالنسبة لمديري المصارف ؟ »

فابتسم وقال : « هل سمعت قط صيرفياً يتحدث عن مصالح زبائنه يا ايثان ؟ »

« كلا » .

« حاول ذلك مرة لترى ما اذا كنت ستخرج مني بشيء . وفوق ذلك فأنا صديقك يا ايتان » .

«اعلم ذلك . ولكني اشعر بخوف وعدم استقرار ، اذ ان الحظ لم يواتني منذ أمد طويل» .

«الحظ» .

«سأكشف أوراقي يا سيد بيكر . ان مارولو قد وقع في مشكل» .

فاقترب مني وقال : «ما هو نوع المشكل ؟»

«لست أعرف تماماً يا سيدي . قد يكون ذلك دخوله البلاد بصورة غير شرعية» .

«وكيف علمت ؟»

«لقد قال هو ذلك لي ولكن في غير صراحة . انت تعرف طريقته في الكلام» وكدت أرى ذهنه يجول هنا وهناك ، يلتقط قطعاً ويوائمها ثم قال : «تابع حديثك . ان هذا يعني اخراجه من البلاد» .

- «هذا ما اخشاه . لقد كان طيباً في معاملته اياي يا سيد بيكر . ولن أفعل شيئاً يسبب له الأذى» .

«يجب ان تنظر إلى مصلحتك يا ايثان . فماذا اقترح عليك ؟»

«لم يكن مجرد اقتراح . استنتجت ذلك من كلام موظف اتحادي . ولكني فكّرت انه لو كانت لدي خمسة آلاف دولار نقداً فسأتمكن من شراء الحانوت» .

«هذا يعني بأنه سيحاول الهرب ـ ولكنك لا تعلم شيئاً عن ذلك» .

«لست اعرف شيئاً بالحقيقة» .

«اذن فليس هنالك تهمة تواطؤ . الم يقل لك شيئاً محدداً ؟»

«رويدك يا سيدي . ان ذلك المبلغ هو كل ما نملك» .

«ولكنك قد تستطيع شراءه بأقل من ذلك ؟»

«ربما» .

ومرت عينه السريعة على محتويات الحانوت في محاولة لتخمين قيمتها ثم قال :

«اذا كنت على صواب في افتراضك فإنك في مركز قوي للمساومة» .

«لست كثير المهارة في ذلك» .

«اني لا احبذ المعاملات غير العلنية . قد استطيع محادثته في ذلك» .

«انه خارج البلدة» .

«متى يعود ؟»

«لا أعلم يا سيدي . واذكر ان احتمال قدومه ليس الا مجرد ظن ، فاذا ما توافرت لدي النقود فقد يبيعني الحانوت . انه يحبني كما تعلم» .

«أعلم بأنه يحبك» .

«اني أمقت ان افكر بأني نهّاز للفرص» .

«ان بوسعه بيع المحل لشخص آخر في اي وقت ، ويستطيع الحصول على عشرة آلاف ثمناً له بسهولة ، ومن اي انسان» .

«اذن فقد اكون كثير التفاؤل» .

«لا تفكر كالصغار . يجب ان تفكر بالمال اولاً» .

«ثانياً ، ان المال مال ماري» .

«فليكن . ولكن ماذا تظن انك فاعل ؟»

«قد يمكنك تحضير المستندات مع عدم ذكر التاريخ والمبلغ . ولقد فكرت في ان أسحب المال يوم الجمعة» .

«لماذا (الجمعة) بالتحديد ؟»

«ان هذا أيضاً ضرب من التخمين . ولكنه تطرّق إلى ذكر العطلة وكيف ان الجميع يتغيبون خلالها . وقد تهيأ لي بأنه قد يحضر خلال العطلة . أليس له حساب لديكم ؟»

«كلا ، يا للّه! لقد سحب كل أمواله اخيراً لشراء سندات كما قال . لم يخطر على بالي شيء آنذاك لأنه اعتاد دائماً ان يسحب أمواله ثم يعود فيودع أكثر مما سحب» . قال هذا وحدّق في وجه فتاة متبرجة تدعى الآنسة راينكولد كانت تقف قريباً من البراد ولكنه لم يتجاوب مع دعوتها الضاحكة

ثم تابع حديثه قائلاً : « أتعلم بأنك قد تقع في إشكال كبير بسبب الحانوت ؟ »

« ماذا تعني ؟ »

« انه ، أولاً ، قد يبيع الحانوت إلى اشخاص مختلفين . وثانياً ، قد يكون الحانوت مرهوناً . وليس هناك من مجال للكشف على وثيقة الملكية » .

« قد استطيع ان أجد شيئاً في مكتب كاتب المقاطعة . وبالرغم من علمي بكثرة اشغالك يا سيد بيكر ، الا انني احاول الاستفادة من صداقتك لعائلتنا . وفوق ذلك فأنت الصديق الوحيد الذي يفهم مثل هذه الامور » .

« سأكلّم توم واطسون بشأن وثيقة الملكية . يا لسوء الحظ يا ايثان ، ان وقتي ضيق اذ عليّ ان اسافر مساء الغد . واذا ثبت بأن مارولو مخادع فستتعرض انت للتحقيق الدقيق » .

« اذن قد يكون من الانسب ان أصرف النظر عن المسألة . ولكن ، يا للّه ، فقد تعبت من كوني موظفاً في حانوت » .

« لم اطلب اليك بأن تصرف النظر ، وكل ما قلته هو انك ستتعرّض للمغامرة » .

« ستكون ماري سعيدة لو انا امتلكت الحانوت . ولكني أعتقد بأنك على حق . اذ لا يجب ان أقامر بنقودها . وأظن بأن ما يجب علي عمله هو ان أتصل بدائرة التحري الاتحادية » .

« ان هذا سيفقدك أية فرصة متوافرة لك الآن » .

« كيف ؟ »

« لو أبعد مارولو فسيكون باستطاعته بيع ممتلكاته بواسطة وكيل ، وهذا سيطلب في الحانوت ثمناً ليس باستطاعتك دفعه . على كل حال انك غير متأكد من انه سيهرب . فكيف يسعك أن تبلّغ عن أمر لست واثقاً منه ؟ انت حتى تجهل ما اذا كان قد ألقي القبض عليه » .

«انك على صواب» .

«والحقيقة أنك لا تعلم عنه شيئاً حقيقياً . وكل ما قلته لي هو مجرد شكوك مبهمة . أليس كذلك ؟»

«نعم» .

«اذن يحسن بك ان تنسى حتى هذه الشكوك» .

«ألن يبدو الأمر مشبوهاً لو اني دفعت نقوداً دون قيود ؟»

«باستطاعتك ان تكتب على الصك ـ شيئاً مثل هذا (للاستثمار في حانوت البقالة مع ألفيو مارولو) . وسيكون هذا القيد اثباتاً لنيتك» .

«واذا لم ينجح أي من هذه الخطط ؟»

«تعيد النقود إلى المصرف» .

«هل تعتقد بأن الامر يستحق المغامرة ؟»

«ان كل شيء ينطوي على مغامرة يا ايثان . ومجرد حمل مبلغ نقدي كهذا يعتبر بحد ذاته مغامرة» .

«سأنتبه وأحرص على المال» .

«اتمنى لو لم أكن مضطراً للتغيب عن البلدة» .

ان ما ذكرته عن اوقات العمل في الحانوت قد ثبت بالفعل . اذ لم يدخل الحانوت أي زبون منذ دخول السيد بيكر الا الآن ، اذ وفد ستة زبائن . ثلاث نساء ورجل شيخ وولدان . فاقترب مني السيد بيكر وقال بصوت خافت : «سأحضر المال بأوراق من فئة المائة دولار . فاذا ألقوا القبض عليه فسيكون باستطاعتك استعادة نقودك» . ثم انه احنى رأسه للنساء ، وقال للشيخ «عم صباحاً يا جورج» . ومسّد بأصابعه شعر الولدين . ان السيد بيكر رجل جد حاذق حقا .

١٤

ان اليوم الاول من تموز يقسم السنة ، كالفرق في شعر الرأس ، فقد سبق ورأيته أشبه بخط فاصل يحدد التخوم فبالأمس كانت نفسي تختلف عن النفس التي ستكون لي في الغد . لقد قمت بتحركاتي التي لا يمكن إبطالها . فإن الوقت والأحداث سارا معاً وبدا أن كلاً منهما يشاركني . بل اني لم احاول قط ان اخفي عن نفسي ما أنا فاعله . ولم يجبرني أحد على اتخاذ الطريق التي سرت فيها . وبدلّت موقتاً عادات في ايثار الراحة والكرامة والطمأنينة . وكان من السهل موافقتي على اني فعلت ذلك اكراماً لعائلتي لأني عرفت بأني سأجد كرامتي في راحتهم وطمأنينتهم . الا ان هدفي كان محدداً ، وكنت عازماً على ان اعود لسابق عهدي حالما تنجز المهمة ، وقد أدركت ان ذلك في طوقي . فالحرب لم تجعل مني قاتلاً مع اني مارست فيها قتل الرجال ، وارسال الدوريات في مهمات خطيرة رغم علمي بأن في ذلك تضحية ببعض افرادها ، ولم ابرر ما فعلته أو أتجاوز عنه . وكان أهم شيء هو معرفة الهدف المحدد كما هو ، ثم ايقاف العملية حال بلوغ الهدف . ولكن ذلك لا يكون الا اذا عرفت ما أنا فاعله ولم أخدع نفسي - الطمأنينة والكرامة ، ثم ايقاف العملية . تعلمت من الحرب بأن القتلى هم ضحايا عملية ما ، وليسوا ضحايا الغضب أو الكراهية أو القسوة . وأظن بأن هنالك لحظة حب تفرض نفسها في نهاية اللحظة الحاسمة ، يتبادلها الغالب والمغلوب ، القاتل والمقتول .

الا ان الأوراق التي كتبها داني ، وعيني مارولو الشاكرتين ، كانت تؤلمني كالحزن . ولم أقلق ذلك القلق الذي اعرف ان الناس يستشعرونه ليلة المعركة ، بل كان النوم يوافيني بسرعة ، نوم ثقيل تام ، ويفارقني قبل الفجر بنفس السهولة التي أتى بها ويتركني منتعشاً . وعندما كنت استيقظ لم اكن أبقى في الفراش مستلقياً في الظلام كما هي عادتي . بل كنت انزلق من سريري بهدوء وأذهب إلى الحمام حيث أرتدي ملابسي ثم اهبط السلم إلى الطابق السفلي سائراً بجانب الحائط . ولم ادهش عندما ذهبت إلى الدولاب ففتحته وتعرّفت على التمثال الوردي بواسطة اللمس . فوضعته في جيبي ثم أغلقت باب الدولاب وأقفلته . لم أكن قد حملته خارج البيت طول حياتي ولم اكن أعلم بأني سأفعل ذلك في هذا الصباح . وقادتني الذاكرة في طريقي المظلم خلال المطبخ وأوصلتني إلى الباب الخلفي المؤدي إلى فناء الدار المغبش . وكانت اشجار الدردار المتعانقة مثقلة بالاوراق ، وكأنها كهف أسود . ولو كانت لدي اذ ذاك سيارة مارولو البونتياك لسرت بها خارج نيوبايتاون إلى عالم ذاكرتي الاولى . وكانت اصبع يدي تتحسس التعاريج الكثيرة التي على التعويذة التي أصبحت وهي في جيبي في مثل حرارة اللحم ـ التعويذة!

كانت العمة ديبورا صارمة جداً في تربيتي ، وقد كانت دقيقة في كلامها . فلم تتحدث هراء ، ولم تتح لي المجال للتراخي . أي قوة تلك التي كانت لتلك المرأة! لو أنها ارادت الخلود فلتعلم انها قد خلدت في فكري . وإذ رأتني مرة اتحسس بيدي ذلك اللغز قالت : «ان هذا التمثال الغريب قد يصبح تعويذة لك يا ايثان» .

« وما هي التعويذة ؟ »

« لو قلت لك ما تعنيه فستحفظها حفظاً مضطرباً . لذلك قم وتعلّم معناها من القاموس» .

كانت العمة ديبورا تثير فضولي أولاً فأضطر لإشباعه بجهودي الخاصة .

لكني عندئذ قلت لها : « وماذا يهم لو أنا حفظتها ام لم احفظها ؟ » ولكنها كانت متأكدة من انني سأتسلل سراً واستخرج المعنى من القاموس ، ولذلك فإنها تهجأت الكلمة لي . كانت لها عناية عظيمة بالكلام ، وكانت تمقت سوء استعماله كما تمقت الاهمال في استعمال أو حمل قطعة فنية جميلة . واني الآن ، وبعد دورات زمنية عديدة ، ما زلت أرى صفحة القاموس حيث توجد الكلمة وما زلت اذكر كيف عدت فأخطأت تهجئتها . ولما وجدتها فهمت معناها ورأيت الصورة العربية للكلمة (طلسم) ، وكانت مجرد خط متعرّج ينتهي عن يمينه بما يشبه البصيلة . اما المعنى اليوناني فقد تمكنت من قراءته وهو انه « حجر أو جسم منقوش عليه رسوم أو احرف أو ارقام ، تنسب اليها قوى سحرية ناتجة عن تأثير الكواكب والنجوم ، ويلبس عادة كتعويذة يرد الشر عن لابسه أو يجلب له الحظ » . وكان عليّ عندئذ ان استخرج معاني الكلمات« كواكب » و « نجوم » و« حجاب » و« سحري » . وكان الامر كذلك دائماً ، فإن الكلمة الواحدة تخلق كلمات أخرى مثل حبل من المفرقعات .

وسألتها فيما بعد : « هل تؤمنين بالتعاويذ ؟ » قالت : « وما هي العلاقة بينها وبين ايماني بها ؟ » فوضعت التمثال بين يديها وقلت : « وماذا يعني هذا التمثال ؟ » فأجابت :

« انه تعويذتك وليس تعويذتي . وهو يعني لك ما تريده ان يعني . فضعه في الدولاب وسينتظرك » .

والآن ، اذ كنت أسير في ظلام أشجار الدردار بدت لي العمة وكأنها تحيا كما كانت دائماً ، وهذا هو الخلود الحقيقي . كانت النقوش تغطي ذلك الجسم ، من فوق ومن تحت وعلى جميع الجوانب ، كان الجسم اشبه بافعى لا ذنب لها ولا رأس ، لا أول ولا آخر . وها انذا أحمل ذلك الجسم معي لأول مرة ـ فهل أحمله ليرد عني شراً ما ؟ وانا لست من المؤمنين كذلك بقراءة الطوالع . وكان الخلود يبدو لي دوماً كوعد سقيم لليائسين .

ان حدود الضوء المنبثقة من الشرق هي شهر تموز لأن شهر حزيران (يونيو) كان قد رحل مع الليل . فاذا كان حزيران من ذهب فإن تموز من نحاس أو هو رصاص حين يكون حزيران من فضة . ان اوراق الشجر ثقيلة وكبيرة ومزدحمة في تموز . وتغريد الطيور ليس سوى ترجيعات فارغة لا عاطفة فيها ، فالعشوش قد خلت ، والفراخ الصغيرة السمينة تحاول الطيران بغير اتقان . كلا ، ان تموز ليس شهر وعد أو وفاء . فالثمار تنمو ولكنها ليست حلوة الطعم ، ولا لون لها ، والحبوب حزم خضراء رخوة ذات سنابل صغيرة صفراء ، واليقطين ما يزال يحمل تيجاناً معقودة من النوّار اليابس .

سرت إلى شارع بورلك ، بورلك الغني المكتظ .وكشف نور الفجر النحاسي المتجمع عن شجيرات الورد المثقلة بأزهار في منتصف عمرها وكانت أشبه بالنساء عندما لا تعود مشدّاتهن قادرة على اخفاء سمنة بطونهن المتزايدة مهما احتفظت بجمال سيقانهن .

وعندما كنت اسير ببطء وجدت نفسي أحس احساساً قوياً بكلمة «إلى اللقاء» وليس بكلمة «الوداع» . ان في كلمة «الوداع» عذوبة التردد والاحجام . اما « إلى اللقاء» فهي جازمة وذات اسنان حادة تعض بها على الخيط الذي يصل الماضي بالحاضر .

بلغت الميناء القديم . ولكن (إلى اللقاء) بمن ؟ لست ادري ولم استطع ان أتذكر . أظن بأني كنت أريد الذهاب إلى «المكان» ولكن الانسان الذي عايش البحر يعلم بأن المد يكون مرتفعاً الآن وبأن «المكان» يكون مغموراً بالمياه المظلمة . كنت البارحة قد رأيت القمر وهو في يومه الرابع وشكله مجوف مثل ابرة غليظة لطبيب جرّاح ، الا انه من القوة بحيث يسعه ان يرفع مد البحر إلى مدخل «المكان» .

لا حاجة بي إلى زيارة كوخ داني . فقد كان الضوء كافياً لأرى ان العشب قد نما مستقيماً على الممر الذي كان داني يسير فيه ويدوس أعشابه فيكسر اعناقها .

كان الميناء القديم مرصعاً بقوارب الصيف ، هياكل نحيفة ذات اشرعة تغطيها أغطية من الخيش ، وكنت ترى هنا وهناك رجلاً مبكراً يحضر قاربه ويسير في الامواج يلف حبال القلوع وينشر الاشرعة التي تبدو كعشوش بيضاء كبيرة متجعّدة .

اما الميناء الجديد فانه كان أكثر ازدحاماً وحركة . فقوارب الاجرة كانت مربوطة إلى جانب الرصيف ، مستعدة لاستقبال الركاب ، وصيادو الصيف المهووسون يكدسون الاسماك في الاحواض صباحاً ويحارون بعد الظهر فيما يفعلونه بهذه الاكوام من السلال والاكياس الممتلئة بجميع أنواع السمك ، ثم يعودون فيلقون بها إلى الماء فتتلقفها طيور البحر المنتظرة . فان هذه الطيور تتجمع وتنتظر ، وهي تعلم بان صيادي الصيف سرعان ما يضيقون بكثرة صيدهم . فمن الذي يريد ان يقشر وينظف ملء كيس من السمك ؟ ان صيد السمك لأسهل كثيراً من وهبه .

كانت المياه في الخليج الان هادئة مثل الزيت وقد انسكب فوقها ضوء الشمس النحاسي . وقد وقف البط والحمام البحري متمايلاً على حافة الترعة وتحت كل منها مباشرة ظهر خيالها في الماء كأنه توأم رجلاه إلى الاعلى ورأسه إلى الاسفل .

ثم انحرفت عند نصب الحرب التذكاري وصاري العلم ووجدت اسمي بين اسماء الابطال الاحياء المنقوشة اسماؤهم بالفضة ـ الكابتن ايثان الن هاولي ـ وتحت ذلك نقشت بالذهب أسماء اثني عشر رجلاً قتلوا في الحرب ولم يتمكنوا من العودة إلى نيوبايتاون . ولقد عرفت اسماء اكثرهم ، وفيما مضى كنت اعرفهم شخصياً ولم يكونوا عند ذاك يختلفون عن غيرهم . أما الآن فان الذهب يميزهم . وللحظة تمنيت لو ان اسمي ، الكابتن ايثان الن هاولي ، كان مكتوباً بالذهب مع اسماء الصف الاول من الضحايا الذين كانوا خليطاً من الحمقى والمهرّبين والجبناء والابطال ، وها هي ذي اسماؤهم قد نقشت بالذهب . فليس الشجعان وحدهم هم الذي يقتلون ، الا ان احتمال مقتل الشجعان يكون اكبر .

عند ذلك قدم الضابط السمين ويلي بسيارته واوقفها بجانب النصب ، وتناول العلم عن مقعد سيارته وقال : « مرحباً يا ايثان » . واوثق العلم بروابطه النحاسية ورفعه برفق إلى اعلى الصاري حيث تدلى دون حراك وكأنه رجل مشنوق . ثم قال وهو يلهث قليلاً : «انظر اليه لم يبق له من العمر سوى يومين فقط ، ثم يرفع العلم الجديد » .

« العلم ذو الخمسين نجمة ؟ »

« طبعاً . وهو في هذه الايام من النايلون ، ويبلغ حجمه ضعفي حجم هذا العلم ، ولا يزيد وزنه على نصف وزن هذا » .

« كيف يسير العمل يا ويلي ؟ »

« ليس لدي ما اشكو منه ـ لا بل لدي شكوى ، فيوم الرابع من تموز مربك دائماً . خصوصا وانه في هذه السنة يقع في يوم الاثنين ، فلا بد اذن من وقوع الكثير من الحوادث والخناقات ومشاكل السكارى ـ السكارى الاغراب عن البلدة . هل تريدني ان اوصلك بسيارتي إلى المخزن ؟ »

« شكراً ، عليّ ان امر بالبريد اولاً ، ثم اني اريد تناول كوب من القهوة » .

« حسناً ، ساوصلك . وكنت احب ان اقدم لك القهوة ايضاً لولا ان ستوني مثل الكلب الكَلِب » .

« ماذا به ؟ »

« علم ذلك عند الله . فقد سافر ليومين وعاد واصبح مصروعاً وقاسياً » .

« إلى اين ذهب ؟ »

« لم يقل شيئاً ، ولكنه عاد مصروعاً . سأنتظرك حتى تأتي بالبريد » .

« لا تزعج نفسك يا ويلي . فعلي ان اكتب بعض العناوين » .

« كما تشاء » .

ثم ادار سيارته وسار باتجاه هاي ستريت .

كانت دار البريد ما تزال معتمة قليلاً وكانت ارضها ملمّعة حديثاً ، وهنالك اشارة تنبيه تقول «احذر فالارض زلجة» .

كان صندوق بريدنا يحمل الرقم (٧) وهو نفس الصندوق الذي كان لنا منذ ايام دار البريد القديمة . وعندما فتحته وجدت في داخله كومة من النشرات وغير ذلك من اوراق الدعاية الموجهة إلى صاحب صندوق البريد » . ان مثل هذه الاوراق تذهب عادة طعاماً لسلة المهملات . ثم سرت في هاي ستريت عازماً على تناول فنجان من القهوة ، لكني عدلت عن ذلك في آخر لحظة ، ربما لأني كنت عازفاً عن الحديث ، أو لمجرد اني لم أشأ الدخول إلى الفورماستر ولست ادري لماذا . يا للّه ، اي خليط من الدوافع المضطربة المتداخلة هو الرجل ـ والمرأة ايضاً ، على ما اعتقد .

كنت اكنس الرصيف عندما انزلق السيد بيكر قادماً من شارع ايلم ودخل المصرف لأداء شعائر فتح الخزينة . وكنت ارتب البطيخ المعروض بباب الحانوت عندما وقفت امام المصرف السيارة المصفحة الخضراء قديمة الطراز . ونزل منها حارسان مسلحان كرجال الكوماندو وحملا اكياساً من النقود إلى المصرف . وخرجا بعد عشر دقائق وركبا داخل القلعة المبرشمة وادارا المحرك وسارا . اظن انهما انتظرا قليلاً حتى عدّ مورفي النقود وراجعها السيد بيكر واعطاهما وصلاً بها .

ان حراسة المال لهي من أكثر الاسباب مدعاة إلى الانزعاج ، والسبب ، كما يقول مورفي ، هو انك تكره اموال الآخرين كرهاً مطلقاً . وان حجم ووزن الاكياس يوحي بان المصرف يتوقع ان تجري عمليات سحب كثيرة بمناسبة العطلة . ولو اني كنت لص مصارف عادياً لكانت هذه فرصتي للسلب . ولكني لست لص مصارف عادياً . فاني مدين لصديقي جو بكل ما اعرفه . ولو شاء هو لأصبح لصاً عظيماً ، ولست ادري لمَ لا يشاء ، ولو لمجرد تجربة نظريته .

تكدس العمل ذلك الصباح ، وكانت الحال أسوأ مما نوقعت . وازدادت

حرارة الشمس شدة ولم تهب اي نسمة من هواء . وهذا هو بالضبط نوع الطقس الذي يقسر الناس على السفر إلى المنتجعات الصيفية سواء شاؤوا ذلك ام لم يشاؤوا . فكان امامي صف طويل من الزبائن ينتظرون دورهم . وكنت اعرف بأن علي ان احصل على مساعد لي مهما كانت الظروف . فاذا لم يصلح الن للعمل فسأفصله وآتي بغيره .

عندما اتى السيد بيكر في حوالي الساعة الحادية عشرة كان في عجلة من أمره ، فاضطررت إلى ترك بعض الزبائن في الانتظار ليتاح لي ان اختلي بالسيد بيكر في المستودع الداخلي .

لقد وضع بين يدي مظروفاً كبيراً وآخر صغيراً وكان متلهفاً للذهاب لدرجة انه كان يكلمني بما يشبه الاختزال : «يقول توم واطسون بأن لا غبار على ملكية مارولو للمحل . ولا يعلم ما اذا كان هنالك سجل رسمي ، الا انه لا يعتقد بذلك . هي ذي اوراق المبايعة . ضع التواقيع حيث أشّرت بالقلم . ان النقود معلّمة وارقامها مسجلة . لقد هيأت الصك وليس عليك الا ان توقعه . آسف اذ يجب ان اسرع يا ايثان . اني امقت القيام بعملي على هذا الاسلوب» .

«هل تعتقد حقاً انه يجب ان اسير بهذا المشروع ؟» .

«اللعنة ، ابعد كل هذا تقول......»

«آسف يا سيدي! آسف . اني اعلم انك على صواب» . ثم اني وضعت الصك فوق صندوق من الكرتون ووقعته بقلمي .

وفحص السيد بيكر الصك متمهلاً ثم قال : «اعرض الفي دولار اولاً . ثم ارفع المبلغ على دفعات كل منها بمائتي دولار . انك تدرك دون شك ان رصيدكم في المصرف لا يتجاوز خمسمائة دولار . وكان الله في عونك اذا ما اعوزتك النقود» .

«أليس بالاستطاعة ان استدين لقاء رهن الحانوت ، هذا اذا لم تكن عليه ديون اخرى ؟»

«بامكانك ذلك طبعاً اذا كنت تريد للفوائد ان تستهلك الحانوت» .

«لا ادري كيف اشكرك» .

«لا تضعف امامه يا ايثان ولا تدعه يسحرك بكلامه فلا يتيح لك مجالاً . ان كل الطليان على هذه الشاكلة . تذكر فقط القاعدة الاولى» .

«اني لفي غاية الامتنان» .

«يجب ان اسرع الآن كي ابلغ الطريق العام قبل اشتداد حركة السير في الظهيرة» . وانطلق مسرعاً وكاد يصطدم بالسيدة «ويلو» التي كانت تقف قريباً من الباب حيث قامت بفحص كل بطيخة مرتين .

لم يخف ازدحام العمل . وأعتقد بأن الحر الذي أغرق الشوارع جعل مزاج الناس على شيء من حدة ونزق . وتهيأ لي بأن الناس يختزنون المؤن تحسّباً لكارثة ، لا توقعاً لعطلة . ولم يكن بوسعي ان احمل شطيرة إلى مورفي لو انا اردت ذلك .

لم يكن علي ان اخدم الزبائن فحسب ، بل ان انتبه كثيراً ايضاً . فان العديد من الزبائن كانوا اغراباً ولن يتورعوا عن السرقة اذا انا لم انتبه لهم . ولم يكن يبدو عليهم انهم يتعففون عن ذلك . وغالباً ما تكون الاشياء التي يسرقون من الاشياء التي لا يحتاج اليها امثالهم . واكثر البضائع التي تسرق هي زجاجات المحفوظات المترفة كمعجون الكبد والكافيار والفطر . ولذلك كان مارولو قد طلب الي ان احتفظ بهذه الاشياء خلف العداد حيث لا يفترض بالزبائن ان يبلغوا المنطقة . وقد علمني بأن ليس من مصلحة العمل في شيء ان افضح السارق فان ذلك يجعل الزبائن قلقين لأنهم ، في داخليتهم على الاقل ، يشعرون بالذنب . والطريقة الوحيدة هي ان تقيّد الخسارة على زبون آخر . ولكن كان بوسعي قطع الطريق على الزبون ، فيما لو رأيته يقترب من احد الرفوف الخاصة بأن اقول له مثلاً : «ان شراءك بصل الكوكتيل هذا بمثابة صفقة رابحة» .

وكنت أرى الزبون احياناً يفزع كما لو اني قد قرأت ما يدور بفكره . واكثر ما كنت امقته في هذه العملية هو التك . فليس الشك بالناس مما

يسرّني . بل انه يسوؤني ، اذ يبدو لي وكأن شخصاً واحداً يلحق الاذى بجماعة .

وسار الوقت بتثاقل وكآبة ، وخف ازدحام العمل . وبعدالخامسة بقليل دخل ستوني ، مدير البوليس ، وبدا نحيلاً ، كئيباً ، عليلاً . واشترى عشاء خفيفاً يؤكل امام التلفزيون ـ شرائح لحم البقر مع الجزر والبطاطس المهروسة ، المطبوخة والمبرّدة في صينية من نوع الالومنيوم . فقلت له :

« تبدو وكأنك مصاب بضربة شمس ايها الرئيس » . فقال والبؤس على وجهه : « كلا ، لم تضربني الشمس ولا غيرها ، وانا الآن في احسن حال » .

« هل تريد عشاء لنفرين من هذا ؟ »

« واحداً فقط ، فزوجتي غائبة . ان البوليس لا يتمتع بعطلة » .

« هذا امر سيء » .

« لعله من الافضل لها ان تتغيب . فانا قلما اذهب إلى البيت بوجود هذا الحشد من الناس » .

« سمعت بأنك كنت مسافراً » .

« من الذي أخبرك ؟ » .

« ويلي » .

« يحسن به ان يتعلم بأن يقفل فمه الكبير » .

« انه لم يقصد اي ضرر » .

« انه لا يملك من الدماغ ما يكفي ليفكر بالعواقب ، بل وليس لديه من الدماغ ما يكفل له البقاء خارج السجن »

« ومن الذي لديه الكفاية ؟! » القيت هذا السؤال متعمداً فحصلت على جواب ابعد مما توقعت اذ قال :

« ماذا تعني بذلك تماماً يا ايثان ؟ »

« اعني بان لدينا من القوانين ما لا نستطيع معه ان نتنفس دون ان نتجاوز بعضاً منها » .

«تلك هي الحقيقة اذ تختلط الامور فلا يعود المرء يعرف شيئاً» .

«كنت اريد ان اسألك سؤالاً ايها الرئيس ـ بينما كنت انظف المحل وارتبه وجدت مسدساً قديماً ، قذراً وصدئاً . يقول مارولو بأن المسدس ليس له . وهو بالتأكيد ليس لي . فماذا افعل به ؟»

«سلمه لي اذا كنت غير راغب في طلب ترخيص به» .

«سأحضره من البيت غداً فقد وضعته في تنكة زيت . ماذا تصنعون بهذه الاشياء يا ستوني ؟»

«نفحصها لنرى ما اذا كانت قد استعملت ام لا ، ثم نطرحها في البحر» .

وبدا عليه انه يشعر بتحسن . ولكن النهار كان طويلاً وحاراً ، لذلك لم أشأ ان ادعه يتمتع بذلك التحسن . فقلت له :

«هل تذكر بأن ثمة قضية وقعت منذ عامين في مكان ما في شمال الولاية ؟ لقد ضبط افراد من البوليس وهم يبيعون الاسلحة المصادرة» .

فابتسم ستوني ابتسامة التمساح العذبة البريئة المرحة وقال : «اسمع يا ايتان . لقد مرّ علي اسبوع في مثل الجحيم . اسبوع جهنمي ، فاذا كنت تحاول ان تستفزني فاني انصحك الا تفعل ذلك لانه قد مر بي اسبوع كريه كالجحيم» .

«اني آسف ايها الرئيس . هل بوسع مواطن رشيد ان يساعد في شيء ؟ مشاركتك الشراب مثلا ؟»

«ليت ذلك بوسعي . فاني افضل السكر على اي شيء آخر يمكنني ان افكر به» .

«وما الذي يمنعك ؟»

«هل تعلم ؟ لا ، كيف يمكن لمثلك ان يعلم ؟ لو كان بوسعي فقط ان اعرف لم ذاك ، وما مصدره» .

«عم تتكلم ؟»

«لابأس يا ايثان انس ما قلته . لا ـ لا تنسه . انك صديق للسيد بيكر . فهل تعلم عما اذا كانت ثمة صفقات لديه الآن ؟»

«ان صداقتي به ليست بهذا المقدار ايها الرئيس» .

«ومارولو ؟ أين هو مارولو ؟»

«ذهب إلى نيويورك حيث يريد ان يعالج داء المفاصل» .

«آه! لو كان هنالك مجرد طريق لعرفت اين أنقضّ» .

«انك تنطق بالالغاز يا ستوني» .

«لا ، لست انطق بالالغاز . وقد تكلمت كثيراً» .

«لست سديد الذكاء ، ولكن اذا كنت تريد ان تفرغ ما في قلبك» .

«لا اريد . لا ، لست اريد . لا اريد ان تلتصق بي تهمة إفشاء الاسرار . انس ما قلته يا إيثان . انني مجرد انسان مضطرب» .

«لن تكون قد أفشيت سراً يا ستوني . فماذا هناك ؟ مجلس المحلفين الاعلى ؟»

«انك تعرف اذن ؟»

«القليل» .

«وما وراء ذلك ؟»

«التقدم» .

واقترب ستوني مني وامسك أعلى ذراعي بيده الحديدية بشدة آلمتني . وقال بحدة : «هل تعتقد يا ايثان بأني شرطي صالح ؟»

«احسن شرطي في الدنيا» .

«وهذا ما اريد ان اكون عليه يا ايتان . هل تعتقد ان من الصواب ان يقوم انسان بالنم على اصدقائه لينقذ نفسه ؟»

«لا ، لا أظن ذلك صواباً» .

«ولا انا . ليس بوسعي احترام حكومة كهذه .وان ما يخيفني يا ايثان هو ـ اني لن ابقى شرطياً صالحاً بعد لأني لا احترم ما افعله» .

«هل أدركوك أيها الرئيس ؟»

«ان الامر كما قلت ، فهناك الكثير من القوانين لدرجة انك لا تستطيع ان تتنفس عميقاً دون ان تتحدى أحدها . ولكن يا للّه! انهم كانوا اصدقائي . انك لن تشي بي يا ايثان ، أليس كذلك ؟»

«لا ، لن أفعل شيئاً من هذا . لقد نسيت عشاءك التلفزيوني ايها الرئيس» .

«أجل كدت أنساه . سأذهب إلى البيت وأخلع حذائي واشاهد برامج التلفزيون لأرى ما الذي يفعله في هذا الحال ممثلو أدوار البوليس . أتعلم يا ايثان ان البيت الخالي يكون نعمة جميلة في بعض الاحيان ؟ إلى اللقاء يا ايثان» .

اني احب ستوني وأعتقد بأنه ضابط طيّب . واني لأتساءل أين ستشبك السنارة .

واذ كنت ادخل صناديق الفاكهة كي اقفل الحانوت دخل جو مورفي :

«اسرع!» قلت ذلك وأقفلت الابواب الامامية المزدوجة وأسدلت الستائر الخضراء . «تكلم همسا» .

«ما الذي جرى لك ؟» .

«حتى لا يفاجئنا زبون» .

«آه! فهمت ما تعني . يا اللّه! اني اكره العطلة الطويلة ، فانها تبرز اسوأ ما في الانسان . انه يبدأ عطلته بطيش ويعود إلى منزله منهوكاً مفلساً» .

«هل تريد مرطباً ريثما اغطّي هذه الصناديق ؟»

«لابأس . فهل لديك بيرة مثلّجة ؟»

«على ان تشربها خارج المحل» .

«حسناً . افتحها لي» .

ففتحت الزجاجة وتناولها مني ووضعها على فمه . ثم رفعها إلى الاعلى وافرغها في جوفه ثم وضعها فوق العداد .

فقلت : «اننا ذاهبون في رحلة» .

«انت ايها المسكين ؟ إلى اين ؟»

«لست ادري . فلم نتصارع على ذلك بعد» .

«ان هنالك شيئاً في الجو . فهل تعلم ما هو ؟»

«لعلك تتخيّل اشياء» .

«ربما . ولكن السيد بيكر لا يطلب في العادة اجازات . وقد كان على اقصى ما يمكن من التلهف لمغادرة البلدة بسرعة» .

فضحكت وقلت له : «هل دققت في قيود المصرف ؟»

«الحقيقة اني فعلت ذلك» .

«انك تمزح دون ريب» .

«عرفت مرة مدير بريد احدى المدن الصغيرة . وكان ثمة فتى أبله يعمل لديه يدعى رالف ، وهو باهت الشعر ، يلبس نظارات ، وله ذقن صغيرة ،وزائدتان لحميتان في أعلى زلعومه بحجم الغدد . وقد اتهم رالف هذا بسرقة طوابع بريد تبلغ قيمتها حوالي الالف والثمانمائة دولار . ولم يكن بوسع رالف ان يفعل ذلك فقد كان أبله» .

«أتعني بأنه لم يسرق الطوابع ؟»

«وحتى لو هو لم يسرقها فان الامر سيّان ، فكأنه قد سرقها . انني خائف . ولن اسمح لأحد باتهامي اذا ما وسعني ذلك» .

«هل هذا هو سبب عدم زواجك ؟»

«يا للّه! اني اذ افكر في الامر الآن بان هذا هو احد الاسباب» .

فطويت مئزري ووضعته في الدرج تحت آلة تسجيل النقد . ثم قلت : «ان الانسان يحتاج إلى وقت طويل وجهود كبيرة لكي يصبح شكوكاً يا جو . اني لا أملك المقدرة على تحمل ذلك طول الوقت» .

«يجب ان يكون موظف المصرف كذلك . انك تخسر مرة واحدة فقط . وكل ما تحتاج اليه لتصبح كذلك هو همسة» .

«انك لا تعني بانك شكوك» .

«ان ذلك غريزة في . فاذا ما لاحظت ان أقل شيء يسير بصورة غير طبيعية فاني أهبّ وآخذ حذري» .

«يا لها من حياة! ولكني لا أعتقد بأن هذا هو ما عنيته»

«ولا أنا . ولكني افترضت بانك لو سمعت شيئاً فإنك لن تكتمه عني ـ اذا كان في الامر ما يهمني» .

«اعتقد بأني أحدث كل انسان بكل ما اعرفه . وقد يكون هذا هو السبب في انه ما من احد يقول لي شيئاً . هل انت ذاهب إلى البيت ؟»

«لا ، بل سأذهب لتناول طعامي عبر الشارع» .

فأطفأت الانوار الامامية وقلت «هل من بأس في الخروج من الباب الخلفي ؟ سأحضر الشطائر لك غداً صباحاً . واحدة بالجامبون والاخرى بالجبن ، مع خس ومايونيز ، وزجاجة حليب» .

«انك تصلح للعمل في مصرف» .

أظن بأنه لم يكن أكثر وحدة من غيره من الناس لمجرد انه يعيش وحيداً . تركني عند باب الفورماستر ، وللحظة تمنيت لو اني دخلت معه اذ تخيلت ان البيت سيكون الان قائماً قاعداً .

ولقد وجدت البيت كما تخيلته . فقد رسمت ماري الرحلة إلى مونتوك حيث توجد مزرعة للمصطافين القادمين من شرقي امريكا مجهزة بكل ما يوجد في ما يدعى مزارع الأميركيين الغربيين من تجهيزات مبهرجة . والنكتة هي انها اقدم مزارع امريكا اسهاما في تربية المواشي . فقد كانت ذلك قبل اكتشاف تكساس . وأول مرسوم صدر بشأنها كان من الملك تشارلس الثاني . وكانت ترعى هناك في الاصل المواشي التي كانت نيويورك تتزوّد بلحومها . أما الرعاة فكانوا يعينون بالاقتراع ، كالمحلفين ، للعمل مدة محدودة . اما الآن فالمكان مملوء بالمهاميز الفضية وغير ذلك من حوائج رعاة البقر ، الا ان القطعان الحمراء ما زالت ترعى في الأراضي

السبخة هناك . وقد استحسنت ماري ان نقضي ليلة الاحد في احد بيوت الضيافة هناك .

كانت ايلين راغبة في الذهاب إلى نيويورك والمكوث في فندق وقضاء يومين في تايمز سكوير . اما الن فلم يكن يرغب في الذهاب إلى أي مكان مطلقاً . وهذه احدى وسائله للفت النظر اليه واثبات وجوده .

كان المنزل يغلي بالانفعال ـ فدموع ايلين تسيل بهدوء ، وماري متعبة ومهتاجة . وألن يجلس وحيداً في غرفة الجلوس منفرداً بآلة الراديو الصغيرة وقد الصقها بأذنه فانطلقت منها اغاني المراهقة بأصوات نائحة هيستيرية .

وقالت ماري : «اني على وشك التسليم» .

فقلت : «يبدو لي بانهما يحاولان مساعدتك فقط» .

«بل انهما يخرجان عن طريقهما ليعقدا الامور في وجهي» .

اما ألن فإنه رفع صوت الراديو . فقلت لماري :

«اليس بوسعنا ان نقفل باب القبو عليهما ونذهب لوحدنا يا جزرتي العزيزة ؟»

فأجابت ، وقد رفعت صوتها عالياً كي يسمع خلال هدير راديو ألن ، قائلة : «واللّه اني في هذه اللحظة اتمنى لو نفعل ذلك» .

وثار فيّ غضب مفاجئ فتحوّلت سائراً إلى غرفة الجلوس لأمزق ابني تمزيقاً وألقي بجثته العاشقة المتوحدة إلى الارض وأدوسها بأقدامي . واذ دخلت الباب متخطراً توقفت موسيقى الاذاعة وقال المذيع : «اننا نتوقف الآن عن اذاعة برنامجنا المقرر لنذيع نشرة خاصة وردتنا الآن» . «وجهت الدعوة بعد ظهر هذا اليوم إلى كبار الموظفين الحكوميين والبلديين في بلدة نيوبايتاون ومقاطعة وسكس للمثول امام لجنة محلفين عليا للرد على تهم تتدرج من لفلفة مخالفات السير ، إلى قبض الرشاوي ، أو قبض مبالغ معينة من اموال تعبدات البلدة والمقاطعة...»

ها هي الساعة قد أزفت لمحاسبة رئيس البلدية ، المجلس البلدي ،

القضاة ، وموظفي الاشغال . لقد أصغيت دون استماع ـ أمر محزن ومكدر . لعلهم كانوا بالفعل يرتكبون الاعمال التي اتهموا بها ، الا انهم قد اعتادوا على فعلها طويلاً جداً حتى اصبحوا لا يدركون خطأها . وعلى فرض انهم كانوا ابرياء فإن براءتهم لن تظهر قبل الانتخابات المحلية ، ولو أن أحداً منهم قد برِئ فإن التهمة التي يبرأ منها لن تنسى . لقد كانوا محاصرين ، وقد عرفوا ذلك دون ريب . أصغيت متوقعاً سماع اسم ستوني الا انه لم يرد ، ولذلك خمنت بأنه قد وشى بهم كي ينقذ نفسه . فلا عجب اذن ان كان يشعر بالكآبة والوحدة .

كانت ماري تقف قرب الباب مستمعة فقالت : «اننا لم نسمع أخباراً مثيرة منذ زمن طويل . هل تعتقد بصحة التهم يا ايثان ؟ »

قلت : «ان هذا لا يهم وليست هذه هي الغاية منه» .

«ترى بماذا يفكر السيد بيكر» .

«انه قد سافر لقضاء العطلة . نعم ، بماذا تراه يشعر ؟ »

وانزعج ألن لأن الاذاعة قد قطعت موسيقاه . ولقد شغلنا بالاخبار والعشاء وغسل الاطباق ومشاكل الرحلة وأصبح الوقت متأخراً لاتخاذ قرار وفتح المجال من جديد امام الخصام والدموع .

وعندما دخلت الفراش كان جسمي يرتجف . وقد كانت هذه الرجفة من الشدة والقسوة بحيث شعرت ببرد رغم حرارة جو الليل .

وقالت ماري : «انك ترتجف يا عزيزي . فهل انت مريض ؟ »

«لا يا عزيزتي ، اعتقد بأني أشعر فقط بما لا بد لأولئك الرجال ان يكونوا شاعرين به ، ولا ريب ان شعورهم مخيف» .

« كفّ عن ذلك يا ايثان . فليس بوسعك ان تحمل هموم الآخرين على كتفيك» .

« يبدو ان بوسعي ذلك كما ترين » .

«اني لأتساءل عمااذا كنت ستصبح رجل اعمال قط . انك شديد

الحساسية يا ايثان . وتلك ليست جريمتك » .

« كنت افكر بأنها قد تكون جريمتي - وجريمة كل واحد » .

« لست أفهم » .

« ولا انا ايضاً يا حبيبتي » .

« آه لو كان هناك أحد ليبقى مع الاولاد » .

« أعيدي قولك ايتها الحبيبة! »

« كم احب ان اقضي هذه العطلة معك فنكون وحيدين . لم يتح لنا ان ننفرد ببعضنا منذ دهر » .

« ليس لنا من قريبات مسنّات خاليات المسؤولية . آه لو كان بوسعنا ان نملّح الاولاد أو نخلّلهم أو نعلّبهم لفترة وجيزة . فكّري بالأمر ايتها السيدة ماري . اني أتوق لأكون وحيداً معك في مكان غريب . فنسير معاً فوق تلال الرمل ونسبح عاريين في الليل ونستلقي معاً تحت الاشجار على فراش من الاوراق والاغصان اليابسة » .

« اني ادرك ذلك يا عزيزي . اني ادرك ان الحياة كانت عسيرة . لا تعتقد بأني لا أشعر بذلك » .

« حسناً ، خذيني بين ذراعيك ودعينا نفكر بطريقة ما » .

« انك ما زلت ترتجف . فهل تشعر ببرد ؟ »

« اشعر ببرد وحرارة ، بامتلاء وفراغ - اني متعب » .

« سأحاول التفكير بشيء . سأحاول حقاً . اني احبهم بالتأكيد . ولكن - »

« أعلم ذلك . وستتاح لي الفرصة للبس رباط الرقبة - »

« هل سيسجنونهم ؟ »

« ليت ذلك بامكاننا - »

« اعني اولئك الرجال » .

« كلا ، لن يكون ذلك ضرورياً . فلن يتمكنوا من المثول امام اللجنة

قبل يوم التلاثاء القادم . وستجري الانتخابات يوم الخميس . وهذا سبب الامر » .

«انك تسخر يا ايتان ، وانت لست كذلك . ويجب ان تذهب اذا كنت على وشك ان تصبح ساخراً ـ ان ما قلته لم يكن مزاحاً ، اللهجة التي قلته بها . اني خبيرة بمزاحك ، انك قد عنيت ما قلت» .

فحلّ بي خوف اذ كدت أفضح نفسي . ولم أكن أريد ذلك . فقلت « أتقبلين بي زوجاً ايتها الفأرة الجميلة ؟ »

فقالت : «(وبعدين) معك!»

كان خوفي المفاجئ من الفضيحة عظيماً . وكنت قد أقنعت نفسي بأن العينين ليستا مرآة الروح . فإن بعض النسوة الخطيرات اللواتي عرفتهن كانت لهن وجوه وعيون الملائكة . وهنالك فئة منهن تستطيع بأعينها ان تخترق الجلد والعظم فترى ماخلفها ، الا انهن نادرات جداً . وغالباً ما يكون فضول الناس منصبّاً حول انفسهم فقط . فقد قصت علي فتاة كندية من أصل اسكتلندي قصة تألمت لسماعها . قالت انها في فترة نموها كانت ، كلما شعرت بالعيون تنظر اليها دون استحسان ، تتضرج ثم تسيل دموعها . وعندما لاحظ والدها الجبلي ألمها قال لها بحدة : «انك لن تزعجي نفسك بما يظنه الناس فيك لو انت عرفت انهم قلّما يفعلون ذلك» . فأبرأها كلام والدها ، لقد طمأنتني تلك القصة على سلامة سري ، فكلام والدها صحيح إلى حد كبير . الا ان ماري ، التي تعيش عادة في بيت تشيده لنفسها من الازهار ، قد سمعت نغمة ، أو شعرت بريح جارحة . وفي ذلك خطر يظل قائماً حتى ينتهي نهار الغد .

لو ان خطتي ولدت تحمل في طياتها بذور الهلاك لرفضتها كشيء فارغ . ان الناس لا يأتون بمثل هذه الامور ، بل انهم يلعبون ألعاباً خفية . وقد بدأت لعبتي بقوانين جو لسرقة المصارف . وكرد فعل لشعوري بالملل من وظيفتي فقد لعبت هذه اللعبة ووجدت ان لكل شيء يقوم في طريق تلك

اللعبة دوراً فيها ـ ألن وقناع ميكي ماوس للوجه ، المرحاض الدالف ، المسدس الصدئ ، العطلة القادمة ، جو والورق الذي يحشو به قفل الباب . وقد رتبت مراحلها كما يُستَعد للعبة ، وصدّقت عليها ، وجربتها . أفليس رجال العصابات الذين يتبادلون اطلاق النار مع البوليس ـ هم أنفسهم صغار الصبيان الذين تمرونوا على سرعة سحب المسدسات التي يلعبون بها حتى أتقنوا سحبها ، ثم أصبح عليهم ان يجرّبوا مهارتهم .

لست ادري متى كفّت لعبتي عن ان تكون مجرد لعبة . قد يكون ذلك عندما ادركت بأني قد أشتري المحل وبأني سأحتاج إلى المال لأديره بنجاح . انه يصعب مثلاً تصميم خطة كاملة دون تجريبها . اما عنصر الخيانة والجريمة ، فلست أراه قائماً فيها فتلك ليست جريمة ضد الناس بل ضد المال فقط . ولن يؤذي تنفيذها أحداً . كما أن المال مؤمّن عليه . أما الجرائم الحقيقية فهي التي توجه ضد الناس ـ ضد داني وضد مارولو . فما هي قيمة جريمة السرقة بالنسبة لما قد فعلت ؟ وان ما أنا بصدد فعله ليس الا شيئاً وقتياً ، ولن أكرره من بعد أبداً . والحقيقة ان خطة العمل وتوقيتها والادوات اللازمة بلغت أكثر ما يمكن لها من الكمال قبل ان أدرك بأن الأمر ليس مجرد لعبة . ان الصبي الذي كان يتسلّى بمسدس الاطفال قد وقع على مسدس من عيار ٤٥ .

ان وقوع حادث ما شيء ممكن ، ولكن وقوع الحادث ممكن أيضاً اثناء عبور الشارع أو السير تحت الاشجار . لا أعتقد بأني كنت خائفاً فقد تخلصت من الخوف . ولكني كنت أشعر بشيء كاللهثة في انفاسي شبيهة بالخوف المسرحي الذي يصيب ممثلاً يقف مستعداً بانتظار دوره في ليلته الاولى . وقد كان الامر معي شبيهاً بمسرحية ، فقد حسبت حساب كل عثرة محتملة الوقوع فاستثنيتها .

وكنت خائفاً ألا استطيع النوم ، ولكنني نمت نوماً عميقاً إلى ساعة متأخرة ، ولم يتخلل نومي أحلام حسبما أذكر . وقد صممت على التأمل في

الخطة ومراجعتها بهدوء في فترة ما قبل الفجر . إلا انني حين فتحت عيني كان ذيل البقرة التي تقف في ماء البحيرة بالصورة قد أصبح واضحاً منذ نصف ساعة على الاقل . فنهضت قافزاً كالهواء الذي يخرج من مفرقعة . ان هذا النوع من اليقظة يؤذي العضلات احياناً . اما يقظتي فانها هزت الفراش فاستيقظت ماري قائلة : « ماذا جرى ؟ » .

فقلت : « لقد تأخرت في نومي » .

« هراء ، ان الوقت ما زال مبكراً » .

« كلا . ان هذا يوم حافل بالنسبة لي . فسيفتن الناس اليوم بمواد البقالة . ابقي انت بالفراش ولا تنهضي » .

« ولكنك تحتاج إلى افطار جيد » .

« أتعرفين ما الذي سأفعله ؟ سأمر بالفورماستر فأشتري بعض القهوة ثم ألتهم بعض ما على رفوف مارولو كالذئب » .

« أتفعل ذلك ؟ » .

« ابقي مستريحة ايتها الفأرة الصغيرة وحاولي ان تجدي طريقاً لهربنا من اولادنا الاعزاء . اننا بحاجة لذلك . اني أعني ما أقول » .

« اني اعلم اننا بحاجة لذلك ، وسأحاول بأن أفكر » .

ولبست ثيابي وخرجت قبل ان تبدأ باقتراح اشياء أخرى لحمايتي وراحتي .

كان جو في المقهى فأشار بيده إلى المقعد الذي بجانبه .

قلت له : « لا استطيع المكوث يا جو فقد تأخرت عن موعد العمل » .

ثم قلت لفتاة المحل : « هل يمكنك ان تعطيني ليتراً من القهوة يا آن ؟ »

فقالت : « هذا يعني ان علي ان أصبها في زجاجتين » .

« حسناً » .

فوضعت الزجاجتين بكيس من الورق . وانتهى جو فقام وسار معي . فقلت له :

«ستتولى خدمة القداس بدون المطران هذا الصباح» .

فقال : «نعم . قل لي ، ما رأيك في الاخبار ؟»

«لا استطيع ان اهضمها» .

«أتذكر قولي لك بأني أشم رائحة شيء ما ؟»

«ذكرت ذلك عندما سمعت الاخبار . ان لديك أنفاً مدهشاً» .

«ان هذا جزء من عملي . وبوسع بيكر ان يعود الآن . اني لأتساءل ما اذا كان سيعود» .

«ماذا تعني بذلك ؟»

«ألا تشم له أية رائحة ؟»

فنظرت اليه بعجز وقلت «ان شيئاً ما ينقصني ولست ادري حتى ما هو ذلك الشيء» .

«يا للّه!»

«هل تعني بأن هنالك شيئاً كان يجب علي ان ألاحظه ؟»

«هذا ما اعنيه . ان قانون الانياب لم يتغير» .

«يا إلهي! ان هنالك عالماً كاملاً أجهله . كنت احاول ان اتذكر اذا كنت تريد الشطيرتين كلتيهما مع الخس والمايونيز» .

«نعم ، كلتيهما» . ثم انه خلع غطاء السيلوفان عن علبة سجائره وكوره وحشا به القفل .

وقلت له : «يجب ان أذهب الآن . لدينا تخفيض خاص في اسعار الشاي اليوم . اعد غطاء الصندوق فتحصل على هدية! هل لك صلة بأية سيدة ؟»

«بالطبع . ولكن الشاي هو آخر هدية يفكرن بها . لا تزعج نفسك بالحضور سآتي بنفسي لآخذ الشطائر . ثم دخل ولم تسمع طقة القفل عندما اغلق الباب وراءه ، لقد رجوت بألا يكتشف جو بأنه كان أحسن معلم لي . فهو لم يكتف بتعليمي فحسب ، بل انه قدّم لي عرضاً ، وبدون ان يدري مهّد الطريق امامي .

ان كل انسان يعرف هذه الامور ، فقد اتفق الخبراء على ان المال يجر المال . وأحسن الطرق هي دوماً أبسطها . وفي بساطة الامر المدهشة ، قوته العظمى . ولكني اعتقد حقاً ان الامر كان حلم يقظة مسرفاً في التفاؤل إلى ان مشى مارولو ، دون خطأ منه ، فوق عقبة يجهل وجودها . وعندما بدا لي ان حصولي على المخزن أصبح مؤكداً تقريباً ، فإن حلمي المسرف لم يعد حلما بل أمراً واقعيّاً . ولقد واجهني سؤال شرير إلا أنه سديد : لماذا أحتاج المال طالما أني سأحصل على المخزن ؟ ان السيد بيكر ليدرك ، وكذلك جو ومارولو ، ان من الافضل لي ألا أمتلك الحانوت اطلاقاً من ان امتلكه دون رأسمال لتسييره . وطريق الافلاس عادة يكون محفوفاً بقبور المغامرات غير المأمونة . وقد صار لي الآن قبر على تلك الطريق . وان اشد القوّادغباء لا يلقي بجنوده امام الاعداء دون ان تكون لديه الاسلحة أو الاحتياطي الكافي ، الا ان الكثير من الاشغال حديثة التأسيس تفعل ذلك . كانت نقود ماري تملأ جيب سروالي الخلفي الا ان مارولو سيأخذ من تلك النقود كل ما يمكن اخذه . ثم يأتيني اول كل شهر حين يكون الدفع واجباً لأصحاب مخازن البيع بالجملة الذين لا يسخون بمنح الاعتمادات للمؤسسات غير المجرّبة . لذلك فإني سأحتاج إلى مال ، وذلك المال قائم بانتظاري خلف أبواب فولاذية . وان عملية الحصول على المال ، التي كانت في اساسها حلم يقظة ، ثبتت عند تفحصها بأنها عملية سليمة للغاية . ولم يزعجني كون السرقة امراً غير قانوني كما لم يشكل لي مارولو أية مشكلة . فلو لم يكن هو الضحية لقام بالعملية بنفسه . والذي يؤلمني هو امر داني ، مع ان بوسعي ان افترض بحق انه كان مقضياً عليه على أية حال . وان محاولة السيد بيكر الفاشلة في ان يفعل الشيء نفسه لداني قد اعطتني من المبررات اكثر مما يحتاجه معظم الناس . الا ان داني بقي كجرح مؤلم في امعائي ، وقد تقبلته كما يتقبّل الانسان جرحاً في قتال ناضج . وقد يتعيّن علي ان اعيش بذلك الجرح ، ولكنه قد يبرأ مع الوقت أو يسدل عليه النسيان جداراً كما تغطي الانسجة شظية قنبلة تنفذ إلى الجسم .

فالحاجة الملحة هي اكثر ما تكون إلى المال ، وعملية الحصول عليه جاهزة وموقتة بدقة دورة كهربائية .

ولقد اثبتت قوانين مورفي جودتها ، وقد حفظتها بل وأضفت اليها واحداً . القانون الأول : لا يجب ان تكون من اصحاب السوابق . ولم اكن من اصحاب السوابق . القانون الثاني : لا يجب ان يكون لك شريك أو امين سر .وليس لي أي منهما . القانون الثالث : لا يجب ان تكون لديك صديقات . ان مارجي يونج هنت هي الصديقة الوحيدة ، ولكني على كل حال لم اكن على وشك شرب الشمبانيا بحذائها . القانون الرابع : لا يجب ان تبدو عليك مظاهر الثراء والفخفخة . لن أفعل ذلك ، بل سأستغل المال لدفع حسابات بائعي الجملة تدريجياً . ولقد كان لدي مكان لإخفاء المال في صندوق القبعة الخاصة بالفرسان الهيكليين . فإن للصندوق دعامة من المقوى ، مكسوة بالقطيفة ، على شكل رأسي وبحجمه . وقد رفعت حفافي الدعامة وطليتها من الداخل بصمغ سريع الالتصاق فمن الممكن إعادتها إلى حالتها الاصلية في مثل لمح البصر .

لوازم التنكر : قناع للوجه على صورة ميكي ماوس . ولن يرى أحدشيئاً آخر . ثم معطف قطني للمطر كان لمارولو ، وان جميع المعاطف القطنية البنية تبدو متماثلة . ثم زوج قفازات من السيلوفان الذي يأتي في رزم كبيرة فيستعمل مرة ويُلقى به . لقد حضرت القناع منذ بضعة أيام ، وألقيت إلى المرحاض بالعلبة التي قصصته منها ومحتويات العلبة ايضاً . وسأفعل الشيء نفسه بالقناع والقفازات حالما انتهي من العملية . وقد كسوت المسدس الفضي اللون بالهباب ، واستحضرت تنكة من دهن السيارات سألقي بالمسدس فيها ريثما أسلمه إلى المفتش ستوني . ولقد أضفت إلى هذه القوانين قانوني الاخير : لا تكن خنزيراً ، أي لا تأخذ كثيراً وتجنب الاوراق ذات الفئات الكبيرة . ولو حصلت على ما يتراوح بين الستة والعشرة آلاف دولار بأوراق من فئة العشرة والعشرين دولاراً فسيسهل علي اخفاؤها

وسأستعمل لحمل المال صندوقاً من المقوّى يستعمل للكعك ، وعندما يراه أحد في المحل ثانية فستكون في داخله كعكة . ولقد جربت تلك القضية المزعجة في محاولة لتغيير صوتي ثم اهملتها وصممت على الصمت واستعمال الاشارات . ان كل شيء حاضر في مكانه .

وكدت أشعر بالأسف لتغيّب السيد بيكر . فلن يكون هناك سوى مورفي وهاري روبيت وايديث آلدن . وقد وَقتُّ العملية بأجزاء من الثانية . سأضع المكنسة على المدخل في الساعة التاسعة الا خمس دقائق . فقد تمرّنت على ذلك مرات ومرات . وسأرفع مئزري إلى فوق وأضع حديدة الوزن فوق صندوق ماء المرحاض كي يستمر صوت الماء جارياً في المرحاض . فاذا دخل احد إلى المحل وسمع صوت الماء جارياً فسيستنتج بنفسه . ثم احمل المعطف والقناع وصندوق الكعك والمسدس والقفازات ، فأعبر الممشى حين تدق الساعة دقتها التاسعة وأفتح الباب الخلفي . ثم ألبس المعطف وأضع القناع وأدخل حالما ترّن ساعة الوقت ويفتح جو باب الخزانة . وأشير بالمسدس للثلاثة في ان ينبطحوا أرضاً . ولن يسببوا لي أي ازعاج . فالنقود كما قال جو مؤمّن عليها ، اما هو فلم يؤمّن على حياته . ثم آخذ النقود وأضعها في صندوق الكعك ، وأعبر الممشى عائداً إلى المحل فألقي بالقناع والقفازات بالمرحاض وادع الماء يسيل فوقها ، وأضع المسدس في الزيت واخلع المعطف . ثم أنزل مئزري وأضع النقود في صندوق القبعة وأذهب فألتقط المكنسة وآخذ في كنس الرصيف لأكون منظوراً عندما يضرب جرس الانذار . ولن تتحمّل العملية كلها سوى دقيقة واحدة واربعين ثانية . وقد وقّتها وراجعتها تكراراً . ومع كل تلك الدقة في التخطيط والتوقيت فقد كنت أشعر بلهثة ، وكنست المخزن قبل أن أفتح البابين الاماميين . وقد استعملت مئزر الامس كي لا تبدو جدة الثنايا لو انا استعملت مئزراً جديداً .

وشعرت بأن سير الزمن قد توقف ، وبأن الشمس قد وقفت في قبة السماء ، فإن عقرب الدقائق في ساعة والدي القديمة بدا وكأنه لا يريد أن يسير .

لم أكن قد خاطبت رعيتي منذ مدة طويلة ولكني في هذا الصباح خاطبتها بسبب عصبيتي ، فقلت :

ـ « يا اصدقائي ، ان ما انتم على وشك مشاهدته هو سر خفي . وأعلم ان بوسعي الاتكال على صمتكم . فاذا كان لدى أي منكم أي شعور حول الناحية الخلقية فإني أتحداه وأطلب اليه ان يغادر المكان » . وبعد فترة صمت تابعت حديثي فقلت :

ـ « لا اعتراضات ؟ حسناً . ولكن اذا علمت بان محارة أو جزرة تحدثت في الموضوع إلى غرباء فسيكون عقابها الموت بشوكة الطعام .

« واني اريد ان اشكركم جميعاً . فقد كنا معاً عمالاً متواضعين في الحقل ، وكنت انا خادماً مثلكم . ولكن الوضع يوشك ان يتبدل . فسأصبح انا السيد هنا من الآن فصاعداً . ولكني اعدكم بان اكون سيداً طيباً لطيفاً وفاهماً . ان اللحظة تقترب يا اصدقائي والستار يرتفع فالوداع » . وعندما سرت بمكنستي نحو الابواب الامامية سمعت صوتي يصرخ قائلاً : «داني ، اخرج من امعائي يا داني » . واصابتني رجفة قوية فاضطررت إلى الاتكاء على المكنسة لحظة قبل ان افتح الابواب .

نظرت إلى ساعة والدي فاذا بعقرب الساعات الاسود القصير يشير إلى التاسعة . اما عقرب الدقائق الطويل الرفيع فيشير إلى الساعة التاسعة الا ست دقائق . وكنت أشعر بدقات الساعة على راحة يدي .

١٥

كان اليوم يختلف عن بقية الايام كما تختلف الكلاب عن القطط ، وكما يختلف هذان عن الازهار وامواج البحر والحمى القرمزية . ان القاعدة في كثير من الولايات ، ومنها ولايتنا بالطبع ، هي ان تسقط الأمطار في كل عطلة آخر اسبوع طويلة ، والا فكيف يبتل الناس ويتعسون ؟ ان شمس تموز (يوليو) قاتلت بشجاعة وأجلت حشداً من الغيوم القطنية الشكل ، الا ان رؤساء الرعود تفقدوا حافة الأفق الغربية ـ تلك الذراع القوية حاملة الامطار من وادي نهر الهدسون ـ ثم تسلحوا بالبرق وبدؤوا يهمهمون . ولو ان القاعدة طبّقت كما يجب لكان على المطر ان يتأخر حتى تزدحم الشواطئ والطرقات العامة بأكبر عدد من طلاب النزهة في ثيابهم الصيفية .

ولم تكن اكثر المخازن الأخرى تفتح ابوابها قبل الساعة التاسعة والنصف . وكانت تلك فكرة مارولو ان افتح المحل في التاسعة كي يربح في مبيعات نصف ساعة . وقد فكرت بأن أغير من هذه العادة التي اكسبتنا من كراهية المخازن الأخرى اكثر مما يبرره ربحنا . الا ان مارولو لم يكن ليعبأ لذلك ، على افتراض انه عرف به . فقد كان اجنبياً مجرماً مستبداً يعتصر الفقراء ، ووغداً وابن كلب على ثمانية انواع . وبما اني قد قمت بتدميره فمن الطبيعي جداً ان تظهر لي فجأة كل عيوبه وجرائمه .

شعرت بعقرب الدقائق يزحف حول ساعة والدي ورأيت نفسي اكنس

بلؤم وبأعصاب متوترة منتظراً حلول اللحظة لتنفيذ مهمتي السهلة الخاطفة . فتنفست من فمي وقد ضغطت معدتي على رئتي كما اذكر انها كانت تفعل بي في الحرب قبل الهجوم .

وكان عدد الزبائن قليلاً بالنظر إلى ان الصباح هو صباح السبت الذي يسبق عطلة الرابع من تموز . وقد مرّ من امام المحل رجل مسن غريب يحمل قصبة صيد السمك وصندوقاً اخضر فيه بقية لوازم صيد السمك . وكان في طريقه إلى رصيف ميناء البلدة حيث يجلس طول يومه مدلدلاً سنارته في الماء شابكاً فيها الطعم . ولم يلتفت نحوي اذ مرّ بي الا اني اجبرته على الالتفات اذ قلت له : « أتمنى لك صيداً حسناً » .

« لا أراني اصطاد شيئاً » .

« هنالك الكثير من السمك » .

إني على الأقل جلبت انتباهه إلي ولو اني لم انجح في جعله متفائلاً .

ثم مرت جيني سنكل على الرصيف من امام المحل وكأنها تسير على عجلات بدلاً من الأرجل ، وقد تكون أقل من يمكن الاتكال على شهادته في نيوبايتاون . وقد حدث مرة انها أدارت مفتاح الغاز في الفرن ونسيت ان تشعله ، وكان من الممكن ان تنسف نفسها لو انها تذكرت أين كانت وضعت علبة الكبريت .

« صباح الخير يا آنسة جيني » .

« صباح الخير يا داني » .

« انني ايثان » .

« آه بالطبع . اني ذاهبة لأخبز كعكة » .

فحاولت ان اجعلها تتذكر هذه اللحظة وقلت لها : « اي نوع من الكعك ؟ »

« قد ابتعتها من فاني فارمر ولكن بطاقة العلبة قد سقطت وعليه فلست أدري حقاً من أي الانواع هي » .

يا لها من شاهدة لو احتجت إلى شهادتها . ثم لماذا تراها اسمتني بـ « داني ؟ » .

وكانت تلتصق بالرصيف قطعة من ورق تغليف السجائر المفضض عجزت المكنسة عن ازاحتها فانحنيت ورفعتها باصبعي . ان فئران المصرف هؤلاء يقومون فعلاً بدور الفئران خلال غياب القط بيكر . واني لأتقصد ان يراني هؤلاء اثناء مرورهم الا انهم لم يخرجوا الا قبل التاسعة بدقيقة واحدة وراحوا يعدون عبر الشارع إلى المصرف . فصحت بهم قائلاً : «اسرعوا ، اسرعوا ، أسرعوا! » فالتفتوا إلي ضاحكين وتابعوا هجومهم نحو باب المصرف .

والان قد حان الوقت . ولا يجب ان افكر بالعملية ككل ، بل ان اواجهها خطوة فخطوة ، وكل خطوة في مكانها كما تمرنت عليها . وتجاهلت اضطراب معدتي . ثم ركنت المكنسة بجانب قائمة الباب حيث يمكن رؤيتها وسرت ببطء مقصود .

ولمحت بطرف عيني سيارة آتية في الشارع وتمهّلت ريثما تمر . وسمعت صوتاً ينادي : « يا سيد هاولي! »

فاستدرت كما يفعل رجال العصابات في السينما اذ يفاجَأون فلا يستطيعون الهرب . وكانت السيارة الشيفروليه خضراء اللون المكسوة بالغبار ، قد وقفت عند الرصيف . يا الهي! ان راكبها كان ذلك الرجل الحكومي الذي يلبس سروال الآيفي ليج . ورأيت الارض الصلدة ترتجف امامي وكأني انظر إلى انعكاسها في الماء . وجمدت مكاني اذ رأيته يعبر الرصيف نحوي وقد خيّل الي ان دهراً قد انقضى قبل ان يصل الي ، ولكن هكذا كان شعوري . وتهافتت امام عيني خطتي الكاملة المدروسة طويلاً كما يتفتت صنع يد الانسان اذا ما واجه الهواء بعد طول الدفن . ففكرت بالهرب إلى المرحاض ثم متابعة مشروعي . الا ان ذلك لم يكن ممكناً اذ ليس بوسعي نقض قانون مورفي . وعلى الفكر ان يعمل بسرعة الضوء تقريباً . ان من المفجع ان يطرح المرء خطة دُرست طويلاً ومُثّلت مراراً عديدة حتى

اصبح انجازها لا يتعدى مجرد تكرار التمثيل مرة اخرى ، ولكنني قذفت بها ، طرحتها خارجاً وأقفلت الباب في وجهها . ولم يكن لي الخيار في ذلك . وقال الفكر الذي يعمل بسرعة الضوء : «شكراً للّه لأن هذا الرجل قد أقبل في هذه اللحظة ولم يتأخر دقيقة واحدة ، والا فإن تأخيره يكون بمثابة الحادث المميت الذي يكتبون عنه في قصص الجرائم » .

وراودتني كل هذه الافكار خلال سير ذلك الرجل مسافة اربع خطوات حتى وصل الي عبر الرصيف .

ولا بد انه لاحظ شيئاً ما في ملامحي فقال :

«ماذا بك يا سيد هاولي ؟ انك تعب ومريض» .

«انني مصاب بالاسهال» .

«ان هذا لا يمهل احداً . فأسرع» .

فعدوت إلى المرحاض واقفلت الباب خلفي وسحبت السلسلة ليتدفق صوت الماء مسموعاً . ولم اشعل النور بل جلست هنالك في الظلمة . وانخبطت معدتي المرتعدة حتى اني اصبت باسهال حقيقي . وبالتدريج هدأت وزال عني القلق والخفقان . وهنا أضفت فقرة أخرى إلى قانون مورفي ، وهي : «في حالة حصول حادث مفاجئ فإن عليك ان تبدل خطتك حالاً» .

وقد حدث لي فيما مضى لدى وقوع أزمة أو تعرضي لحالة خطر شديد ، اني كنت أنفصل عن نفسي فأقف ازاءها كشخص غريب مراقباً حركاتي وذهني . ولكني كنت ممتنعاً على الانفعالات المصطخبة فيما اراقب . واذ كنت الآن اجلس في الظلمة فقد رأيت ذلك الشخص الآخر يطوي خطته الكاملة ويضعها في صندوق ثم يقفله ويلقي به لا بعيداً عن النظر فحسب ، بل وخارج الفكر ايضاً . أقصد بذلك انني عندما وقفت اخيراً في الظلمة وأصلحت من امر ثيابي ووضعت يدي على الباب الخشبي الرقيق كنت قد عدت إلى شخصية موظف الحانوت المستعد لمجابهة يوم كثير الحركة . ولم يكن ذلك من باب التكتم بل تلك كانت الحقيقة . ثم تساءلت في نفسي عما

يريده ذلك الرجل ولم يكن ذلك التساؤل سوى رد فعل لخوفي الحقير من رجال الشرطة . فقلت له :

«انني آسف اذ تركتك تنتظر . ولست أذكر ما الذي قد أكلته فتسبب لي بكل هذا الاسهال» .

«يظهر بأن الاسهال منتشر الآن . فقد أصيبت زوجتي في الاسبوع الماضي» .

«لقد هاجمني الاسهال بمسدس وكدت لا أملك امر نفسي . ما الذي يمكن ان افعله لك ؟»

فبدا محرجاً ، وبدا كأنه يحاول تبرير شيء ما حتى انه كاد يكون خجلاً وقال : «ان الانسان يصنع اشياء غريبة» .

وكدت اقول له بأن جميع الناس ـ ولكنني سررت اذ امسكت لساني فقد كانت جملته الثانية هي :

«اني اقابل جميع انواع الناس خلال عملي» .

فدخلت وراء العداد ورفست صندوق القبعة برجلي فأقفلته . ثم اتكأت بكوعي فوق العداد .

أمر غريب . منذ خمس دقائق كنت أنظر إلى نفسي بعيون الناس الآخرين وكان ذلك مفروضاً علي . فإن ما يرونه لهو شيء مهم . وعندما اتى هذا الرجل عبر الرصيف كان يبدو كالقضاء الاسود المخيف المحتوم ، عدواً ، غولاً . ولكنني اذ كنت قد طويت خطتي و اطّرحتها عني فإن خطتي لم تعد جزءاً مني فبت اراه على شكل مختلف ـ لم يعد يربطه بي خير أو شر . وقد كان ، على ما أظن ، في مثل عمري ، ولكنه صيغ في مدرسة ، فكأنه نسق ، أو منوال طقسي ـ مخيف الوجه ذو شعر قصير مرتب ومرفوع إلى الوراء ، وقميص من الكتان الأبيض الخشن ذو ياقة مستعارة ورباط عنق من انتقاء زوجته التي لا بد ان تكون قد تلمست الرباط وقومته قبل خروج زوجها من البيت . وكانت بذلته رمادية داكنة واظافره مقلمة ومعتنىً بها

جيداً ، وقد وضع في اصبع يده اليسرى خاتم زواج ذهبي عريض كما شبك في عروة سترته قضيباً معدنياً صغيراً يوحي بالشعار الذي لا يريد ان يزين به عروة السترة . وبدا بأن فمه وعينيه الزرقاوين الداكنتين قد دُرّبت على الحزم ، مما جعل امره اكثر غرابة اذ لم يكن يبدو مازحاً الآن . لم يبد بأنه الرجل نفسه ذو الاسئلة المقتضبة المتراصة كعوارض النافذة الحديدية ، العارضة منها فوق الاخرى وعلى مسافات متساوية . وقلت له :

«انك قد حضرت إلى هنا من قبل ، فما هو عملك ؟»

«اني اعمل في دائرة العدل» .

«هل العدل هو عملك ؟»

فابتسم وقال : «نعم ، أو هذا على الاقل ما ارجوه . ولكنني لا اقوم بعمل رسمي الآن ، بل ولست متأكداً مما اذا كانت دائرتي تستحسن ما أنا بصدده» .

«ماذا بامكاني ان افعل لك ؟»

«ان الامر معقد نوعا ما ، ولست ادري من اين أبدأ به . فهو ليس وارداً في كتب القوانين . قد مضى علي اثنا عشر عاماً في الخدمة يا هاولي ، ولم يصادفني شيء كهذا قبل الآن» .

«لعلي اتمكن من مساعدتك لو انت أطلعتني على الامر» .

فابتسم لي وقال : «يصعب تفصيله . وقد قضيت ثلاث ساعات للوصول إلى هنا من نيويورك وأحتاج إلى مثلها في العودة بسبب ازدحام السير في هذه العطلة» .

«يبدو ان الامر خطير» .

«انه كذلك» .

«أظنك ذكرت بأن اسمك هو وولدر»

«ريتشارد وولدر»

«عما قليل سيفيض المكان بالزبائن يا سيد وولدر . ولست ادري حقاً

لماذا تأخروا حتى الآن . فهذه تجارةالمقانق والاطعمة اللذيذة . ويحسن بك ان تبدأ . فهل تراني وقعت في مشكل ؟ »

«ان المرء في مثل عملي يصادف اناساً من جميع الانواع : قساة وكذبة ومخادعين ومتدافعين واغبياء واذكياء . واكثر ما يسعك عمله هو ان تثور عليهم فتتخذ اتجاهاً ينهي عملك معهم . فهل ترى ذلك ؟ »

« كلا . لا اظن . اسمع يا وولدر ، بحق الجحيم ما الذي يزعجك ، انا لست غبياً تماماً . فقد تحدثت إلى السيد بيكر في المصرف وأنا أعلم انك تسعى وراء مخدّمي مارولو » .

فقال بهدوء : « وقد ألقيت القبض عليه » .

« بأية تهمة ؟ »

« دخول البلاد بصورة غير شرعية . ان اتهامه ليس من شأني . وكل ما هنالك انهم في الادارة يلقون الي بملف القضية فأتابعها . ولكني لا احاكمه ولا ادينه » .

« هل سيُبعَد ؟ »

« نعم » .

«هل هنالك من مجال امامه لو هو سعى ؟ أبوسعي مساعدته ؟ »

« كلا . انه لا يريد الكفاح وسيعترف بذنبه . انه يريد الرحيل » .

« يا للعنة! »

وعند ذلك دخل المحل ستة أو ثمانية زبائن . فقلت له : « لقد حذرتك » . ثم اني ذهبت لمساعدتهم فيما يريدونه أو يعتقدون انهم يريدونه . ومن حسن الحظ اني قد احتطت واستحضرت كومة من خبز الشطائر .

وهنا سألني وولدر : « ما هو سعر المخلل ؟ »

فأجبته : « ان السعر مسجل على البطاقة » .

فقال : « تسعة وثلاثون سنتاً يا سيدتي » .

ثم راح يزن ويغلّف ويجمع . ثم مرّ من امامي كي يسجل النقود على الآلة . وعندما ابتعد اخذت كيساً وفتحت الدرج واستعملت الكيس لأمسك بالمسدس

القديم به وأخذته إلى المرحاض وألقيت به في تنكة الزيت المعدّة له .

وعندما عدت قلت له : « انك تصلح لهذا العمل » .

« كنت اعمل لدى شركة جراند يونيون اثر تخرجي من المدرسة » .

« ان طريقتك في العمل تدل على خبرتك » .

« أليس لك من يساعدك في هذا المحل ؟ »

« سوف احضر ابني لهذه الغاية » .

ان الزبائن يأتون عادة في مجموعات ولا يأتون قط افراداً على فترات . ويعود الموظف فيرتّب المكان في الفترة ما بين المجموعة والاخرى . وهنالك شيء آخر . عندما يعمل رجلان في عمل واحد فانهما يأتيان إلى المحل متماثلين فتخف كثيراً حدة الاختلافات بينهما . وقد اكتشف الجيش بأن الابيض والاسود لا يتقاتلان فيما بينهما اذا وجدا شيئاً آخر يقاتلانه سوية . وزال خوفي الباطن من الشرطة عندما رأيت وولدر يزن نصف كيلو من البندورة ثم يقوم بعملية حسابية سجلها على أحد الأكياس .

وهنا انتهينا من اول مجموعة من الزبائن . فقلت له :

« يحسن ان تخبرني بسرعة عما تريد » .

« قد وعدت مارولو بالحضور إلى هنا . انه يريد ان يهبك المحل » .

« انك مخبول » . ورفعت عيني إلى الزبونة قائلاً : « عفوك يا سيدتي فانني احادث صديقي » .

« آه ، نعم ، طبعاً . حسناً ، نحن خمسة أشخاص منهم ثلاثة أطفال . فكم من المقانق يكفينا ؟ » .

« خمسة لكل من الأطفال ، فثلاثة لزوجك ، واثنتان لك . فيكون المجموع عشرين » .

« أتعتقد بأنهم سيأكلون الخمسة ؟ »

« انهم يعتقدون ذلك . أذاهبون انتم في رحلة ؟ »

« نعم » .

«اذن خذي خمسة اصابع اضافية كاحتياطي لما سيسقط في النار» .

وسألني وولدر قائلاً . «اين هي سدادات المغاسل ؟»

«هناك على الرف الخلفي حيث توجد لوازم التنظيف والامونيا» .

وكان حديثنا يتقطع على هذه الصورة . ومن خلال مقاطعة الزبائن كان هذا ما قاله وولدر .

«أشعر بأني مخضوض . اني اقوم بمهام وظيفتي فقط وهي على الأكثر مع المجرمين . واذا ما تكيفتَ على معاملة اللصوص والكذبة والمخادعين فان معاملة الرجل المستقيم تخضك خضاً» .

«ماذا تعني بالمستقيم ؟ ان مخدمي لم يهب شيئاً قط . انه قرد فظ» .

«أعلم ذلك . فنحن قد جعلناه يصبح كذلك . لقد اخبرني بقصته ، وانا أصدقه . كان قبل حضوره إلى البلاد قد حفظ الكلمات المنقوشة على اسفل تمثال الحرية... وحفظ كذلك نص وثيقة اعلان الاستقلال بلهجته . وكانت لائحة الحريات Bill of Rights كلمات من نار . وبعد ذلك كله لم يتمكن من دخول البلاد شرعياً . فوقع على رجل طيب ساعده ـ أخذ منه كل ما يملكُ وألقى به في الامواج ليخوض الماء إلى الشاطئ . ومر عليه وقت طويل حتى تعلم الاساليب الاميركية ، ولكنه تعلم ـ نعم ، تعلم . «على المرء ان يحتال على العيش»! هذا أول الأشياء التي سعى لها ولكنه تعلم فهو ليس غبياً . وقد جهد ساعياً وراء الشيء الأول» .

كانت احاديث الزبائن تتناثر بين جمل هذا الكلام ولذلك فإنه لم يسر في طريق يبلغ معها ذروة . ثم تابع حديثه قائلاً :

«ولذا فانه لم يتألم عندما وشى به شخص ما» .

«وشى به ؟»

«بالطبع ، ان كل ما يلزم لذلك هو مخابرة تلفونية» .

«من الذي فعل ذلك ؟»

«من يدري ؟ ان الادارة ليست سوى آلة . ليس عليك إلا ان تدير

الأرقام اللازمة فتسير الادارة في طريقها كالغسّالة الاوتوماتيكية» .

«ولماذا لم يهرب ؟»

«انه متعب ، متعب في صميم عظامه . وهو مشمئز ايضاً . ان لديه بعض المال ويرغب في العودة إلى صقلية» .

«اني ما زلت غير قادر على فهم موضوع المحل هذا» .

«ان مارولو صقلي ، وأنا قادر على معالجة النصابين فذلك هو عملي . اما الرجل الامين فانه يضيع عليّ عملي ويقذف بي خارجاً . وهذا ما حدث له . هناك رجل واحد لم يحاول ان يخدعه ، ولم يسرقه ، ولم يتباك امامه ، ولم ينصب عليه . ولقد حاول الرجل ان يعلم مارولو الاعتناء بنفسه في بلاد الاحرار الا ان الغبي لم يسعه ان يتعلم . انك قد اخفته مدة طويلة بأمانتك . فحاول ان يكتشف الغاية التي تخبئها وراء أمانتك ، فوجد بأن الامانة هي غايتك المجرّدة» .

«ماذا لو افترضنا انه كان على خطأ ؟»

«هو لا يعتقد بأنه على خطأ . ويريد ان يقيم منك نصباً لشيء كان قد آمن به فيما مضى . ان وثائق نقل ملكية المحل لديّ في السيارة . وكل ما عليك ان تفعله هو ان تسجلها لدى السلطات المختصة» .

«اني لست افهم ذلك» .

«وأنا ايضاً لا ادري ما اذا كنت فاهماً ام لا . انك تعلم طريقته في الحديث ـ انها كفرقعة حبات الذرة وهي فوق النار . واني احاول الآن ان افسّر ما حاول توضيحه لي . يبدو لي ان هذا الرجل قد خلق على صورة معينة وباتجاه معين . فاذا حاول تبديل طبيعته فان شيئاً ما سينفجر فيه ـ كأنه آلة نزعت تروسها منها ـ ويمرض . انه مثل محكمة بوليس تقيمها بنفسك . فاذا صدرت عنك أية مخالفة للقانون فإنك تدفع غرامة لتلك المحكمة . وانت ، من جهة ما ، العربون الذي يدفعه كي لا ينطفئ النور في وجهه» .

«ولماذا قمت انت بالرحلة إلى هنا ؟»

«لست ادري تماماً . شعرت بأن ذلك من واجبي ـ ربما كي اساعد على ابقاء النور مشتعلاً» .

«يا الهي! »

وامتلأ المحل عندئذ بأطفال يصخبون ونساء قد بللهن المطر . وسوف لا يخف الازدحام حتى الظهيرة على الاقل .

وخرج وولدر إلى سيارته ثم عاد شاقاً طريقه بين جماعة النساء ليصل إلى العداد حيث وضع مظروفاً من تلك المظاريف المقواة الكبيرة مربوطاً بشريط . ثم قال :

«يجب ان أذهب الآن . فعلي أن أقود السيارة ما لا يقل عن اربع ساعات في هذا الازدحام . وإن زوجتي ثائرة ، فقد قالت بأن في الإمكان تأجيل هذه المهمة . ولكني لست من رأيها» .

وقالت احدى النساء : «قد مضى علي عشر دقائق وانا بانتظار من يقوم بخدمتي يا سيد» .

«سآتيك حالاً يا سيدتي» .

وقال وولدر : «لقد سألت مارولو ما اذا كانت لديه رسالة يريد ان يوجهها اليك فقال لي بأن اقول لك الوداع فقط . فهل لديك رسالة له ؟» فقلت : «وانا بدوري اقول له الوداع» .

واكتنفتني موجة المعد الجائعة التي تطلب المواد الغذائية ، وكان هذا حسناً . اذ ألقيت بالمظروف في الدرج تحت آلة تسجيل النقد وانهمكت في العمل ونسيت كآبتي .

١٦

انقضى النهار بسرعة ومع ذلك فقد كان لا نهاية له . ولم تكن هنالك اية صلة بين موعد اغلاق المحل مساء وفتحه صباحاً ، فقد بدا موعد الفتح سحيقاً لدرجة كدت معها الا اذكره . وقد اتى جو عندما كنت على وشك اقفال المحل وبدون ان أسأله فتحت له زجاجة من البيرة وناولتها له ثم فتحت أخرى لنفسي وهذا ما لم يسبق لي ان فعلته قط . حاولت ان اخبره عن مارولو والمخزن فوجدت بأن ذلك ليس باستطاعتي . لم يكن باستطاعتي ايضاً ان اخبره بالقصة التي تقبلتها بدلاً من الحقيقة .

فقال : « انك تبدو متعباً » .

« أظن ذلك . انظر إلى تلك الرفوف كيف فرغت . فقد اشترى الزبائن اشياء لا يريدونها ولا يحتاجونها . ثم اني أفرغت محتويات آلة تسجيل النقد في كيس الخيش الرمادي ، واضفت اليها النقود التي احضرهالي السيد بيكر من المصرف ووضعت مظروف المقوى الكبير فوقها ثم ربطت الكيس بقطعة خيط .

وقال : « يجب ان لا تترك الأموال هنا » .

« لن اتركها هنا بل سأخفيها . هل تريد زجاجة اخرى ؟ »

« طبعاً » .

« وانا ايضاً » .

«انك مستمع ممتاز . فقد صرت اصدق حكاياتي» .

« متلاً ؟ »

« مثل مشاعري الغريزية المثلثة . فقد خالجني شعور هذا الصباح ، بل استيقظت عليه . وأعتقد بأني قد حلمت به . ولكنه شعور قوي . لم أعتقد بأن المصرف سيسرق اليوم . عرفت ذلك . عرفته وانا ما زلت مستلقياً في سريري . اننا نضع اسافين صغيرة على الأرض تحت شارات الانذار بالخطر وذلك خوفاً من ان ندوسها بأقدامنا خطأ . وكان أول شيء فعلته هذا الصباح هو اني أزلت تلك الأسافين . فإنني بنتيجة ذلك الشعور كنت متوقعاً حدوث شيء فتحضّرت له . فبماذا تفسر هذا ؟ »

« ربما يكون شخص ما عزم على السرقة فقرأت انت افكاره ، وعند ذلك عدل عن عزمه » .

«انك تسهل لي ان أخمّن خطأ ولكن مع حفظ كرامتي » .

«اذن كيف تفسره انت ؟ »

«اللّه اعلم . ولكنني اعتقد بأنني قد مثلت امامك طويلاً دور من يعرف كل شيء لدرجة صرت معها أصدق ما اقوله . الا انني كنت منزعجاً في الحقيقة » .

«أتعلم يا مورفي ، انني متعب لدرجة لا اقدر معها على تنظيف المحل» .

« لا تترك تلك النقود هنا الليلة . خذها إلى البيت » .

«حسناً ، اذا كنت ترى ذلك» .

«انني ما زلت أشعر بأن هناك شيئاً غير طبيعي » .

فتحت صندوق القبعة الجلدي ووضعت كيس النقود مع قبعتي ذات الريشة وأغلقت الصندوق وربطته . وكان جو يراقب ما أعمل فقال : «اني ذاهب إلى نيويورك وسآخذ غرفة في نزل فأخلع حذائي واتفرج على تايمس سكوير طيلة يومين » .

«وموعدك ؟»

«لقد ألغيته . ولكنني سأطلب زجاجة ويسكي وفتاة . وليس علي ان احدّث أياً منهما» .

«اظنني قلت لك بأننا قد نذهب في رحلة قصيرة» .

«أرجو ذلك فإنكم بحاجة اليها . هل انت مستعد للذهاب إلى البيت ؟»

«ما زال عليّ القيام بأمر أو اثنين . اذهب انت يا جو واخلع نعليك» .

وكان اول ما علي ان افعله هو ان اخابر ماري وأقول لها بأني سأتأخر قليلاً . فقالت :

«حسناً ، ولكنٍ أسرع ، أسرع . اخبار ، اخبار ، اخبار» .

«ألا يمكنك ان تنهي إلي هذه الأخبار الآن يا حبيبتي ؟»

«كلا . فانني اريد ان أرى وجهك» .

علقتُ قناع ميكي ماوس فوق آلة تسجيل النقد بحيث غطى نافذة الارقام . ثم لبست سترتي وقبعتي وأطفأت النور وجلست فوق العداد ودليت رجلي .فوكزني جزع مورفي في أحد جانبي واستند كتفي إلى آلة تسجيل النقد كما يستند إلى طرف كتاب . كانت الستائر مرفوعة ولذلك فقد دخل نور مساء الصيف إلى المكان من خلال حديد النوافذ المشبك وخيم الهدوء ، هدوء كصوت ماء متدفق ، وكان ذلك الهدوء هو ما احتاج اليه . وتحسست بيدي جيب سترتي الأيسر لأرى ما هو هذا الجسم الذي تدفعه آلة تسجيل النقد في جانبي . التعويذة ـ فأمسكتها بيدي الاثنتين وحدقت بها . ظننت امس اني احتاجها . فهل نسيت ان اعيدها إلى مكانها ام ان احتفاظي بها لم يكن امراً عرضياً ؟ لست ادري .

وكما هي العادة دائماً شعرت بتأثيرها علي عندما تتبعت بأصابعي خطوطها . ان لونها في الظهيرة يكون بلون الورد اما الآن ، في المساء ، فقد دكن لونها وكأن دماً بلون الارجوان يتدفق منها .

لم أر بأني أحتاج الا إلى إعادة الترتيب ، تبديل النموذج ، لو اني

كنت في حديقة نقل منها البيت خلال الليل . يجب ان امثل دوراً حتى أصبح قادراً على النهوض بالعمل . وشغلت فكري بالعمل كي أدع مجالاً للاشياء الجديدة تدخل ببطء فأتمكن من عدها والتعرف عليها اثناء دخولها . ورأيت في الرفوف ، التي توالت عليها الهجمات طول النهار ، فراغات كثيرة حيث اخترقتها جموع الجائعين فبدت تلك الفراغات كالاسنان المخلوعة ، كبلدة مسوّرة بعد ان عملت مدفعية العدو في أسوارها .

وقلت : فلنصلّ على أرواح اصدقائنا الراحلين . لصف عصير البندورة الاحمر ، والمخللات المجيدة والتوابل . لا يسعنا ان نكرس ، لا يسعنا ان نقدّس ـ كلا ، ليس هذا ما اريد ان اقوله ، يجدر بنا نحن الاحياء ان ـ كلا ، وليس هذا . ارجو لك الحظ يا الفيو وأتمنى لك ان تستريح من الألم . انك على خطأ بالطبع ، ولكن الخطأ قد يكون بمثابة كمّادة لك . انك قد ضحيت ضحية لأنك كنت الضحية .

كان الناس المارون في الشارع يسببون ذبذبة للنور المتسرب من خلال النوافذ والأبواب . وبحثت بين آثار ذلك النهار عن كلمات وولدر وشكل وجهه عندما قال :

«انها محكمة بوليس تقيمها بنفسك . فاذا صدرت منك أية مخالفة للقانون فإنك تدفع غرامة لتلك المحكمة . وأنت ، من وجهة ما ، العربون الذي يدفعه مارولو كي لا ينطفئ النور» . هذا ما قاله الرجل . ولقد هز وولدر ، المطمئن إلي في عمله بين المجرمين ، شعاع ضيق من الامانة .

كي لا ينطفئ النور . هل قالها ألفيو بتلك الطريقة ؟ ان وولدر يعلم كيف قالها الفيو ، ولكنه يعلم بان هذا ما عناه مارولو .

عدت فتتبعت الخطوط الثعبانية على جسم التعويذة فوصلت إلى البدء الذي كان النهاية ايضاً . كان ذلك النور قديماً ـ منذ ثلاثة آلاف سنة ، منذ كانت جموع المارولي تخترق المذائب لتشترك في الاحتفالات ، التي تقام على تلة البلاتين قرب روما ، وتقدم قرابينها إلى الاله «بان» حامي القطعان

من الذئاب . ان ذلك النور لم ينطفئ قط . ومارولو الايطالي الاسمر هو الضحية التي تُرفع للاله نفسه وللسبب نفسه . وتخيلته ثانية يرفع رأسه خلال طيات عنقه السمين وكتفيه اللتين تؤلمانه ، رأيت الرأس النبيل والعينين البارقتين ـ والنور . وتساءلت في نفسي عما سيكون أجري ومتى استحقه . ولو اني ذهبت بالتعويذة إلى الميناء القديم والقيت بها في البحر ، فهل تكون تلك كفارة مقبولة ؟

لم اسدل الستائر فقد كنت ادعها مرفوعة خلال العطل الطويلة وذلك كي يتمكن رجال الشرطة من مراقبة الحانوت . كان المخزن مظلماً . فأقفلت باب الممر ، وكنت قد سرت نصف طريقي عبر الشارع عندما تذكرت صندوق القبعة خلف العداد . الا انني لم ارجع لآخذه . كانت الريح ثائرة تصفر مساء ذاك السبت اذ هبت بقوة من الجنوب الشرقي كما يجب ان تفعل لتأتي بالأمطار وتبلل أجساد المتنزهين . فكرت بان أضع حليباً صباح الثلاثاء للقطة وأدعوها إلى ضيافتي في الحانوت .

١٧

لست أعلم بالتأكيد دخائل الناس الآخرين ـ انهم يختلفون ويتشابهون في آن واحد . ولا يمكنني سوى التخمين . ولكنني أعرف كيف أتملص وأتلوى لأتجنب الافضاء بحقيقة مؤلمة ، وأخيراً ، عندما لا يبقى لي مجال للاختيار ، أؤجلها آملاً ان تختفي . هل يقول الناس الاخرون بجد : «سأفكر بذلك غداً بعد ان اكون قد استرحت» ثم يحلمون بمستقبل مرجوّ أو ماض منعتق كما يقاوم الطفل بشدة حتمية وقت النوم .

وفي الطريق إلى البيت قادتني خطواتي المتلكئة خلال نبع من الحقيقة . كان الماضي مغروساً بأسنان تنّين خصبة . ولم يكن شيئاً غير طبيعي ان يلجأ المرء في الماضي إلى ملجأ امين ؛ الا ان العمة ديبورا كانت تعترض ذلك السبيل فارشة جناحاً كبيراً متصدياً لسرب من الأكاذيب ، وعيناها تبرقان بعلامات الاستفهام .

وقفت امام نافذة دكان جواهري ، انظر إلى اسورة ساعات المعصم ، والى اطارات الزجاج ، أطول مدة يسمح بها الذوق . وكان المساء العاصف الرطب يبشّر بعاصفة رعدية .

كان هناك كتيرون من امثال العمة ديبورا في اوائل القرن الماضي ، جزائر من الفضول والمعرفة . ربما كانت الرغبة في الابتعاد عن عالم الامراء هو الذي دفع بالبعض إلى الكتب ، أو ربما كان الجلوس الطويل الذي يمتد

احياناً إلى ثلاث سنين واحياناً إلى الابد انتظاراً لعودة السفن إلى الوطن هو الذي ألجأهم الي نوع الكتب التي تملأ أقبيتنا . لقد كانت عمتنا الكبرى ، ساحرة وعرّافة في الوقت نفسه ، كانت تلقي الي بكلمات سحر فارغة ؛ ولقد وجدت ، لدى تأملي هذه الكلمات ، انها ما زالت تحتفظ بسحرها ، ولكن ليس بهرائها .

كانت تلقي الي بكلمات لا أفهم لها معنى ، ولست اعرف لها معنى ، ولست أعرف لها من لغة ، ولكن لهجتها لدي القاء تلك الكلمات كانت كالقضاء النافذ . وبما اني ما زلت أذكر تلك الكلمات فلا بد انها كانت كلمات عجيبة .

ومرّ مدير بلدية نيو بايتاون منطلقاً بقربي ، ونظراته كانت مركزة في الارض ، كسرطان هارب ولم يلق الي بتحية المساء الا رداً على تحيتي له .

كنت اشعر باني اتحسس بيتي ، بيت هاولي القديم ، وذلك قبل ان اصل البيت بمسافة . كان بيتي بالأمس يتخبط في نسيج من الغم ، اما في هذا المساءالمتاخم للعاصفة الرعدية فإنه يشع بالتهيّج . انه كحجر كريم يتخذ الالوان التي يعكسها عليه النهار . لقد سمعت ماري صوت خطواتي على الممشى فتذبذب خيالها من خلف حاجز الذباب كما يتذبذب نور الشمعة . فمدت يدها وكأنها تحمل بها رزمة وقالت : «لن تستطيع ان (تحزر) . فرددت على مسمعها بعض كلمات العمة ديبورا السحرية ، فقالت دون ان تفهم شيئاً : «لا بأس ولكنك لم تحزر» .

«لعل معجباً خفياً قد اهدانا دينصوراً »*

«ولا هذا» . ولكن الحقيقة غريبة ، غرابة الهدية التي خمنتها . الا اني لن اطلعك على شيء ان لم تغتسل ، اذ يجب ان تكون نظيفاً حتى تسمع الخبر» .

---

* حيوان الدينصور المنقرض .

«اني اسمع موسيقى سخيفة لواحد من ذوي الاقفية الزرقاء» . وكان الصوت يصدر عن غرفة الجلوس حيث كان الن يصغي إلى أغنية مائعة ، وقد بدا كأنه لا يشعر بما حوله . فقلت :«اظن باني ساقضي عليه حرقاً يا زوجتي السماوية» .

«انك لن تفعل ذلك . لن تفعل ذلك عندما تسمع الخبر» .

«أليس بوسعك اخباري وانا قذر ؟»

«كلا» .

فمررت بغرفة الجلوس فرد ألن تحيتي بصوت كصوت طرقعة اللبان . فقلت له :

«آمل ان يكون قلبك الولهان المتوحد قد طار» .

فقال :«هه ؟»

«هه يا سيدي! في آخر مرة سمعت فيها هذه الاغنية رأيت شخصاً يتناول الاسطوانة ويلقي بها إلى الارض» .

«هذه اغنية الموسم ، وقد بيع منها مليون نسخة خلال أسبوعين» .

«عظيم! يسرني ان تملك المستقبل بيديك» ثم صعدت الى غرفتي وما يزال صوت الأغنية يلعلع .

وكانت ايلين تسير متحككة بي وفي يدها كتاب قد وضعت اصبعها بين أوراقه . وكنت أعرف اسلوبها . انها تسألني ما تعتقد اني قد أعتبره سؤالاً مهمّاً ثم ينزلق لسانها بما تريد ماري ان تقوله لي . واذ يتاح لايلين ان تطلعني على الاشياء قبل والدتها فإنها تشعر بأنها تنال لوناً من النصر . لست اقول بأنها ثرثارة ، ولكنها كذلك في الواقع . فأشرت اليها باصبعين متقاطعتين وقلت : «قولي ما لديك ولن أفتني ما تقولين» .

«ولكن يا أبي - »

«لقد أقسمت يا آنسة ، ولن أخل بقسمي» . ثم طرقت الباب خلفي وصحت من ورائه «ان غرفة الحمام هي قلعة الرجل» . وسمعتها تضحك .

ولم أكن أثق بالصغار اذ يضحكون من نكاتي . ثم اني فركت وجهي حتى احمرّ ونظفت اسناني حتى أدميت لثتي . وحلقت ذقني ولبست قميصاً نظيفاً وعقدت عقدة العنق التي تكرهها ابنتي ، وذلك كاعلان عن ثورتي .

وكان قلب ماري يخفق شوقاً لإطلاعي .

« انك لن تصدق » .

« تكلمي » .

« ان مارجي هي أحسن صديقاتي اطلاقاً » .

« دعيني اقتبس هذا الكلام ، ان الرجل الذي اخترع ساعة العصفور الدّقاق قد مات . هذا خبر قديم ولكن لابأس به » .

« لن يخطر الامر على بالك ـ انها ستعتني بالولدين كي نتمكن من الذهاب في رحلتنا وحيدين » .

« هل هذه خدعة ؟ »

« لم اطلب اليها ذلك بل هي التي تقدمت بالفكرة » .

« سيأكلانها حية » .

« انهما يجنان بها حباً ، وهي تريد ان تأخذهما معها إلى نيويورك في قطار الاحد فتمكث معهما ليلة الاحد في بيت اصدقاء لها ، ثم تذهب بهما صباح الاثنين لمشاهدة رفع العلم ذي الخمسين نجمة وحضور الاستعراض في روكفلر سنتر ، ورؤية كل ما يمكن ان يُشاهَد هناك .

« ان هذا أكثر مما بوسعي تصديقه » .

« أليس هذا هو الحل الأمثل ؟ »

« أجل . وسنطير نحن إلى مونتوك ايتها الفارة » .

« لقد خابرت المزرعة وحجزت غرفة لنا » .

« ان هذا هذيان . أشعر بأني سأنفجر . وها قد بدأت بالانفجار » .

كنت عزمت على إطلاعها على امر الحانوت ولكن حشداً من الأخبار كفيل بان يسبّب امساكاً لها ، والافضل ان أتريث فاخبرها في المزرعة .

وزحفت ايلين إلى جانبي في المطبخ وقالت : «ان ذلك الشيء وردي اللون مفقود من الخزانة يا أبي» .

«انه معي . ها هو في جيبي . خذيه وأعيديه إلى مكانه» .

«لقد طلبت الينا بألا نخرجه من الخزانة» .

«وما ازال عند كلامي ، ان عقوبة أخذه هي الموت» .

فاختطفته مني بشراهة بكلتا يديها وذهبت به إلى غرفة الجلوس .

وكانت ماري تنظر الي بغموض وغم ثم قالت : «لم حملته في جيبك يا ايثان ؟»

«لجلب الحظ يا حبيبتي . وقد نجح!»

١٨

امطرت السماء يوم الاحد في الثالث من تموز (يوليو) كما هي العادة في قطرات اكبر من القطرات العادية . فاتخذنا لنا طريقاً بين خطوط السيارات المبللة . وكنا نشعر في الوقت نفسه بعظمة وعجز وضياع كطائر عاش في قفص تم اطلق سرّاحه فشعر بالخوف حالما لاحت له اسنان الحرية . وكانت ماري تجلس مستقيمة وقد فاحت رائحة ثوبها القطني الحديث الكي .

« هل انت سعيدة ـ هل انت فرحة ؟ »

« لا املك الا ان افكر في الاولاد » .

« اعلم ذلك » . كانت العمة ديبورا تصف هذه الحالة بالوحدة السعيدة . وأردفت : « طيري يا عصفورتي! فما هذه القلابات في ياقتك سوى اجنحة ايتها السجينة » .

فابتسمت والتصقت بي وقالت : « جميل ما قلت ، ومع ذلك فاني ما زلت افكر بالاولاد . ماذا عساهم يفعلون الآن يا ترى ؟ »

« لعلهم يفعلون أي شيء يسعك تخمينه الا التساؤل عما نفعله نحن » .

اعتقد بأنك على صواب . فانهما لا يعبآن بشيء » .

« اذن دعينا نقتد بهما » « عندما رأيت سفينتك تقترب يا ثعبان النيل عرفت بان اليوم يومنا . اما اوكتافيوس فانه سيستجدي خبزه هذه الليلة من الرعاة اليونان » .

«انت مخبول . انك تعلم بان ألن لا يتطلع امامه وهو يمشي ، وقد يسير في الشارع وسط السيارات عكس اشارة الضوء » .

«اعرف ذلك . وايلين الصغيرة المسكينة بقدميها المتشوهتين . على كل فلها قلب طيب ووجه جميل . وقد يحبها احد ما ويبتر قدميها » .

« آه! دعني ازعج نفسي قليلاً فأشعر بأني احسن حالاً » .

«لم اسمع هذا المعنى يقال بأحسن من هذه الكلمات . فهل تريدين ان نراجع معاً كل الاحتمالات المخيفة ؟ »

«انك تعلم ماذا اعني » .

«اعلم . ولكنك انت يا صاحبة السمو التي ادخلت هذا المرض إلى العائلة . ولقد سرى في اناث العائلة فقط . يا للعلقات الصغيرة » .

«ما من أحد يحب أولاده اكثر منك » .

«ان اتمي يساوي اثم عشرة اشخاص لأني خبيث » .

«انك تعجبني » .

«آه ـ هذا هو نوع الازعاج الذي ارتاح اليه . أترين ذلك الكثيب ؟ انظري كيف تصمد نباتات الرتم والخنشار فوقه بينما يخرج الرمل من تحتها مثل موجات صغيرة صلدة . ان المطر يصطدم بالارض ثم يقفز صاعداً في ضباب خفيف . انني دائماً اعتقد بان هذه الكثبان شبيهة بدارتمور أو اكسمور مع اني لم ار الاثنتين الا في الكتب . ربما كان المهاجرون الاولون القادمون من ديفون يشعرون بأنهم في وطنهم هنا . هل تظنين بان هذا المكان مسكون ؟ »

«اذا لم يكن مسكوناً بالارواح فستجعله انت كذلك » .

«لا تمتدحيني الا اذا كنت مخلصة في مديحك » .

«دعنا من هذا الحديث الآن . لاحظ الطريق الجانبية حيث تقوم لافتة تحمل اسم مور كروفت » .

سرت تلك الطريق . وان ما أعجبني في ذلك الطرف الوديع من لونج

آيلاند ان المطر يغوص فيه ولكن لا يجعله موحلاً .

كان البيت المخصص لنا يبدو كبيت الدمية ، حلواً ومخططاً ذا فراش مزدوج ، مثل الفطائر السمينة ، يعلن عنه في طول البلاد وعرضها .

«ان الفراش لا يعجبني » .

« لا تكن أبله ، انه يتيح لك ان تطالني » .

«ان بوسعي ان افعل ما هو احسن من ذلك» .

تناولنا طعام العشاء متخذين مظهر وجاهة جوفاء ، وأكلنا (الجمبري) مشوياً وتناولنا معه كميات كبيرة من النبيذ الابيض مما جعل عيني ماري تلتمعان . ثم جعلتها تشرب كثيراً من البراندي وشربت معها حتى أصبح رأسي يطنّ . ولكنها مع ذلك لم تنس رقم المنزل المحجوز لنا كما تمكنت ايضاً من العثور على ثقب الباب . ولم اكن تملاً لدرجة لا تسمح لي بمداورتها كما اريد ، الا انه كان بوسعها ان تتخلص مني لو هي ارادت ذلك .

ثم أتعبها الترف فالقت برأسها على ذراعي اليمنى مبتسمة وأخرجت من حلقها اصواتا تثاؤبية صغيرة . وقالت : « هل هناك ما يزعجك ؟ »

« يا لأفكارك! هل تحلمين قبل النوم ؟ »

«انك تتعب كثيراً كي تسعدني . ولكني لا استطيع ان اعرف ماذا يدور في ذهنك فهل انت منزعج ؟ »

يا لذلك الوقت ، الوقت الذي تقف فيه على عتبة النوم ، من وقت غريب تنشط فيه مقدرتك على الرؤيا .

وقلت لها : «اجل ، اني قلق . فهل هذا يريح افكارك ؟ سأطلعك على سر شرط الا تفشيه ، ان السماء قد اطبقت على الأرض وقد مست طرفي قطعة منها » .

ولكنها راحت في نوم عذب والبسمة على شفتيها . وسحبتُ ذراعي من تحت رأسها ووقفت بين السريرين . كان المطر قد انقطع ، ولم يكن يسمع

سوى صوت قطرات تتساقط من السطح ، وتألق خيال القمر ذي الايام السبعة خلال ألوف النقط . . أتمنى لك احلاماً جميلة يا عزيزتي . لا تدعي السماء تطبق علينا .

كان فراشي بارداً وفائق النعومة ولكني استطعت رؤية القمر يشق طريقه بين الغيوم الهاربة من البحر . وسمعت صوت طير الواق يصرخ كشبح . وشبكت أصابع يدي الاثنتين على شكل صليب لبرهة وجيزة ، لا بل على شكل صليب مزدوج . ان ما مسّ طرفي من السماء المنطبقة لا يزيد في حجمه عن حبة حمص .

على افتراض ان ثمة رعداً كان في الفجر الا أني لم اسمعه . وعندما خرجت إلى الخارج كان كل شيء ذهباً اخضر ، يسوّده نبات الخنشارة ، في حين يبدو نبات السرخس اصفر شاحباً ، اما لون كثبان الرمل فكانت حمراء ضاربة إلى الصفرة وبدا المحيط الأطلسي عن بعد متألقاً كالفضة المطروقة . وقامت بجانب منزلنا شجرة سنديان عجوز عوجاء نمت قرب جذرها حشيشة بحر بحجم مخدة تتماوج بلون رمادي لؤلؤي يضرب إلى البياض . وكان هنالك درب منحن محصب يمر بين بيوت الدمى ، ويؤدي إلى المركز الذي يزوّد تلك البيوت بالطعام . هنا كان المكتب ، ومكان عرضت فيه للبيع بطاقات وهدايا وطوابع بريدية ، ثم المطعم ، وبه موائد ذات اغطية مطرزة بالأزرق .

كان المدير في مكتبه يراجع كشفاً ما . وكنت قد لاحظته عندما سجلنا اسماءنا وهو رجل ذو شعر خفيف ، وقد بدا لي انه في غير حاجة لحلاقة ذقنه ، كان في الوقت ذاته خبيثاً وماجناً وقد جعله مرحنا يعتقد تمام الاعتقاد اننا آتين إلى هذا المكان خفية حتى كدت أسجل اسمينا باسم جون سميث وزوجته وذلك كي يُسرّ . انه يحاول ان يشتم رائحة الاثم بانفه . وفي الحقيقة بدا كأن بوسعه ان يرى بأنفه كحيوان الخلد .

قلت له : « صباح الخير » .

فرفع أنفه ونظر إلي قائلاً : «هل نمتما جيداً» .

«نوماً عميقاً . هل يا ترى بالامكان ان احمل صينية الافطار إلى زوجتي ؟»

«اننا نقدم طعام الافطار في المطعم فقط وذلك فيما بين السابعة والنصف والتاسعة والنصف» .

«وإذا حملته اليها بنفسي ؟»

«ان هذا ضد النظام» .

«ألا يمكننا تجاوز النظام هذه المرة فقط ؟ انت تعلم وضعنا» . قلت ذلك اعتقاداً مني بأنه يحب ان يسمعه .

فبدا عليه السرور وكان ذلك كسباً لي . فتندّت عيناه وارتجف انفه وقال : «انها تشعر بخجل ، أليس كذلك ؟»

«بيني وبينك ، انت تعرف هذه الامور» .

«لست ادري ما سيقوله الطباخ» .

«اسأله وقل له ان ثمة دولاراً في انتظاره» .

كان الطباخ يونانياً وقد أعجبته فكرة الدولار . وبعد فترة حملت صينية كبيرة مغطاة بفوطة سفرة وسرت بها في الدرب المفروش بالحصباء ووضعتها على مقعد خشبي بجانب كوخنا ثم التقطت باقة زهور صغيرة اكراماً لفطور حبيبتي الملكي .

لعل ماري كانت مستيقظة ولكنها فتحت عينيها وقالت : «انني اشم رائحة القهوة . آه! آه! يا لك من زوج طيب ـ آه ـ وأزهار ايضاً» .

تناولنا طعام الافطار وشربنا القهوة ، وكانت ماري جالسة في الفراش مسندة ظهرها إلى أعلى السرير ، وبدت أصغر سناً واكثر براءة من ابنتها . وتبادلنا الحديث بجد وهيبة عن النوم الجيد الذي ناله كل منا .

وشعرت بأن اللحظة قد حانت لإخبارها فقلت : «أريحي نفسك ، فلدي ما أرويه لك من الأخبار المحزنة والمفرحة» .

« حسناً . هل اشتريت المحيط ؟ »

«ان مارولو في مأزق » .

« ماذا ؟ »

« كان قد حضر إلى امريكا منذ زمن طويل دون الحصول على تصريح بالدخول » .

« حسناً ـ وماذا يعني ذلك ؟ »

« قد طُلب اليه بأن يترك البلاد » .

« هل سيبعدونه ؟ »

« اجل » .

« ولكن هذا امر مزعج » .

« انه ليس امراً حسناً » .

« وماذا سنفعل ؟ ماذا ستفعل انت ؟ »

« قد انتهت ايام الوظيفة . وباعني الحانوت ، أو بالأحرى قد باعه لك . فالمال مالك . انه يريد ان يحوّل ممتلكاته إلى نقد وهو معجب بي . وقد وهبني الحانوت هبة تقريباً اذ لم يطلب فيه سوى ثلاثة آلاف دولار » .

« ولكن هذا شيء مريع . فهل تعني ـ هل تعني انك تملك الحانوت ؟ »

« نعم » .

« انك لست موظفاً! لست موظفاً بعد! »

ثم انها انطرحت على وجهها فوق المخدة وبكت ، بكت بكاءً تملؤه الزفرات مثل بكاء عبد لدى انعتاقه من رق طويل .

فخرجت وجلست تحت الشمس في الشرفة الأمامية منتظراً ان توافيني ، وعندما انهت غسل وجهها وتسريح شعرها لبست رداءها المنزلي وفتحت الباب ودعتني . وكانت تختلف ، وستبقى دوماً مختلفة . انها لم تقل شيئاً انما بدا ذلك من طريقتها في رفع عنقها ورأسها . فقد اصبحنا اسياداً ثانية .

وقالت : «الا يمكننا فعل أي شيء لمساعدة مارولو ؟»

«لا شيء ابداً» .

«كيف حدث الامر ؟ من الذي اكتشفه ؟»

«لست ادري» .

«انه انسان طيب ولا يجب ان يفعلوا ذلك به . كيف واجه الامر ؟»

«برباطة جأش وبعزة نفس» .

سرنا متمشين على الشاطئ كما كنا نرغب ، وجلسنا على الرمل ، والتقطنا اصدافاً صغيرة برّاقة وأريناها بعضنا لبعض كما يجب ، ثم تحدثنا عن عجيب صنع اللّه ، عن البحر والهواء والنور والشمس التي تبرّد الريح حرارتها ، وكنا نتناول هذه الامور بإعجاب جدي وكأن الخالق كان يصغي إلى ثنائنا .

كانت افكار ماري مشتتة . وأعتقد انها كانت ترغب في العودة إلى نيوبايتاون في وضعها الجديد ، لترى اختلاف نظرات النساء اليها ، واختلاف لهجة التحيات في شوارع البلدة . وأعتقد انها لم تعد «المسكينة ماري هاولي ، التي تتعب كثيراً» . بل إنها أصبحت السيدة إيثان آلن هاولي ، وستبقى كذلك ابداً . وكان علي ان اجعلها في ذلك المركز دائماً . ولكنها امضت بقية النهار هناك حسب برنامجنا الموضوع ، ولأننا كنا نملك المال لندفع الاجرة . اما الاحداث التي كانت تقلبها وتتأملها فكانت تمثل أيامنا القادمة المتألقة .

وتناولنا طعام الغذاء في غرفة الطعام ذات الموائد المغطاة بأغطية مطرزة بالازرق . ويبدو ان سلوكها ، تبعاً لشعورها بمركزها الجديد ومكانتها قد خيّب امل السيد مول . وأنفه الرقيق ، الذي يهتز بغبطة عندما يشتم رائحة الإثم ، كان مضطرباً . وكان وهمه قد تبدّد تماماً عندما اقترب من مائدتنا ليقول بان السيدة هاولي مطلوبة على التلفون .

فقلت لها : «ومن يعلم بأننا هنا ؟»

« مارجي بالطبع . فقد اضطررت إلى اخبارها بسبب الاولاد . آه! بسبب ألن ، انك تعلم بانه لا ينظر امامه بحذر عندما يسير » . وعادت بعد ان انهت حديثها على التلفون وقالت :«لن تستطيع ان تحزر . لن يمكنك ذلك» .

« باستطاعتي التخمين ان الاخبار حسنة » .

« هل سمعت الاخبار ؟ هل استمعت إلى الراديو ؟ »

واستطعت ، من لهجة صوتها ، ان أعلم بأن الاخبار التي سمعتها لم تكن اخباراً سيئة .

« هل لك ان تخبريني اولاً ثم تعودي الي التفكير بالكيفية التي تكلمت معك بها ؟ »

« اني لا استطيع ان اصدق » .

« هل يمكنك ان تدعيني احاول التصديق ؟ »

« لقد فاز ألن وقد ذكر اسمه بالتكريم » .

« ماذا ؟ ألن ؟ أخبريني » .

« في تلك المباراة الكتابية ، ان اسمه سيذكر في طول البلاد وعرضها » .

« معقول ؟ »

« تلك هي الحقيقة . ان خمسة هم الذين نجحوا فقط . وقد ربح ساعة ايضاً ، وسيظهر في التلفزيون . هل تصدق ذلك ؟ شخصية شهيرة في العائلة » .

« لا استطيع التصديق . أتعنين ان تلك الميوعة كانت مصطنعة ؟ يا له من ممثل! اذن فلم يكن قلبه المتيّم المتوحد منبوذاً كما تقول تلك الاغنية التي كان يستمع اليها باستمرار » .

« لا تسخر منه . تأمل ، ان ابننا هو واحد من خمسة فتيان في كل الولايات المتحدة يكسبون الاحترام ، والظهور في التلفزيون » .

« وساعة ايضاً ؟ هل يستطيع ان يقرأ الوقت بها يا ترى ؟ »

« اذا داومت على سخريتك منه يا ايثان فسيظن الناس انك تحسد ابنك » .

« انني مذهول فقط . وكنت اظن بان اسلوبه في الكتابة شبيه بمستوى اسلوب الجنرال ايزنهاور . فليس لألن من يحضر له كتاباته » .

« انني اعرفك يا ايثان . انك تتخذ من مذمة اولادك تسلية لك . ولكنك انت الذي تفسدهم . هذا هو اسلوبك الخفي . اريد ان اعلم . هل ساعدت ألن في كتابة موضوعه ؟ »

« ساعدته ؟ انه حتى لم يدعني ارى تلك المقالة » .

« حسناً ، اذن فالأمر على ما يرام . فلم أكن لأرغب في رؤيتك تتيه اختيالاً لأنك كتبت له المقالة » .

« ما زلت لا استطيع ان اصدق . هذا يدل على اننا نجهل الكثير عن اولادنا . كيف كان تصرف ايلين لدى سماعها الخبر ؟ »

« كانت مزدهية كالطاووس . وقد ذهلت مارجي ولم تكد تقوى على الكلام . ان الصحف تنشد مقابلته ـ والتلفزيون ، سوف يظهر في التلفزيون . هل تدرك انه ليس لدينا حتى جهاز تلفزيون لرؤيته ساعة يظهر ؟ قالت مارجي ان باستطاعتنا مشاهدته على جهازها . شخصية شهيرة في العائلة! يجب ان نبتاع جهاز تلفزيون يا ايثان » .

« حسناً ، سنشتري واحداً . سأحضر جهازاً قبل كل شيء غداً صباحاً ، أو لماذا لا تطلبين واحداً بنفسك ؟ »

« هل باستطاعتنا ذلك يا ايثان ؟ ـ آه لقد نسيت أنك تملك الحانوت ، نسيت ذلك تماماً . هل يمكنك استيعاب ذلك ؟ شخصية شهيرة » .

« أرجو ان يكون بوسعنا ان نعايشه » .

« دعه يسر في الطريق التي يريد . يجب ان نعود إلى البيت الآن . سيحضرون من نيويورك في قطار السابعة والدقيقة الثامنة عشرة . ويجب ان

نكون هنالك لنستقبله » .

« وهل ستصنعين كعكة » .

« سأفعل ذلك » .

« وتنصبين حبال الزينة ؟ » .

« ألا تظن بأنك تتصرف بحسد دنيء ؟ »

« كلا . اني رجل مغلوب على امره . وأظن بان رفع الزينات في ارجاء البيت شيء جميل » .

« ولكن ليس في خارجه ، فإن هذا يبدو تظاهراً ومباهاة . ان مارجي تقترح أن نتظاهر بأننا لا ندري ، ونتركه ينهي الينا الخبر بنفسه » .

« لا اوافق فقد يخجل . سنبدو وكأننا لا نبالي . لا ، بل يجب ان يعود إلى البيت ليستقبل بالتهليل وهتاف النصر والكعكة ، لو لم تكن المحال في عطلة لاشتريت العاباً نارية » .

« لعلك تجد ذلك في الاكشاك الموجودة على جانب الطريق » .

« آه بالطبع . سنشتري اثناء عودتنا ، هذا اذا كان قد تبقى شيء منها لديهم » .

أحنت ماري رأسها قليلاً كأنها تصلي ثم قالت : « انك تملك الحانوت ، والن اصبح شهيراً . من كان يحلم بأن هذه الامورتحدث كلها في وقت واحد ؟ يجب ان نشرع في العودة يا ايثان وعلينا ان نكون هنالك عندما يحضرون . لماذا تحدق بهذا الشكل ؟ »

ولقد صدمني النبأ ـ ما اقل ما نعرفه عن أي انسان! ان هذا يسبب لي رعشة كأن الدود يزحف على جسمي . اذكر اني في اعياد الميلاد السابقة كنت اشعر بانقباض وكآبة بدلاً من ان اكون مرحاً فرحاً » .

« حسناً ، انس ذلك . اظن بان هذا افضل ايام حياتنا . وسنكون جاحدين للنعمة اذا نحن لم ندرك ذلك . والآن ، ابتسم واطرد شعور الانقباض ذاك . ان هذا مضحك يا ايتان . قم وادفع الحساب بينما اذهب انا وأحزم حوائجنا » .

فدفعت الحساب من النقود التي كان مارولو قد اعطاني اياها . وسألت السيد مول : « هل بقي لديكم شيء من الالعاب النارية في قسم الهدايا ؟ »

« اظن ذلك . سأرى . ها هي... كم واحدة تريد ؟ »

« كل ما لديك منها . فان ابني قد اصبح مرموقاً » .

« حقاً ؟ كيف ؟ »

« ليس هنالك سوى طريق واحدة . سيظهر في التلفزيون » .

« من اية محطة ؟ وفي أي وقت ؟ »

« لست ادري بعد » .

« سأترقب ذلك . ما اسمه ؟ »

« نفس الاسم الذي أحمله . ايثان ألن هاولي . وندعوه ألن » .

« لقد تشرفنا بوجودك والسيدة ألن بيننا » .

« السيدة هاولي ، وليس السيدة ألن » .

آه ، طبعاً . آمل ان تشرفونا ثانية . ان الكثير من المشاهير يأتون الينا نظراً لهدوء المكان » .

ولدى عودتنا إلى المنزل على ذلك الطريق الذهبي ، الذي تزحف السيارات عليه ببطء كالافاعي ، كانت ماري جالسة مرفوعة الهامة وفخورة .

« لديّ صندوق من الالعاب النارية يحوي أكثر من مئة قطعة » .

« آه ، ها قد عدت إلى طبيعتك التي أعرفها يا عزيزي . هل يكون آل بيكر قد عادوا يا ترى ؟ »

١٩

كان سلوك ابننا حسناً . وبدا مسترضياً وكان لطيفاً معنا فلم ينتقم ولم يأمر بقتل أحد ، وتقبل الشهرة كما تقبل ثناءنا ، على انها حق له ، تقبلها دون غرور ولكن دون تواضع بالغ . وسار إلى مقعده في غرفة الجلوس وفتح الراديو قبل ان تتحول صواريخ الالعاب النارية المائنة إلى رماد . كان من الواضح بانه قد غفر لنا ذنوبنا . ولم ار في حياتي صبياً يتقبل العظمة بأكثر كياسة .

يا لها من ليلة حافلة بالغرائب . اذا كان اشتهار ألن بهذه السهولة امراً مدهشاً ، فإن رد الفعل لدى ايلين سيكون اكثر اثارة للدهشة . ان خبرة سنين في المراقبة والملاحظة المتعددة أوحت لي بأن الآنسة ايلين ستكون منسحقة وممتلئة بالغيرة ، وبأنها ستبحث دون ريب عن اسباب للتقليل من عظمة شقيقها . ولكنها كذّبت حدسي اذ قامت بدور المحتفلة بأخيها . وهي التي اخبرتنا كيف كانوا يجلسون في شقة فخمة في الشارع السابع والستين ، بعد أمسية سحرية ، وقد اخذوا يستمعون من باب المصادفة إلى نشرة الأخبار الأخيرة من التلفزيون عندما سمعوا نبأ فوز ألن . وكانت هي التي اخبرتنا بما تحدثوا به عندئذ وكيف جمدوا فأصبح بالامكان اسقاط أي منهم إلى الارض بضربة ريشة . وفي خلال حديثها كان الن يجلس هادئاً ويبدو بعيداً ، فحدثتنا كيف سيظهر مع الصبيان الاربعة الآخرين ، وكيف

سيقرأ مقاله فيسمعه الملايين . وفي فترات توقف ايلين عن الحديث كانت ماري تغرق في سعادتها ناظرة إلى مارجي يونج هنت التي كانت مشغولة بأفكارها . ثم ران على المكان صمت موحش .

قلت : « لا مفر لنا فإن هذه المناسبة تتطلب شرب المرطبات » . فقالت ماري : « ستحضرها ايلين ، أين ايلين ؟ انها تتسرب داخلة وخارجة كالدخان » .

وقفت مارجي يونج هنت بعصبية وقالت : « ان هذه حفلة عائلية ، ويجب ان اذهب » .

« ولكن كجزء منها يا مارجي . أين ذهبت ايلين ؟ »

« لا تضطريني يا ماري إلى الاعتراف باني اشعر بالاجهاد قليلاً » .

« أعلم بأنك قد أجهدت يا عزيزتي . وقد نسيت ذلك . اما نحن فقد تمتعنا براحة جيدة ، ليس بوسعك ان تتصوري أي راحة أصبنا ـ وانت حقيقة بالشكر على كل حال » .

« لقد استمتعت انا ايضاً . ولم أكن لأفوّت هذه الفرصة » .

كانت تريد الذهاب بسرعة . فتقبلت شكرنا وشكر ألن وأسرعت خارجة .

قالت ماري بهدوء : « اننا لم نطلعها على امر الحانوت » .

« لابأس . ان هذا المساء من حق « صاحب السعادة » ولن نهضم حقوقه . أين ذهبت ايلين ؟ »

أجابت ماري : « لقد ذهبت لتنام . كان جميلاً منك يا عزيزي ان تفكر بذلك . لقد كان يوماً عظيماً يا الن . والآن لقد حان وقت نومك » .

فقال الن بلطف : « اظن بأني سأبقى هنا قليلاً » .

« ولكنك محتاج للراحة » .

« اني مستريح » .

فالتفتت ماري إليّ لأساعدها على اقناعه .

«هذه هي لحظات اختبار جوهر الرجال . بوسعي ضربه ، أو السماح له بالانتصار علينا كي نتعادل» .

«ولكنه ما زال صبياً صغيراً ويحتاج إلى الراحة» .

«انه بحاجة إلى اشياء كثيرة ولكن الراحة ليست من تلك الاشياء» .

«ان كل انسان يعرف بأن الأطفال يحتاجون للراحة» .

«ان الأمور التي يعرفها كل انسان هي في الأغلب أمور خاطئة . هل سمعت قط بطفل يموت من العمل الزائد ؟ كلا ـ ان البالغين هم الذين يموتون من ذلك فقط . ان الاطفال أذكى من ان يفعلوا ذلك . انهم يستريحون عندما يحتاجون إلى الراحة» .

«ولكن الوقت تجاوز منتصف الليل» .

«فليكن كذلك يا عزيزتي . وسينام حتى ظهر الغد . اما انت وانا فسنصحو في السادسة» .

«هل تعني بأنك ستذهب إلى فراشك وتتركه يجلس هنا ؟»

«انه بحاجة للانتقام منا لأننا ولدناه» .

«لست أفهم ما هو الذي تتكلم عنه ، أي انتقام ؟»

«أريد ان أعقد رهاناً معك على انك غاضبة» .

«اني لكذلك . فأنت تتصرف بسخافة» .

«سأدفع لك سبعة وأربعين مليوناً وثمانمائة وستة وعشرين دولاراً اذا لم يزحف إلى فراشه خلال نصف ساعة من ذهابنا إلى النوم» .

لقد خسرت الرهان ويجب ان ادفع لها اذ انقضت مدة خمسة وثلاثين دقيقة منذ تمنينا له ليلة سعيدة إلى ان سمعنا صوت الدرج يزيق تحت أقدامه عندما صعد إلى غرفته . كانت ماري قد أعدت نفسها لقضاء الليل في الاصغاء . فقالت : «انني أمقتك عندما تكون على صواب» .

«لم أكن على صواب يا عزيزتي . وهناك خمس دقائق في صالحك» .

عندئذ غطت في نومها ولم تسمع ايلين وهي تنزل إلى الطابق الاسفل

كما سمعتها انا . لقد كنت اراقب النقط الحمراء في الظلام فلم اتبع ايلين بل سمعت صوت المفتاح النحاسي يدور ببطء في قفل الخزانة ، وعلمت بان ابنتي كانت تقوم بزيارتها الليلية ، لتفقد التعويذة .

كانت النقط الحمراء ناشطة تندفع مسرعة هنا وهناك وتهرب من امام عيني كلما حاولت تركيز نظري فيها . كان القبطان الشيخ يتجنبني فلم يظهر لي بوضوح منذ عيد الفصح . ولكنني اعلم بانه لا يظهر لي بوضوح عندما لا اكون على وفاق مع نفسي . وهذا نوع من اختبار العلاقات بيني وبين نفسي .

ولقد أجبرته على الظهور هذه الليلة . فاستلقيت على ظهري وكان جسمي مستقيماً ومتخشباً كأنه قطعة واحدة . وشددت كل عضلة من جسمي وعلى الاخص عضلات عنقي وفكي ووضعت قبضتي على معدتي ثم استحضرته ، بعينيه الباردتين وشاربه الابيض الشائك وكتفيه البارزتين إلى الامام مما يدل على انه قد كان رجلاً قوي الجسم ، وكان يستعمل تلك القوة . بل اني اجبرته على لبس طاقيته الزرقاء ذات الحافة الامامية اللامعة والهلبين الذهبيين المتقاطعين ، وهي الطاقية التي كان يندر ان يلبسها . وكان متمنعاً عن الحضور ولكني جعلته يحضر واجلسته على حافة حائط الميناء القديم المتهدم بالقرب من «المكان» . أجلسته بحزم فوق كومة من الحجارة وثبتّ قبضتيه فوق قبضة عصاه المصنوعة من ناب الحوت . وكانت العصا من الضخامة بحيث يمكن ان تصرع فيلاً .

«اني بحاجة إلى ما أكرهه . واني ابحث عما أكرهه كراهية حقيقية . لا تخفف من حدة غضبي» .

ان الذاكرة ولود مخصاب . واذا ما بدأت بأثر واحد واضح فانها تنشط إلى العمل ، وبوسعها ،حالما تنشط إلى العمل ، ان تسير إلى الامام والى الخلف متل شريط سينمائي .

تحرك القبطان الشيخ وأشار بعصاه قائلاً «خذ خطاً من الصخرة التالتة

التي خلف حاجز الرياح إلى طرف بورتي بوينت حين يكون البحر مداً وستجدها ، أو ما تبقى منها ، مستقرة في قعر البحر على بعد نصف حبل من ذلك الخط » .

« كم يبلغ طول نصف الحبل يا سيدي ؟ »

« خمسون قامة بالطبع . وكانت قد أرسيت هنالك فظلت تتأرجح مع جزر المياه وقد مرت بها سنتان سيئتان وكان نصف براميل الزيت خالياً . ولما شبت فيها النار حوالي منتصف الليل كنت على الشاطئ . وعندما دبت النار في براميل الزيت انفجرت وأضاءت البلدة كما تضاء بشمس الظهيرة ، وظلت النار تلتهم الزيت على سطح البحر حتى أوسبرى بوينت . ولم نستطع ان نسحبها إلى الشاطئ خوفاً من ان تحرق احواض الميناء . وفي خلال ساعة كانت النار قد أتت على ما يعلو منها عن سطح الماء . ان قاعدتيها الرئيسية والتانوية هناك تحت الماء ـ سليمتان . وهما من خشب السنديان البكر المقطوع من جزيرة شلتر » .

« كيف ابتدأ الحريق ؟ »

« لم اعلم قط . فقد كنت على الشاطئ » .

« من الذي يحتمل ان يكون قد احرقها ؟ »

« مالكوها » .

« ولكنك كنت تملكها » .

« كنت املك نصفها فقط ، وقلبي لا يطاوعني على احراق سفينة . اني احب ان ارى تلك الاخشاب . اريد ان أرى كيف اصبحت حالتها » .

« ولكن هذا الغذاء هزيل لا يغذي كراهية متأججة » .

« انه افضل من لاشيء . سأعوّم تلك القاعدة ـ حالما اغتني . سأفعل ذلك من أجلك ـ من خط الصخرة التالتة إلى بورتي بوينت في ايام المد ، ثم خمسون قامة بعد ذلك » . لم اكن نائماً . كانت قبضتا يدي وساعداي متصلبة ضاغطة على معدتي كي امنع القبطان الشيخ من التلاشي ، ولكن النوم طواني حالما سمحت له بالذهاب .

كان فرعون اذ يحلم يدعو مفسري الاحلام ليشرحوا كيف كانت وما ستكون عليه الامور في المملكة ، وقد كان ذلك صحيحاً لأن فرعون هو المملكة . وعندما نحلم نحن ونذهب بحلمنا إلى مفسر الاحلام فانه يحدثنا عن الأمور الواقعة في حدود مملكة أنفسنا . وقد حلمت حلماً الا أني لم احتج إلى من يفسّره لي ، فإنني ، كأكثر الناس العصريين ، لا أؤمن بالنبوءة أو السحر كي ابذل نصف وقتي في ممارستها .

في الربيع كان ألن يشعر بوحدة وهبوط في المعنويات ، فأعلن بأنه ملحد كي يعاقب اللّه ووالديه . فقلت له بألا يزج بنفسه في مأزق وإلا فانه لن يجد مخرجاً من ذلك المأزق سوى الولوج في مأزق آخر فلا يحمل لنفسه الا سوء النتيجة في كل ما يفعل .

ان أكثر الناس خوفاً من الاحلام يحاولون اقناع انفسهم بأنهم لا يحلمون . وباستطاعتي ان افسر احلامي بسهولة الا ان ذلك لا يقلل من رهبتها .

وقد حلمت بأنني تلقيت كتاباً من داني ، لست أدري بأية وسيلة ،يقول فيه بأنه مسافر بالطائرة ، ويرجوني ان أقوم ببعض الأمور . وهو يريد طاقية على ان تكون من جلد الحمل الطري ، وان تبطّن بالصوف من الداخل ، وان يكون لونها بنياً غامقاً . وهذا الجلد يشبه جلد خفين موجودين لدي . أما شكل الطاقية فيجب ان يكون مثل طاقية لعبة البيس بول . ثم انه اراد دولاب هواء ليس من تلك الدواليب ذات الفراشات المعدنية الدوارة ، ولكن ذاك المصنوع باليد من البطاقات الحكومية المقواة مشدودة إلى شقوق من الخيزران . وطلب مني ان اقابله قبل وقت قيام الطائرة . فحملت عصا القبطان الشيخ المصنوعة من ناب الحوت معي . وهي تحفظ عادة في حمّالة المظلات المصنوعة على شكل قدم فيل ، والقائمة في قاعة بيتنا .

كنت قد نظرت إلى أظافر اصابع القدم الضخمة ، الملونة بلون العاج ، عندما وردتنا تلك القدم كهدية . وقلت لولديّ « ان اول واحد منكما يضع

طلاء الأظافر على اظافر اصابع هذه القدم سيضرب بشدة ـ أتفهمان ؟ » فأطاعاني ، ولذلك قمت بطلائها بنفسي مستعملاً طلاء الأظافر الاحمر الفاقع الذي حملته من منضدة زينة ماري .

ركبت سيارة مارولو ومضيت لمقابلة داني . وكان مبنى البريد هو المطار في الحلم . فأوقفت السيارة ووضعت العصا الثقيلة على مقعد السيارة الخلفي واذا بشرطيين تبدو عليهما الخسة يقتربان بسيارتهما ويقولان «لا تضعها على المقعد الخلفي» .

«هل هذا ضد القانون ؟ »

«تريد ان تتفلسف ، أليس كذلك ؟ »

«كلا . انه مجرد سؤال» .

«حسناً اذن . لا تضعها على المقعد الخلفي» .

وجدت داني في القسم الخلفي من دار البريد يفرز رزماً . وكان يعتمر الطاقية الجلدية ويدير دولاب الهواء المقوى . وكان وجهه نحيلاً وشفتاه كثيرتي الشقوق ، ويداه متورمتين مثل قربة الماء الحار كما لو أن الدبابير قد لسعتهما .

وقف ومد يده ليهز يدي التي غاصت في ذلك الجسم المطاطي الساخن ، ووضع شيئاً في يدي ، شيئاً صغيراً وثقيلاً وبارداً ، في مثل حجم المفتاح ولكنه ليس مفتاحاً ـ شكلاً ما ، شيئاً معدنياً شعرت من ملمسه بأنه حاد الاطراف وناعم . لا أدري ما هو اذ اني لم انظر اليه ، بل تحسسته فقط . وانحنيت وقبلته في فمه وشعرت بشفتيه الجافتين المشققتين الخشنتين تحت شفتي . وعند ذلك استيقظت مهزوزاً مقروراً . وكان الفجر قد بزغ فاستطعت رؤية البحيرة ولكن دون البقرة التي تقف فيها ، وكنت لا أزال أشعر بالشفتين الجافتين المشققتين فنهضت من السرير حالاً اذ لم اشأ ان ابقى مستلقياً افكر في ذلك الحلم . لم اصنع قهوة بل ذهبت إلى قدم الفيل ورأيت تلك الهراوة اللعينة ، التي تدعى عصا ، ما تزال مكانها .

كان الوقت وقت انبلاج الفجر ، وكان الجو حاراً رطباً اذ لم تكن نسائم الصباح قد بدأت تهبّ بعد . وكان الشارع رمادياً وفضياً والرصيف زلقاً بآثار الفضلات البشرية . لم يكن مقهى الفورماستر قد فتح بعد ، ولكني ، على كل حال ، لم اكن اريد قهوة . ذهبت إلى الممر وفتحت باب حانوتي الخلفي ، تطلعت إلى الداخل ورأيت صندوق القبعة الجلدي خلف العداد . فتحت علبة بن وأفرغت محتوياتها في وعاء القمامة . ثم ثقبت علبة حليب مركز وأسلت الحليب إلى علبة البن وفتحت الباب الخلفي ووضعت الحليب في المدخل . وكانت القطة هناك الا انها لم تقترب من الحليب حتى بعدت عنها واتجهت للقسم الامامي من الحانوت . ومن هناك استطعت رؤيتها ، قطة رمادية ، تلعق الحليب . وعندما رفعت رأسها كان شارباها مبللين بالحليب . فجلست ومسحت فمها ببطن قائمتيها الاماميتين ثم لعقتهما .

فتحت صندوق القبعة وتناولت وصولات يوم السبت وكانت كلها مدوّنة في لائحة وقد ضمت بعضها إلى بعض بمشابك . ثم أخرجت من مظروف المصرف البنّي ثلاثين ورقة من فئة المائة دولار واعدت العشرين الباقية . ستكون هذه الثلاثة آلاف دولار المال الاحتياطي الذي استند اليه حتى يستقر دخل الحانوت .

سأودع الألفين الآخرين بحساب ماري في المصرف وأسدد الثلاثة آلاف حالما يمكنني ذلك دون أن يتأثر العمل في الحانوت . وضعت الثلاثة آلاف في محفظتي الجلدية ودسستها في جيبي الخلفي فانتفخ بها . ثم احضرت صناديق مختلفة من المستودع ففتحتها وبدأت أملأ الرفوف التي كانت قد فرغت يوم السبت . ودونت على قطعة من ورق التغليف لائحة بالسلع التي يجب ان اطلبها . وأخذت الصناديق الفارغة وكوّمتها في الممر منتظراً حضور الشاحنة التي ستحملها ، ثم ملأت علبة البن بالحليب ثانية ولكن القطة لم تعد . فهي اما ان تكون قد اكتفت أو انه لا يلذ لها الا ما تسرقه .

لا بد ان هنالك سنوات تختلف عن سائر السنين ، فتختلف طقساً

وأحوالاً كما يختلف يوم عن يوم آخر .وكان عام ١٩٦٠ عام تبدل ، عاماً تطفو به المخاوف الخفية وتصبح علنية ، ويكف السخط عن هجومه ويتحول تدريجياً إلى غضب .

لم تكن تلك الظواهر تنحصر فيّ أو في نيوبايتاون فقط . ستبدأ قريباً الترشيحات لرئاسة الجمهورية وبدأ السخط المنتشر بالتحول إلى غضب مع ما يجيء به الغضب من تهيج . ولم ينحصر هذا في الولايات المتحدة فقط ، بل ان العالم بأجمعه يتململ متبرماً قلقاً بينما راح السخط يتحول إلى الغضب والغضب يحاول ان يجد له متنفساً بمختلف الفعاليات ، أية فعاليات تنطوي على عنف ـ افريقيا ، كوبا ، امريكا الجنوبية ، اوروبا ، الشرق الاوسط ، كلها قلقة قلق خيول السباق لدى انتهاء الشوط .

أدركت بأن يوم الثلاثاء ، الخامس من تموز (يوليو) سيكون يوماً احفل من سائر الايام . واعتقد باني عرفت ما هي الامور التي يمكن ان تقع ، قبل وقوعها ، ولكن بما انها وقعت فلن اتأكد مما اذا كنت قد عرفتها حقاً .

عرفت ، على ما اعتقد ، بأن السيد بيكر ذا السبع عشرة جوهرة ، الذي يسير كالساعة ، سوف يأتي مجلجلاً إلى باب الحانوت الامامي قبل ساعة من موعد افتتاح المصرف . وقد حضر فعلاً قبل ان يحين موعد فتح الحانوت للزبائن ، فأدخلته واقفلت الباب خلفه وقال :

«يا له من امر مريع ، كنت بعيداً وبمعزل عن الاخبار . ولكني عدت حالما سمعت» .

«اي امر مريع يا سيدي ؟ »

«تلك الفضيحة! ان أولئك الرجال اصدقائي ، اصدقائي الاعزاء . يجب ان احاول شيئاً ما لمساعدتهم» .

«ولكنه لن يُحقق معهم قبل الانتخابات ـ انهم متهمون فقط» .

«اعلم ذلك . الا يمكننا ان نذيع بياناً عن ايماننا ببراءتهم ؟ حتى ولو كان ذلك بشكل اعلان تدفع أجرة نشره» .

«بأي وسيلة يا سيدي ؟ ان صحيفة باي هاربور مسنجر لا تصدر الا صباح الخميس» .

«ولكن يجب عمل شيء ما» .

«انني ادرك ذلك» .

كان الحديث متكلّفاً . ولا بد انه يدرك بأني عارف بأمره . ومع ذلك فقد قابل نظراتي وبدا لي بأن انزعاجه غير متصنع . «ان هذا الامر المفاجئ الملعون سيؤثر على انتخابات البلدة ما لم نتدارك الامر . علينا ان نقدم مرشحين جدداً وليس أمامنا سوى ذلك . انه لشيء فظيع ان تفعل ذلك بأصدقائك . ولكنهم اول من يجب ان يعلم ، اننا لن نسمح لأولئك المتحذلقين بأن يفسدوا علينا الامور» .

«لم لا تتحدث اليهم ؟»

«انهم ثائرون . ولم يتح لهم الوقت لدرس الوضع . هل عاد مارولو ؟»

«ارسل صديقاً . وقد اشتريت منه الحانوت بثلاثة آلاف دولار» .

«هذا حسن . انها صفقة جيدة . هل استلمت المستندات ؟»

«نعم» .

«حسناً . واذا حاول الخديعة فان ارقام الاوراق المالية مسجلة» .

«لن يحاول شيئاً من ذلك بل انه يريد ان يرحل . انه متعب» .

«لم اكن اثق به قط . ولم اكن اعلم ابداً بماذا يشتغل» .

«هل كان محتالاً يا سيدي ؟»

«كان مراوغاً يلعب على الحبلين . انه يملك مبلغاً كبيراً لو استطاع تصريف عقاراته . ولكن ثلاثة آلاف ـ ان الامر يكاد يكون هبة» .

«لقد كان يحبني» .

«لا ريب في ذلك . من كان رسوله اليك ، جمعية المافيا ؟»

«موظف حكومي . الحقيقة ان مارولو يثق بي» .

عقد السيد بيكر حاجبيه ، وهذا امر غير عادي وقال «لمَ لمْ أفكر في

ذلك ؟ انت هو الرجل . عائلة عريقة ، شخص موثوق به ، صاحب عقار ، رجل اعمال محترم . ليس من اعداء لك في البلدة . انك الرجل بلا شك..... »

« أي رجل ؟ »

« الرجل الذي ارشحه لوظيفة مدير البلدية » .

« لم أصبح صاحب عمل الا منذ يوم السبت » .

« انك تعلم ماذا اعني . بوسعنا ان نحيطك بوجوه جديدة محترمة . ان هذا هو الطريق الصحيح » .

« من موظف في حانوت إلى مدير بلدية ؟ »

« ان احداً ما لم ينظر إلى ايتان هاولي كموظف حانوت » .

« هكذا نظرنا اليه انا وماري » .

« ولكنك لست موظف حانوت . بوسعنا ان نذيع الامر هذا اليوم قبل ان تشرع طغمة اولئك المتحذلقين بالاستعداد » .

« يجب ان ادرس الامر من جميع نواحيه » .

« لا وقت لذلك » .

« من الذي فكرت بترشيحه قبلاً ؟ »

« قبل ماذا ؟ »

« قبل توجيه التهم إلى رجال المجلس . سأتحدث اليك فيما بعد . كان يوم السبت عظيماً من حيث المبيعات . اذ لم يبق في الحانوت سوى الميزان تقريباً » .

« يمكنك الاستفادة كثيراً من هذا الحانوت يا ايثان . ونصيحتي اليك ان تقوّيه ثم تبيعه ، لأنك ستصبح شخصية كبيرة ، أكبر من ان تقف هنا لخدمة الزبائن . هل سمعت شيئاً عن داني ؟ »

« كلا . لم اسمع شيئاً حتى الآن » .

« كان يجب الا يُعطى تلك النقود » .

« ربما كنت مصيباً . ولكنني اعتقدت اني اقوم بعمل طيب »

« طبعاً . طبعاً »

« سيدي ، قل لي ماذا حدث للسفينة بل أدير ؟ »

« ماذا حدث لها ؟ قد احترقت بالطبع » .

« في الميناء ؟ كيف بدأ الحريق يا سيدي ؟ »

« ان هذا وقت غريب للسؤال . اني اعرف بقدر ما سمعت فقط . وقد كنت صغيراً جداً بحيث لا يسعني ان اتذكر . كانت اخشاب تلك السفن القديمة تتشرب بالزيت . واعتقد بأن أحد البحارة ألقى عود كبريت . كان جدك قبطان السفينة ، واعتقد بأنه كان على الشاطئ ، كان قد وصل للتو » .

« رحلة سيئة »

« هذا ما سمعته » .

« هل كانت هناك اية صعوبة في قبض قيمة التأمين ؟ »

« كلا . فالشركة ترسل محققين دائماً . لقد استغرقت المعاملة بعض الوقت ولكننا قبضنا ، آل هاولي وآل بيكر » .

« كان جدي يعتقد بأن النار أُشعلت فيها عمداً » .

« ولماذا ، بحق السماء ؟ »

« للحصول على قيمة التأمين . فإن صناعة صيد الحيتان كانت قد كسدت » .

« لم اسمعه يقول ذلك قط » .

« لم تسمعه ابداً ؟ »

« ايتان ، ماذا تهدف بحديثك هذا ؟ لم تريد بحث شيء حدث منذ زمن طويل جداً ؟ »

« ان اغراق سفينة لأمر مريع . انه جريمة قتل . اني انوي ان ادع قاعدتها تعوم يوماً ما » .

« قاعدتها ؟ »

« انني اعلم اين تستقر بالتمام . على بعد نصف ميل من الشاطئ » .

« ولم تفعل ذلك ؟ »

«اريد ان اعرف ما اذا كان خشبها سليماً ، فقد كان خشب زان بكر من جزيرة شلتر . ولن تكون السفينة تالفة بكاملها اذا كانت قاعدتها حية . يحسن بك ان تذهب الآن اذا كنت ستبارك عملية فتح خزانة المصرف . كما ان علي ان افتح الابواب للعمل»

عند ذلك دار دولاب حركته فسار متوجهاً إلى المصرف .

اعتقد بأني كنت اتوقع حضور بيجرز ايضاً ، يا للمسكين ، ان عليه ان يقضي اكثر وقته في مراقبة مداخل محال العمل . ولا بد انه قد كان يكمن في مكان قريب ويراقب الحانوت بانتظار خروج السيد بيكر .

«ارجو ان لا تهجم علي وتأخذ بعنقي»

« ولم افعل ذلك ؟ »

«اني ادرك لم كنت غاضباً واظن بأني لم أكن لبقاً بما فيه الكفاية» .

« قد يكون ذلك»

« هل درست عرضي ؟ »

« نعم» .

« فما رأيك به ؟ »

«أعتقد ان ستة بالمائة تكون أحسن» .

«لا أعلم اذا كانت الشركة سترضى بذلك» .

«ان هذا راجع لتقديرهم» .

« قد يوافقون على خمسة ونصف» .

« وقد ترضى انت بالموافقة على النصف الآخر» .

« يا لك من رجل ، وقد ظننت انك مجرد رجل فلاح» .

«هذه شروطي ، فاما ان تقبلها أو لا» .

« حسناً ، فما هي قيمة الطلب ؟ »

«هنالك لانحة اولية بجانب آلة تسجيل النقد » .

فأخذ قطعة ورق اللف ودرس ما هو مسجل فيها . وقال :

« يبدو بأني علقت بالسنارة . وهذا دمي يسيل يا أخ . هل يمكنك ان تسلمني لائحة الطلب كاملة اليوم ؟ »

« بل في الغد ، وستكون الطلبات اكثر » .

« أتعني بأنك ستحول كل عملك الينا ؟ »

« هذا اذا كنتم مستقيمين » .

« يا سلام ، يبدو انك تمسك مخدّمك من عنقه . هل تنفذ ذلك ؟ »

« انتظر وسترى » .

« حسناً ، قد يمكنني ان اهبط على صديقة البائع الجوّال . لا بد أنك في برودة السمك ايها الأخ . اقول لك بأن تلك المرأة شهية » .

« انها صديقة زوجتي » .

« آه! حقاً! اني ارى الامر الآن . ان علاقتها بكم لمن الاخبار السيئة . انك ذكي ، واذا لم يتح لي ان اعرف ذلك من قبل الا انني عرفته الآن . ستة بالمائة . يا لله! غداً صباحاً ؟ »

« قد يكون ذلك في نهاية هذا اليوم اذا وجدت متسعاً من الوقت » .

« اذن فليكن غداً صباحاً » .

كان العمل يوم السبت يسير في موجات . اما في هذا اليوم الخميس فان الحركة تغيرت كلياً . فالزبائن يتماهلون . فقد شاؤوا ان يثرثروا عن الفضيحة ، فقالوا ان ذلك امر سيء ، مخيف محزن ، معيب ، ولكنهم كانوا يتلذذون بالحديث عن ذلك . لم تحدث في بلدتنا أي فضيحة منذ زمن طويل . لم يشر احد في حديثه قط إلى المؤتمر الديمقراطي الوطنى الذي كان سيعقد قريباً في لوس انجيليس . ان نيوبايتاون جمهورية النزعة طبعاً ولكني اعتقد ان اهتمام سكانها يكون اكثر بما يتصل اتصالاً مباشراً بهم . اننا نعرف اولئك الرجال الذين اخذنا نرقص على قبورهم .

اتى المفتش ستونويل جاكسون في الظهيرة وبدا متعباً وحزيناً .

رفعت تنكة الزيت إلى العداد وأخرجت المسدس القديم منها بقطعة من السلك .

« ها هو الاثبات ايها المفتش . ارجوك ان تأخذه بعيداً عني فهو يثير مزاجي » .

« حسناً ، ارجو ان تمسح الزيت عنه . انظر! هذا هو النوع الذي كان يدعى مسدس (ابو) الدولابين ـ ذو المزلاج العلوي ، من صنع ايفور جونسون . هل لديك من يلقي باله إلى الحانوت ؟ »

« كلا » .

« اين مارولو ؟ »

« خارج البلدة » .

« اذن اعتقد انه لا بد من اقفال الحانوت قليلاً » .

« لماذا ايها المفتش ؟ »

« ان ابن شارلي بريور قد هرب من المنزل هذا الصباح . هل لديك مرطب بارد ؟ »

« بالطبع ، برتقال ، دندرمه ، ليمون ، كوكا ، فماذا تريد ؟ »

« اعطني زجاجة سفن اب . ان شارلي رجل عجيب . ، فابنه توم في الثامنة من عمره ، وقد خيل اليه ان العالم يقف ضده ولذلك فانه سيهرب لكي يصبح قرصاناً . ان أي شخص كفيل بأنه يضربه على قفاه الا والده . ألا تنوي فتح هذه الزجاجة ؟ »

« آسف . هاك . وما علاقتي بشارلي ؟ اني أحبه بالطبع » .

« حسناً . ولكن شارلي لا يتصرف كالناس الآخرين . ويعتقد ان أحسن طريقة لشفاء توم هي مساعدته . وهكذا فإنهما بعد ان تناولا فطورهما هذا الصباح اعدّا رزمة من فراش وغذاء . وكان توم يريد ان يأخذ معه سيفاً لحماية نفسه ولكن بما ان السيف كان اطول منه فانه وافق على حمل حربة ، تم ان والده شارلي حمله في سيارته وذهب به إلى خارج المدينة كي يوفر

عليه اول مرحلة من مراحل هربه . وأنزله من السيارة قرب حقل آل تيلور ، انك تعرف المكان ،محل آل تيلور القديم . وكان ذلك حوالي الساعة التاسعة من هذا الصباح . وراقب شارلي ابنه وقتاً قصيراً . فكان اول ما فعله الصبي ان جلس والتهم ست شطائر وبيضتين مسلوقتين . ثم سار عبر الحقل حاملاً رزمته وحربته . أما شارلي فقد عاد إلى بيته » .

ها قد وقع المحظور . وكنت اتوقع ذلك ، كنت اعرفه . وان في الانتهاء من القصة لراحة .

« وفي حوالي الساعة الحادية عشرة عاد الصبي إلى الطريق ولعابه يسيل خوفاً والتقطته احدى السيارات الى البيت » .

« اعتقد ان بوسعي ان اخمّن يا ستوني ـ هل هو داني ؟ »

« اخشى ذلك . كان يجلس في قبو البيت العتيق . وبجانبه صندوق من الويسكي وقد فرغت منه زجاجتان فقط ، ثم زجاجة حبوب منومة . يؤسفني ان اضطر إلى القاء بعض الاسئلة عليك يا ايثان . لقد مضى على وجوده هناك وقت طويل ولا بد ان شيئاً ما خدشه في وجهه ولعلها القطط . فهل بوسعك ان تذكر ان كان ثمة علامات أو آثار جراح في جسده ؟ »

« لا اريد ان انظر إلى جثته ايها المفتش » .

« ومن ذا الذي يريد ذلك ؟ ولكن قل ، هل تذكر أية ندوب ؟ »

« اذكر جرحاً فوق الركبة في ساقه سببه شريط شائك . ثم ـ ثم »

شمرت عن ذراعي وقلت « وقلباً مثل هذا موشوماً على ذراعه . لقد رسمنا هذا الوشم معاً عندما كنا صغيرين . وقد خُطّ القلبان بشفرة حلاقة ثم دعك الحبر فوق ذلك . وما زال الوشم واضحاً ، أترى ؟ »

« حسناً . قد يكفي هذا . فهل هنالك شيء آخر ؟ »

« نعم ـ اثر جرح كبير تحت ذراعه الأيسر . فقد اصيبت رئته بذات الجنب قبل اكتشاف الادوية الحديثة ، ففتحوا جنبه وقصوا قطعة من احد اضلاعه وأدخلوا في الفتحة انبوباً لسحب الماء من جنبه » .

« بالطبع اذا كان هنالك ضلع مقصوص فإن في ذلك الكفاية . بل اني لست مضطراً للذهاب إلى هناك بنفسي فليتحرك المحقق . سيطلب اليك ان تقسم على صحة تلك العلامات اذا كانت الجثة جثة داني » .

« حسناً . شريطة ألا تضطرني إلى النظر اليه يا ستوني . فقد كان ـ أنت تعلم ـ قد كان صديقي » .

« كما تريد يا ايثان . قل لي ، اسمع ايها المفتش ، هل بوسعك البقاء هنا دقيقتين ـ »

« يجب ان اذهب » .

« دقيقتين فقط ريثما اعبر إلى الجانب الآخر من الشارع وأتناول كأساً من الشراب » .

« آه! طبعاً! اني افهم . طبعاً ـ هيا واذهب . علي ان أحسن علاقتي بمدير البلدية الجديد » .

تناولت الكأس واشتريت زجاجة صغيرة أحضرتها معي إلى الحانوت . وعندما انصرف ستوني علقت قطعة من المقوّى على الباب وكتبت عليها « يفتح المحل في الساعة الثانية » ثم اقفلت الأبواب وأسدلت الستائر .

ثم جلست على صندوق القبعة الجلدي خلف العداد في حانوتي ، جلست في ظلمة حانوتي الخضراء الغبشة .

٢٠

في الساعة الثالثة الا عشر دقائق خرجت من الباب الخلفي ثم درت حول الحانوت وذهبت إلى مقدمة المصرف . وكان مورفي داخل قفصه البرونزي فتسلم مني حزمة اوراق النقد والصكوك والمظروف البني واوراق الايداع . تم فتح دفاتر الايداع الصغيرة وسجل بها ارقاما ذات زوايا بقلم من الفولاذ كان يصر على الورق . وعندما انتهى دفع بالدفاتر الي ونظر الي بعينين غامضتين حذرتين وقال :

«لن اتكلم عن الحادث يا ايثان فإني اعلم بأنه كان صديقك» .

«شكراً» .

«اذا ذهبت بسرعة فإنك قد تتفادى مقابلة الرئيس» .

ولكني لم اتمكن من الافلات . وكل ما اعلمه هو ان مورفي قد يكون اشعره بطريقة سرية اذ انفتح باب المكتب الزجاجي المصنفر وأطل منه السيد بيكر بهندامه الأنيق وقدّه الرقيق ورأسه الاشيب . وقال بهدوء : «هل تستطيع ان تفرغ لي لحظة يا ايثان ؟»

لا فائدة من التأجيل . سرت ودخلت إلى كهفه فأقفل الباب بخفة فائقة حتى اني لم اسمع صوت مزلاج الباب لدى اطباقه . كان يعلو منضدته لوح زجاج بدت تحته لوائح بأرقام مطبوعة . وقد قام قرب كرسيه المرتفع كرسيان ، للمراجعين ، اصغر حجماً بديا كعجلين توأمين رضيعين . وكان

الكرسيان مريحين . وعندما جلست في احدهما كان علي ان انظر إلى الأعلى لكي ارى السيد بيكر ، وقد وضعني هذا في مركز ابتهالي .

« حادث محزن » .

« نعم » .

« لا اعتقد بأن اللوم كله يقع عليك . كان من المحتمل وقوع الحادث على أي حال » .

« محتمل » .

« أنا متأكد من اعتقادك بأنك كنت تفعل الشيء الصحيح » .

« ظننت اني بعملي ذاك اتيح له فرصة للشفاء » .

« هذا صحيح » .

كانت الكراهية تصعد إلى حلقي بمذاق مر ، يتير في النفس غثياناً اكثر مما يثير غضباً .

« بصرف النظر عن الناحية الانسانية المأساوية من الموضوع فان هذا الحادث يثير مشاكل . هل تعلم ما اذا كان له اقارب » .

« لا أظن ذلك » .

« لا بد من وجود اقارب لمن يملك مالاً » .

« لم يكن لديه مال » .

« كان يملك مرج آل تيلور ، والمرج غير مرهون ولا مدين » .

« حقاً ؟ حسناً ، مرجاً وقبواً » .

« اسمع يا ايتان ، كنت حدثتك بمشروع مطار تستفيد منه المقاطعة بكاملها . والمرج منبسط . واذا لم يمكنا الاستفادة منه فستتكلف الملايين لجرف التلال وجعل الارض تصلح مدارج للطائرات . وحتى لو لم يكن لداني من ورثة فإن الامر كما ارى يجب ان يسوى بواسطة المحاكم ، وهذا يحتاج إلى اشهر عديدة » .

« ارى ذلك » .

فانفجر غضبه وقال« اني لأتساءل ما اذا كنت ترى ذلك حقاً . فإنك

بنواياك الطيبة قد عقدت الامور . انني لأعتقد أحياناً بأن صانع الخير هو اخطر شيء في العالم » .

« ربما كنت على صواب . والآن يجب ان اعود إلى الحانوت » .

« انه حانوتك الآن » .

« حقاًا لم اعتد على ذلك بعد ، ولقد نسيت » .

« نعم ، انك قد نسيت . ان النقود التي اعطيتها له هي نقود ماري . ولن تراها بعد الآن . انك قد اضعتها » .

« كان داني يحب ماري . وقد علم ان النقود نقودها » .

« هذا لن يعوّضها شيئاً » .

« لقد اعطاني هذه الاوراق ، وكنت اظن انه يمزح » واخرجت الورقتين المسطرتين من جيبي الداخلي حيث كنت عندما وضعتهما قد ادركت ان المناسبة ستأتي لأخرجهما بهذه الطريقة .

فنشرهما السيد بيكر على زجاج منضدته . وفيما كان يقرؤهما اختلجت عضلة قرب اذنه اليمنى حتى ان اذنه قد انتفضت . تم عاد يقرؤهما مرة اخرى ، ليجد ثغرة في النص هذه المرة .

وعندما نظر الي بدا مرتعباً . فقد رأى فيّ شخصاً جديداً لم يكن يدري بوجوده . وقد استغرقه التكيّف وهذا الغريب بعض الوقت . الا انه كان بارعاً ، فتكيّف في النهاية وقال :

« ما هو التمن الذي تطلبه ؟ »

« واحد وخمسون بالمائة » .

« مم ؟ » .

« من الشركة أو التراكة أو مهما تكن » .

« ان هذا لسخف » .

« انك تريد مطاراً ، ولدي الارض الوحيدة الممكن استعمالها لتلك الغاية » .

فمسح نظارتيه بقطعة من الورق اللين ، ثم عاد وثبتهما فوق عينيه الا انه لم ينظر الي بل أدار عينيه في دائرة من حولي وتركني خارج خطوط نظره . وأخيراً سألني :

«هل كنت تدرك ما فعلته يا ايثان ؟»

«نعم» .

«وهل أنت مستريح لما فعلت ؟»

«أعتقد بأنني أشعر نفس شعور الرجل الذي أعطاه زجاجة من الويسكي وحاول ان يجعله يوقع على ورقة» .

«هل حدثك هو بذلك ؟»

«نعم» .

«كان يكذب» .

«لقد قال لي بأنه معتاد على الكذب . لقدأنذرني بأنه يكذب . وقد تكون هنالك خدعة ما في هاتين الورقتين» . وسحبت الورقتين الملوثتين المخطوطتين بقلم رصاص من امامه بلطف وطويتهما .

«حقاً ان في الامر خدعة يا ايثان . فهاتان الوثيقتان لا غبار عليهما فهما مؤرختان وواضحتان ، ومشهود بصحتهما . لعله كان يحمل في نفسه ضغينة لك ، وقد تكون خدعته كامنة في محاولته التسبب في انحلال انسان ما» .

«تذكر يا سيد بيكر بان أحداً ما في عائلتي لم يقم بحرق سفينة» .

«سوف تتحدث يا ايثان ، وسوف نشترك في عمل ونربح . ستقوم مدينة صغيرة على التلال حول المرج . وأعتقد بانك يجب ان تكون مديراً للبلدية» .

«لا يسعني القبول يا سيدي ، فإن في ذلك تضارباً والمصالح . وهنالك نفر من الناس دائب على كشف ذلك الآن ، بل في هذه اللحظة» .

فتنهد بحذر وكأنه تيقظ شيء ما في حلقه .

ووقفت مسنداً يدي إلى اعلى ظهر كرسي الابتهال المنجّد وقلت «ستشعر بحالك يتحسن يا سيدي عندما تعتاد النظر الي على اني لست أبله فكها» .

«لم لم تطلعني على أسرارك ؟»

«ان في الشراكة خطراً» .

«انك تشعر اذن بأنك قد اقترفت جريمة» .

«كلا . فالجريمة هي التي يقترفها شخص آخر . يجب ان افتح الحانوت الآن ، ولو كان حانوتي» .

كانت يدي على مقبض الباب عندما سأل بهدوء :

«من الذي وشى بمارولو ؟»

«أعتقد بأنك أنت الذي فعلت ذلك يا سيدي» .

فنهض واقفاً على قدميه الا اني اغلقت الباب خلفي وعدت إلى حانوتي .

٢١

ما من احد يستطيع ان يرقى الى مستوى حفل بمثل كفاءة ماري زوجتي . وليس ما تمنحه للآخرين هو الذي يجعلها تتألق كجوهرة بل ما تتقبّله . اذ تلتمع عيناها وتبتسم شفتاها كما ان ضحكتها السريعة تثير الفكاهة الحصيفة . ان وجود ماري في أي حفل يجعل كل من هناك يشعر بأنه اكثر جاذبية وحذقاً مما هو ، فيصبح كذلك بالفعل . وليست ماري بحاجة الى ان تمنح أحداً اكثر من ذلك .

عندما عدت الى البيت كان منزل آل هاولي بأكمله يشع بالاحتفال . كانت الاعلام الزاهية تنتظم في ما يشبه خياماً تنتشر في كل مكان ، في حين ان أعلاماً أصغر حجماً قد علّقت بافريز السلم . وصاحت ماري تقول «انك لن تصدق ذلك ، ولكن ايلين قد احضرت هذه الاعلام من محطة خدمة السيارات فقد أعارها اياها جورج ساندو» .

«علام ذلك كله ؟»

«على كل شيء . انه امر مجيد» .

لا أدري ما اذا كانت لم تسمع بخبر موت داني ام انها سمعت به وتجاهلته . واستطردت ماري قائلة : «قد يظن المرء بان ايلين هي التي فازت ، ولكنها اكثر فخراً مما لو كانت هي المحتفى بها . انظر الى الكعكة التي خبزتها» . كانت الكعكة بيضاء مرتفعة وقد كتبت فوقها كلمة (بطل)

بالاحمر والأخضر والاصفر والازرق . «ان العشاء يتكون من الدجاج المحمر وصلصة القوانص والبطاطس المهروسة مع اننا في فصل الصيف» .

«حسناً يا حبيبتي ، حسناً . واين الصغير المحتفى به ؟»

«ان الامر قد بدّله ايضاً . فقد صعد ليستحم ويبدل ثيابه للعشاء» .

«انه يوم شؤم ايتها الساحرة . فلا بد ان بغلة قد ولدت في مكان ما ، وان نجماً مُذنّباً جديداً قد هوى من السماء . تخيّلي! حمام قبل العشاء!»

«ظننت بأنك تريد تبديل ثيابك أيضاً . لدي زجاجة من النبيذ وقد يكون هناك خطاب قصير او نخب او شيء من ذلك ، مع ان الاحتفال مقتصر على افراد العائلة» .

كانت قد اغرقت المنزل بجو احتفالي فرأيت نفسي منطلقاً ارقى الدرج مسرعاً لأبدّل ثيابي فأصبح جزءاً من الحفل .

واذ مررت بغرفة ألن قرعت الباب ودخلت .

كان يقف امام مرآته وممسكاً بيده مرآة صغيرة كي يتمكن من رؤية صورة وجهه الجانبية ، وقد مسح على شفته العليا بمادة سوداء ، لعلها الكحل الذي تستعمله ماري ، شارباً رفيعاً بدائياً وقد رسم بالمادة نفسها خطوطاً فوق حاجبيه فازدادا سواداً ، وارتفع طرفاهما الخارجيان الى أعلى فأصبحا كحاجبي شيطان . وفي اللحظة التي دخلت فيها كان ينظر في المرآة مبتسماً ابتسامة فلسفية تهكمية سحرية وقد لبس رباط عنقي المنقط . الا انه لم يشعر بأي حرج . بل قال : «اني اتمرن على تأدية دور» . ثم وضع المرآة الصغيرة من يده .

«لم يتح لي الانفعال الذي نحن فيه ان اقول لك كم انا فخور بك يا بني» .

«ان ـ ان ذلك ليس سوى البداية» .

«وأصارحك بأني لم أكن أعتقد انك تجيد الكتابة ولو بمستوى رئيس الجمهورية . واني مندهش بقدر ما انا مسرور . متى ستقرأ مقالتك على الناس ؟»

«في الرابعة والنصف من بعد ظهر الاحد وستنقل كافة محطات التلفزيون في البلاد صورتي لدى القائها . وستأتي طائرة خاصة لتنقلني» .

«هل تمرنت جيداً على القائها ؟»

«أوه ، سألقيها على ما يرام . هذه ليست سوى البداية» .

«انها تبدو لي بمثابة قفزة كبيرة ، ان تكون واحداً من خمسة في جميع انحاء البلاد» .

«والظهور في جميع محطات التلفزيون في البلاد في آن واحد» . قال ذلك وراح يزيل الشارب بقطعة من القطن ، ولدهشتي رأيت ان لديه طقماً من لوازم تزيين الوجه ، ابتداء من مادة تظليل العينين الى الطلاء الدهني والمرهم المرطب وغير ذلك .

«ان كل شيء قد وافانا دفعة واحدة . هل علمت بأني قد اشتريت الحانوت ؟»

«آه ، نعم . سمعت» .

«وعندما ينتهي موسم الافراح وننزل هذه الاعلام وأوراق الزينة سأكون محتاجاً لمساعدتك» .

«ماذا تعني ؟»

«لقد اخبرتك قبلاً بأنني اريد مساعدتك في الحانوت» .

«لا استطيع ذلك» . قال هذا ونظر في المرآة الصغيرة متفحصاً اسنانه .

«ليس باستطاعتك ماذا ؟»

«لدي بعض الزيارات والمقابلات المترتبة على فوزي . ثم ان هنالك مسابقة اسئلة شفوية على التلفزيون تتعلق بمشاكل المراهقين . وقد افوز فيها . وهكذا ترى بأنه لن يكون لدي الوقت» . ثم رش على شعره مادة لزجة من علبة صفيح ترش بالضغط .

«يبدو لي بأن خطتك للمستقبل قد تقررت ، اليس كذلك ؟»

«لقد قلت لك ، ان هذه ليست سوى البداية» .

« لن اطلق كلاب الحرب هذه الليلة ، وسنبحث الامر فيما بعد » .

فقال : « هنالك شخص من شركة الاذاعة الأهلية يرغب في ان يراك . وقد يكون الامر متعلقاً بعقد لي حيث اني لم ابلغ سن الرشد بعد » .

« هل فكرت في الدراسة يا بني ؟ »

« وما حاجتي اليها اذا كان لدي عقد ؟ »

فخرجت مسرعاً من غرفته واقفلت الباب . وفي غرفة الحمام اسلت الماء البارد حتى تثلّج جسدي وأتحت للبرودة ان تخترق مسامي عميقاً كي اسيطر على غضبي الثائر . وعندما خرجت من الحمام نظيفاً لامعاً تفوح مني رائحة عطر ماري كنت قد استعدت سيطرتي على نفسي . وفي الفترة القصيرة التي سبقت العشاء جلست ايلين على ذراع الكرسي الذي اجلس عليه ثم تدحرجت جالسة في حضني واحاطتني بذراعيها . وقالت :

« انني احبك . اليس الامر مثيراً ؟ أو لايبدو ألن مدهشاً ؟ انه يبدو وكأنه ولد لذلك » . وكذلك تبدو لي هذه الفتاة التي كنت اعتقد انها انانية وعلى جانب من النذالة!

وقبل قطع الفطيرة شربت نخب الصغير ، وتمنيت له حظاً طيباً ، وأنهيت كلامي قائلاً :

« والآن هو ذا شتاء سخطنا قد استحال صيفاً مجيداً بفضل ابن (يورك) الفذ »

وقالت ايلين : « ان هذا لشكسبير » .

« نعم ايتها الحمقاء الصغيرة ، ولكن من اية مسرحية ، وعلى لسان اي الشخصيات وردت ، وبأية مناسبة ؟ »

وقال ألن : « لست أدري » .

ساعدتُ ماري في نقل الاطباق الى المطبخ وكانت ما تزال على تألقها . فقالت لي : « لا تغضب . انه سيشق مستقبله وينجح . أرجوك ان تكون حليماً معه » .

« سأكون كذلك يا طائري المقدس » .

«هنالك رجل من نيويورك كان يحاول الاتصال بك ، وأظن بأن ذلك يعود لأمر يتعلق بألن . أليس من المتير انهم سيرسلون له طائرة خاصة ؟ لم اعتد بعد على فكرة ملكيتك للحانوت . وانني أعلم بأنك ستصبح مديراً للبلدية ، فالخبر منتشر في انحاء البلدة» .

«لن اصبح كذلك» .

«قد سمعت الخبر اكتر من عشر مرات» .

«ان لدي صفقة عمل تحول دون ذلك . والآن علي ان اخرج لفترة قصيرة يا عزيزتي فإن لدي اجتماعاً» .

«لعلي سأتمنى بأن تعود فتغدو موظفاً . فعندما كنت موظفاً كنت تقضي امسياتك في المنزل . ماذا لو عاد الرجل فأتى ثانية ؟»

«ان بوسعه الانتظار» .

«لم يشأ الانتظار عندما تأتى في المرة الأولى . هل ستتأخر ؟»

«لست أدري وذلك يتوقف على كيفية سير الاجتماع» .

«ألا ترى حادث داني تايلور مؤلماً ؟ خذ معك معطف المطر» .

«انه مؤلم بالطبع» .

وفي القاعة لبست قبعتي وبدافع آلي تناولت عصا العاج التي كانت للقبطان العجوز وفجأة تجسدت ايلين بجانبي ، وقالت :

«هل تصحبني ؟»

«ليس في هذه الليلة» .

«انني احبك» .

حدقت عميقاً في ابنتي لحظة تم قلت «وانا احبك ايضاً . سآتيك بجواهر ـ هل تفضلين نوعاً معيّناً منها ؟»

فضحكت وقالت : «هل ستحمل العصا ؟»

فانتضيت العصا العاجية اللولبية كما لو كانت سيفاً وقلت : «إنني أحملها للدفاع عن النفس فقط» .

« هل ستتأخر طويلاً ؟ »

« لا » .

« ولم تحمل العصا معك ؟ »

« لمجرد الزينة ، والمباهاة ، والتهديد ، والتخويف ، ولإشباع رغبة قديمة مندثرة في حمل السلاح » .

« سأبقى مستيقظة في انتظارك . أيمكنني ان امسك ذلك الشيء الوردي ؟ »

« لا ، كلا ، لا تلمسي الشيء الوردي ؟ أتعنين التعويذة ؟ طبعاً ، طبعاً يمكنك حملها » .

« ما هي التعويذة ؟ »

« ابحثي عن معناها في معجم اللغة . أتعرفين كيف تتهجئينها ؟ »

« نعم ، ت ـ ع ـ و ـ ذ ـ ة» .

« كلا ، ت ـ ع ـ و ـ ي ـ ذ ـ ة » .

« لم لا تفسر لي معناها ؟ »

« ستتعلمينه بصورة افضل لو انت استخرجته من المعجم بنفسك » .

فأحاطتني بذراعيها وعصرتني ثم تركتني بسرعة .

وحلّ الظلام حولي كثيفاً رطباً ، وكانت رطوبة الهواء في مثل كثافة مرق الدجاج . اما انوار الشوارع المختبئة بين اوراق الاشجار الكبيرة في ايلم ستريت فقد بدت حولها هالات شعرية من الرطوبة .

ان صاحب الوظيفة يرى القليل من حياة النهار العادية . فلا عجب ان هو استقى الاخبار عن طريق زوجته . فهي تعلم ماذا حدث ، وماذا قال كل فلان عن ذلك . الا ان الخبر عن هذا الطريق يأتي مبهّراً بالاسلوب الانثوي ، ولهذا السبب فان اكثر الموظفين يرون عالم النهار من خلال عيون النساء . ولكن عندما يقفل الحانوت في المساء ، او تنتهي ساعات الوظيفة ، فان عالم الرجال يستيقظ حينئذ ـ لوقت محدود .

وشعرت بارتياح من ملمس المقبض الفضي للعصا العاجية الذي كان صقيلاً لطول ملامسته لقبضة القبطان الشيخ .

وكنت فيما مضى ، عندما كنت أحيا في عالم النهار ، وكان العالم مقبلاً عليّ بخيراته ، اذهب الى مرجة معشوشبة ، فأنبطح ـ ووجهي الى الأرض ـ فأغدو قريباً جداً من سيقان الأعشاب ، وأصبح مثل النمل وأنواع الحشرات ، وأشعر وأنا في ذلك الغاب العشبي المنعزل باسترخاء ذهني وبانعتاق افكاري من الهم والقلق . وكان ذلك يحمل لي شعوراً بالسلم والطمأنينة .

أما الآن فقد مضيت أنشد الميناء القديم و(المكان) ، متوقعاً ان تساعد الدورات التي لا تحصى من الحياة والمد والزمن على تهدئة ما يدور في نفسي من انفعالات .

سرت بسرعة الى هاي ستريت وعندما مررت بقرب الفورماستر لم الق على حانوتي ذي الستائر الخضراء سوى نظرة عابرة . وفي سيارة الشرطة امام مقر فرقة اطفاء الحريق كان ويلي السمين جالساً ، أحمر الوجه ينضح عرقاً كالخنزير . فقال :«اعدت الى جولاتك يا ايثان ؟ »

« نعم » .

« مؤلم جداً حادث داني تايلور . كان فتى طيباً » .

« جداً » . قلت هذا وغذذت السير .

وكانت تمر بضع سيارات بين آونة وأخرى فتحرّك الهواء قليلاً الا انه لم يكن هناك من مشاة ابداً . فان احداً لم يرغب في المخاطرة بالمشي والعرق .

وعند النصب التذكاري استدرت في طريقي الى الميناء القديم فرأيت أنوار مراسي بعض اليخوت وقوارب صيد السمك . ثم رأيت شخصاً يخرج من بورلك ستريت ويأتي باتجاهي وعرفت ، من القامة وطريقة السير ، بأن تلك كانت مارجي يونج هنت .

وقفت امامي ولم تتح لي مجال المرور . ان بوسع بعض النساء ان يظهرن باردات في ليلة حارة ، ولعل لذلك علاقة برفيف التنانير القطنية التي يلبسنها . وقد كانت مارجي واحدة منهن . «أعتقد بأنك تبحث عني» . قالت ذلك وصلحت من وضع خصلة شعر لم تكن تخرج عن مكانها .

«لم تقولين ذلك ؟»

فاستدارت وأمسكت بذراعي واستحثتني على السير وقالت «هذا هو النوع الذي ارغب فيه . فقد كنت في الفورماستر ورأيتك تمر فظننت انك قد تكون تبحث عني ، وخرجت ودرت حول بناية الفورماستر من الناحية الثانية وقطعت عليك طريقك» .

«كيف عرفت اي الطرق سأسلك ؟»

«لست ادري كيف عرفت ، ولكنني عرفت . اصغ الى طنين هذه الحشرة - ان هذا يعني مزيداً من الحر . لا تقلق يا ايثان ، قريباً سنخرج من منطقة النور وبوسعك ان تأتي الى بيتي اذا شئت . سأقدم لك كأساً من الشراب - كأساً طويلة باردة ، من امرأة طويلة حارة!»

تركت لاصابعها المجال كي تقودني الى ظلال حديقة نمت بها اشجار تمر الحنة ، وقد أنار الظلامَ قليلاً نوع من الأزهار الصفراء التي لا ترتفع كثيراً عن الأرض .

«هذا هو بيتي - كاراج وفوقه قبة للهو» .

«ما الذي جعلك تظنين بأنني كنت أبحث عنك ؟»

«لقد كنت تبحث عني او عن واحدة مثلي . هل شهدت مصارعة الثيران قط يا ايثان ؟»

«رأيت ذلك مرة واحدة فقط في آرل بعد الحرب» .

«كان زوجي الثاني مولعاً بهذه الحفلات واعتاد ان يصحبني اليها . انني اعتقد بأن مصارعة الثيران هي هواية الرجال الذين ليست لديهم الشجاعة الكافية ، ولذا تراهم يتمنون بأن يصبحوا شجعاناً . واذا كنتَ قد حضرتها

فانك ستفهم ما الذي اقصد اليه . اتذكر ان التور ، بعد الحركات التي يقوم بها المصارع بالمنديل الاحمر ، يحاول ان يقتل شيئاً ليس موجوداً ؟ »

« نعم » .

«اتذكر كيف تأخذه الحيرة احياناً فلا يفعل شيئاً سوى الوقوف جامداً والبحث عن جواب ؟ حسناً ، ان عليهم عند ذلك ان يوجهوا حصاناً نحوه ، والا فان قلبه ينفطر . يجب ان يغرس قرنيه في جسم صلب والا ماتت روحه . حسناً ، انا هي ذلك الحصان . هذا هو النوع الذي احصل عليه من الرجال ، النوع المضطرب المرتبك . فإذا ما استطاع هؤلاء غرس قرونهم فيَّ فإن ذلك يكون بمثابة نصر صغير لهم . وعند ذلك يعودون الى مناديلهم الحمر وسيوفهم » .

« مارجي! »

«انتظر لحظة فاني ابحث عن المفتاح . أتشم رائحة الياسمين البري ؟ »

« ولكني قد نلت نصراً »..

« حقاً ؟ هل علق احد بشباكك ؟ »

« كيف علمت » .

«اعلم ذلك عندما ارى رجلاً يبحث عني او عن مارجي اخرى . انتبه لدرجات السلم فإنها ضيقة . كذلك انتبه لئلا يصطدم رأسك بالأعلى . والآن ، هو ذا زر النور ـ أترى . قبة للهو ، انوار خفيفة ، رائحة مسك» .

«أعتقد بأنك ساحرة حقاً » .

«انك تعلم تماماً بأنني كذلك . ساحرة مسكينة يرثى لها ، ساحرة في بلدة صغيرة . اجلس هنا قريباً من النافذة . سأدير المروحة . والآن سأفعل ما يسمونه «الدخول في ثياب مريحة» ريثما احضر لك كأساً طويلة باردة من مفجّر الجماجم» .

«أين سمعت هذا التعبير ؟ »

«انك تعلم أين سمعته» .

« هل كنت تعرفينه جيداً ؟ »

« كنت اعرف جزءاً منه . ذلك الجزء الذي يسع المرأة أن تعرفه . وذلك ، أحياناً ، هو أحسن الأجزاء ، ولكن ليس دائماً . وبالنسبة الى داني فقد كان ذلك احسن اجزائه ، وكان يثق بي » .

كانت الغرفة اشبه بسجلٍ لذكريات غرف اخرى ، كسر وقطع من حياة أناس آخرين ، وكأنها حواش وتذييلات . وكانت المروحة الموضوعة على النافذة تصدر صوتاً هادراً هامساً .

عادت مارجي الى الغرفة حالاً في رداء أزرق مائج فضفاض ، حاملة معها سحابة من عطر . وعندما تنسّمتُها قالت : « لا تنزعج ، ان هذا نوع من العطور لم تتنسمه ماري مني ابداً . ها هي ذي كأسك وفيها بعض الجن ـ مجرد جن ، اذا ما خشخشت الثلج بالكأس فسيخيل اليك بأن الشراب بارد » .

شربت الكأس دفعة واحدة وكأنها كأس بيرة ، وشعرت بحرارتها القوية تصل الى كتفي وتنحدر الى ذراعي فتألق جلدي بتلك الحرارة .

« أظن ذلك » .

« سأجعل منك ثوراً شجاعاً ـ ما يكفي من المقاومة لتعتقد بأنك نلت نصراً . وهذا ما يحتاج اليه الثور » .

تفرست في يدي الممتلئتين بالخدوش والجروح الصغيرة من جراء فتح الصناديق ، ولم تكونا نظيفتين تماماً .

أما هي فتناولت العصا العاجية من المتكأ حيث كنت قد وضعتها لدى دخولي وقالت : « آمل ألا تحتاج هذه العصا لعواطفك الواهنة » .

« هل انت عدوتي الآن ؟ »

« أنا زميلة نيوبايتاون في لعبها ، عدوتك ؟ »

صمتت طويلاً حتى شعرت بتململها المتزايد . وقالت : « أمامك متسع من الوقت ، امامك حياتك كلها لتجيب على سؤالي . سأجهز لك الآن كأساً اخرى » .

تناولت منها الكأس التي ملأتها وشعرت بجفاف في فمي وشفتي حتى انني اضطررت لارتشاف قليل من الشراب كي أستطيع ان اتحدث ، وعندما تكلمت كان صوتي خشناً :

«ماذا تريدين ؟»

«سأقتنع بحبك» .

«حب رجل يحب زوجته ؟»

«تحب ماري ؟ انت حتى لا تعرفها» .

«أعرف بأنها رقيقة وحلوة وقليلة الحيلة نوعاً ما» .

«قليلة الحيلة ؟ انها في قسوة الحذاء ، وستحيا طويلاً بعد ان تكون أجهزة جسمك قد تفككت . وهي مثل طير النورس الذي يجعل الريح تحمله في العلاء فيبقى ساكناً ولا يرف بجناحيه» .

«ليس هذا صحيحاً» .

«واذا ما وقعت مصيبة فانها ستنسل منها بينما تحترق انت فيها» .

«وماذا تريدين ؟»

«ألا تريد مغازلتي ؟ ألا تريد التفريج عن كراهيتك بهرس مارجي الصديقة الطيبة بفخذيك ؟»

وضعت كأسي نصف الممتلئة على منضدة جانبية فرفعتها مارجي بسرعة الحية ووضعت تحتها منفضة سجائر ثم مسحت بيدها الدائرة الرطبة التي تركتها كأسي .

«مارجي أريد أن أعرف شيئاً عنك» .

«انك تريد ان تعرف رأيي في اللعبة التي قمتَ بها» .

«لن أستطيع معرفة ما تريدين ما لم أعرف من انت» .

«أعتقد بأنك جاد في ذلك ، تريد ان تجوس خلال مارجي يونج هنت حاملاً مسدساً وآلة تصوير . لقد كنت فتاة صغيرة طيبة ، فتاة صغيرة ذكية وراقصة متوسطة... وقابلت ما يدعونه برجل طيب فتزوجته . ولم يكن يحبني

انما كان غارقاً في حبي . وهكذا أتى كهدية على طبق فضي الى فتاة صغيرة ذكية . فقبلته اذ لم اكن أحب الرقص كثيراً ، وكنت أمقت القيام بأي عمل . وعندما تركته كان مضطرباً لدرجة انه لم يشترط علي في وثيقة الطلاق عدم الزواج ثانية ليستمر في دفع نفقة لي . فتزوجت رجلاً آخر وسرنا معاً في حياة صاخبة قضت عليه . وقد انقضت عشرون سنة وذلك الصك يصلني من زوجي الاول في موعده أول كل شهر . وخلال عشرين سنة لم أقم باي نوع من العمل سوى تقبّل بعض الهدايا من المعجبين . هذا ولا استطيع التصديق ان عشرين عاماً قد انقضت ، ولكن هذه هي الحقيقة . وأنا الآن لم أعد تلك الفتاة الصغيرة الطيبة» .

قامت الى مطبخها الصغير واحضرت ثلاث قطع من الثلج وضعتها في كأسها وسكبت الجن فوقها . وعند ذلك نقلت المروحة المدمدمة رائحة الشاطئ وقد انحسر فيه المد ، وقالت بصوت خافت : «انك ستربح كثيراً من المال يا ايثان» .

« أتدرين بالصفقة ؟ »

« ان بعضاً من انبل النبلاء ليسوا سوى حشرات زاحفة » .

« استمري » .

فأشارت بيدها اشارة دائرية كاسحة فطارت الكأس من يدها الى الحائط وطفرت قطع الثلج كأحجار النرد . وقالت :

« قد اصيب زوجي الاول بالفالج في الاسبوع الماضي . واذا مات فإن النفقة ستنقطع عني . وانني كبيرة وكسول وخائفة .وقد اتخذتك الآن سنداً احتياطياً ولكني لا أثق بك ، فأنت معرض للخروج على القاعدة لتصبح مستقيماً . أقول لك بأنني خائفة » .

فقمت وشعرت بأن ساقي تقيلتان ، ولكن ليستا مترنحتين ـ فقط ثقيلتان ونائيتان .

« ما لديك مما تريدين استثماره ؟ »

«لقد كان مارولو صديقاً لي» .

«آه . اني افهم» .

«ألا تريد مضاجعتي ؟ انني ممتعة . هكذا يقولون لي» .

«انا لا اكرهك» .

«هذا سبب عدم ثقتي بك» .

«سنحاول وضع ترتيب ما . انني اكره بيكر وقد يكون باستطاعتك تقليم أظافره» .

«يا لهذه اللهجة! لا يبدو بأن الشراب هو الذي يتكلم فيك» .

«ان الشراب بالنسبة لي هو للفترات السعيدة» .

«هل يدري بيكر بما فعلت لدائي ؟»

«نعم» .

«وكيف تقبل الأمر ؟»

«تقبله تقبلاً حسناً . ولكنني احذره ولذا فلن أدير له ظهري» .

«يظهر أن ألفيو قد أدار لك ظهره» .

«ماذا تعنين بذلك ؟»

«انني اعني ما أخمّن . ولكنني مستعدة للرهان على تخميني . لا تقلق فلن أطلعه . ان مارولو صديقي» .

«أعتقد بانني أفهمك الآن . فأنت تحاولين اثارة كراهيته كي تستطيعي استعمال السيف . ولكن سيفك من مطاط يا مارجي» .

«أتظن بانني لا أعرف ذلك يا ايتان ؟ وانني اذ أراهن فبدافع من الالهام» .

«هل لك ان تفصحي ؟»

«لست أرى بأساً من ذلك . انني أراهن على ان عشرة أجيال من آل هاولي سوف يتحدثون عنك بالتكران» .

«اذا كان الامر كذلك ـ فأينك منه ؟»

«انك ستحتاج الى صديق لتتحدث اليه وأنا هي الشخص الوحيد في العالم كله الذي يصلح ليشغل تلك الوظيفة . فالسر شيء عظيم الوحشة يا ايثان . ولن يكلفك ذلك كثيراً ، وقد تكون هذه الكلفة نسبة مئوية صغيرة» .

«أظن بأني يجب ان اذهب الآن» .

«اشرب كأسك» .

«لا اريدها» .

«حاذر لئلا تضرب رأسك لدى نزولك السلم يا ايثان» .

وكنت قد أصبحت في منتصف السلم عندما تبعتني وقالت «هل تعمدت ان تترك عصاك ؟»

«يا للّه! كلا» .

«ها هي . ظننت انها قد تكون نوعاً من الضحايا» .

كان المطر يتساقط وهذا يجعل رائحة الياسمين البري حلوة في الليل . كانت ساقاي تترنحان مما جعلني أحتاج الى العصا بالفعل .

كانت على مقعد السيارة بجانب ويلي السمين لفافة مناديل من الورق يمسح بها العرق عن رأسه .

«اراهنك على اني اعرف من هي» .

«سـتربح الرهان» .

«اسمع يا ايثان ، هنالك شخص كان يبحث عنك ـ شخص يركب سيارة فخمة يسوقها سائق» .

«ماذا يريد ؟»

«لست ادري . سألني ما اذا كنت قد رأيتك فأنكرت» .

«سوف اقدم لك هدية في عيد الميلاد يا ويلي» .

«قل يا ايثان ، ماذا جرى لساقيك ؟»

«كنت ألعب البوكر فتخدّرتا» .

«طبعاً! ان ذلك يحصل . هل اخبر ذلك الشخص ، اذا رأيته ، بأنك ذاهب الى البيت ؟»

«قل له بأن يأتيني الى الحانوت غداً» .

«سيارة فخمة كبيرة ، طولها في مثل طول عربة قطار . يجب ان يكون ذلك الشخص ابن كلب كبير» .

وقف جو على الرصيف امام الفورماستر . وكان مبللاً ومتخاذلاً .

«ظننت بأنك قد ذهبت الى نيويورك» .

«لم يشجعني الطقس الحار على الذهاب . ادخل وتناول كأساً معي يا ايثان . انني اشعر بكآبة» .

«ان حرارة الطقس لا تساعد على الشراب يا مورفي» .

«حتى ولا زجاجة بيرة ؟»

«ان البيرة تزيد في حرارتي» .

«هذه قصة حياتي دائماً . عندما يكتئب مزاجي لا اجد احداً لأتحدث معه او مكاناً لأذهب اليه» .

«يجب ان تتزوج» .

«عنيت انه لا يوجد احد تتحدث معه بما تشاء» .

«لعلك على صواب في ذلك» .

«إنني مصيب تماماً . فما من احد يشعر بالوحدة كالرجل المتزوج» .

«ماذا تقصد ؟»

«انني اعرف حال المتزوجين . وها أنذا انظر الى واحد منهم . اعتقد ان ليس لي سوى شراء بضع زجاجات من البيرة والذهاب الى مارجي يونج هنت فلعلها تستقبلني . فهي لا تحدد اوقات العمل» .

«لا إخالها في البلدة يا مورفي . فقد قالت لزوجتي ـ على الاقل اظن بأنها قالت ـ بأنها ستذهب الى ماين حتى تنتهي موجة الحر» .

«عليها اللعنة . حسناً ـ ان خسرانها ربح لصاحب المشرب . سأحدثه

بالقصص المحزنة عن حياة أسيء استعمالها . على كل حال فهو ايضاً لا يصغي . الى اللقاء يا ايثان . سر بحفظ الله! هذا ما يقولونه في المكسيك » .

كانت العصا العاجية تنقر الرصيف واضعة مواقف لتساؤلي عما دعاني ان أقول ذلك لمورفي . انها لن تتكلم فهذا يفسد عليها لعبتها . وعليها ان تحتفظ بالدبوس في قنبلتها اليدوية . لست ادري لم قلت ذلك .

عندما استدرت من هاي ستريت الى شارع ايلم رأيت السيارة الفخمة تقف الى جانب الرصيف قريباً من منزل آل هاولي القديم ، ولكن السيارة كانت أشبه بعربة نقل الموتى منها بعربة قطار ، سوداء دون لمعان بسبب المطر ورشاش الوحل الذي طالها في الطريق . وكان زجاج أنوار الوقوف من النوع الأغبش .

لا بد ان الوقت كان متأخراً اذ لم تكن هنالك أية انوار تنبعث من منازل شارع ايلم . وكنت مبللاً ولا بد اني قد عثرت بحفرة في مكان ما . وكان حذائي يزيق وأنا أسير .

رأيت من خلال الزجاج الغائم رجلاً بقبعة سائق . فوقفت بجانب السيارة الضخمة وقرعت الزجاج بأصابعي ، وانحدر زجاج النافذة الى الأسفل بأنين كهربائي . وشعرت بهواء السيارة المكيف وغير الطبيعي يهب في وجهي .

« انني ايثان هاولي . هل تبحث عني ؟ » ورأيت الأسنان من خلال الغباش ـ اسناناً تلمع وقد انعكس عليها نور شارعنا .

فانفتح باب السيارة تلقائياً وخرج منه شخص نحيل انيق وقال : « انني دنسكومب من فرع التلفزيون بشركة بروك وشوين . يجب ان اتحدث اليك » . ونظر باتجاه السائق وقال : « ولكن ليس هنا ، فهل يمكن ان نتحدث داخل المنزل ؟ »

« لابأس من ذلك اذا تكلمت بصوت خافت . فالكل نيام » .

وتبعني خلال الممشى المبلّط في مرجتنا التي تنّز بالماء . وكان ضوء الليل منيراً في القاعة . وعندما دخلنا وضعت العصا العاجية في قدم الفيل . وأشعلت ضوء القراءة الكائن فوق مقعدي المتحرك .

كان البيت هادئاً ، وبدا لي ان ذلك الهدوء ليس طبيعياً ـ فهو هدوء عصبي .
وألقيت بنظرة سريعة على ابواب غرف النوم من خلال رأس السلم وقلت :

«لا بد ان هنالك امراً مهماً وراء قدومك في هذا الوقت المتأخر» .

«انه لكذلك» .

استطعت رؤيته الان ـ رأيت أسنانه وعينيه المتعبتين الواعيتين .

«اننا نرغب في كتم هذا الامر . فقد كانت هذه السنة سيئة بالنسبة لنا كما لا بد ان تعلم . فقد هزّتنا فضائح السؤال والجواب التلفزيونية . وعلينا ان نحذر من كل شيء ، فالظروف خطيرة» .

«أرجو ان تحدثني عما تريد» .

«هل قرأت مقال ابنك الذي بعنوان (أحب أمريكا) ؟»

«كلا ، لم أقرأه . لقد رغب في مفاجأتي به» .

«انه قد فاجأك حقاً . وانني لست افهم كيف اننا لم نكتشف الأمر ، ولكن هذا هو الذي حصل» . ثم مدّ يده وناولني ملفاً أزرق وقال : «اقرأ الفقرات المؤشر عليها» .

فغطست في مقعدي وفتحت الملف . كان المقال اما مطبوعاً أو مكتوباً بواسطة احدى تلك الآلات الكاتبة الجديدة التي تشبه حروفها حروف المطابع ، وتشوبها خطوط بقلم رصاص ثخين على كلا جانبي المقالة .

«أحب امريكا»

بقلم: ايثان ألن هاولي الثاني

«ما هو الانسان الفرد ؟ إنه ذرة تكاد لا ترى دون منظار مكبّر ، وهو لا يزيد على ذريرة في وجه هذا الكون . انه لا يبلغ ثانية من الوقت بالمقارنة مع الأبدية التي لا حصر لها ، ولا بدء ولا نهاية . انه نقطة ماء في الاوقيانوس العظيم الذي يتبخر فتتقاذفه الرياح . انه ذرة رمل سرعان ما تعود فتتحد

بالغبار الذي خرجت منه . أفيقاوم مخلوق صغير حقير عابر زائل تقدم أمة عظيمة يجب ان تحيا أجيالاً وأجيالاً مقبلة ، أيقاوم تلك السلسلة الطويلة من الذراري التي تخرج من أصلابنا لتبقى طالما بقي العالم ؟ فلنتطلع الى بلادنا ونسمو بأنفسنا الى مستوى المواطنين النزيهين ، ونخلص بلادنا من جميع الاخطار المحدقة بها . فما هي قيمتنا ـ ما هي قيمة أي إنسان إذا لم يكن مستعداً لتقديم نفسه ، راغباً في تضحيتها من أجل بلاده ؟ »

وقلبت الأوراق فرأيت الخطوط الرصاصية في كل مكان . وقال لي الرجل «هل تعرف هذا الكلام ؟ »

« كلا ، انه يبدو مألوفاً ـ لعله يبدو شيئاً من القرن الماضي » .

«انه لكذلك . انه من خطاب ألقاه هنري كلاي عام ١٨٥٠ »

« والباقي ؟ أهو جميعه لهنري كلاي ؟ »

« كلا ـ بل فقرات من هنا وهناك ، بعضها لدانيال وبستر ، والبعض لجفرسون والبعض منها ـ وليعني الله ـ قطعة من خطاب لينكولن في حفلة تنصيبه رئيساً للمرة الثانية . ولست أدري كيف فاتتني هذه على الأخص . أعتقد لأنه كانت هنالك آلاف المقالات . ونحمد الله على أننا اكتشفنا هذا الأمر في الوقت المناسب بعد كل مشاكل مسابقات الأسئلة والأجوبة وما الى ذلك» .

«ولكن هذا لا يبدو بأنه اسلوب صبي في الكتابة »

«لست أدري كيف حصل ذلك . وقد كان من المحتمل ان يبقى الأمر خافياً علينا لو لم نتسلم البطاقة البريدية» .

« بطاقة بريدية ؟ »

«بطاقة بريدية مصوّرة ، عليها صورة بناء امبايرستيت» .

«من الذي ارسلها ؟ » .

« شخص مجهول » .

« أين أودعت البريد ؟ » .

«في نيويورك» .

«دعني أرها» .

«انها محفوظة لإبرازها في حال قيام مشكل . انك لا ترغب في اثارة مشاكل ، أليس كذلك ؟»

«وما الذي تريده ؟»

«أريدك أن تنسى الأمر كله . وسنهمل الأمر بدورنا وننساه ـ اذا أنت نسيته» .

«ليس نسيانه بالأمر السهل» .

«يااللجحيم ، انني أعني بأن تبقي فمك مطبقاً ـ فلا تسبب لنا أية مشاكل فقد واجهتنا سنة سيئة للغاية . وفي سنة الانتخابات هذه يستطيع أي انسان ان ينبش أي شيء» .

فأقفلت الملف الأزرق المترف وأعدته وقلت «لن أسبب لكم أية مشاكل» .

وكشف عن أسنانه التي تشبه اللآلىء المختارة وقال :

«اعلم ذلك . وقد قلته لهم . كنت قد استعلمت عنك ووجدت بأن تاريخك ناصع وبأنك تنحدر من عائلة طيبة» .

«هل لك ان تذهب الآن ؟»

«يجب أن تعلم بأنني افهم شعورك» .

«اشكرك . وأنا ايضاً افهم شعورك . ان ما تريدون اخفاءه هو شيء غير موجود» .

«لست اريد ان اتركك غاضباً . ان وظيفتي هي العلاقات العامة . وان بوسعنا اجراء ترتيب خاص لابنك كمنحة دراسية أو شيء من هذا القبيل ـ شيء محترم» .

«هل اضربت الخطيئة طلباً لرفع الأجور ؟ كلا ، اذهب فقط ودعني ، اذهب الآن ارجوك!»

«سنقوم بترتيب ما» .
«انني متأكد من ذلك» .
فتحت له الباب فخرج . وعدت فأطفأت النور وجلست اصغي الى جو بيتي . كان يخفق كالقلب ، وقد يكون ذلك صوت قلبي وخشخشة البيت القديم . وفكرت بالذهاب الى الدولاب لتناول التعويذة بيدي ـ وقد وقفت لأذهب .
وسمعت صوتاً كصوت مضغ وهمهمة خفيفة كصهيل مهر خائف ، ثم وقع خطوات سريعة في القاعة أعقبها سكوت . وزاق حذائي اذ صعدت السلم . وذهبت الى غرفة ايلين وأضأت النور . كانت مكوّمة تحت الغطاء ورأسها تحت المخدة . وعندما حاولت رفع المخدة تشبثت بها فانتزعتها بعنف . وكان خيط من الدم يسيل من زاوية فمها .
«لقد زلقت في غرفة الحمام» .
«هذا هو السبب اذن . فهل أوذيت كثيراً ؟»
«لا أظن ذلك» .
«أي ، بكلمات أخرى ، ان هذا ليس من شأنك» .
«لا أريد أن يضعوه في السجن» .
كان ألن في غرفته يجلس على حافة سريره ، عارياً إلا من سروال داخلي قصير . وذكرتني عيناه بفأر ضُيّق عليه الخناق في زاوية فاستعد لمقاومة المكنسة الى النهاية .
«يا للمتسلل القذر» .
«هل سمعت كل شيء» .
«سمعت كل ما قاله ذلك المتسلل القذر» .
«هل علمت بما فعلت ؟»
وهنا استدار الفأر المطارد فاتخذ خطة هجوم وقال :
«وماذا في ذلك ؟ كل واحد يفعل ذلك . انها الطريقة لسحق الفطيرة» .

«هل تؤمن بذلك ؟»

«ألا تقرأ الصحف ؟ الكل يفعلون ذلك من اصغر صغير الى اكبر كبير - اقرأ الصحف فترى . اقرأها ، فتشعر بأنك قديس . واني أراهن بأنك فعلت شيئاً من ذلك في زمانك لأنهم كلهم يفعلون ذلك . ولست أرضى بتحمل العقاب عن كل واحد . لا شيء يهمني سوى ذلك المتسلل القذر» .

ان ماري في العادة تستيقظ تدريجياً ، الا انها كانت مستيقظة . ولعلها لم تكن قد نامت . وجدتها تجلس على طرف السرير في غرفة ايلين . كانت هيئتها واضحة تماماً بسبب انعكاس نور الشارع وظلال أوراق الشجر المتحركة على وجهها . انها صخرة ، صخرة صوّان كبيرة وسط مد البحر . ان ما قالته مارجي صحيح . فهي قاسية كالحذاء ، راسخة ، لا تحني رأسها ، ومطمئنة .

«هل أنت آت للنوم يا ايثان ؟»

اذن فانها كانت تستمع هي أيضاً .

«ليس الآن يا عزيزتي» .

«أتخرج ثانية ؟»

«نعم ، لمجرد المشي» .

«أنك تحتاج للنوم والمطر مازال يسقط . هل انت مضطر للخروج ؟»

«نعم . هنالك مكان يجب ان أذهب إليه» .

«اذن ، فخذ معطف المطر معك . انك نسيته من قبل» .

«حاضر يا عزيزتي» .

لم أقبّلها عندئذ . لم استطع ذلك بوجود ذلك الجسم المكوّر المغطى بجانبها . إلا أنني لمست كتفها ووجهها وكانت قاسية كالحذاء .

دخلت غرفة الحمام للحظة وتناولت علبة شفرات حلاقة .

ثم اذ كنت في القاعة على وشك تناول معطف المطر كما ارادت ماري ، سمعت حفيفاً وزحفاً واذا بايلين تهرع مسرعة إلي وتلقي بنفسها بين ذراعي

وهي تئن وتخفق . ودفنت أنفها الدامي في صدري وأحاطت ذراعي وجسمي بذراعيها وكان جسمها الصغير يرتجف .

« خذني معك» .

« لا يمكنني ذلك أيتها الحمقاء . ولكني سأغسل لك وجهك اذا سرت معي الى المطبخ » .

« خذني معك . انك لا تنوي العودة » .

« ماذا تقصدين ؟ انني عائد طبعاً . انني اعود دائماً . اذهبي الى سريركِ واستريحي وستشعرين بتحسن » .

« ألن تأخذني معك ؟ »

« لن يسمح لك بالدخول الى حيث اذهب . فهل تريدين البقاء في الانتظار خارجاً وأنت في قميص النوم ؟ »

« لا تذهب» .

ثم أمسكت بي ثانية وأخذت تحسس على ذراعي وعلى جانبي ، وأدخلت يديها في جيوبي وخشيت أن تعثر على شفرات الحلاقة . لقد كانت دوماً فتاة تحب التربيت والملامسة . وفجأة تركتني وتراجعت الى الخلف ورفعت رأسها ولم تكن هنالك دموع في عينيها . وقبلت خدها الصغير القذر وشعرت بالدم المتجمد يلثم فمي . ثم استدرت نحو الباب .

« ألا تريد عصاك ؟ »

« كلا يا ايلين . لا أريدها هذه الليلة . اذهبي الى فراشك يا عزيزتي . اذهبي الى الفراش» .

وخرجت سريعاً . وأعتقد بأني هربت منها ومن ماري . فقد سمعت صوت وقع خطواتها على السلم .

٢٢

كان المَد في ارتفاع فخضت مياه الخليج الدافئة وتسلقت الى (المكان) . وكانت موجة مياه بطيئة تدخل (الى المكان) وتخرج منه فتسربت من خلال سروالي . واذ تبللت حزمة الأوراق المالية في جيبي الخلفي بالماء تضخم حجمها أولاً ثم ما لبثت ان رقت من جراء ضغط جسمي عليها . كان البحر في الصيف يزدحم بالسمك الهلامي ، الذي لا تزيد الواحدة منه عن حجم حبة التوت ، وقد تدلت جذوره وخلاياه اللاسعة الى المياه . واذ كانت المياه تقذفها فترتطم بساقي ومعدتي فأشعر بلسعاتها مثل جمرات نار صغيرة حارقة ، واستمرت الموجة البسيطة في الدخول الى المكان والخروج منه . وكان المطر قد انقطع الآن تقريباً إلا من سحابة خفيفة عكست النجوم وأنوار البلدة بانتظام في لمعان التنك الداكن . وكان بوسعي رؤية الصخرة الثالثة ولكنها اذ انظر اليها من المكان ، لا تبدو على خط مستقيم مع نقطة استقرار قاعدة السفينة (بل ادير) الغارقة تحت الماء . ثم انفجرت موجة كبيرة رفعت ساقي فشعرت بأنهما طليقتان ومنفصلتان عن جسمي ، وفجأة هبت ريح قوية فمزقت السحاب الى بدد كقطيع ثم شتتته . ثم استطعت أن أرى نجماً ـ نجماً متأخراً في الإشراق على طرف الأفق . وسمعت صوت دمدمة محرك زورق ذي شراع يمر بالقرب من حاجز الرياح ، ورأيت نور صاريه ، إلا أن ضوأيه الأحمر والأخضر كانا خارج نطاق رؤيتي .

وشعرت بجلدي يكاد يحترق من تأثير لسعات السمك الهلامي الصغير . ثم سمعت صوت القاء مرسى القارب وانطفأ نور صاريه .

كان نور مارولو مازال مضيئاً ، وكذلك نور القبطان الشيخ ، ونور العمة ديبورا .

ليس صحيحاً ما يقال من أن هنالك مجموعة من الأنوار ، شعلة نور كبيرة لكل العالم . ولكن كل انسان يحمل نوره ، نوره المتوحد .

ثم سمعت ختشخشة جماعة من السمك الصغير اذ مرقت قريباً من الشاطىء تبحث عن طعام .

انطفأ نوري . وليس هنالك ما هو أكثر سواداً من فتيل خامد .

وقلت لنفسي بأني أريد أن أذهب الى المنزل ـ لا ، ليس الى المنزل ، بل الى الجانب الآخر من المنزل حيث تضاء الأنوار .

ان الظلام يبدو أكثر اظلاماً بعد انطفاء النور منه فيما لو لم يكن هنالك نور بالمرة . والعالم مملوء بالمهملات الداكنة .

والطريق الأفضل ـ ولا بد ان قبائل المارولي في أيام روما القديمة قد عرفت تلك الطريق ـ هي انه يحل وقت لانسحاب لائق وشريف ، لا يتخذ وجهاً درامياً ، ولا يُنفذ عقاباً للنفس أو للعائلة ، بل أنه مجرد شعيرة وداعية ، حمّام حار ، شريان مفتوح ، بحر دافىء ، وشفرة حلاقة .

كانت أمواج المد المرتفع تحف حفيفاً اذ تدخل المكان ، ومع ارتفاع المياه شعرت بساقيّ تعومان فوق الماء الذي أرجحني من ردف الى الآخر . ولدى خروجه من المكان انجرف معه معطفي الواقي الى الخارج .

استدرت على أحد جانبي وأدخلت يدي في جيبي باحثاً عن علبة شفرات الحلاقة ووقعت يدي عليها . ثم تذكرت يدي حاملة المشعل الملاطفتين المرتبتين . وللحظة قصيرة قاومتْ شفرات الحلاقة الخروج من جيبي . ثم ، اذ صارت في يدي ، جمعت كل خيوط النور وبدت حمراء ـ حمراء داكنة .

واصطخبت موجة كبيرة فدفعتني الى آخر المكان . وازدادت سرعة أمواج البحر وبدأت في صراع مع الماء لكي أنفذ الى الخارج . فتقلبت في الماء ودافعته بمنكبي وجاهدت ، وكان الماء يغمرني الى صدري ودفعتني الأمواج المتسارعة الى جدار البحر القديم .

كنت مضطراً للخروج فقد كان علي أن أعيد التعويذة الى مالكها الجديد .

وإلا فإن نوراً آخر كان حرياً بأن ينطفىء .

«تمت»

جون شتاينبك

نوبل ١٩٦٢

ولد شتاينبك بمدينة ساليناس (ولاية كاليفورنيا) في ٢٧ فبراير/ ١٩٠٢ . وتوفي في ٢٠ ديسمبر/ ١٩٦٨ .

درس في جامعة ستانفورد ، دون أن يحصل على شهادة منها . ومارس الصحافة الى جانب أعمال متنوعة .

تردد اسم شتاينبك في العالم خلال الأربعينات والخمسينات بوصفه النموذج الحي للأدب الأمريكي المعاصر . وتميزت روائعه بسعة الأفق والتسامح والبساطة .

صورت أعمال شتاينبك المقاومة الشجاعة للناس البسطاء للظلم والاستغلال خلال مرحلة الركود الاقتصادي . وجسدت شخصياته المبدعة النزعة الإنسانية الايجابية التي اكتسبت تعاطف القارئ ، وانسياقه وراء رؤاه الأخلاقية ، وتوثبه في الدفاع عن قضاياه العادلة .

نشر روايته الأولى « كأس من ذهب » عام ١٩٢٩ . بعدها نشر مجموعته القصصية «رياض الجنة» ، ثم روايته الثانية « إله غير معروف» .

كانت « سهل تورتيلا » وهي وصف لحياة جماعة من فلاحي كاليفورنيا ، فاتحة شهرته ومجده الأدبي ، وحققت انتشاراً واسعاً . وتعاقبت بعد ذلك أعماله الروائية « رجال وفئران » و« عناقيد الغضب »..

فاز بجائزة نوبل عام ١٩٦٢ .

ISBN => 2-84305-090-1
EAN => 9782843050909